الأمير

حمزة البهلوان

حمزة العرب



دار الكتب العلمية

الأمير
حمزة البهلوان

الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

يطلب من : دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان
هاتف : ٨٠١٣٣٢ ـ ٨٠٥٦٠٤ ـ ٨٠٠٨٤٢
ص.ب ٩٤٢٤-١١ ـ تلكس : NASHER 41245 Le

الأمير حمزة البهلوان

المعروف

بحمزة العرب

الجزء الأول

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم
الجـزء الأول
من قصة الأمير حمزة البهلوان

كانت دولة الفرس من الدول العظيمة في قديم الأيام ملكت زمنا طويلاً واتسع ملكها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وكانت العربَ تطيعها وتؤدي لها الجزية في كل عام يجمعها ملك العرب وهو النعمان بن المنذر بن النعمان أحد ملوك الحيرة ويرسلها إلى الملك الأكبر أي ملك الأعجام والديالمة وكان يقيم في المدائن اسم عاصمة المملكة وقد أطلق على كل ملك ملك على تخت هذه الممالك كسرى أنوشروان صاحب التاج والإيوان وذلك ان تاجه يجمع من كل أنواع الحجارة الكريمة الكبيرة القدر الغالية الثمن حتى ضرب بها المثل بين الناس منذ تلك الأيام إلى ما بعدها وكانت سائر ملوك الأرض تحسده عليه وتتمناه لها والإيوان كان عالياً جداً حتى قيل إن قنطرته مرتفعة ارتفاعاً لا ينطوي تحت دائرة العقل أي الغيم يلحق بها ومرات كثيرة ما يمر من تحتها وفي نصف هذه القنطرة حلقة من الذهب كبيرة ضخمة جداً بقيت بعد زمن الأكاسرة زماناً طويلاً معلقة بأعلى تلك القنطرة . وأما مذهب العجم كان في تلك الأيام المجوسية والنار فيعبدونها ويسجدون لها دون الواحد الجبار ويعيدون لها ويجتمعون عندها أثناء المواسم وتقديم الهدايا إلى المرازبة الموكلين بخدمتها والقائمين حولها يشعلونها على الدوام بالليل والنهار .
وكان الملك عليها في زمن روايتنا هذه أحد أولئك الأكاسرة وقد اشتهر بالحلم والرقة والدعة وعنده وزيران عاقلان أحدهما اسمه بزرجمهر وهذا كان يعبد الله تعالى وكان من الحكمة والتعقل والآداب على جانب عظيم يندر وجود مثله في زمانه أعطاه الله ما لم يعطه لغيره من أبناء جنسه الإنساني وقد سمى بهذا الاسم عدة وزراء لدولة الفرس . وثانيهما اسمه بختك بن قرقيش من أشراف البلاد وأعيانها محبوباً من الرعايا ورجال المملكة والملك . وكان كرسي الملك يجمع تسعمائة ألف نفس من العجم ما عدا الغرباء الذين كانوا على الدوام يتقاطرون إلى المدينة أفواجاً لعرض دعاويهم وأشغالهم للملك الأكبر وقيل إن ألفاً من الحجاب يقفون بين يديه مشهرين السيوف من حين وجوده في ديوانه إلى حين خروجه فيسير بين يديه غيرهم وعند وجوده بقصر منامته يحرس بابه ألف أيضاً وقيل أيضاً إن السرير الذي كان يجلس عليه في إيوانه من الذهب الإبريز الخالص يبلغ ثقله

عشرين قنطاراً وجميع ما حواليه من الكراسي المعدة لرجال دولته ووزرائه هو من الذهب أيضاً وبالاختصار أن الملك كسرى أنوشـروان كان أغنى ملوك العالم وكان يحب الرفعة والزخرفة والعظمة حتى وصل إلى درجة تفوق العقل الإنساني.

ففي أحد الأيام دخل سرير منامه وهو يفكر فيما وصلت إليه دولته وما ناله من الحكم وطاعة العباد له وبعد أن استغرق في نومه حلم حلماً قبيحاً استيقظ مرعوباً منه وخائفاً وأقام أكثر من ساعتين قلقاً مضطرباً إلى أن عادته سنة الكرى ثانية وما لبث أن رأى نفس الحلم وشاهد ما شاهده أولاً فاستيقظ ثانياً مضطرباً اضطراباً عظيماً أكثر من الأول ولم يعد يأخذه نوم قط وهو ينتظر قدوم النهار ليخرج إلى ديوانه ويتخلص من أوهام تلك الليلة وليعرض على وزيره بزرجمهر تفسير هذا الحلم لعلمه بما هو عليه من سعة المعارف والاطلاع على ظواهر الأمور وخفاياها فضلاً عن معرفته بلغات العالم أجمع وعند إتيان النهار وإشراق شمسه لامعة على الناس لبس ثيابه وخرج بموكبه حسب عادته غير أن الناس كانت تتعجب من خروجه في مثل هذا الوقت ولا أحد يعلم السبب وبقي سائراً إلى أن دخل الإيوان وجلس على سريره في صدره وبعث إلى حاشيته وبطانته من أهل المناصب والمراتب في ديوانه وجاء واحداً بعد واحد وعند وصول كل واحد منهم يسجد للملك ويرجع إلى كرسيه وما منهم من يجسر أن يسأل الملك عن حاله بل كانوا ينتظرون مجيء وزيره إلى أن وصل بختك بن قرقيش وبعد أن استقر إلى جانبه قال له أحيت النار سيدنا الملك وخدمته السعادة ورافقه الإقبال أفدنا عن حالك وأخبر بأمرك وما السبب لغيظك واضطرابك وكدرك الذي نراه يعلو وجهك مع أن البلاد بأمان واطمئنان وما من أحد لا من العمال ولا من المجاورين خرج علينا وصحتك جيدة قال اعلم أني رأيت حلماً كدرني وأقلقني وبقيت منه حتى هذه الساعة مضطرباً لا أرى راحة من نفسي وعلى هذا ثبت عندي أن لا بد لذلك من سبب عظيم وأني أحب أن أستفسر من وزيري بزرجمهر عن هذا الحلم وتعبيره قال بختك إن شاء سيدي الملك أخبرني بهذا الحلم وأطلعني عليه قال رأيت نفسي جالساً في إيواني هذا على سريري الخاص منفرداً عن حاشيتي أشعر بجوع عظيم وتضور جسيم وإذ قدم إلى مائدة من الذهب عليها صحن من العاج منقوش بالنقوش الفارسية وداخل الصحن المذكور وزة كبيرة مقلوة بالسمن تنبعث منها رائحة شهية تاقت إليها نفسي كل التوق وحركني جوعي إلى أن أتناول من تلك الوزة وأسد رمقي وإذا بكلب هائل المنظر قصير القوائم كبير الرأس مدلى الوبر إلى حد الأرض هجم علي ونبح في وكشر بأنيابه فجفلت منه ورجعت إلى الوراء وبعد ذلك تقدم من الوزة فأخذها في فمه وأراد الخروج من إيواني وأنا أتحرق وأتألم وأتململ والجوع يأخذ بي ويزيدني ضعفاً ولا أقدر على استخلاص طعامي من فم الكلب ومن ثم رأيت أسداً عظيماً قد دخل

من الباب قبل أن يخرج الكلب منه وحالما وصل إليه ضربه بيده ألقاه ميتاً وتناول الوزة من فمه وأعادها إلي دون أن يلحق بها ما أكره فاستيقظت بعد ذلك من نومي مرعوباً لا أعرف ما القصد من هذا المنام ولا بد من سبب له قال بختك لا يرهب سيدي من هذا المنام ولا يخاف فما هو إلا من قبيل الأوهام وقد يحدث كثيراً للأنام ومن المعلوم أن المرء يرى على الدوام مثل هذه الأحلام التي تحدث من قبيل الطعام أو من أسباب أخرى لكنها لا تكون ذات نتيجة ولا تدل على أمر قط يوجب اضطراب سيدي الملك وتكديره. قال كيف لا وقد رأيت الحلم مرتين بنفس المعنى والحالة ولو لم يكن له دليل قبيح لما تكرر ولما كنت أرى في داخلي كدراً عظيماً لا يدرك وأحب أن أطرده فلا أقدر كانت نفسي تحدثني بوقوع أمر يكون علينا في المستقبل وبالا وإني أعرف جيداً أن هذا الحلم لا يفكه ويعبره إلا بزرجمهر فهو خبير بعلوم العالم وتفاسير أغماضها ، وأما أنت فلا معرفة لك بمثل هذا الأمر .

وبينما الملك والوزير بختك يتخابران بذلك ورجال المملكة يسمعون ما كان من أمر الملك وإذا ببزرجمهر الوزير قد أقبل ودخل الديوان فوقف له الجميع اعتباراً واحتراماً وتلقاه كسرى بالترحاب وكأن هماً سقط عن قلبه بإتيانه وحال جلوس الوزير قال له الملك أنت تعلم أيها الوزير العاقل الحكيم أني اصطفيتك لي على سواك واتخذتك مدبراً لجميع أحوالي وفوضت إليك الرأي الأول وأطلقت لك الحرية في أمر العباد وما ذلك إلا لمعرفتي باخلاصك واعتقادي بأنك صادق القول لا تخفي عني شيئاً ولا ترضى إلا ما به صالحي وصالح بلادي ومملكتي . فقال له ما أنا إلا عبد مجبول بنعمتك مغروس بالتفاتكم وإكرامكم بما تريدونه وتأمرون به قال رأيت في الليلة الماضية حلماً هائلاً راعني جداً وألقاني باضطراب عظيم ولا أرتاح من هذه الحالة التي أنا واقع بها إلا إن أظهرت لي تفسير هذا الحلم وأخبرتني بنتاجه وما يكون منه . ثم إن كسرى أنوشروان قص على وزيره المنام الذي تقدم ذكره وقال له فسر تفسيراً واضحاً ولا تخف علي شيئاً قط وإني أشهد على الجميع صاغياً لك راضياً عنك مهما كان التفسير قبيحاً والعاقبة رديئة حيث نكون على بصيرة ونقدر أن نعرف الطريق التي تقينا إذا كان ضيق أو كدر أو قحط أو حروب أو ما شاء كل ذلك .

ولما سمع الوزير من الملك حلمه أمعن به وأطرق إلى الأرض برهة وهو يسأل الله توضيح الحقيقة وإظهار الخفايا وبعد أن بان له كل ما يدل عليه ذلك الحلم وعرف بمساعدة الله سبحانه وتعالى ما يكون على البلاد رفع رأسه فقال أعلم يا مولاي أن الله سبحانه وتعالى وهو الإله الذي أعبده يدير الكون بمعرفته ويدرب العباد بعنايته لا تأخذه سنة الكرى ولا يغفل قط عن أمر وقد سبق أن كلم أنبيائه وغيرهم في أيام بني إسرائيل

وملوك الفرس والماديين الذين تسلطوا عليهم بأحلام وأظهر لهم ما يريد وما يقصد قبل بزمان كي يعلم الإنسان عظم قدرته ومقدرته وما وصلت إليه ألوهيته ولذلك قصد في هذه المرة أن يظهر لكم ما سيكون على دولتكم وما يأتي عليها قبل بسنين وأعوام . فالمائدة التي رأيتها وقد قدمت إليك من الذهب الوهاج هي مدينتك وعاصمة ملكك هذه التي نقيم بها نحن والصحن والوزة التي عليه هما خزينتك وسريرك الجالس عليه الآن والكلب الذي اختطف الوزة هو فارس يظهر في حصن خيبر يطرق بلادك بالعساكر والأجناد والأسد الذي نظرته هو فارس يظهر في بلاد الحجاز عظيم القدر والشأن ومعنى هذا الحلم أن الفارس الخيبري يقصد بلادك بعساكر وأجناده فيدوخها ويتملكها ويحاصر هذه المدينة وبعد حروب بيننا وبينه يملك الكرسي ويطردك من بلادك ويملك عليها وبعد ذلك يأتي الفارس الذي أخبرتك عنه من برية الحجاز فيستخلص لك ملكك ويرجعك إلى سريرك ويقتل عدوك وهذا الذي رأيته وتبينته . وكان الوزير بزرجمهر قدر أي علاوة على ما تقدم فلم يقبل أن يخبر به الملك كسرى حرصاً على آرائه تعالى لأنه رأى أن الفرس قد أصبحت على شيخوخة الحياة وأن الفارس الذي يظهر من الحجاز يرفع نير الفرس عن العرب ويهدم معابد النيران ويقع بينه وبين الدولة الكسروية حروب قوية تفضي بها إلى الخراب والدمار وينشر دين الله وعبادته بين عبدة الأوثان وناكري الحق سبحانه وتعالى ولما سمع الملك كسرى من وزيره هذا الكلام وقع في ذهنه موقع التصديق وعرف من نفسه أن ذلك يمكن وقوعه لا بل يتأكد وقوعه ولذلك قال له هل يمكنك أن تعرف أيها الوزير العاقل إن كان الفارس العربي الذي أشرت إليه قد ظهر ووجد في الحجاز أو لم يظهر إلى عالم الوجود ، قال إن ذلك لا أعرفه يا سيدي ولم يظهر لي هذا وما عرفته أخبرتك به قال ألا تعرف في أي مكان من الحجاز يظهر هذا الرجل الذي بان لك أنه يخلص بلادي من الأعداء . قال نعم إنه يظهر في مكة وهي البلد الذي تأتي إليه العرب في كل عام قياماً بواجبات الزيارة .

فأمر كسرى في الحال أن تحضر الهدايا الثمينة من جواهر وذهب وأمتعة فارسية من كل ما غلا ثمناً وخف حملاً وعرضه على وزيره بزرجنهر وقال له أريد منك أن تذهب إلى مكة منذ اليوم وتنظر لي مقر هذا الفارس ومن من يولد وإذا كان ولد فأين وجوده فادفع هذه الهدايا إلى أبيه ودعه أن يربي الغلام على نفقتي ويعتني به ويخصه بدولة الفرس ويجعل له كل الأسباب النافعة لحياته تحت طاعته حتى إذا وصلنا إلى الزمان الذي أشرت إليه يكون في طاعتنا وتحت أمرنا فترسل إليه ونستدعيه حالاً . فأجاب الوزير أمر سيده وركب في نفس ذلك اليوم وأخذ معه الهدايا والتحف وسار قاصداً بلاد العرب ومعه جماعة من قوم الفرس يسيرون بخدمته وهو مسرور جداً بمسيره إلى مكة أولاً لزيارة بيت الله الحرام

وثانياً ليرى ويشاهد الذي دلت عليه الدلائل بأنه سيكون سعيداً جداً ويملك البلاد ويخلص العرب من ظلم الفرس ويدل الدولة الكسروية ويهدم معابد النيران ويصبح له شأن وأي شأن . وبقي الوزير سائراً حتى وصل إلى الحيرة فخرج لملاقاته الملك النعمان وترحب به مدة أيام وسأله عن سبب إتيانه فأخبره أنه يقصد مكة المكرمة وبعد أن قام ثلاثة أيام في ضيافة النعمان سار إلى مكة مع من معه حتى وصلها وإذا ذاك بعث رسولاً يخبر حاكمها وكان اسمه إبراهيم يخاف ويتقي جانبه عائش على التقوى والعبادة فلما سمع بقدوم بزرجمهر وزير الملك الأكبر خرج بجماعته إلى خارج المدينة ولاقاه بالترحيب والإكرام وهو لا يعرف الغاية التي جاء لأجلها وزاد له بالتعظيم والإكرام لعلمه أنه من رجال الله وعباده الاتقياء مشهور بالذكاء والآدابّ والمعارف وأنه أيضاً وزير الملك كسرى ملك العرب والعجم والترك والديلم ورجع إلى المدينة محمولاً على التأهل والاكرام ولما استقر به المقام وارتاح من اتعاب السفر وانتهت مدة الضيافة المعروفة عند العرب اجتمع الوزير بالأمير إبراهيم وقال له هل ان امرأتك حامل قال نعم نعم . وهي في الشهر الأخير . قال إني بإلهامه تعالى أتيت لأخبرك أنها تأتي بولد ذكر كأنه القمر يرتفع مقامه ويعلو شأنه ويخرج أشجع من كل من حمل القنا ونقل الحسام وركب الجواد . ثم إنه حكى له ما كان من كسرى أنوشروان صاحب التاج والايوان ففرح الأمير إبراهيم بهذه البشارة وسر منها جداً لا سيما عندما علم أن ولده هذا سيكون سبب خلاص العرب من العجم وسبب تدمير معابد النيران وقلع آثار الكفار .

وبقي الوزير بزرجمهر في المدينة المنورة نحواً من خمسة عشر يوماً وفي اليوم السادس عشر بينما كان مقيماً في ديوان الأمير إبراهيم بين عربه وقومه جاء المبشرون يبشرون الأمير بولادة زوجته وأن الذي ولدته ذكر فكاد يطير من الفرح حيث أن هذا الولد هو البكر وحيث أن سمع عنه قبل وجوده في عالم الوجود من الوزير بزرجمهر وكذلك الوزير فرح وعرف أن هذا الغلام هو الذي دلت عليه الدلائل ورآه كسرى في حلمه ولذلك خلع على المبشرين الخلَع السنية ومثله الأمير إبراهيم فإنه غمرهم بالعطاء وأطلق العبيد منهم وجعل زاده في ذلك اليوم شكر الله سبحانه وتعالى طول ذلك النهار وفي اليوم الثاني اجتمع في ديوانه وأقام الأفراح أهل قبيلته يهنئونه بالمولود وانتظروا الإتيان به إلى الديوان بحسب العادة المألوفة عندهم وهي أن يؤتى بالغلام إلى أبيه ويعرض عليه بين رجال قبيلته وقومه ليراه الجميع ولم يكن إلا القليل حتى جيء بالغلام محمولاً على أيدي العبيد وقدم إلى أبيه أولاً فأخذه ونظر في وجهه وقد تعجب من كبر جسمه وحسن طلعته وبهاء جبهته لأنه كان بديع الصورة جداً لا يوجد أجمل منه في رجال زمانه وبعد أن قبله قدمه للوزير بزرجمهر فأخذه وأمعن النظر في وجهه وجعل يسبح الله سبحانه وتعالى على ما يخلق وما يفعل وتأكد

كل التاكيد سعادة ذاك الغلام وحسن استقباله وثبت عنده أنه هو الأسد الذي رآه سيده في حلمه ثم التفت إلى الأمير إبراهيم وقال له أوصيك أيها الامير الكريم على مسمع من جميع رجال قومك بالاعتناء بهذا الغلام وبتربيته تربية جيدة وتهذيبه وتعليمه كل العلوم لأنه هو نفسه صا حب السيف والقلم والبند والعلم والذكر الحميد الذي يشتهر بين العرب والعجم واني ما أتيت هذه البلاد إلا لأجل رؤ يته والبحث عنه ليكون على اسم الدولة الكسروية فكل ما أتيت به من قبل الملك الأكبر هو على اسمه ولأجل نفقته فقال الأمير إن هذا ولدي وملزوم بالإعتناء به ولا سيما أنك أخبرتني بمستقبل حياته بما أعطيت من الحكمة والعلم والتقوى فسمه بالإسم الذي تريده قال ان اسمه حمزة .

وكان يعرف بزرجمهر أن ذاك اليوم يوم سعيد وان كل مولود يولد به يكون سعيداً فأمر أن يؤ تى بكل ذكر ولد في نفس ذاك اليوم في تلك المدينة إلى الديوان وبالقضاء والقدر والتدبيرات الإلهية كان ولد في اليوم نفسه ثمانمائة غلام ذكر فأتى بالجميع إلى بين يدي الوزير فجعل يسمي كل واحد باسمه ويدفع لأبية الأموال ليربيه على نفقة الملك كسرى ويكتب اسمه عنده ويوصي به حتى فرغ من الجميع وبالصدفة والعناية كان أحد عبيد الأمير إبراهيم متزوجاً بجارية سوداء وكانت حامل وهي في الشهر السابع أي لم يتم حملها بعد فلما رأى أن الوزير يدفع الأموال إلى آباء الأولاد لأجل أن يربوهم على نفقة الملك كسرى ويكتبوا من رجاله من ذلك اليوم لعب به الطمع وأخذه الحسد فركض إلى زوجته وقال لها إن الوزير يدفع الأموال إلى آباء الأولاد الذين يلدون اليوم فلدي الآن عساك تأتي بذكر فيكون لنا الخير العظيم فقالت له ليس الآن وقت ولادتي وكيف يمكن أن ألد اليوم والله لم يسمح بعد فحنق منها وأخذ دقر الباب وضربها به على ظهرها وهي تصيح وهو يضربها ويعذبها حتى سقط الولد وإذا هو ذكر أسود فأسرع في الحال وقطع سرته ولفه بخرقة عتيقة والدم يغطي كل جسده وأسرع إلى الوزير بزرجمهر وكان أحد جيرانه قد سبقه وأخبر الأمير إبراهيم بما وقع بينه وبين زوجته وكيف أنه تركها مغمى عليها ملوثة بالدماء معذبة بالأوجاع فلما وصل أمر الأمير إبراهيم أن يؤخذ الغلام منه ويضرب الضرب الوجيع وقال له ألا تخاف الله وتتقي جانبه كيف تفعل هذه الأفعال فأمر الوزير أن يقدم اليه الولد فقدم ونظر في وجهه متمعناً وفي الحال أمر أن يطلق العبد وقال للأمير إن ذلك من الله سبحانه وتعالى ليكتب هذا الغلام من رفاق ابنك حمزة ويكون له ساعداً قوياً عند ضيقاته ويخلصه على الدوام عند وقوعه في الشدائد والمصاعب فخذه وربه مع ابنك واعتن به كل الاعتناء فهو عصا ابنك يتوكأ عليها في حياته ويحتاجه في كل أوقاته وكان وجه هذا الغلام صغيراً مستديراً وأعينه صغيرة جداً مستديرة كأنها الثقوب ويديه ورجليه صغيرة دقيقة جداً أشبه بالخيطان لأنه لم يكن كامل البنية فأجاب الأمير طلب الوزير ودفع

الغلام إلى المراضع ليكون على الدوام مع ولده وقد سماه عمر وهو عمر العيار ويكون عيار الأمير حمزة كما يأتي معناه إن شاء الله .

وبعد أن انتهى الوزير من كل عمله ولم ير بعد من وجوب لإقامته في مكة المطهرة ركب بقومه وودع الأمير إبراهيم ورجال قبيلته وخرج من هناك قاصداً بلاده أي المدائن وبقي سائراً مدة أيام وقد مر على الحيرة ونزل ضيفاً على النعمان عدة أيام وقد أخبره بما كان له في مكة وعند وصوله إلى بلاد الأعجام دخل على الملك كسرى وبشره بكل خير وسعادة وتوفيق وحكى له عن النجاح الذي صادفه وقال إن وصولي إلى مكة قبل ولادة هذا المولود الذي نحن نقصد أن نتوصل إليه فأقمت إلى أن ولد ورأيته ورأيت ما أعطى من الله من الحسن البديع وما كتب على جبينه من الاقبال والسعادة وبعد أن رأيته قيدت اسمه من رجالك وتبعة دولتك وسميته حمزة العرب وأردت أن أكتب كل ذكر يولد في ذاك اليوم من رجالنا وإذا أنا بثمانمائة غلام ولدوا في نفس ذاك اليوم وهذا من عجائب الدهر أن يولد في مدينة صغيرة في يوم واحد ثمانمائة ذكر دون أن تولد أنثى واحدة فعرفت أن توفيق حمزة سبب ذلك ليكون أولئك المولودين من رجاله وأخصائه يركبون بين يديه ويسعدون بسعده . قال ففرح كسرى بما سمعه من وزيره وأنعم عليه مزيد الأنعام وشكره الشكر الجزيل على اهتمامه بأمر دولته ودفع المصائب عنها قبل بسنين وأعوام وأقام بعد ذلك مرتاح البال تتقلب عليه الليالي والأيام وشغل عما تقدم بما اعتاد عليه من البذخ واللهو وغير ذلك .

وأما ما كان من الأمير إبراهيم أمير مكة فإنه أقام على الاعتناء بولده وهو مسرور على الدوام بما سمعه من الوزير من أن ابنه يكون السبب في خلاص العرب من الأعجام ويعزز الدولة العربية ويبيد الدولة الكسروية وكان يعتني أيضاً بتربية عمراً بن العبد لعلمه أنه سيكون بخدمه ولده ونافعاً له كما أشار بزرجمهر إلى أن مضى على حمزة أربعة أعوام وكان الذي يراه يظنه أنه ابن عشرة أعوام لامتلاء جسمه وطول قامته ونمو الهيبة والوقار اللذين كانا يطفحان على الدوام فوق جبينه وعند تجاوزه سن الأربع سنوات دفعه إلى معلمين ومهذبين يتعلم العلوم ويتربى التربية الجدة الحسنة على التقوى أولاً وعبادة الله وثانياً على التهذيب وتعليم العلوم النافعة وأخذ في أن يندرج في العمر ويعي على نفسه يوماً بعد يوم وكلما تقدم بالعمر تقدم بالمعرفة والإدراك وعمر بن العبد كان لا يفارقه مطلقاً وهو يدعوه بأخيه.وقد أحبا بعضهما حباً عظيماً ولم يقدر أحدهما على مفارقة الآخر بل يبذل جهده لأجل مراضاته وراحته وكان عمر سريع الجري لدقة ساقيه وهزال جسمه وكان قوي العصب تولع من حين صغره بالركض والقفز من المحلات العالية حتى اعتاد عليها وصار آفة من آفات الزمان وما وصل سنه إلى العشرة أعوام حتى صار يحسب من أبرع

العيارين وأشدهم وقد تعلم رمي النبال حتى أصبحت نبلته لا تخطىء مطلقاً وكان يسطو على البساتين ويتعدى على الأولاد في الشوارع والأزقة والناس تشكوه إلى حمزة لكونه يبقى معه على الدوام وهو لا يلتفت إلى شكاويهم لصغر سنه وهم لا يخبرون بذلك الأمير إبراهيم خوفاً منه إلى أن كان ذات يوم فأتى بالقرب من بستان نظر داخله شجرة رمان كبيرة الثمر فأعجبته وقال لا بد أن آخذ لأخي حمزة منها وأقدم له من هذا الثمر لأنه لذيذ وحالما تصور في ذهنه هذا التصور ضرب رجليه بالأرض فارتفع إلى أعلى الحائط ووضع يديه عليه وقلب فجأة في الداخل كأنه العفريت غير ملتفت إلى صاحب البستان وركض الى شجرة الرمان فتسلقها وجعل يقطف من ثمرها ويضع في عبه وبينما هو على مثل ذلك وإذا بصاحب البستان قد وقف تحت الشجرة ورآه فوقها فصاح به وقال له ويلك يا عبد السوء إني في كل يوم أجيء لبستاني فأرى الأشجار مكسرة والأثمار منهوبة ولا أعرف من الذي يفعل ذلك حتى رأيتك الآن ولا بد من ضربك والانتقام منك على ضرري . فقال له إني ما أتيت بستانك إلا هذه المرة فقط . فقال له أتيت كثيراً فأنزل من الشجرة وإلا صعدت إليك ورميتك من أعلاها فقفز بأسرع من البرق من أعلى الشجرة إلى الأرض والرمان يملأ عبه وقبل أن يتمكن الرجل من الدنو منه أخذ قبضة رمل من الأرض وأحكمها إلى وجهه فوقعت في عينه حتى كادت تعميه وفر هارباً من أمامه ونجا بنفسه .

وبقي الرجل يتوقع ويتململ من فعل عمر وهو يتمنى أن يكون قد قبض عليه ليقتله وصرف أكثر من ساعة ينفض الرمل من عينيه ويغسلهما ولما صار يقدر على النظر إلى الطريق سار إلى ديوان الأمير إبراهيم ودخل عليه وهو على تلك الحالة وشكى الغلام عمر وما فعل معه وانه لم يكفه تكسير اشجاره وسرقة أثماره حتى رمى الرمل بعينيه فكاد يذهب ببصره فاغتاظ الأمير عند سماعه هذا الخبر وتكدر مزيد الكدر وأمر ان يؤتى بعمر في الحال فسار خلفه أحد العبيد وكان عمر قد وصل إلى أخيه حمزة ودفع اليه الرمان فقال له من أين هذا فحكى له قصته مع الرجل ولم يخف شيئاً فلم يسع حمزة إلا الضحك وأخيراً لامه على ذلك وقال له ان مال الناس محفوظ ، وليس من حقنا التعدي عليه وقد أوصيك مراراً بأن لا تتعدى على أحد فقال له إني أريد أن أطيعك لكني رأيت هذا الثمر الشهي فتاقت نفسي اطعمك منه وإذا لم أحضر لك منه لا يرتاح بالي ولا يطيعني قلبي وفي تلك الساعة وصل اليه رسول ابيه وقال له أن أباك أرسلني لأخذ عمر فعرف حمزة سبب ذلك وانه كان بطلب من الرجل صاحب البستان ولذلك نهض هو معه وسار وعمر بين يديه أيضاً الى أن دخل على أبيه وقبل يديه ثم تقدم عمر وأراد أن يقبل يديه أيضاً فمنعه وقال له كيف تتعدى على أموال الناس وتقرب مني ثم أمر العبيد أن يهجموا عليه ويلقوه إلى الأرض ويضربوه خمسين سوطاً فاحتاط به العبيد وحاولوا التمكن منه فلم يقدروا وهو

يدافع عن نفسه وقد صاح مستجيراً بأخيه حمزة . ففي الحال لعبت به النخوة وأخذته المروءة ولم يفكر بأبيه فانقض على العبيد وأخذ واحداً بين يديه ورفعه إلى فوق رأسه وضرب به الباقين فوقع على اثنين أماتهما ومات هو أيضاً . فلما رأى ذلك الأمير ابراهيم لعب به الغضب من فعل ابنه وتكدر مزيد الكدر وصاح به اتخرق حرمتي ولا تراعي جانبي فوعى حمزة على فعله وسكت ولم يجب بكلمة فأراد أباه أن يؤدبه فقام إليه السادات ومنعوه وسألوه فيه وهم يعجبون من عمله مع صغر سنه وتقدم حمزة من أبيه وسأله السماح وقال له إن الحدة قد فعلت بي ذلك وأنا أعلم أن عمر مظلوم بضربه لأنه لم يقصد سرقة الرمان إلا لأجلي وحكى له السبب الذي حمله على النزول إلى البستان وأنه كان في وسع الرجل بعد أن عرفه أن يسكت عنه لعلمه بأنه أخي ويأتي الي فأمنعه ثانية إلى البستان ولا سيما أنه قاصر وما على القاصر من حرج وفي الحال أصلح السادات أمر الرجل وارجعوه من الديوان واستعطفوا بخاطر الأمير على ولده وعمر فسمح عنهما وأرجعهما إلى مكان إقامتهما وأمر أن يدفن العبيد الثلاثة الذين ماتوا من حمزة فدفنوا .

وبعد ذلك بيوم أي في اليوم الثاني اتفق سادات المدينة وجاءوا إلى الأمير إبراهيم وسلموا عليه وجلسوا بين يديه وبعد ان استقر بهم الجلوس قالوا له أعلم أيها الأمير إننا نتذكر كلام الوزير بزرجمهر وما أشار إليه من أمر ابنك الأمير حمزة وقد ثبت عندنا ذلك بما رأيناه منه في الأمس فهو وإن كان لا يبلغ سن العشر سنوات فقد فعل فعلاً لا تفعله الجبابرة ولذلك ترانا الآن باتفاق وقد، جئنا إليك لنعرض عليك ذلك ونسألك أن تعلم ابنك فنون القتال وتعوده على ركوب الخيل لكي يتم ما سبق بارادته تعالى وقيل عنه وهو أنه يخلص العرب من العجم ويرفع عنهم ذلك النير الذي تحملوه زماناً طويلاً فقال لهم لقد أصبتم بذلك وإني كنت أفكر فيه على الدوام وأحب أن أبقيه إلى أن يبلغ سن الخامسة عشرة من العمر إلا ان ما فعله بالأمس كاف ليظهر لي قوته ووجوب تعليمه ثم أمر أن ينصب ميدان في خارج البلد من سادات القبيلة وفرسانها ويجيء إليه كل من أراد فخرج الكبير والصغير وذهب الجميع إلى هناك أي إلى الساحة التي عينها الأمير وبعد ذلك حضر حمزة ومعه عمر العيار ولما صار أمام أبيه قبل يديه وسأله ماذا تريد؟ قال له أعلم يا ولدي أن أعداءنا كثيرون ومن صفات العرب أن يتعلموا فنون القتال إذا ما مهنة لهم غير هذه ولاسيما رؤساء القبائل وساداتها لأنهم يلتزمون بالدفاع عن القبيلة لدى الغارة ومن كان أشد بأساً كان له على الدوام الفوز والنجاح ولذلك قد عينت هذا المكان يقام فيه كل يوم سوق طراد ولعب وفي قصدي أن تتعلم فنون الحرب وتتخرج بها عسى أن الله يرزقنا على يديك فرجاً ننتظره . فأظهر حمزة فرحة من أبيه وقال له هذا الذي أريده وطالما كانت نفسي تتوق إليه .

ثم أمير الأمير إبراهيم أن يقدم إلى ولده جواد من خيوله فقدم له وركب عليه وأطلق له العنان فكان على ظهره كقطعة من حديد وأخذت الفرسان تحتاط به من كل مكان وتركض أمامه بخيولها فيتأثرها ثم ينطلق امامها فتتأثره وهو كأنه الأسد الكاسر وصرفوا ذاك النهار على تلك الحالة واليوم الثاني إلى مدة شهر حتى تعلم كامل فنون اللعب على الخيل حتى كان ينزل إلى الأرض بأسرع من البرق ويعود إلى ظهر الجواد وهو غائر لا يقف قط ويختفي تحت بطنه وعنقه ويستتر به من كل جهاته وهو راكض ففاق بذلك على كل من يركب جواد ومن ثم انعكف يتعلم فنون السلاح والقتال بها وما مضت مدة إلا وأتقن كل ذلك وأصبح في أعلى درجة وبسالة لم يعد يصعب عليه باب من أبواب القتال وتعلم الجميع وأخيراً أمر الأمير إبراهيم ذات يوم أن ينصب ميدان يتألف من سائر فرسانه لامتحان ولده فاجتمع خلق كثير في ذاك الميدان من شبان وغلمان وشيوخ ونساء وبعضهم للفرحة وحينئذ أقبل الأمير حمزة وهو فوق جواده كأنه البرج الحصين ضارب على وجهه لثاماً لا يظهر من تحته إلا عيناه وهي تقدح كأنها الجمر وعلى رأسه خوذة من الحديد ومدجج بالسلاح من رأسه إلى وسطه ينقل رمحاً من الزان مستن الأسنان وسيفاً عريضاً يضرب على جنبه . وبين يديه عمر كأنه النار ذات الشرر يسبق بمسيره الخيول ولما وصل إلى ذاك الميدان تقدم من أبيه فقبل يديه وقال له إني أسألك أمراً يا أبي ولا أريد أن تمنعني عنه قال ماذا تريد قال أريد منك أن تأمر فرسانك وأبطالك بأجمعها لتكون في جهة واحدة وأكون أنا وحدي في الجهة الثانية فمن أصابته جريدتي خرج من الميدان ومن أصابتني جريدته كان له على حق التقدم وبعد أن يفرغ الجميع نعود إلى الضرب بالرماح فمن علمت عليه أو وصل رمحي إليه انعزل من الميدان فاستعظم الأمير إبراهيم هذا الطلب وقال له إن ذلك يغيظ قومنا وإنك لا تقدر على ما تقول ويصعب على كل أمير وفارس أن يقاتل وحده مئات مع أنك لم تقاتل قبل الآن ولاحنكتك الوقائع والأهوال . فقال إن قومنا إذا رأوا ما رأوا مني يسرون وسوف تنظر بعينك ما أفعل أمامك فأجابه أبوه إلى سؤاله وأمر أن ينفرد ابنه إلى جهة واحدة وجميع الفرسان إلى ثانية وهكذا كان ومامضت إلا دقائق قليلة حتى قام سوق اللعب ودار حذف الجريد وجعل الأمير حمزة يضرب بجريدته فيصيب بها الرجال وكلما رمى بجريدته وأصابت رجلاً ينخطف عمر فيلتقطها قبل أن تصل إلى الأرض ويعيدها إليه بأسرع من لمح البصر والفرسان تنحدر إليه من كل مكان وترميه بعصيها فيضيعها بمعرفته فتتخطاه ولا تصيبه وبقي على مثل ذلك وهو يصيب الرجال وعمر يقفز كالغزال ويدخل من تحت بطون الخيول ويسرع الجري من جهة إلى جهة لا يدع جريدة أخيه تلحق الأرض إلى أن صار نصف النهار وإذا به قد أصاب جميع الفرسان واعتزل الجميع من الميدان وقد أخذتهم الدهشة والإتبهات وكبر بأعينهم جداً وذهبت بهم

ذواهب العجب وحينئذ ألقى جريدته من يده وتناول رمحه فأقلع منه السنان وطلب براز الفرسان أن يبرز إليه الجميع بوقت واحد .

وكان أبوه قد اندهش مما شاهد منه ورعب قلبه فرحاً ولذلك أمر أن تنزل إليه الفرسان وتجيب طلبه فيما يريد فصاحوا وهجموا عليه من كل مكان فالتقاهم بثبات عزم وقوة وجنان وجعل يطعنهم برمحه فيصيبهم ويعزلهم من الميدان وما أحد منهم قدر أن يتمكن منه بضربة أو يصل إليه بطعنة لأنه كان ينحذف إلى الأرض ويقفز إلى ظهر الجواد بأسرع من البرق ويضيع طعن الرماح في الهواء وعمر يدور حواليه كاللولب ويسبق الجواد على الدوام أو يجعل خيول الفرسان وما انقضى النهار حتى كان فرغ من الجميع وإذ ذاك نزل عن جواده وتقدم من أبيه وقبل يديه فأخذه إلى صدره وقبله وهو يذرف دموع الفرح ويشكر الله على ما كان من ولده وتوسم فيه الخير وصح عنده ما كان قال له الوزير بزرجمهر ورجع من الميدان مسروراً فرحاناً ينتظر الزمان المناسب لاشهار ولده وانفاذ مقاصده وما بعثه الله لأجله وكذلك كل فرسان القبيلة من الكبير إلى الصغير فانهم أحبوا الأمير حمزة وتمنوا أن يكونوا على الدوام بين يديه وقالوا لبعضهم إن كان وهو ابن اثنتا عشرة سنة يفعل هذه الفعال فكم بالحري إذا بلغ مبالغ الرجال وكان الثمانمائة غلام الذين ولدوا يوم ولادته تعلموا الحرب والطعن والضرب بحسب ما كان أوصى الوزير آباءهم فحضر والميدانِ مع من حضر في ذاك اليوم وما منهم إلا من أحب أن يخدم الأمير حمزة ويتقرب منه ويحوز على رضاه .

ومن ذلك الحين أخذ الأمير حمزة يخرج للصيد والقنص مع عمر العيار ويتوسع في البراري والادغال وقد أخذه بذلك ولع عظيم حتى صار في كل يوم يخرج لا يتأخر يوماً واحداً وهو يأتي على الدوام بالوحوش والغزلان وكلما وقع في طريقه قتله وجاء به أو أمسكه للفرجة وعرضه على أبيه فاتفق ذات يوم أنه خرج وبين يديه أخوه عمر منطلق كالشهاب وأوسع في القفاز وبعد عن الديار لأن الوحوش كانت قد جفلت منه وبعدت والتجأت إلى الكهوف والمغائر وفيما هو على ذلك رأى أسداً رابضاً في تلك الناحية وأعينه تقدح شرار النار ولما رآه عمر قال لأخيه أرجع بنا ولا تعرض نفسك للخطر بالتقدم إلى الأمام وإلا هجم علينا الأسد وافترسنا فصاح فيه وقال له ويلك يا وجه القرد أتخاف من هر البرية وتريد أيضاً أن تخيفني منه فما الأسد لدي إلا كالأرانب التي أصطادها في كل يوم . ثم إنه نزل عن جواده وأخذ سيفه بيده وتقدم إلى جهة الأسد يطلب قتاله فلما رآه الأسد وقد جاء إليه مشهراً السيف لعب به الحنق فوثب واقفاً وقد هر هريراً قوياً وكشر بأنيابه ولاح بذنبه ونفخ بأنفه وانقض على الأمير حمزة وفي نيته أن يفترسه ويجعله قوته في ذاك اليوم فلم يمكنه من ذلك ولا ترك له مجالاً لنوال غايته أو للتوصل منه بل أسرع إليه

بضربة حسام وقعت على أم رأسه شقته إلى كتفه فوقع إلى الأرض قتيلاً يختبط بدمه وبعد ذلك دنا منه وكان يسمع أن من يأكل قلب السبع يقسو قلبه فيصير كقلبه ولذلك شقه إلى بطنه وبرك يأكل من قلبه وعمر ينظر ويتعجب وتقدم فأطعمه من لحم الأسد وقال له كل منه يشتد قلبك ويقسو فقال له والله العظيم إن عملك هذا يستحق الفخر لأنه يندر من يقتل أسداً أو يجسر أن يقف أمام الأسد من بني الإنسان. ثم تقدم بعد ذلك وأخذ يأكل من جسمه ومن قلبه مع حمزة حتى امتلأ بطناهما وشبعا ومن ثم رجعا إلى جهة المدينة وفيما هما على الطريق قال حمزة لعمر إذا وصلت المدينة لا تخبر قومنا بقتل الأسد لئلا يضحكوا علينا ويظنوا بأني أباهي بقتل كلاب البر وذلك عار عند العرب فوعده عمر بأن لا يخبر أحداً بذلك. ولما وصلوا إلى المدينة جعل عمر يخبر من رآه أن أخاه قتل أسداً في المكان الفلاني والناس تتعجب منه ومن عمله ولم يهن على حمزة ذلك فلام عمر عليه فقال له أن مثل هذا الأمر لا يمكن أخفاؤه. ووصل الخبر إلى الأمير إبراهيم فاستدعى ولده وعمر وسألهما عن قتل الأسد فحكى له عمر كل ما وقع لهما في البرية فتعجب من ذلك ولام حمزة وقال له لاعدت تخرج إلى البرية خوفاً من أن تلتقي ذات مرة بأسد لا تقدر عليه أو تقع في تهلكة أخرى فقال له سادات قومه لا تخف عليه أيها الأمير فإن الله أعطاه هذه البسالة والشجاعة ليس فقط لروح الإنسان بل لكل طاغ وباغ ولو لم يكن الله يقصد هلاك هذا الأسد لما بعث إليه بأبنك ولاسيما ان الله وعده بطول العمر وبالفوز على الاعداء كما أشار في قديم الأيام الوزير بزرجمهر أي أنه يكبح دولة الفرس ويخلص العرب من هذا النير الثقيل الذي حملناه زماناً طويلاً فعرف الأمير صدق قولهم وتأكد أن أبنه يبقى إلى زمان طويل بمساعدة الله تعالى ويكون له الأسم الأول في أيامه.

وبقي الأمير حمزة يخرج إلى الصيد مع عمر في كل يوم لأنه كان كما تقدم تولع به وصار لا يقدر أن يرجع عن هذه المهنة قط لشدة ولوعه فذهب ذات يوم مع أخيه عمر وسارا في طريق غير الطريق الذي كانا يسيران فيه قبلا وبعد أن بعدا به وقد حمى البر واشتد الحر طلباً الماء لشدة العطش فلم يريا قط عين ماء ولا نبعاً يسيل منه الماء وطافا في كل الجهات فلم يقدرا حتى اشتد العطش على الأمير حمزة وكادت تفقع مرارته فصاح بعمر وقال له ويلك من أين نجد الماء الآن فإني هالك لا محالة ولا طاقة لي على الصبر فإني أشعر أن بجوفي لهيب نار وهو كالاسفنجة فنقطة ماء تحييني فقال له إني أجيئك بالماء بعد قليل فاذهب أنت إلى تحت شجرة واستتر بظلها من حر الشمس وانتظرني إلى أن أعود إليك بالماء ثم إنه أطلق ساقيه للريح وبأسرع من البرق غاب عن العيان وسار حمزة إلى تحت شجرة كبيرة هناك وقبل أن يصل إليها لاح له فارس عن بعد يتقدم إلى جهة وهو راكب فوق جواد أبيض كالثلج وتحته قربة من الماء فتاقت نفسه إلى شربة ماء فسار إلى

جهة الفارس وفي نيته أن يطلب منه الماء فإذا امتنع أخذ بالغصب عنه وعند وصوله إليه وجده بلحية بيضاء كالثلج يتدفق منها النور وعليه من الهيبة والوقار والعظمة والجلال مالم يره في غيره من البشر ومع أنه أخذ بذلك المنظر المهيب لم يتأخر عن طلب الماء لإحياء نفسه فصاح بذلك الفارس وقال له إني عطشان وأريد شربة ماء إما بالرضا وإما بالغصب فأجابه الفارس برواق وهدوء وفصاحة لسان وعذوبة كلام وقال له قف مكانك فهذا الماء هو لك واعرف من أمامك فزاد إعجابه مما سمع ولم يجسر أن يتحرك من مكانه ولا سيما عند سماعه أن هذا الماء هو لك . فقال يا سيدي من أنت ومن اين عرفت أني عطشان حتى جئتني بالماء قال له أعلم أني أنا الخضر الأخضر أبو العباس عليه السلام أعرف ما حدث وما يحدث فاقترب أولاً من هذه القربة وأشرب فماؤها لذيد جداً وبعد أن تروي عطشك أحدثك بحديث ذي شأن جئتك لأخبرك به الآن فارتاح حمزة عند سماعه أن الذي يكلمه هو الإمام الأعظم فأطاع قوله ونزل عن جواده وتقدم فشرب من القربة واكتفى ورجع إلى الوراء ووقف بأدب وقال له اسمح لي عما صدر مني وكن ساعدي ومعيني وغوثي عند ضيقتي فقال له إني مجيبك بإذن الله سبحانه وتعالى على الدوام وقد أتيتك الآن لأخبرك أنك أنت الذي هو الرجل الذي يرتفع به شأن العرب في هذه الأيام ويتخلصون من مظالم الفرس على يديك وتذل الدولة الكسروية إلى آخر الأيام لأن الله لا يحب أن تذل هذه الأمة لمقاصد له فيها وسوف يعززها ويكرمها ويرفع مقامها فيما يأتي بعدي من الأيام لكن في البداية تكون معيناً لكسرى وترفع عنه الشدة . ثم إن الخضر حكى لحمزة عن حلم كسرى وما يكون منه وكيف يخرج عليه فارس خيبري يتسلط على بلاده فيأتي ويخلص له البلاد منه ويعيده إلى كرسي ملكه .

وبعد أن أخبره بكل ما يكون له في حياته قال له ارجع الآن إلى أبيك واطلب منه أن يسلمك الذين ولدوا يوم ولادتك وهم ثمانمائة غلام فاجعلهم رجالك الأخصاء واعتني بهم وعلمهم بنفسك كل فنون الحرب التي تنقصهم واجعل قيامهم وقعودهم بين يديك فهم وجدوا لأجل هذه الغاية وإذا غزوت قبيلة عاصية أو قاتلت ملكاً على غير دين الله فيكونون رفاقك . وأخذ الخضر يزيد له في حال حياته وحمزة مطرق إلى الأرض إلى أن فرغ فأراد حمزة أن يقبل يديه ويدنو منه فغاب عن عينيه ولم يعد له أثر وضاعت رائحة البخور من بعده بما يشرح الصدر وبقي حمزة مبهوتاً واقفاً فرح من نفسه وبينما هو كذلك وإذا بأخيه عمر قد أقبل يركض حاملاً وعاء ماء على عاتقه فوجده على تلك الحالة فظنه يفعل ذلك من العطش فدفع إليه الماء وقال له خذ واشرب وارو عطشك فقال له لا حاجة لي بعد للماء فإن الله بعث لي ماء لذيداً كل من يشرب منه لا يعطش إلى الأبد قال من أين لك الماء وأنت باق مكانك لا تخطو خطوة واحدة فحكى له ما كان بينه وبين الخضر عليه

السلام وكيف حضر عليه وسقاه الماء فتعجب عمر من ذلك واندهش وقال إن كان هذا الغوث وعدك بالمساعدة فانك لا تخش مكدراً فهو قادر على إغاثتك ومعونتك في كل حياتك .

ثم إنهما رجعا إلى المدينة وقلباهما مرعبان فرحا ومسرة وانتبه حمزة إلى نفسه أكثر فأكثر وعمد إلى ترك الصيد والاعتناء بالذين أخبره عنهم الخضر أن يتخذهم خلصاء له وعند دخوله إلى المدينة جاء إلى أبيه وهو في ديوانه وطلب إليه أن يسلمه الثمانمائة غلام الذين ولدوا يوم ولادته ليكونوا عنده فسأله أبوه عن السبب فأعاد عليه القصة بتمامها من الأول إلى الآخر وما دار بينه وبين الإمام الاعظم وكيف وعده بالمساعدة والإغاثة فزاد فرح أبيه به وتعجب من محبة الله سبحانه وتعالى لولده ولرجاله وكيف يريد أن يجعل الفرج للعرب على أيديهم وردع ملوك الفرس وغيره من كبار ملوك العالم بواسطة ولده هذا الحقير الذي لا يجمع تحت رايته إلا شرذمة قليلة وفي الحال أحضر الشبان المذكورين وكانوا لا يزالون مردان أي لم ينبت الشعر قط بوجوههم ودفعهم إليه فأخذهم إلى خاصته وعقد لنفسه عليهم وجعل يمتحنهم في ميدان الحرب والطعان ويدربهم على الثبات ومن كان منهم ناقص المعرفة أثناء القتال مال إليه وعلمه ما يحتاجه حتى خرج الجميع أبطالاً أشداء ورأى عمر فعل أخيه حمزة وكيف أنه يجاريه بذلك فانتخب لنفسه هو أيضاً أربعين غلاماً وجعل يعلمهم العيارة والزندقة وأبواب الحيل والخداع وضرب النبال وكل ما هو من هذا الباب ومن ذلك الحين بدأ الأمير حمزة أن يقصد القبائل وينزل على الغدران والمناهل فمن تعرض له أو طمع به قتله وسبى قومه ونهب رجاله حتى انتشر صيته وطار بين العرب وانتقل من مكان إلى مكان فصار إذا ركب وسار وحده في البراري وصادفه عشرة آلاف فارس يعرضون عنه ولا يتعرضون له إذا عرفوه وتأكدوا أنه الأمير حمزة بن الأمير إبراهيم خوفاً من سطوته وبأسه وعلما منهم أنه من أشراف العرب وسادتهم أصحاب البيت الحرام .

ففي ذات يوم خرج على حسب عوائده وطرق رجال قبيلة من قبائل العرب كانت قد تعدت على بعض قومه يقال لهم بنو الأجدل فغار عليهم ونهب القبيلة برمتها وأخذ ما وصلت إليه يده من النوق والأغنام وعاد كاسباً منصوراً بعد غيابه عن مكة عدة أيام وحالما وصل إلى ضواحيها وجد خياماً مضروبة هناك وعند جماعة من الجند يظهر أن بعضهم من العرب وبعضهم من العجم فأرسل أخاه عمر في الحال أن يكتشف له خبرهم وما الداعي لنزولهم في ذلك المكان فانطلق عمر إليهم وعاد في الحال وقال له إن سكان هذه الخيام هم من العرب والأعجام وقد جاءوا حسب العادة لأجل أن يجبوا الأموال ويرفعوها إلى كسرى فالعرب من جماعة النعمان بن المنذر والأعجام هم من جماعة كسرى أنو شروان قال الأمير حمزة أني اسمع بذلك على الدوام وأعجب كيف أن الأعجام

يجسرون على المجيء إلى بلاد العرب والعرب هم أشد بأساً وأقوى مراساً معتادون على الحروب وملاقاة الأهوال بخلاف الأعجام اصحاب البذخ واللهو والزينة فما هم إلا أشبه بالنساء صفة وقلباً فقال عمر أعلم أن العجم كثيرو العدد أكثر من العرب وكلهم يجتمعون إلى ملك واحد لا تتفرق كلمتهم ولا يقوم منهم قوم على قوم ولا قبيلة على قبيلة كما تفعل العرب الذين دأبهم علىَ الدوام التفرق فيغيرون على بعضهم ومن ذلك لا تقوم لهم قائمة لا سيما وأن ملكهم النعمان منقاد لأمر أنوشروان متفق معه على دينه فقال حمزة وما دين النعمان ملك العرب قال كان من عباد الله ولا يزال إنما يجاري الأعجام فيكرم النار ويقدم لها مزيد الاعتبار فلما سمع الأمير حمزة كلام عمر لعب به الغيظ والغضب وقال لأخيه هيا بنا نكبس هؤلاء الاعراب والأعجام ونوقع بهم ويمنعهم مرة ثانية أن يعودوا إلى الإتيان إلينا ويخطر لهم أن يجبوا مالاً منا لأننا أحرار لا نقبل الإذلال وتأنف أنفسنا إلا الطاعة لله سبحانه وتعالى وإذا غاظ عملي هذا كسرى ملك الأعجام أو النعمان ملك العربان سرت اليهما وقتلتهما وخربت بلادهما ولا أخشى بأس أحد فأجاب عمر سؤاله وفي الحال هجم على الخيام المقيمة فيها الأعجام وأوقع السيف فيمن هناك وكانوا آمنين من طوارق الحدثان لا يخطر بفكرهم عملاً مثل هذا العمل حتى رأوا الأمير حمزة وقد انحط عليهم بجماعته وأخذ يقتل ويذبح فيهم وقد أعمى بصائرهم فاضطربوا وارتاعوا ونهضوا إلى خيولهم وهم يودون النجاة والخلاص وكان الفائز منهم من قدر أن يصل إلى جواده ويركبه فارا بنفسه من وجه الأمير حمزة ودام ذلك إلى الليل ومن ثم رجع الأمير حمزة بعد أن قتل فيهم مقتلة غظيمة والباقون طلبوا الفرار وبعدوا عن تلك الديار ثم إنه جمع الأسلاب . . والخيول والخيام وكل الأموال التي كانت فيها وقد جمعت من العرب لترسل إلى كسرى ودخل المدينة فرحاناً بعمله وبكثرة الأموال التي اغتنمها ثم إنه أعطى منها لجماعته كل واحد نصيبه وأخذ هو الباقي أبقاه عنده وبلغ الخبر الأمير ابراهيم وسادات مكة ما كان من أمر حمزة فاغتاظوا وحسبوا حساب النعمان والملك كسرى وقالوا لابد من أنهما يبعثا إلينا بالعساكر والرجال بسبب ما كان منا على رجالهما. ثم إن الأمير إبراهيم دعا بولده ولامه على ما فعله وقال له لا ريب أنك جلبت إلينا شراً عظيماً ورميتنا بويل وأي ويل وعندي أن من الأوفق أن أبعثك إلى النعمان تعتذر إليه وترجع أموال كسرى وتزيدها ترضية له واظهر له جهل قومه وأنكم ما عرفتموهم قط : فقال حمزة إني أعجب منك يا أبي كيف أن الخوف يتسلط عليك ويضعف لك قلبك أتدفع الجزية وعندك رجال وأبطال وابنك حمزة لا يخاف أحداً في هذه الدنيا وإني غير مكتف بما فعلت وقد أقسمت الاقسام العظيمة أني لابد من أن أسير إلى الملك النعمان وأخرب الحيرة وأذبحه ذبح الأغنام كيف أنه يطيع للأعجام ويترك عبادة الله ويعبد الأصنام والنار المحرقة مع أنه عربي ومن الواجب عليه أن يكون مع العرب ويسحبها كلها على الأعجام ليقلع

منهم الآثار ويمنع أبناء جنسه من الذل ودفع الجزية لقوم لا يفرقون بين الحلال والحرام وبعد أن أفعل ما أفعله في الملك النعمان أسير إلى المدائن وأخرب الإيوان على رأس كسرى أنوشروان وأهدم معابد النيران وادع الجميع أذلاء بسيفي مطيعين لامري عابدين لله سبحانه وتعالى فقال أبوه يا ولدي إنك تتكلم عن جهل وعدم معرفة أتظن الملك النعمان قليل الانصار والأعوان الا تعلم أنه مـلك ملوك العرب وصاحب الراية الكبرى بينهم أو بالحرى لا تعلم ما هو كسرى أنو شروان أو تظنه من بعض رؤساء القبائل الذين تقصدهم وتقاتلهم وتسلب منهم أموالهم وليس عندهم من الرجال إلا خمسمائة أو ألف رجل على الأكثر فعي إلى نفسك وأعلم ان الملك كسرى أكبر ملوك هذا الزمان يملك ما لا يعلمه غير الله سبحانه وتعالى ومن المقرر أن عدد عساكره لا ينقص عن الكرات والملايين فمن نحن ومن منا يذكر لدى ذكر الملك كسرى فالتبصر بالعواقب أفضل لنا وملاقاة أمرنا قبل الوقوع بورطة وبيلة خير من أن نقع بعظائم الامور فقال له حمزة أن ما فعلته لا أندم عليه قط وما قلته من مسيري إلى الملك النعمان وإجباره على ترك عبادة النيران لابد منه فلا تطمع نفسك برجوعي عن عملي فاجلس أنت تحتك وكن براحة فإذا سئلت فقل ابني حمزة فعل ما فعل ودعهم يأتون إلي ويرون ما يسرهم مني فلما رأى سـادات مكـة أصرار حمزة على قوله وشاهدوا غيظ أبيه منه قالوا له أعلم أيها الأمير أن ابنك هو من رجال كسرى وكذلك الذين معه وهم لا يعيشون على حسابه فإذا سئلت عما كان من هذا الأمر وكيف أوقع بجماعة الملوك فقل لهم إن هذا لا علم لي به وإن الذي فعله قومكم ولا ريب أن كسرى يسامح حمزة على فعله لعلمه أنه بحاجة إليه كما أخبره بزرجمهر ولا يرضى بقصاصه إلى أن ينفذ المقدر فاترك ابنك على زعمه فعسى أن الله قصد إنفاذ غاياته وخلاصنا من الذل كما أخبر وزير كسرى انوشروان. فسكت عند ذلك الأمير إبراهيم وسأل الله نهاية الحال على أتم منوال وبات ينتظر ما يكون من أمر الاعجام والملك النعمان عند وصول الاخبار اليهما بما وقع من حمزة على قومهما ومالهما .

وأما الأمير حمزة فإنه بقي مصراً على عزمه بالمسير إلى الحيرة ومحاربة الملك النعمان وإرجاعه عن عبادة النار إلى عبادة الديان وأعلم بذلك قومه وقال لهم كونوا على استعداد لنرحل بعد قليل من الأيام فأجابوا سؤاله وقالوا نحن لك وبين يديك فأين سرت بنا سرنا ومن قتلت بنا قاتلنا ولا نبخل بأرواحنا عليك قط فشكرهم على ذلك وأقام مدة سبعة أيام وفي اليوم الثامن من ركب على مثل هذه النية فجاء إليه أبوه وسادات قومه وجعلوا ينصحونه ويلومونه على فعله ويحذرونه من شر عمله ورداءة عاقبته وهو يصر ويمتنع إلا السفر إلى الحيرة وإتمام ما عزم عليه. ورأى ابوه منه المكابرة فلم يقدر على ردعه فسلمه لله ودعا له بالنجاح وفي ظنه أنه لا يحصل على النجاح التام ولابد من أن الملك

النعمان يقبض عليه ويجازيه على عمله وركب حمزة وخرج من مكة المطهرة وركب لركوبه سائر رجاله وهم الثمانمائة فارس كلهم شبان مردان من سنه وسار بين يد عمر العيار كأنه عفريت من عفاريت السيد سليمان ينطلق في ذاك البر فيغيب عن الأبصار ثم يعود بأسرع من هبوب الرياح إلى أن بعدوا عن تلك البلاد وتبطنوا البراري والقفار والسهول والأوعار والأمير حمزة يتمنى أن يصل إلى الحيرة ليدهمها بغتة ويوقع فيها ولا يمسك إلا الملك النعمان مسك الأيدي ويجازيه على فعله وفيما هو سائر على تلك الحالة وإذا بأخيه عمر قد جاء إليه وقال له عرج بنا يا أخي عن هذه الطريق ولا ترم بنفسك إلى الخطر فأني رأيت أسداً هائل المنظر كبير الجثة لا اظن انه يوجد اعظم منه قد انحدر من الجبل ووقف في الطريق يمنع مرورنا وأخاف أن لا تصادف معه نجاحاً فيفترسك ونقع نحن من بعدك باليأس. فقال له ويلك يا عمر أتحب أن تمتحني بهذا الكلام أو تخوفني فيه أما رأيت فعلي بالأسد قبل اليوم وأنت تعلم أنه لو اجتمعت إلي ألوف من الآساد وقصدت افتراسي لما مكنت واحداً منها من نفسي بل كنت أهلكتها عن بكرة أبيها فما الأسود عندي إلا أشبه بهررة البرية وسوف ترى بعينيك ما يكون من هذا الأسد الذي أشرت إليه وحكيت عنه وبقي الأمير حمزة سائراً على طريقه إلى أن التقى بالأسد وهو رابض في نصف الطريق وأعينه تقدح كمشاهيب نار ولما رأى الأمير وقد أقبل في الأول وقف على قوائمه ورفع بذنبه إلى أعلى ظهره ثم ضرب به على جانبيه وكشر على أنيابه وأخرج أظافره وفي عزمه أن ينحط على الأمير فيضربه بيديه يسحقه تحتها ثم ينهشه ويأكل لحمه ويمرمش عظمه غير أن الأمير كان يتقدم إليه بتأن وثبات وقد نزل عن الجواد ومشى على الأرض وبيده الحسام والأسد صابر عليه إلى أن قرب منه وصار بجانبه وإذا الأسد قد بعث بصوت قوي جفلت منه الخيول وارتاعت الفرسان وانحط دفعة واحدة على الأمير حمزة فأجابه بصوت أشد من صوته وأسرع بضربة حسام على رأس الأسد ضربة صادرة من يد بطل أبطال ذاك الزمان فوقعت بين عيني الأسد شقت رأسه إلى نصفين وشطرته إلى شطرين فوقع الأسد إلى الأرض قتيلاً في الحال وقد تعجب رجاله من فعله وما أبداه في قتال الأسد وكيف إنه قتله بضربة واحدة وزاد حبهم له وولوعهم به وأراد الأمير أن يتقدم من الأسد وينزع قلبه ويأكله وإذا به سمع صوتاً عن بعد فمال بنظرة وإذا به يرى فارساً منحدراً من الجبل وهو يسرع إلى نحوه فصبر عليه إلى أن قرب منه ووصل إليه فرآه من الفرسان وتحته جواد من الخيول الحسان متقلداً بسائر أنواع السلاح . فقال له ما تريد ولأي سبب جئت . قال جئت لانتقم منك واعجل من هذه الدنيا مر نحلك حيث قد قتلت أنيسي ورفيقي ومن ألفت عليه زماناًطويـــلاً ثم أنه صدمه صدمة قوية فالتقاه الأمير حمزة بهمة وحمية وأخذ في القتال والاتساع بالمجال. وسلوك طريق الاهوال. وهما يتطاعنان بالرماح الطوال

ويتضاربان بالسيوف الصقال ويهمهمان كأسود الدحال وداما على مثل تلك الحال مقدار ساعة من الزمان وفرسان مكة تنظر وترى وإذا بها قد رأت فارس الجبل قد قام في ركابه وضرب الأمير حمزة ضربة بحسامه ضيعها بمعرفته وشدة خبرته وبعد ذلك أخذه الغيظ والحنق فصاح بصوت ارتجت منه تلك السهول والوديان وقد ضايق خصمه ولاصقه ومد يده إلى جلباب درعه واقتلعه من بحر سرجه وأصبح بيده كالعصفور واراد أن يضرب به الأرض فصاح مستجيراً به وطلب منه الأمان وأن يعفو عنه فشق عليه وألقاه بتأن إلى الأرض وقال له ويلك احك لي قصتك وما سبب سكناك في هذه البرية وكيف يكون الأسد رفيقك وأنيسك مع إني لم أسمع قط إن الإنسان يألف الأسود ويقيم معها في البراري والكهوف ويترك معاشرة أبناء جنسه ورجال قومه .

فقال الفارس اعلم إني ما تركت الناس إلا لأمر عظيم وطلبت نفسي البعد عن الناس والانفراد بين الوهاد وذلك أني من رجال الحيرة ومن قوم الملك النعمان وكان لي عنده مقام وعلو شأن أخدمه كباقي الفرسان وأنا عائش بنعمة ورضاء لا أهتم بأمر قط إلى أن علقت بحب بنته وطلبت نفسي زواجها وهي بنت جميلة المنظر بديعة الجمال قد اعتادت ركوب الخيل والغارات في النهار والليل ولذلك قد دعاها بالقناصة حيث كان يندر وجود مثلها من أبناء جنسها ومع ما هي عليه من الصفات الحسنة كانت كاذبة خادعة وكنت أتمنى رضاها وأرغب في كل ما يمكني من خدمتها وأنا أكتم أمري عنها وعن أبيها انتظر الزمان المناسب إلى أن كان ذات يوم ونحن قائمون في المدينة وإذا بأحد الفرسان قد جاء إلى الملك النعمان وأخبره أنه رأى العساكر والفرسان في خارج المدينة وهي بعدد الجراد المنتشر فاضطربنا جميعاً ولم نعلم ما السبب وبينما نحن كذلك وإذا برسول قد دخل على الملك النعمان يحمل كتاباً فدفعه إليه وبعد أن قرأه قال اعلموا أن هذا الكتاب من الأمير غشام أحد أمراء العراق وهو بطل من الأبطال لا يوجد له قرين في هذا الزمان وقد ذكر لي أنه سمع أن لي بنت اسمها القناصة فجاء يطلبها وهو يخطبها مني ويذكر لي إن امتنعت ولم أجب سؤاله أخذها بالرغم عني أي بقوة السيف والسنان فما قولكم في ذلك فقالوا له اسأل بنتك أولاً فإذا قبلت به أعطيناه إياها وإذا امتنعت دافعنا وأرجعنا هذا الأمير بالخيبة أو اننا طاولناه لبينما نكاتب العرب ونجمع العساكر وكانت رجال النعمان تتكلم بذلك وأنا ضائع العقل فاقد الحيل من أن يتم ما قالوه وترضى القناصة بالأمير غشام فالتزم أن أموت شوقاً ووجداً وهياماً . وفي الحال دعاها أبوها إليه فحضرت وهي أشبه بالغزال الشارد تحجل بخلخالها ملثمة بلثام لا يبان منها غير عينيها فلما رأيتها كدت أقع إلى الأرض وجعل قلبي يخفق هلعاً واشتد بي حبها اشتداداً عظيماً وأنا لا أعرف ماذا تجيب وكنت انتظر أنها إن أجابت بالقبول أقتل ذاتي في الحال وأريح نفسي من عذاب

البعد عنها ولم يكن في وسعي أن أطلبها من أبيها زوجة ولا يمكنني ذلك إلا إذا ساعدتني الأيام ورفعت من شأني أو رضيت هي بي ووافقتني على ما أنا به .

ولما سألها أبوها عن الأمير غشام وأخبرها بغايته قالت له أني لا أرضى به مطلقاً كونه جاء متهدداً وفي ظنه أنه يقبض القناصة ويذلها وأني أقسم بحياتك أن لا بد لي أن ألقاه في وسط الميدان فأما أن يأخذني رغماً عني ويجبرني إلى أن أكون له زوجة بالغصب لا بالرضى وأما أني أقتله وأرجع قومه بالخيبة ولا أكون عرضة لتهديده ويكون أبي الملك النعمان ملك العرب وعامل ملك كسرى أنو شروان ونخاف الأمير غشام وقومه فسرني ما سمعته منها وقلت في نفسي إنها أصابت وإن الدهر سيساعدني في هذه المرة فإذا لم تقتل الأمير غشام قتلته أنا وأخذتها بخاطرها ورضاها وأكون قد فعلت جميلاً معها ومع أبيها ويعرف أني كفؤ لها . فقال النعمان لبنته إني أعرف أنك لست من رجاله فهو آفة من الآفات قد انتشر صيته في كل الجهات وخافته الأبطال والسادات ولا سيما أن رجالنا غير مجتمعين وليس عندنا من العساكر ما يكفي للدفاع ومن الصواب وعده ومما طلبته إلي أن نكاتب العرب فتأتينا الفرسان من كل مكان وإذا ذاك نخاصمه وندفعه عنا . قالت إن الأمر لا يحتاج إلى كل ما تقول وإني أعرف من نفسي أني قادرة عليه ومع ذلك فاكتب إليه أن يلتقيني غداً في الميدان فإذا أسرني له الحق بأن يأخذني زوجة وإذا أسرته رجع بالخيبة وتركني وأخبره أن ابنتي آلت على نفسها أن لا تتزوج إلا بمن يقدر عليها في وسط الميدان ويأسرها على أمري من سائر الفرسان . قال أخاف أن يأسرَك ويأخذك بالرغم عنا فتكونين بذلك كسبية وهذا عار عند العرب . فإذا كان كذلك أرى من الموافق أن نزفك عليه بالرضا والاختيار . قالت أفضل الموت على ذلك ولا بد من قتاله وإني قادرة على كبحه وإرجاعه بالخيبة وقتله وسوف ترى بعينك من أمري وأمره .

فلما سمع أبوها كلامها لم يسعه إلا الإجابة وعرف أن بنته لا تقدر على الأمير غشام إلا أنه علق آماله بالصدفة وقال في نفسه ربما تتمكن منه وتقتله ولذلك سمع لها وأنا أقرأ على وجهه غايته وأرجو أن يوافقها إلى أن انتهى الأمر وكتب كتاباً إلى الأمير غشام يخبره بما كان من أمر بنته وأنها لا ترضى أن تتزوج به ما لم يكن أشد منها بأساً وأقدر في ساحة الطراد ويقول له في آخر الكلام أن يبكر في الغد إلى الميدان ليلتقيها هناك ويبارزها وتفصل الحال بينهما ولما كان اليوم الثاني خرجت إلى جوادي وركبته وتقلدت بعدتي وأنا لا أعرف ما تنتهي إليه حال القناصة في ذاك اليوم وأتمنى أن تتخلص من هذا الطالب الجديد لتبقى لي في القبيلة فأتوصل بعد ذلك إليها بمساعدة الصدف وما استقر بي الوقوف في ذاك المقام إلا وجاء الملك النعمان ومعه جماعة من الأبطال والفرسان وأعيان قومه العظام ومن ثم جاءت القناصة وهي غائصة بالحديد من رأسها إلى أرجلها وتحتها جواد من خيول أبيها

الجياد وكان قد مضى قسم من النهار وإذا بالأمير غشام قد أقبل من الجهة الثانية ومن خلفه عساكره وأبطاله وهي تتقدم كأنها الجراد المنتشر وفي الحال أسرع إلى وسط الساحة وصال وجال ولعب برمحه العسال حتى حارت منه الفرسان والأبطال ثم طلب إلى الملك النعمان أن يبعث ببنته القناصة كما أشار لتلتقيه في ساحة المجال فأسرعت إليه وانقضت عليه وقام بينهما سوق الحرب واختلف الطعن والضرب وهما تارة يفترقان وتارة يجتمعان كأنهما أسدان يزأران أو كبشان يتناطحان والفرسان تنظر إليهما بالعيان من كل ناحية ومكان ولم تكن القناصة من رجال الأمير غشام ولا من يلتقيه في ساحة الحرب والصدام . إلا أنه كان يطاولها ويحاولها ولا يريد أن يقهرها . فدام معها إلى أن قرب الزوال وعند ذلك صاح فيها وهجم عليها واقتلعها من ظهر جوادها ورجع بها إلى قومه وقد وقع الرعب بقلب الجميع والخوف على القناصة من قانصها ولحق بي من الغيظ والحنق ما لم يلحق بمخلوق قبلي وتمنيت أن يكون بقية نور من نور ذاك النهار لأسرع إلى خلاصها غير أني وقفت مرتبكاً وقد عاد الملك النعمان حزيناً على ابنته إلى الأبيات ورجع معه جميع السادات ليفكرن بأمر غشام وهل يدومون معه على القتال أو يسالمونه ويزوجونه بالقناصة أما أنا فلم أرجع قط وبقيت واقفاً في مكاني مبهوتاً حائراً لا أعلم ماذا أفعل وبماذا أتصرف ولبثت إلى أن مضى ربع الليل وإذ ذاك خطر في ذهني أن أسير إلى صيوان الأمير غشام وأخاطر بنفسي عساي أقدر على خلاص القناصة وأكون بذلك قد فعلت جميلاً معها وأسألها باستحقاق زواجها ولا أظن أنها تمتنع ولا أبوها يمتنع عن إجابة طلبي بعد أن يعرف بعظم عملي ومخاطرتي بنفسي وهلاك عدوه .

ولما قوي برأسي هذا الخاطر ربطت بجوادي في ناحية وسرت تحت الظلام مستتراً به إلى أن اختلطت بالعراقيين جماعة الأمير غشام وتوصلت بالقضاء والقدر إلى صيوان الأمير غشام فوجدت عنده حارساً من قومه فضربته بسيفي على حين غفلة أرديته قتيلاً ودخلت الصيوان فوجدت الأمير نائماً على سريره وإلى الأرض القناصة وهي مقيدة فأسرعت إليه وضربته بسيفي فقتلته وأسرعت إليها فحللت وثاقها وكانت قد رأتني وعرفت أني من قومها ففرحت مزيد الفرح بي في الحال قلت لها اتبعيني لنخرج من بين الأعداء أولاً فأسرعت خلفي وخرجنا من بينهم والليل يسترنا ولم يرنا أحد ولما آمنا على أنفسنا دنت مني وجعلت تشكرني على فعلي وقالت لي ما الذي حملك على هذا الفعل وأن ترمي بنفسك في طريق المخاطر والأهوال لأجلي فقلت لها عن السبب وشرحت لها ما وقع بقلبي من حبها وإني فضلت الموت على أن أراها بيد الأعداء ثم رميت نفسي بين يديها وقلت لها أرجوك يا سيدتي أن لا تضيعي لي تعباً ولا تنسي عملي وأريد منك أن تعديني وعداً صادقاً على الحب والولاء والمودة وإني أكون لك على الدوام أميناً صادقاً مطيعاً وإلا

فإني أموت وأخسر عقلي فأجابت قولي ووعدتني أن لا تتزوج بأحد غيري ولا ترضى لها بعلاً صغيراً أو كبيراً إلا أنا فاطمأن لكلامها بالي وهدأ روعي وعللت نفسي بالمحال وسرت معها إلى أن أوصلتها إلى بيتها وتركتها على أمل أن تأتي في اليوم الثاني إلى ديوان أبيها لتعرض عليه واقعة الحال وسرت أنا إلى محلي وقلبي يكاد يطير فرحاً انتظر اليوم الآتي لأعرض على النعمان ما كان من أمري وأمر الأمير غشام وكان بكل عهدي أن القناصة تعرض أمري على أبيها وتشكرنـي وتخبره بما فعلته معها من المعروف وكيف خلصتها وزميت بنفسي إلى الخطر من أجلها وصرفت تلك الليلة أردد بفكري ما يكون من أمري وأمرها وأنا على أتم يقين من زواجها :

ولما كان صباح اليوم الثاني خرجت إلى حضرة النعمان فوجدته قد بكر إلى ديوانه واجتمع عنده الخاص والعام من رجاله ووزرائه لأجل أن يدبروا أمرهم ويكاتبوا العرب ويسعوا بخلاص القناصة وبينما نحن جالسون وأنا أنظر إلى الباب منتظراً قدومها لفض هذا المشكل وإذا بها قد أقبلت وحالما رآها أبوها والجميع اندهشوا وتعجبوا من هذا الأمر وما منهم إلا من أسرع إليها وهنأها بالسلامة وشكر الله على خلاصها وبعد أن دنت من أبيها وقبلت يديه سألها عن سبب خلاصها وكان بزعمي أن تجيبه بالصدق وتخبره بما فعلته معها قالت له اعلم أني ما سلمت نفسي أسيرة إلى الأمير غشام إلا وفي ظني أن أحتال عليه وأقتله وذلك إني حاربته كل النهار فوجدته فارساً صنديداً وعرفت إن بقيت على المكابرة نعود إلى الحرب في اليوم الثاني وربما طال المطال إلى أكثر من ذلك فطمعت بتعجيل الوقت وعليه فقد سلمته نفسي كأسيرة فطمع بي ولما أخذني إلى صيوانه أراد أن يتهددني فقلت له لا حق لك بهذا وما أنا إلا راضية بك لأنك من فرسان هذا الزمان المعدودين وأني كنت أحب أن لا أتزوج إلا بمن يفوقني بسالة حتى رأيت منك ما رأيت وهكذا كان الشرط بينك وبين أبي ولا يحق لك أن تعاملني كسبية استحوذت عليها أثناء القتال بل كامرأة قبلت من كل خاطرها أن تكون لك زوجة أمينة وأني أرى من الواجب اللازم أن تذهب في الغد إلى أبي وأنا معك وتسأله زواجي وهو يجيبك عليه فتأخذني على الشرف والناموس وتحسم القتال بينك وبينه ويكون ذلك أليق بمقامك وأحفظ لعرضي فأعجبه كلامي هذا وصدقه كل التصديق وقام إلي وفك وثاقي وقال لي ابقي الليلة عندي وفي الصباح ذهبت بك إلى أبيك مكرمة ومعززة وأعدتك إليه وقدمت له كل ما يليق بمقامه من التعظيم والإكرام : فصبرت عليه إلى أن نام مطمئناً فقمت إلى سيفه أخذته وأتيت إلى سريره فضربته ضربة واحدة فصلت رأسه عن جسده وخرجت من الصيوان تحت الظلام لا يعلم بي أحد ولأجل التوفيق وتمام النجاح لم يرني أحد ونجوت من بينهم وأتيت إلى بيتي وهذا الذي كان من أمري .

وكانت تتكلم وأنا أرتجف وقلبي كاد ينشق من الغيظ حيث جاء الأمر على خلاف ما أحب وأنتظر ولم تذكر اسمي قط ولا تذكرت معروفي لها ولما لم يسعني الإخفاء قلت لأبيها إنها لم تحك الصدق يا سيدي وقد قصدت إخفاء الحقيقة والحال على خلاف ما قالت ثم شرحت له الواقعة بتمامها وما كان من مسيري إليها وخلاصها وقلت له إن السبب الوحيد الذي حملني عليه هو الحب والغرام وقد وعدتني .أيضاً أنها تذكر معروفي معها وجميلي أمامك وتسألك مجازاتي وإني أعجب كيف أنها أنكرت كل ما تقدم ذكره وحكت غير الحقيقة مما لا يدخل العقل الانساني فنظرت إلي نظرة المحتقر الغضوب وقالت لأبيها ما هذا إلا كذاب منافق يطمع نفسه بي ويريد التحرش بما لا يناله ومن هو لأقبل له به مع أني امتنعت عن الملوك الكبار والأمراء العظام فأردت أن أتكلم فمنعني النعمان ووبخني ولامني على ما صدر مني فقلت له إني لا أخاف الحق وأن ما قلته صحيحاً وأنها تريد أن تجعلني كاذباً وأنا أعرف بنفسي ما عملت ولا أريد منك إلا الاعتراف بمعروفي وإجبار ابنتك على زواجتي لكوني اشتريتها من العدو وخلصتها لنفسي . فلم يهن كلامي على النعمان فطردني من ديوانه وأمرني أن أخرج من المدينة ولا أعود إليها أبداً فالتزمت إلى الخروج والغضب يفعل بي أشده وقد غاب عني وعيي وضاع عقلي وبعد أن بعدت عن القبيلة بعث في أثري مائة فارس من فرسانه يقصدون قتلي فأوقعت بهم وشتت شملهم وسرت إلى هذه البرية وقد أخذ عقلي في أن يجتمع إلى بعضه ووعيت إلى نفسي وجعلت ألومها على ما أبدت وقلت كان الأحرى بي أن أصبر على مضضي ولا بد للزمان من مساعدتي لأ ريب أن القناصة تشكر مني وتمدحني إذا رأتني سكت عن كلامها ووافقتها عليه ولم أعترضها قط وتعلم أن سبب ذلك حبي لها . وجعلت أذم الطيش والحدة حيث رميت بنفسي إلى وهدة الغضب وقدتها إلى سبيل البعد والجفاء ولا أعلم بعد ذلك ماذا جرى على قوم غشام ولكنني أظن أنهم لا بد في اليوم التالي يتفرقون إذا رأوا أميرهم قتيلاً لأنهم ما جاءوا إلا لأجل زواجه وهم يعلمون أن العرب لا تترك النعمان وأن كسرى يمده بالعساكر والجنود ولهذا فضلت البعد وأنا أخاف سطوته وما من معين أو مساعد يشتد به أزري لأتمكن من مقاصدي فالتزمت إلى الانفراد في أحد الجبال أعيش كما تعيش الوحوش وفيما أنا كذلك اعترضني هذا الأسد الذي قتلته فتجاولت وإياه وقتاً ليس بقليل إلى أن تغلبت عليه أخيراً وتمكنت منه بضربة دبوس على رأسه وقع منها إلى الأرض فأسرعت إلى سيفي وأردت أن أجز رقبته فوجدته ذليلاً حقيراً ورأيت الدمع يسيل من عينيه فشفقت عليه وأغمدت سيفي ومسحت الأدمعة عن عينيه فكأنه شعر بمعروفي وعرف عفوي عنه فنهض وهو يلوح بذنبه وأظهر كل طاعة وذل بين يدي فأعجبني جداً ومن ذلك الوقت ألفته وصار لا يفارقني دقيقة وربطت هذا الطريق وصرت عند قدوم المارة منها كثيراً كانوا أو

قليلاً أطلقت عليهم الأسد فيبددهم وأسير إليهم وأحضر أسلابهم وأغتنم ما معهم ودامت هذه الحالة حالتي والأسد رفيقي إلى أن فرقت بيننا أنت ومع كل هذه الأيام لم تفتر محبة القناصة من قلبي ولا سلوتها قط ساعة واحدة ولا أعرف الطرق المؤدية إلى نوال المراد .

فلما سمع الأمير حمزة كلامه تعجب منه جداً فقال له ما اسمك قال اسمي مخلوف قال اعلم إني ذاهب إلى مدينة النعمان للانتقام منه على كفره وعبادته النار وطاعته للأعجام وأريدك في الحال أن تذهب معي وتدخل في عداد قومي واني أعدك وعداً صادقاً أني لا بد من أن أزوجك بالقناصة هذه بالرغم عن أبيها وأنولك مرادك منها شفقة مني عليك . فلما سمع مخلوف كلام الأمير حمزة فرح به غاية الفرح وسر منه مزيد السرور وقال إني منذ هذه الساعة وعلى الدوام أكون في ركابك وبين يديك وهل ألاقي سيداً وسنداً مثلك يعينني ويساعد ضعفي ويقربني من مقصدي ويقهر لي عدوي فزاد له الأمير وعده . ومن ثم ساروا من هناك وحمزة يقصد جهة بلاد النعمان ومخلوف يسير أمامهم كدلول على الطريق وقلبه معلق بالحيرة وأصبح يرجح نوال مراده وثبت في ظنه أن الأمير حمزة يقدر وحده أن يلقى عساكر الحيرة بأجمعهم وينزل بهم المصاب والبلاء .

ثم طلب الأمير حمزة أن يسير أمام رجاله لوحده وأوصاهم أن يتأثروه وبين يديه عمر ومخلوف فقط وهو منفرد بهما وأوسع بالبر وتوغل في تلك الجنبات إلى أن وصل إلى طريق ضيق ينتهي منه إلى جبل عال فأراد الدخول بذاك الطريق وإذا به يرى أربعة أشخاص من الأعجام إلى جانب من الطريق فبعث أخاه عمر يأتيه بهم فسار اليهم وأحضرهم بين يديه فرآهم حفاة عراة موثوقين بالحبال ولما رأوه بكوا وناحوا على أنفسهم وطلبوا منه الأمان وقالوا كفانا ما نحن فيه من العذاب فليس معنا ما يسد رمقنا ونحن الآن نموت جوعاً فاتركنا نتدبر إلى حالنا فقال لهم لا تخافوا فإني لا أقصد لكم ضراً ولست ممن يضر بالناس أو ينزعهم ما يملكون لا سيما وأني أرى من حالتكم أنكم منهوبون مسلحون بل أنا ممن ينفع ويغيث فأخبروني بأمركم ومن الذي فعل معكم هذه الأفعال لأنتقم لكم منه وأجازيه على فعله وارجع لكم ما فقد منكم . ثم أمر أخاه عمر أن يفك وثاقهم ويدفع إليهم ما يسدون به رمقهم ففعل وأكلوا واستراحوا وشكروا من مجابرة الأمير حمزة لهم ثم أن أحدهم تقدم منه ليشرح له حالهم فقال له اعلم أيها الأسد العشمشم والسيد المعظم أننا من الأعجام قوم كسرى أنو شروان وقد تعودنا على معاطاة التجارة منذ قديم الزمان نحمل البضائع من بلاد إلى بلاد فنتجر فيها ونربح الأموال وقد اتخذنا هذه المهنة سبباً لمعيشتنا ومنذ قديم الزمان ونحن ننتقل من بلاد إلى بلاد دون أن يلحق بنا ضر أو أذى إلى أن كانت هذه المرة حملنا بضائعنا وأتينا بلاد اليمن فبعناها كلها وربحنا فيها أرباحاً عظيمة . ومن ثم قصدنا الرجوع إلى بلادنا فاخترنا المرور على الحيرة ومنها إلى المدائن لظننا

أنها أكثر أمانا واطمئناناً وداومنا السير حتى وصلنا إلى هذه الجهة أي إلى خلف هذا الجبل فصادف مرورنا عند طريق واسع ونحن مسرورون كل السرور وما من مانع نراه في طريق يحول دون الوصول إلى غايتنا من سرعة العودة إلى بلادنا وفيها نحن كذلك إذ خرج علينا فارس طويل القامة عريض الأكتاف واسع الصدر مدجج بالسلاح إلى قمة رأسه ومن خلفه أربعون فارساً كلهم مسلحون فأيقنا بالفناء وثبت لدينا أنهم من قطعة الطرق ومن ثم تقدم منا كبيرهم هذا وسألنا عن حالنا فأردنا أن نوهمه عساه أن يتركنا فقلنا له أننا من جماعة كسرى أنو شروان وقد طفنا البلاد وسكنا المدائن والعواصم والملوك تكرمنا اكراماً له وترسل له معنا الأموال وما معنا الآن هو من أمواله نحملها له . فما كان منه إلا أنه نزع منا كل ما معنا وفعل بنا ما ترى وقال انطلقوا إلى ملككم وأخبروه بما جرى عليكم وقولوا له أن الذي فعل معنا هذه الأفعال هو أصفران الدربندي صاحب الحصن واسألوه ان كان يقدر أن يخلص أمواله من يدي وإن شاء فليبعث بكل جنوده ورجاله لأجعلهم غنيمة لي وأريه ما نفعل بهم . فلم نقدر على المكابرة ونحن لا نصدق بالنجاة منه وكان بعهدنا أن لا يعفو عنا حتى رأيناه تركنا ولو قتلنا لما منعه أحد .

فلما سمع الأمير حمزة كلامهم زاد به الغيظ من أصفران الدربندي وحدثته نفسه أن يخلص لهم أموالهم ويفعل معهم جميلاً أولاً لكونهم مظلومين ومنهوبين وثانياً ليشيع صيته بين الأعجام ويعرف به الملك كسرى لعلمه أن هؤلاء لا بد لهم من أن يسيروا إلى بلادهم ويخبروا بما جرى لهم ويصل خبرهم إلى ملكهم ولذلك قال لهم سيروا أمامي وكونوا بأمان وراحة ودلوني على الذي فعل معكم هذه الأفعال لأنتقم لكم منه وأعيد عليكم أموالكم وكل ما فقد منكم وأزيدكم فوقها من ماله وما أراه عنده : فقالوا له إننا ما صدقنا أن فزنا بأنفسنا منه وبعدنا عنه فإذا عدنا إليه أهلكنا ولا يبقي علينا قط لا سيما وأنه فارس صنديد وقومه أربعون فارساً وأنت غلام ولا نظنك تقدر عليه ولا تخاطر بنفسك من أجلنا فعرج عن هذا الطريق ولا تتعرض له . فقال لهم سوف ترون ما يحل بعدوكم وما يكون من أمره فلا بد من خلاص أموالكم وإرجاعها معكم إلى بلادكم وإن كنتم تخافون على أنفسكم منه فقفوا عن بعد وانظروا ما يجري بيننا وإذا كان معه مائة ألف لا أحسب لهم حساباً بمعونته تعالى ، ثم سار في الطريق نفسه وساروا هم من خلفه وفي كل ظنهم أنه لا يقدر على خلاص أموالهم إلا أن حبهم لإرجاع ما فقد منهم جعلهم أن يعلقوا الأمل بذلك وقالوا لبعضهم ربما يكون ذلك صحيحاً فيرجع إلينا ما خسرناه وفقد منا ولا زالوا سائرين خلفه إلى أن اكتشفوا قلعة الدربندي عن بعد فقالوا له إن هذه القلعة هي مقره ومحل إقامته ولا بد أنه إذ ذاك يخرج إليك ونحن لا نقدر على أن نراه ونظهر له بل نبقى مختفين في مكان لا يرانا منه لا هو ولا أحد من قومه حتى إذا استظهرت عليه ظهرنا

وإلا نكون رجعنا من حيث أتينا وما علم بنا أحد فعذرهم الأمير حمزة وعرف أن الجبن يفعل بأهله أكثر من ذلك وأن خوفهم من أصفران يحملهم على أكثر من ذلك وعليه فقد تركهم في مكانهم وتقدم هو إلى الأمام وبين يديه أخوه عمر والأمير مخلوف وداوموا المسير وعمر يقول له اصبر إلى حين وصول رجالنا لأن ليس من الصواب أن تقاتل وأنت وحيد وربما أصبت بأمر لم يكن لنا في حساب فقال له ويلك أتظنني أرجو مساعدة أحد بأمر أريده وسوف ترى ما يكون مني ومن أصفران الدربندي هذا وقومه . ثم أمر مخلوفاً أن لا يباشر القتال بل يبقى متفرجاً وناظراً فأجابه إلى سؤاله وأطاع أمره .

وكان صاحب هذه القلعة وهذا الأصفران المذكور يحسب من أبطال ذاك الزمان قد اتخذ تلك القلعة مكاناً ومكث فيها واتخذ لنفسه أربعين صاحباً من الفرسان المعدودين يركبون لركوبه ويسيرون تحت أمره أينما سار وقد قطع تلك الطريق ومنع عنها المارة فما ترك قافلة إلا وانتزع ما تحمل ولا شرذمة من العساكر إلا وأنزل بها الويل والعذاب فانتشر صيته في سائر الجهات وهابته أصحاب التجارة وما عاد أحد منهم يقدر على المرور من تلك الناحية خوفاً على ماله أو روحه إلا الذين لا علم لهم به أو الذين سمعو به ولم يعرفوا مكان إقامته في تلك الناحية وقد رفعت عليه شكاو كثيرة إلى الملك كسرى والملك النعمان فيرسلان إليه بالعساكر بقصد إذلاله ومنع تعديه عن أبناء السبيل فيفرق العساكر ويبددها ولا يقدر أحد أن يتمكن منه لمتانة مركزه وقوة بأسه ومحبة أصحابه له ودام هذا العمل عمله وهو يذهب في أكثر الأحيان إلى غير الطرقات لما رأى أن تلك الطريق قد خاف المرور منها القوافل والتجار وصار يسطو على كل من يقع به حتى جمع أموالاً غزيرة في تلك القلعة وصار يحسب أغنى من ملوك الزمان وأمرائها الأعيان .

وكان ذاك اليوم الذي جاء فيه الأمير حمزة جالساً في القلعة بين أصحابه مسروراً بما وصلت إليه يديه من أموال تجار الأعجام لأنها كانت كثيرة وذات قيمة وفيما هو على مثل ذلك إذ سمع صوت الأمير حمزة يناديه من أسفل القلعة فطل من الشباك ونظر إلى الأمير حمزة فاستصغره واحتقره وقال له ماذا تريد ومن تطلب وما معك . قال ليس معي إلا هذا السيف الذي أعددته لقطع رأسك ونزع روحك من صدرك وإراحة الناس منك ومن قومك فانزل حالاً ولا تطل الكلام فلما سمع الأصفران كلام الأمير حمزة لعب به الغيظ والغضب وكان بظنه أن يرسل له أحد أصحابه ينهي أمره إلا أن الحدة وما لحق به جعله أن ينزل بنفسه ليشفي غليل فؤاده منه ويبرد ظمأ كبده من قتله ويعتاض عن إهانته بموته . ومن ثم ركب جواده وتقدم منه وقد نظر إليه نظرة المختبر عند التقرب منه فعرف أن للشجاعة دليل عظيم على جبهته تشهد له ولا تشهد عليه فقال له من أنت أيها الغلام اخبرني الصحيح قبل أن أعدمك الحياة عساي أشفق عليك وأعفو عنك وأريح نفسي من

قتالك وأكتفي بنزع جـوادك وما عليه ومن الذي رماك عندي وبعثك إلي لتلقي بنفسك إلى المخاطر والأهوال . قال أما أنا فما من وسيلة لتعرفني الآن وأما سبب مجيئي فهو إني أتيت منتصراً للأعجام الذين سلبتهم أموالهم وثيابهم وتركتهم عبرة للناس وقد رأيتهم على تلك الحالة فحزنت عليهم فارجع إليهم أموالهم وعدني بالإمتناع عن التعدي على عباد الله والرجوع عن مثل هذه المظالم وعليه تركت قتالك وعفوت عنك وإلا وقعت بشر عملك ولا تظن أنك تتخلص من يدي أو تقدر على الفرار أو تحدثك نفسك بالغلبة إذ رأيت مني صغر سني واغتررت بكبر جسمك ورأسك .

قال فلم يجبه الدربندي بشيء بل استل الحسام وانقض عليه انقضاض آساد الإجام فالتقاه الأمير حمزة كما تلتقي الأرض الجافة وابل الغمام . وأخذ معه بالعراك والصدام وافتراق والتحام . والسعي خلف شرب كأس الحمام . وهما يصيحان بأصوات الرعود ويزأران زئير الأسود ويتقاتلان قتال العهود وفي تلك الساعة وصلت جماعة الأمير حمزة إلى محل القتال وشاهدت أميرها على تلك الحال فوقفت تنتظر ما يكون من أمرهما وهي متيقنة أنه يفوز على خصمه وينال منه غاية المراد وكذلك وقف جماعة أصفران وهم الأربعون فارساً ينتظرون ما يكون من أميرهم ومقاتله وقد رأوا من شدة بطشه وسرعة قتاله فتأكدوا أنهم كانوا على خلاف اليقين هذا والضرب مختلف الوقوع بين الأمير حمزة والأصفران والطعن متصل بينهما بكل خفة وإتقان وداما على مثال هذا الشأن يتقلبان على ساحات ذاك الميدان ويوسعان فيها بالطول والعرض ثم ينقضان إلى أن فات الظهر بثلاث ساعات وعند ذلك أسرع الأصفران إلى الأمير حمزة بطعنة ظن بفكره أنها مصيبة ورماه بها من قلب مجروح فغطس الأمير تحت بطن الجواد أضاعها بمعرفته وكثرة خبرته ثم اعتدل على ظهر جواده وقد اشتد به الحنق وتكدر من التطويل والإهمال فصاح بصوت أكثر ارتفاعاً من أصوات الصواعق مال منه الجبل من جهة إلى ثانية واهتز من أربعة أركانه وانحلت عزائم الأصفران وضعفت قوته ورأى من نفسه الغلبة وأراد أن يشهر سيفه فلم تطعه يده فنظر منه الأمير حمزة ما حل به ووقع فيه فقرب منه ومد يده وانتشله من ظهر جواده وألقاه إلى أخيه عمر وقال له شد وثاقه لبينما أبدد رفاقه . فصاح به الأصفران العفو يا أمير حمزة البهلوان فإني وقيعك وخصيصك على طول الزمان وأخدم ركابك أين سرت وفي أي مكان ولا تعاملني بغير الرحمة والرفق فما أنت ممن ظلم بل ممن رحم .

فتعجب الأمير حمزة عند ذكر اسمه وقال له من أين تعرفني إني الأمير حمزة وأنا لم أذكر أمامك اسمي ولا بحت به قط . قال أعلم يا سيدي اني قصدت ذات يوم التوسع في البراري والقفار وذلك من مدة سنوات فصادف مروري على مغارة في لحف جبل فأردت أن انزوي اليها واستظل فيها من حرارة الشمس في ذاك النهار فرأيت فيها حبيساً قد طال

شعره وأبيض وهرم حتى كاد يعجز عن القيام . فسلمت عليه وأخذتني هيبته كل مأخذ لأنه من عباد الله ووجهه كان يطفح بالأنوار فلم يسعني إلا اعتباره بالرغم عني وعند ما سمع صوتي قال لي ادخل يا اصفران فإني موعود بك انك تأتي إلي وتؤوي جسمي التراب لأن يومي قد جاء ولم يبق في العمر مطمع وإني مشتاق إلى ملاقاة وجه ربي وعما قليل ينتهي شوقي فزادت حيرتي منه واعتباره عندي وقلت له من أين عرفتني ومن أخبرك بي قال إن ربي أعطاني من سابق المعرفة ما أمكنني أن أعرف به ما لا يعرفه غيري رحمة منه لي وفوق كل ذلك فإن الوحي جاءني في ليل الأمس وحكاني عن أن الله يدعوني وأنه لما كان لا يرغب بإهانة جثتي التي تحمل نفسي سيسخر لي في الغد رجلاً يدعى أصفران الدربندي صاحب الحصن فيمر من هنا ويشتد عليه الحر ويلتزم إلى الإلتجاء إلى هذه المغارة وهو الذي يدفن جسمك في التراب .

فلما سمعت كلامه فرحت وقلت له هل لك أن تجيبني يا سيدي عن سؤال أريد أن أسألك إياه قال ماذا تريد يا ولدي قلت إني منذ نشـأت نشأت على حب القتال فخرجت فارساً معدوداً ومن حين وعيت إلى هذه الدنيا وأنا أقاتل الفرسان وأغير على القبائل حتى ألقيت الرعب في قلوب الملوك الكبار وهابتني أعاظمها مثل كسرى والنعمان ولم يكبحني أحد قط فهل يا ترى يقدر عليَّ أحد فيما بعد أو يوجد لي في زماني من يقدر على قتالي والثبات أمامي . فقال لي لا تغتر بنفسك يا ولدي فإني أخبرك خبراً أكيداً أنه ولد من أعوام قليلة غلام سعيد في مكة المطهرة اسمه الأمير حمزة بن الأمير إبراهيم وهذا هو الذي يكيدك ويذلك وتكون من أتباعه فيما بعد ويكون لك معه وفي خدمته الشرف الأكبر وهو الذي يخلص العرب ويمتلك المدن والبلدان وينتشر صيته من مكان إلى مكان وتهابه جبابرة الزمان فإذا رأيته فاقرأه مني السلام والتحيات وإياك من أن تكابر في قتاله أو تحدثك نفسك بالطمع به .

وما انتهى الحبيس من كلامه حتى فارقت روحه جسده فدفنته التراب وخرجت من المغارة وإذا الريح قد بردت فرجعت إلى قلعتي وأنا أفكر بما سمعت وكنت على الدوام انتظر وقوعي بالرجل الذي أخبرني عنه الحبيس وهو أنت إلى أن أشرفت الآن ؤوطئت هذه الأرض وجرى لي معك ما جرى وقد سألتك عن اسمك فلم تخبرني ولو أخبرتني به لسامت نفسي إليك منذ الأول ولا أمكنني أن أجسر على المقاومة لأني متصور في ذهني كل التصور أن الأمير حمزة بن الامير إبراهيم يأسرني وأكون من رجاله بل كنت أسلمك بنفسي وأرمي عليك سلام رجل الله .

فلما سمع الأمير كلام أصفران الدربندي تعجب مزيد العجب وأطرق إلى الأرض

صاغياً ساكتاً مدة خمس دقائق يفكر بما سمع .

ثم رفع رأسه وأمر عمر أن يترك أسره وقال له أنت من أنت من هذه الساعة دخلت في رفقتي وإنك مقدم على رجالي كونك مستحق لمثل هذا وأشكر الله الذي علمني ما لا أعلم وعرف بي الناس قبل أن أعرف . وأني أريد منك الآن كل قبل شيء أن ترجع أموال الأعجام التي سلبتها منهم وكان المذكورون لما رأوا أفعال الأمير حمزة فرحوا فرحاً لا يوصف وجاءوا إلى بين رجاله وأصبحوا ينتظرون الفرج بارجاع أموالهم إليهم . فقال له أصفران ألا تعرف يا سيدي أن الأعجام هم بالفعل من أعداء العرب وإنها تسلب أموالها على الدوام بالرغم عنها أي ان ملك الأعجام يأخذ الجزية منها فكيف بعد أن وصلت أموالهم إلينا نرجعها ولا سيما هم من عبدة النار لا يعرفون عبادة الله . وقال إني أعرف ذلك لكن سلب الأموال على هذه الطريقة لا ترضي الله تعالى وعليه فإني أريد أن أرجع أموال هؤلاء الأعجام لسببين أولاً لكوني وعدتهم بها وجئت لأجلها وثانياً لتصل أخباري الى بلاد العجم ويعرفون بما عملت مع قومهم ويصل أمري إلى بزرجمهر الوزير لأنه ينتظر ظهوري ويسره أمري فقال له إن الأموال جميعها داخل القلعة هي كلها تحت أمرك وإذا شئت لنقيم فيها ثلاثة أيام بضيافتي ومن ثم أسلمك وديعة سلمها إليَّ الحبيس لأسلمك إياها وهي ستة معاضيد من الذهب واحدة لك وخمسة لخمسة أولاد يلدن لك تحفظ عليها إلى حين ظهورهم فقال وما نفع هذه المعاضيد وما هو القصد منها بحسب ما أخبرني الحبيس أن لابسها يحفظ من الشر والغدر فلا تنفذ فيه المكائد ويشتد ساعده فإذا مسك قطعة من الحديد بين أصابعه وشد عليها أذابها وهي محفوظة عندي منذ ذلك الزمان إلى اليوم فزاد فرح الأمير حمزة بما سمعه وتاقت نفسه إلى استلام ما وضع أمانة له وسار مع الأمير حمزة ومن خلفه رجاله إلى داخل القلعة بعد أن ربطوا خيولهم خارجها واحتفل لهم الدربندي بوليمة فاخرة وأكرمهم مزيد الاكرام وسقاهم من صافي الخمور ونحر لهم النحور وقدم لهم العلوفات ودفع كل الأموال التي في القلعة إلى الأمير حمزة ووضعها بين يديه فدعا الاعجام وأمرهم أن يأخذوا أموالهم فأخذوها وأضاف لهم فوقها ما جعلهم مسرورين وفرحين فشكروه وساروا يثنون عليه ويشكرونه . ثم أقام الأمير حمزة مدة ثلاثة أيام في تلك القلعة وفي اليوم الرابع طلب الرحيل إلى الحيرة وسأل اصفران بالركوب فأجابه وحمل كل ما في القلعة من الأموال والجواهر والذخائر ونحوها ودفع المعاضيد إلى الأمير حمزة فأخذها وتعجب منها لما رأى عليها من الأسماء المكتوبة ولم يعرف أن يقرأ منها إلا اسم الله فقط فلبس واحد منها وأبقى الباقي إلى حين الحاجة وركب من فوق جواده وركب قومه والأمير أصفران وساروا جميعاً عن تلك الناحية يقصدون الحيرة والأمير حمزة مسرور غاية السرور بما وصل إليه ومتعجب من عناية الله به ومما أعطى من السعادة والمجد وكيف إن الفرسان والأبطال المشهورين يذلون لديه

ويتعمدون خدمته وينضمون إلى رجاله ليقاتلوا بين يديه ولما تبطن القفار وقوى به الاستذكار أنشد وقال :

ربيت على حب التفاخر والمجد وأبديت في نيل المنى والعلا جهدي
وأصبحت الأيام تأتي مطيعة إليَّ ومولى القوم عندي كالعبد
أنا حمزة العليا إذا انتسب الألى يباهون عند السبق بالأب والجد
أنا الرجل المحكي علي بأنني خلقت وأفلاك العلا خدمت سعدي
إليك أيا نعمان أسرى وهمتي أشد لدي الهيجا من الصارم الهندي
وفي كفي اليمن مهندة لقد أبرت بأن الموت مصدره عندي
تفلق هامات الطغاة بحدها ويضمد جرح اللائذين بذا الحد
فسوف ترى مني بشوشا وعابساً شفوقاً على المظلوم قاس على الضد
أهش إذ حل العفاة بساحتي كما هشت الآباء للابن في المهد
واعبس إن كان الطغاة توهموا خلاصاً وارهاباً وذي عادة الأسد

وقد سر أصفران الدربندي من شعره ونظامه وفصاحة كلامه وعرف أن قيامه بين يديه يأتيه بمنفعة عظيمة وانه هو نفس الرجل الذي أشار إليه الحبيس في كلامه وإنه يفعل الأفعال العجيبة في أيامه وفي أهل زمانه وبقوا سائرين على تلك الحالة عدة أيام حتى قربوا من بلاد النعمان ودخلوا على حدود أراضيه فانتشر بين الخاص والعام ان الأمير حمزة دخل الحدود إلى أن وصل إلى الملك النعمان وذلك من سكان الضياع والقرى التي كان يمر بها الأمير حمزة مع جماعته .

وكان النعمان بلغه ما فعل الأمير حمزة برجاله ورجال كسرى وذلك أن المنهزمين بقيوا في هزيمتهم حتى دخلوا إلى النعمان وأخبروه بكل ما جرى وكيف أن الأمير حمزة بن الأمير إبراهيم نزع منهم الأموال التي كانوا جلبوها من العرب وكيف انه أوقع بهم وقتل جماعة منهم ولو لم يطلبوا الهرب والفرار لما نجوا من بين يديه فغضب من ذلك مزيد الغضب وأراد أن يجمع العساكر ويبعثها إلى مكة فاعترض عليه وزيره وقال له اعلم يا سيدي أن من الصواب أن تعلم بذلك كسرى وتدع رجاله المنهزمين يسيرون إليه ويخبرونه بما كان من الأمير حمزة لأنك ان سرت انت إلى مكة أثرت العرب فتنة لا تنقضي إلا بهلاك العرب وتدوم وتسعر نارها حتى تتصل بالكبير والصغير والبعيد كون العرب لا تتخلى عن مكة وتدافع عن عائلتها المالكة الشريفة ولا سيما ان الأمير حمزة من رجال كسرى ولا خفاك ما جاء به الوزير بزرجمهر من مدة أغوام ومسيره إلى بيت الله الحرام لأجل هذا الغلام الذي سيكون له في زمانه أحاديث عجيبة تنتشر من الشرق الى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب وربما مسيرك يغيظ

الملك كسرى أنوشروان قال لقد أصبت بذلك ومن الصواب أن أبعث بتحرير إليَّ الملك كسرى أطلعه على كل ما جرى وأخبره بواقعة الحال وادعه أن يصدر إلى أمره فيما يريد وأبقى على الانتظار وكتب من تلك الساعة كتاباً إلى الملك الأكبر يشرح له ما كان من الأمير حمزة ويستخبر منه عما يريد أن يفعل به وبعث الكتاب مع رسول من قومه وسيره مع جماعة الأعجام المنهزمين وبقي هو على تلك الحالة عدة أيام إلى أن بلغه الخبر بقدوم الأمير حمزة وجماعته إلى بلاده وان مجيئه بصفة عدوانية فاضطرب وكان من يشيع عنه من الأخبار وما حكاه الوزير بزرجمهر قد جعل كل من سمع به يحسب له حسابه ويخافه جداً . وكان النعمان ينتظر بذلك أوامر كسرى سيده لعلمه أنه ينتظر بلوغ هذا الغلام الذي سيمنع عنه غارات الأعداء ويقتل له عدواً يتساقط على بلاده كل ذلك مما يلقى الأوهام في قلبه . فجمع النعمان رجال قومه واستشارهم فيما يفعل فقالوا له إن الأمير حمزة ما جاء بلادنا إلا بقصد العداوة ولا بد من أمر مهم وقع له ومن الصواب مطاولته إلى حين وصول الاخبار إلينا من كسرى وكانت القناصة بنت النعمان موجودة في الديوان فقالت لأبيها أعلم يا أبي ان هذا الأمير ما جاء إلينا إلا ليوقع بنا ويخرب بلادنا ويفعل ما لا يفعله العدو الألد ولذلك أرى من اللازم ردعه واكفاء شره من الأول قبل أن يوصل شره إلينا وأني أتعهد لكم بذلك واعدكم الوعد الصادق اني أسير اليه وآتيكم به أسيراً أو أفعل به ما فعلت بالأمير غشام قبل أن يصل إلى ضواحي المدينة ويقاتلنا بين البيوت . فقال لها ما هذا الكلام إلا من قبيل الجهالة والاوهام فإنك لا تقدرين على الثبات بين يدي الأمير حمزة وهو وإن كان غلاماً إلا أنه شديد العزم والحيل وقد دلت عليه الدلائل قبل وجوده في هذا العالم قالت سوف ترى ما يكون وتعلم أن ابنتك القناصة فضلاً عما هي عليه من شدة الحيل والبسالة هي صاحبة مكر وخداع عند القتال لا يقدر عليها أشد الرجال ولا بد لي من انفاذ ما خطر بفكري كيف كان الحال . فلما سمع النعمان كلامها سكت عليها فنهضت في الحال وأخذت معها جماعة من البنات كانت اتخذتهن كرفاق وقت الغزو والقتال وسارت من المدينة لتلاقي الأمير حمزة بعيداً عن الحيرة وفي كل نيتها أنها توقع بالأمير حمزة وتحتال عليه إذا لم تقدر عليه بالبراز فتأسره أو تقتله .

وكان الأمير حمزة يتقدم بجماعته ومعه اصفران الدربندي صاحب الحصن ومخلوف صاحب القناصة التي تقدم معنا ذكره وبقوا في مسيرهم إلى أن بقي بينهم وبين مدينة النعمان مسافة ١٢ ساعة تمام فنزل في تلك الأرض وأمر قومه أن ينزلوا ليرتاحوا ويأكلوا الطعام ويباتوا تلك الليلة وفي صباح اليوم الثاني يسير فيمشي عند المدينة فباتوا وصرفوا الوقت على الراحة والاطمئنان وقبل المساء تبينوا القناصة ومن معها من البنات وقد وصلت وضربت خيامها في تلك الأرض وكان حمزة يجهلها ولا يعرف من هي ولم يهتم مزيد اهتمام بهذا الأمر

لأنه رأى شرذمة قليلة لا تزيد عن المائتين نفس لكنه تعجب كيف انهم أقاموا في ناحية ثانية كمن يقصد الحرب والقتال فدعا إليه مخلوفاً وسأله عن أولئك القوم هل هم جماعة أو من إحدى طوائف العربان فقال له لا خفاك يا سيدي ان هذه القناصة بنت النعمان ولا ريب أن خبرنا وصل إليها وعرفت هي به فأخذت المسألة على نفسها وتعهدت له بأنها تنهي الأمر وحدها وما ذلك إلا من تشامخها بنفسها واعتمادها على الحيل والخداع فجاءت بجماعتها البنات اللاتي تراهن أمامك فغضب حمزة من ذلك وصعب عليه كيف أنه يقاتل البنات وهن خلقن لا للقتال وقتاله لهن عار عليه غير أنه توجع في داخله من عمل القناصة وقال لمخلوف لا بد لي من تأديب هذه الجاهلة وتربيتها لتعلم حدود نفسها ولا تجسر ثانية على التعرض للفرسان . قال أنت تعلم يا سيدي ما كان بيني وبينها وقد أخبرتك به جلياً وأرجوك أن تسمح لي أن أبرز لها في الغد إذا كانت جاءت لأجل القتال واني أحب أن آخذها أسيرة وأريد أن أقهرها وأتغلب عليها لتكون أسيرتي ولي حق أن أدعي عليها بأني أسرتها وملكتها في الميدان وكان الأمير حمزة يعلم بقوة بأسه وأنه من الأبطال فتركه على ما أراد . وبعد ذلك وصل اليه كتاب من القناصة توعده به إلى الحرب في الصباح وانها جاءت لقتاله وردعه حيث بلغ أبوها خبره وعرف بقدومه بعثها إليه لأجل هذه الغاية . فأجابها عليه جواباً لطيفاً وقال لها فيه أن ترجع إلى أبيها وإلا تلاقي في الغد ما لا يخطر لها ببال .

قال وفي صباح اليوم الثاني نهض الأمير مخلوف قبل الجميع لأنه كان طول ليلته فرحاً مسروراً ينتظر النهار لينزل إلى الميدان ويقنص القناصة ويأخذها أسيرة ويرغمها على الزواج به لأن بواقي حبها كانت باقية في داخله فلم تقلع قط وما صدق أن رأى ضوء النهار حتى سبق الجميع فركب جواده وبرز إلى ساحة الميدان وجعل يلعب على جواده كأنه السرحان . ومن ثم صارت تنهض الرجال وتركب خيولها وتقصد الميدان وإذا بالقناصة فركبت مع باقي البنات وبرزت إلى ساحة القتال ولما تأكدته ارتاعت وجفلت وقالت له ويلك هل أنت باق بقيد الحياة وأنا أظنك هلكت وانقرضت ومضت عليك الأيام واني كنت أريد براز الأمير حمزة وقتاله لأريه قيمة نفسه غير أني الآن أرغب أن أذيقك العذاب وأميتك شر ميتة حيث كذبتني عند أبي وبين قومي وأردت أن تظهر الفضل لك وتهينني . فقال لها ما فعلت ذلك إلا بعد أن أنكرتيني بالكلية وما ذكرت لي اسماً قط لا قبل ولا بعد فعرفت خيانة نيتك واحناث وعدك ثم انه هجم عليها فالتقته واخذا بالدفاع والقتال وهما بأشد عداوة يتقاتلان . وكل منهم بغاية وشأن هي تطلب هلاكه وإذلاله وفناء عمره وهو يطلب أسرها والحصول عليها وزواجها بالرضا أو بالغصب وداما على مثل تلك الحال يتقلبان في ساحة المجال مدة من الزمان حتى ضاق الأمر على القناصة ورأت من نفسها أنها مغلوبة مع الأمير مخلوف فأرادت أن تعمد إلى الحيلة ولذلك عادت إلى الوراء وقالت له تمهل قليلاً في قتالي فإن الحرب قد

ضايقني وأريد تخفيف ما علي من الحديد وكن بذلك منصفاً فقال لها افعلي ما بدا لك فإنك أصبحت في حوزتي ولا عاد لك خلاص من يدي .

وإذ ذاك زاحت لثامها فبان عن وجهها الفتان يضيء كالبدر في الإشراق ثم أخذت منديلاً ورفعت الطاسة عن رأسها ومسحت به وجهها ورأسها وأسدلت شعرها فوق أكتافها إلى ظهر جوادها حتى كاد يصل الى الأرض وهي تظهر التأفف والتضجر والمضايقة من الحر وضيقة النفس من شدة العرق وأخيراً فكت أزرار صدريتها وما تحتها من الثياب حتى بان فسحة صدرها والعرق يسيل كالمجاري ويتجدول في أسفل ذاك الوادي الواقع بين جبلي تلك الفسحة فلما رأى مخلوف ما رأى اشتد به الوجد والهيام وضاع عقله وتاه في محاسنها أي تيهان ولم يعد يقدر أن يتمالك نفسه أو يثبت في ظهر الجواد ولما رأت منه ذلك صاحت به وانحدرت عليه كأنها الأسد الفائز وهي عالمة بشدة حبه وعشقه وبما حل به من عظم ما رأى ونظر ورفعت الدبوس في يدها وضربته به فلم يمد يده إلى المدافعة ولا تستر منها بل قبل أن تصل الضربة إليه وقع من هوائها إلى الأرض خلف جواده فضحكت منه وأرادت أن تسرع إليه وتكمل عليه وترتاح منه وإذا بالامير حمزة قد صاح بصوت كالرعد القاصف وهجم عليها هجوم الأسد الكاسر وقد خاف على الأمير وعرف ان العشق أضعفه حتى بعد فوزه وحل به ما حل وهو يتألم من خداعها وحيلتها ولما وصل إليها انحط عليها انحطاط الصواعق وصاح بها وأخذ معها بالقتال والصدام فرأت منه أنه كالجبل الراسي وانها لا تقدر ان تثبت أمامه أكثر من نصف ساعة فيهلكها ويميتها فأرادت أن تعمد إلى حيلة ثانية تتخلص بها منه ولذلك قالت مهلا يا سيدي فقال لها إني لست ممن يؤخذ بالحيل والخداع فسلمي إلي نفسك في الحال وإلا أنزلت بك الوبال وتركتك عبرة تضرب بها الأمثال في سائرالأجيال ثم زاد عليها في القتال فانبهرت من عمله ولم تر أوفق من التسليم والطاعة وطلب الأمان فأمنها على نفسها وأن تسلم اليه أسيرة فقادها إلى قومه وكان مخلوف قد علم بنفسه وقام وهو مرضوض من تلك الواقعة انما كان العشق يضيع لأحواله فلا يعرف يمينه من شماله ولما رآها وقد سلمت إلى الأمير وقادها إلى قومه فرح مزيد الفرح وأمل الفوز والنجاح وأنه يأخذ تلك الليلة عروساً له ويشفي فؤاده منها وأما باقي البنات اللاتي كن معها فإنهن رجعن إلى الوراء وانهزمن في الحال فلم يتبعهن أحد ورجعن ليخبرن النعمان .

وأما الأمير حمزة فإنه أمر أن تقام الأفراح في الحال ويعمل عرس للأمير مخلوف لأنه وعده وأقسم له أنه لا بد أن يزوجه بها ولذلك دعاها إليه وقال لها اعلمي انك أصبحت الآن في قبضة يدي واني أريد أن أزفك على مخلوف فهو أصبح من رجالي ومقدم بينهم ومن الصواب أن تصغي وتطيعي واني لا أرجع عن هذا العزم قط حيث ما نويت أمراً إلا فعلته وقد حتمت ذلك وأريد أن أجربه في هذه الليلة فسكتت ولم تبد خطاباً وعلمت أنها وقعت

وأن لا خلاص لها إلا بالصبر واستعمال الحيلة عسى أن الصدف تساعدها وتبعدها عن مخلوف وبقي الفرح قائماً إلى الليل وبالليل أخذ مخلوف زوجته إلى نفسه ودخل بها صيوانه وأراد أن يقرب منها فقالت له تمهل الآن أتريد أن تغصبني غصباً فأنا رضيتك زوجاً لي لكني لا أرضى أن ألبس العار على نفسي وأجعل نفسي معيرة عند الكبير والصغير فيقال اني تزوجت بالرغم عني وسبيت واغتصبت وأنت تعلم أني بنت الملك النعمان ملك ملوك العربان وإذا كان الأمير حمزة لا يعرف عظم مقدرة أبي وجاهه وقوة سلطانه فأنت تعرف ذلك وتعلم مقامه عند الملك كسرى أنوشروان فإذا فعلت قبيحاً لا يصبر عليك أبي بل يجازيك على عملك فمن الصواب أن تصبر وتبقيني عندك إلى أن ينتهي الأمر وتأخذني بخاطر أبي ورضاه وتزف زفافاً ملوكياً على رؤوس الأشهاد وقال لها قد كفاني ما لقيت منك وأنا لا أصدق أن أحصل عليك وأفوز بك وأما من جهة العار فقد عرف الجميع أني تزوجتك فإذا كان ثم عار لا ينفي بعد حيث لا يظن أحد إلا أنك زوجتي وانفردت بك وصرت مالكك فلا تطمعي نفسك بالمحال فجعلت تحاوله وتخدعه وتظنه يقبل منها وهو لا يقبل ولا يرضى أن يضيع وقتاً حصل عليه بعد معاناة أهوال وصعوبات وكانت الطبيعة لا تسلم معه بإجابة طلبها وما يعهده فيها من الكذب جعله لا يأمنها ويخافها وباختصار أنه أتاها بالرغم عنها فصبرت عليه ولم تر أن حالتها أصبحت توجبها إلى البقاء معه والقرب منه كونه أصبح زوجها قولاً وفعلاً وإلا مطمع لغيره بها غير أن مزاياها والحنق كانا أكبر وسيلة لاضمار الانتقام في قلبها وقد أظهرت رضاها منه وأبدت له حبها وبقيت صابرة عليه إلى أن تأكدت أنه نام وغرق ببحر الغفلة فنهضت إلى سيفه فأخذته وضربته به على عنقه فصلته عن جسده وأخذت الرأس وخرجت من الصيوان وذهبت من ذاك المكان تحت أجنحة الظلام حتى بعدت عن الخيام وأمنت على نفسها وارتاح بالها من جهة الأمير مخلوف وهي تريد أن تخفي حالها ولا تدع أحداً يعلم ما حل بها خوفاً من الافتضاح وكانت تخاف أيضاً من الأيام لا تخفي أمرها فتظهر الحقيقة من حملها وبقيت سائرة إلى المدينة .

وكان الأمير حمزة نام تلك الليلة مرتاحاً وما عنده علم بما جرى إلا أنه عند الصباح نهض من فراشه فلاح له هذا الخاطر وتذكر ما كان من امر غشام والقصة التي حكتها لأبيها فخاف أن تفعل أمراً مضراً بحليفه مخلوف ولما خطر له هذا الخاطر تكدر منه ونهض حالاً إلى صيوان مخلوف وناداه ليخرج إليه فلم يسمع صوته فخفق قلبه عليه وعلم أنه ربما يكون قتل فدخل الصيوان حالاً وعند دخوله وجد مخلوفاً مقتولاً والدماء تسيل في الأرض فغاب وعيه وكاد يعمى بصره ولم يعد يعلم ما أمامه وصاح بأخيه عمر وقال له ويلك أسرع إلى جوادي وأتني به وبعدة جلادي فإني أرغب أن أتبع هذه الخبيثة الخادعة ولا أنام الليلة إن لم أنتقم منها لأنها قتلت مخلوفاً وغشتني فأسرع عمر وجاء بكل ما طلب فركب في الحال وأنطلق

بأسرع من لمح البصر ولما رأى أصفرانَ الدربندي ركوبه وعلم الحقيقة ركب هو أيضاً وركب الثمانمائة فارس مع كبيرهم وكان يدعى الأمير عقيل وانطلقوا في أثره إلا أنه كان قد غاب عن بصرهم لسرعة جريه وشدة حنقه وبقي سائراً وعمر يقفز بين يديه ويركض فيسبق الجواد بأميال ثم يقف إلى أن يصل إليه وما فات ظهر النهار إلا وجاء المدينة وبقي سائراً والغضب يفعل به ولا أحد يعرفه أو يفكر أنه الأمير حمزة وبقي في مسيره إلى أن وصل الى ديوان الملك النعمان فنزل عن جواده وأوقف عمر عنده وأوصاه بالمحافظة عليه إلى أن يخرج من الديوان وبقي داخلاً حتى الصدر فرأى النعمان جالساً مع أعيان قومه وبنته واقفة أمامه وبيدها رأس مخلوف وهي تقول له قتلت اليوم بالحيلة مخلوفاً ولا بد في الغد من قتل الأمير حمزة .

(قال الراوي) وكان لما رجع البنات إلى الملك النعمان وأخبرته بما حل على ابنته وأنها أخذت أسيرة تكدر مزيد الكدر واغتاظ وقال لا بد أن يقع عليها سوء وقد حذرتها فلم تتحذر ولا رجعت عن غايتها وهي تظن أن كل فارس لاقته تقدر عليه ثم أمر ان تعدد العساكر في الحال ليلاقي الأمير حمزة وقد انشغل فكره كل الانشغال وقال لوزيره تهاملنا في أمر حمزة حتى وصل إلينا وأسر بنتي قال ليس كان من الصواب أن تذهب بنتك إليه وكنا نطاوله بالقتال حين يأتينا خبر من الملك كسرى أو إلى حين يجتمع عندنا بعض الفرسان الذين يقف أمامه والآن يمكننا في الغد ان نجمع العساكر الموجودة في المدينة ونذهب إليه ونصير عليه إلى أن نرى ما يكون من أمره ثم أمر أن تعدد العساكر وتخرج إلى خارج المدينة في اليوم الآتي . ولما كان الغد عند النهار وهو في ديوانه بحسب عادته يريد أن يعلم ما جرى على بنته مع الأمير حمزة ويبعث بالأوامر إلى النواحي لتجتمع بعض العساكر عنده مع فرسانها وإذا بنته قد دخلت عليه حاملة رأس مخلوف فلما رآها وقف ملهوفاً وهناها بالسلامة وسألها عن سبب خلاصها فقالت له أتسألني وأنت تعلم أني القناصة وأن لا أحد يقدر على كيدي واني أكيد كل سيد مجيد وفارس صنديد . فقال لها ورأس من هذا الذي تحملينه قالت هذا رأس الأمير مخلوف فإن الأمير حمزة أسرني برضاي وفي ظنه أنه يزفني على مخلوف فأجبته وعمل العرس لأنه كان وعد مخلوفاً في الطريق وجاء معه لأجل هذه الغاية وبعد العرس أتيت صيوان مخلوف وقلت له إن من اللازم ان أصلح بينك وبين أبي وتعود إلى بلادك وتبعد عن الغرباء فانقاد إلي ووعدني أن يجيء معي في نصف الليل بينما يكون نام الأمير حمزة وجماعته وأمن لي وأخذ ينزع عنه ثيابه لينام فحاولت حصولي على سيفه وضربته به ضربة واحدة ألقيته قتيلاً ثم نزعت رأسه عن جسده وصبرت إلى أن مضى قسم من الليل فخرجت ولا أحد يعلم بي وبقيت سائرة إلى أن وصلت إلى هنا وهذا توفيق عظيم ولي أمل كبير أني كما أتيتك اليوم برأس مخلوف هذا المتعدي الخارج آتيك برأس الأمير حمزة .

وصادف مجيء الأمير حمزة في تلك الساعة ودخوله إلى الديوان وقد سمع الكلام الأخير فهاج به الغضب ورأى القناصة فزاد به هياجه وتذكر أعمالها القبيحة. فلم يطق إلا الانتقام منها فصاح بها وقال لها ويلك أيتها الخبيثة أتجسرين على قتل مخلوف زوجك وبعلك وتعدين أباك بقتلي ثم ضربها بالسيف على وسطها قطعها إلى نصفين ألقاها إلى الأرض قتيلة وصاح بأبيها وقال له إني أحترم دواوين الملوك فلا أقتلك تعديا في ديوانك ثم خرج من الديوان فاعترضه الحجاب وأرادوا الوقوع به فضربهم بسيفه البتار حتى فتحوا له الطريق فصار في فسحة الدار وإذا بالعساكر القائمة هناك قد هجمت عليه وفي نيتها أن تقبض عليه أو تعدمه الحياة فالتقاها بقوة عزم وثبات جنان وأرسل سيفه إلى صدرها فمددها على. تلك الفسحة وطير رءوسها عن أجسادها وبأقل من نصف ساعة قتل نحو خمسة عشر رجلاً حتى توصل إلى الباب وإذا بعمر واقف عنده بالجواد فعلا ظهره وأراد الرجوع إلى الوراء وإذا بالعساكر قد أقبلت من كل مكان لأن الملك النعمان لما رأى ما حل بابنته وشاهد أفعال الأمير حمزة وقع به الغيظ والحنق ولكنه لم يقدر أن يفعل شيئاً في الحال خوفاً من ان يعجل عليه فيقتله وليس ممن يقدر على الدفاع والممانعة إذ ذاك فالتزم إلى الخروج من باب آخر في ظهر المكان وأسرع إلى جواده فركبه وجعل يجمع العساكر ويأمرها بالتقدم إلى نحو الأمير حمزة وينخيها على الهجوم عليه ولما رأته الطليعة طمعت به لأنفراده فاعترضته وقومت أسنتها وجاءت نحوه فصاح بها صياح الأبطال وانحط عليها انحطاط البواشق على أضعف الحجال وأخذ يجول فيهم ذات اليمين وذات الشمال ويمددهم على تلك الرمال ويتقدم إلى الامام كلما انقشعت العساكر واتسع له المجال. وهي تزيد على الدوام وتتجمع من كل مكان وتسرع من كل ناحية وهو صابر صبر صناديد الرجال يفرح بما أصيب به من اتساع دائرة المجال وكان أخوه عمر يحمي ظهره ولا يترك أحداً يصل إليه وهو كفرخ من فروخ الجان يطعن بطون الخيل فتقع رجالها على الأرض فيطعنها بالخنجر في صدرها .

وفي تلك الساعة وصل أصفران الدربندي وجماعة الأمير حمزة وشاهدوا ما هو واقع في المدينة فدخلوا وجاءوا مكان القتال وصاحوا وحملوا للمحاماة عن أميرهم وسيدهم فاشتدت الحرب وحميت نار الطعن والضرب وقامت القيامة وحلت الندامة وقلت السلامة وأصفران الدربندي يسطو سطوة الآساد ويفعل أفعال الأبطال الشداد . والأمير عقيل أنزل على القوم البلاء والتنكيل والعذاب الوبيل ودامت الحرب إلى قرب الزوال وحينئذ تفرقت عساكر النعمان في كل جهة ومكان متعوذة بالنار ذات الدخان من عظم ما رأت من قتال هؤلاء الفرسان . الذي كل واحد منهم يعد بقبيلة من قبائل العربان ولا سيما الأمير حمزة بن إبراهيم صاحب الفعل العظيم والبأس الجسيم . وكان الأمير حمزة قد

وصل إلى الملك النعمان وهو طالب الهرب فانقض عليه ومسكه وسلمه إلى أخيه عمر وعند ذلك رجع الأمير حمزة من ساحة القتال وهو مغموس بالدم من رأسه إلى قدمه فاغتسل ونزع ثيابه ودخل ديوان النعمان وجلس مكانه وجمع قومه وأمر أن يؤ تى بالنعمان إلى بين يديه فأحضر وهو ذليل حقير بعد أن كان عزيزاً كريماً مهاباً من الكبير والصغير وعند وقوفه بين يديه قال لأخيه عمر اقطع رقبة هذا الطاغي ولا تدعني أراه بعد الآن لأنه مخاتل وخداع فتقدم عمر منه وأراد أن ينفذ فيه أمر أخيه فاستجار به الملك النعمان وقال ما هو الذنب الذي فعلته حتى وجب علي القتل وإذا قتلتني ترمي نفسك بورطة وبيلة لأن العراق برمتها تأتي لثاري والملك كسرى يغيظه ذلك وأرى من الصواب ان تطلقني وتتخذني لك نصيراً ومعيناً فما أنا إلا عربي الأصل من جنسك وأبوك كنت على الدوام أعظمه وأكرمه وأعتبره اعتبار أشراف العرب وأسيادهم العظام ولا أفعل شيئاً بين العرب إلا بارادته واطلاعه لكونه الحاكم والمالك في بيت الله الحرام قال حمزة إن ما تزعمه من مجيء العرب والعجم إلي فهذا لا أخافه قط ولا أحسب حسابه لأني بمساعدته تعالى أقدر على الغلبة وأما سؤالك عن الذنب الذي فعلته فهو أن آباءك وأجدادك كانوا يعبدون الله ويكرمون مكة المطهرة ويأتون إليها في كل عام فوافقت أنت كسرى ورجعت عن ما كان عليه أسلافك وملت إلى عبادة النيران وهذا الذنب وحده كاف لموتك وتطلب أن أتخذك معيناً وساعداً فلو كنت ممن يعبد الله لفعلت ذلك ولكنك ممن يخالفه ولو لم تكن غريباً لما سرت اليك قبل أن أرى منك الشر وأرى الآن أن من اللازم انقيادك إلي بما أطلبه منك وإلا لا مناص لك من الموت وهو أن تعبد الله تعالى فقال هذا أريده وأتمناه وما تركت طريقة آبائي وأجدادي إلا كرهاً عني وإجابه لطلب كسرى أنوشروان قال لا تخف أحداً وإن كان كسرى يعترضك بأمر فأني أسير إليه وأخرب الإيوان على رأسه وأقيم بين العجم والعرب الحروب الهائلة ولي ثقة كبرى بالنصر والظفر فقال النعمان إني أعدك يا حمزة من هذه الساعة إني أدعو إلى عبادته تعالى ومهما جرى يجري لأن نفسي على الدوام مضطربة من عبادة النيران وضميري متعوب من البعد عن الله سبحانه وتعالى خائفاً من عذاب يومه الأخير مع أن أسلافي كانوا يعبدون الله مع أنهم كانوا من عمال كسرى غير أنه لم يطلب منهم ترك عبادتهم كما طلب مني وكان قصد كسرى بذلك أن يعم عبادة النيران بين العربان .

فلما سمع الأمير حمزة كلامه وأنه يرجع إلى عبادة الله سبحانه وتعالى نهض إليه بنفسه وفك وثقه وسأله ان يجلس على كرسيه وصافح كل منهما الآخر ، واعتذر إليه ودعا الملك النعمان كل رجال قومه الأعيان وأصلحهم مع الأمير حمزة وعرفهم ما كان بينه وبين الأمير وكيف أنه مال إلى عبادته تعالى ورجع إليها وترك النيران ففرح الجميع وقالوا إننا

بعذاب الضمير على الدوام ومالنا من يرضى بغير عبادته تعالى . وشكروا الأمير حمزة على عمله ومدحوه كل المدح على خدمته سبحانه وتعالى وأعد النعمان مكاناً للأمير حمزة وقومه وأمر ان تعد لهم الولائم وتذبح الذبائح وانصرف تلك الليلة وفي الصباح عاد الأمير حمزة إلى الديوان فوجد الولائم قائمة والعلائق تعدد والحاصل أن الأمير حمزة بقي خمسة عشر يوماً عند النعمان وفي كل يوم يزيد له بالإكرام والاحتفال وفي اليوم السادس عشر قال حمزة للنعمان إني أريد أن أذهب إلى المدائن وانظر حالة كسرى أنوشروان فإن كان على الوفاق معنا سالمناه وإن كان يخاصمنا حاربناه وأنزلنا به الويل والعبر .

فقال النعمان إني لا أشور عليك الآن بالمسير إلى بلاد الأعجام لأن كسرى كثير الجند والأعوان وبلاده واسعة جداً لا يكاد ملك من ملوك العالم يقارنه أو يعادله مالاً ورجالاً فإذا سرنا إليه لا نكفل النجاح ولا خفاك أن العجم كثيرة الحروب وعلى الدوام تطلب مساعدة العرب ويسألني ملكها المسير إليه بعساكر العرب فإذا سرت سرت أنت معي لا سيما وأن الوزير بزرجمهر قد أخبرني أنه يحتاج إليك ويرضى فيك ولابد من أن نجلو العدو عن بلاده ذات يوم وقد رأى حلماً من نحو ١٨ سنة تقريباً ففسر له هذا الوزير من أن عدواً يخرج عليه من حصن خيبر ويملك المدائن فتطرد له هذا العدو وتعيد إليه بلاده وهذا لابد منه فأذهب الآن إلى بلادك وأقم عند أبيك إلى حين احتياجك فيرسل يستنجدك ويدعوك إليه فتنال بذلك الشرف والفخار ويكون لك عنده العظمة والامتياز ويرى من نفسه أنه محتاج إلى الانقياد اليك إرهاباً بك ولجميلك معه . قال حمزة لقد أصبت بذلك وهذا قد سمعته مراراً وأخبرني به الخضر عليه السلام ولابد لي من القيام في مكة إلى حين احتياج كسرى لي فيرسل من يستدعيني لنصرته فأنصره وأرى بعد ذلك ما يفعله الله سبحانه وتعالى ولا يلزم ان أعاند القدرة فإن الوقت لم يأت بعد وقد سبق الوعد ان أدخل بلاد العجم على هذه الطريقة لا على غيرها . وأقام بعد ذلك يوماً واحداً وبعده ركب بجماعته وودع الملك النعمان وسار من ذلك المكان يقصد بلاده والأوطان وقد خرج النعمان لوداعه إلى خارج المدينة ومن ثم رجع إلى الحيرة وسار حمزة على طريق بلاده .

قال وبعد ان سار الأمير حمزة إلى بلاده ورجع النعمان مسروراً بمصاحبة الأمير حمزة ورجوعه إلى عبادة الله على يده إلا أنه حسب حساب كسرى أنوشروان وفكر في أنه لابد أن يغضب إذا عرف بذلك وبقي نحو ثلاثة أيام يتردد بهذا الشأن وفي اليوم الرابع خطر له أن يذهب إلى المدائن إلى بلاد العجم ويدخل على كسرى ويرى ما هناك من الأخبار عن الأمير حمزة وعن العرب ولابد أن الملك كسرى قد وصل إليه خبر حمزة من رجاله ومن المكتوب الذي بعثه له وعما فعل مع رجاله وسلب أمواله . ولما قوى به هذا الخاطر استعد للذهاب فأحضر مركبه الخاص وركب بجماعته من الحيرة قاصداً بلاد العجم وبقي في

مسيره إلى أن وصل إلى المدائن مقر الملك كسرى أنوشروان وكرسي حكمه . وكان كما تقدم لا يقدر أحد أن يدخل على الملك كسرى إلا بالإذن وبعد مقاساة أهوال وعذاب وصعوبات لكثرة الحجاب والأعوان وطوائف الخدمة مقيمين في إيوانه فلما وصل المدائن كان عند الغروب فذهب إلى القصر المعد لنزول الضيوف من العمال والأمراء والملوك إلى اليوم الثاني وفيه نهض عندما عرف ان الملك كسرى قد خرج إلى إيوانه وجاء الباب الخارجي واستأذن بالدخول مع حاجب الباب فجاء إلى كسرى وعرض عليه استئذان الملك النعمان فقال له دعه يدخل فما جاءنا هذه الأيام إلا لحاجة وغاية مهمة . فلما وصل الإذن إلى النعمان دخل وصعد الإيوان وجاء الديوان ووقف بين يدي كسرى وأظهر خضوعه وطاعته فأذن له بالجلوس فجلس ثم قال له اعرض حاجتك يا نعمان فما تريد وما السبب الذي دعاك إلى المجيء إلي دون أن استدعيك أو أبعث إليك برسول وقد تركت ملكك وبلادك . قال اعلم أيها الملك الأعظم والأسد الغشمشم أن فارساً من مكة قد خرج علي وجاء بلادي وقتل رجالي ونهب أموالي وأحرمني بنتي القناصة وقد بعثت إليك بكتاب عن ذلك ولم أعلم ماذا حصل من عظمتك فاضطرب الملك كسرى من هذا الخبر وتكدر مزيد الكدر وقال ما اسم هذا الفارس ؟ قال الأمير حمزة بن الأمير إبراهيم . فقال لابد لي من خراب مكة وقتل هذا الأمير وهدم كل معابد العرب لأنهم بعملهم هذا قد اخترقوا حرمتي ولم يراعوا عاملي عليهم وكان كسرى قد غاب عن ذهنه ما كان من نحو عشرين سنة تقريباً من أمر الحلم ولم يعد يعي اليه قط والمكتوب الذي بعثه النعمان أخذه الوزير بزرجمهر ولم يعرضه على كسرى. ولما رأى بزرجمهر حالة الملك وأنه يرغب في مساعدة النعمان بذلك وأن يرسل إلى مكة العساكر والأجناد قال له اعلم يا سيدي إن الملك النعمان قد بعث إليك بكتاب يخبرك بعمل هذا الأمير وفعله وقد جاءت أيضاً رجالك الذين كانوا مع رجال النعمان واخبروا أن الأمير حمزة هذا قتل منهم جانباً وسلبهم الأموال واعادهم خاسرين فكتمت عنك هذا الخبر . قال وكيف لم تطلعني عليه بوقته لأبعث من يأتيني بهذا الكلب العربي الذي أشرت إليه بأنه يدعى الأمير حمزة لاقتله على باب المدائن اعتباراً لغيره قال إني أخفيت ذلك لما ثبت عندي أن هذا الأمير هو من رجال الملك كسرى ومن أقرب الناس إليه وأحبهم عنده .

فزاد عجب كسرى بذلك وقال ما معنى هذا الكلام وأي علاقة بيني وبين أجلاف العرب ومن هو الذي تزعمه أنه أعز الناس عندي . قال هذا يا سيدي الأسد الذي رأيته في حلمك منذ زمان طويل وبعثتني لأجله إلى مكة لأكتبه من قومك وهو تربى على مالك الخاص وعاش تحت الأسم الذي دعوته إياه وقد بلغني أيضاً أنه فعل جميلاً مع جماعة من تجار الأعجام كان سلبهم اصفران الدربندي صاحب الحصن ونزع منهم كل مالهم حتى

ثيابهم فخلصها لهم بعد أسر أصفران وجعله من رجاله على أننا طالما سمعنا بتعديه وأمرنا النعمان أن يبعث إليه بالعساكر فلم نستفيد شيئاً . فلما سمع كسرى ذلك صفق من الفرح وقال هذا الذي أخبرتني عنه أنه يخلص ملكي من عدوي الذي يخرج على بلادي قال نعم هذا هو ياسيدي قد ظهر للوجود وأخذت أفعاله تنمو وتزيد وتشيع حتى خافته أكثر العرب وانتشر بين العجم. ثم أن كسرى أمر إن يخلع على النعمان الخلع السنية ويغمر بالأموال والعطايا جزاء على وصول هذا الخبر إليه فتكدر الوزير بختك بن قريش من ذلك وقال لكسرى لقد نسيت يا سيدي حالة العرب وما هم عليه من الهمجية وعدم الأمانة فإذا أكرمتهم لا نأمن من جانبهم وكان هذا الوزير رديء الطباع حسود طماع بخيل مبغض لا يحب أحداً فغاظ كلامه هذا النعمان إلا أنه صبر عليه لمعرفته بأن منزلة العرب عند الأعجام منزلة العبد الذليل عند السيد البخيل الكثير الكبر والتعجرف غير أن كسرى لم يعتبر كلام وزيره في هذا المعنى وأن رآه من الصالح والنافع لنفسه غير أنه سبق فأعطى. ثم أن النعمان ودع الملك كسرى وخرج من عنده مغتاظاً من كلام الوزير بختك وسار بعد أن ودع الوزير بزرجمهر وهو يسأل الله في نفسه أن يكون خلاص العرب من العجم بوقت قريب على يد الأمير حمزة فيستخلصونه من الظلم والذل ويرتفع عنهم هذا النير الثقيل الذي تحملوه زماناً طويلاً .

وبعد أن مضى على ذلك مدة أيام وانشغل كل بنفسه وبملكه ونحو ذلك بلغ كسرى أن خارتين صاحب حصن خيبر قد خرج بعساكره وعددها أربعمائة ألف فارس من الفرسان المنتخبين ودخل حدود البلاد وهو يظلم وينهب ويقتل ولا يراعي حرمة أحد قط وأنه يقصد التقدم إلى جهة المدائن ليستولى عليها ويجلس عوضاً عنه على كرسي العجم ليجعل نفسه كسرى الجديد فاغتاظ من ذلك وتكدر مزيد الكدر من خروج هذا الرجل عليه إلا أنه لم يعتبره حق الاعتبار وترجح له أنه سيجمع العساكر العجمية وغيرها ويؤدبه على فعله وكان الذي جعله أن لا يحسب له حساباً قلة رجاله الذين عددهم أربعمائة ألف . ومن ثم أمر أن تجمع العساكر وتكون على أهبة القتال قبل وصول هذا العاتي الخارج وفوض أمر ذلك وتدبيره إلى وزيره بختك فأخذ يجيش الجيوش ويعدد المؤن وتهيئة كل ما يلزم للحرب والقتال من البلاد وبعد أن انتهى كل ذلك اجتمع بختك بكسرى وقال له لقد تم أمرك ولم يبق من حاجة لأكثر وقد اجتمع عندنا نحو تسعمائة ألف فارس من الفرسان والأبطال وهؤلاء أكثر من جيوش خارتين بأضعاف فقال له أذن أريد منك أن تذهب إلى ملاقاة خارتين وتحاربه على بعد من المدائن قبل أن يصل إلينا فلم يوافق هذا الأمر بختك وخاف من وقوعه بين يدي خارتين وأن يفتك به . فقال لكسرى ليس من الصواب يا سيدي أن نلاقيه عن بعد من هذه المدينة بل من الصواب أن تبقى

العساكر خارج المدينة حتى إذا وصل دافعت عنها وأرجعته بالخيبة وإلا إذا تفرقت عساكرنا وهي بعيدة فلا تعود تقدر على التجمع والدفاع عن المدينة قبل وصوله إليها . فاستحسن كسرى قوله وأمر أن تقيم العساكر خارج البلد وتنصب خيامها في ضواحيها وأقامت على ذلك الانتظار مدة ١٢ يوماً إلى أن بلغ كسرى أن خارتين المذكور قد قرب من المدائن ولم يبق بينه وبين جيوشه إلا مدة يوم وأنه امتلك كل العواصم التي مر بها وعند ذلك أمر العساكر أن تستعد للقتال وتتحضر لملاقاة المهاجمين وفرق عليهم المؤن والذخائر وبقيت على استعداد إلى أن كان صباح اليوم الثاني وفيه طلت عساكر خارتين وأقبلت إلى جهة العاصمة وهي منتشرة كالجراد في الوهاد ولما صارت مقابل عساكر الاعجام ضربت خيامها وقامت بقية ذاك النهار إلى أن كان اليوم الثاني ركب خارتين فوق جواد عال كأنه الجمل بالارتفاع وعلى عاتقه عمد من الحديد وتقدم أمام عساكره فتبينه جماعة الأعجام وإذا به قبيح المنظر جداً برأس كبير أصلع وعيون مستديرة صغيرة في وجه كبير مجعد مسترسل شعر الرأس إلى الاكتاف ويظهر حدبة تعلو رقبته وصدر واط وقامة معوجة وكان مع كل ذلك من الأبطال المعدودين ولما رأته عساكر الاعجام قد ركب بقومه ركبت وتقدمت باذن بختك بن قرقيش إلى ملاقاته ورفعت الرايات النيرانية والبيارق الكسروية ولم يكن إلا القليل حتى هجمت العساكر على بعضها هجوم الآساد. واشتعلت فيما بينهما نيران الحرب والطراد . واهتزت من ركض خيولها تلك البراري الوهاد . وكان يوم عظيم الاحوال كثير الاهوال انقلبت فيه على بعضها الجبال ومالت من عظم المتقاتلين الآكام والتلال . وزهقت نفوس الابطال من كثرة الغبار وضيق المجال. وكان خارتين صاحب حصن خيبر يزأر كما يزأر الأسد الغضنفر ويسطو سطوة الليث القسور . ويبدد الرجال. ويمددها على وجه الرمال. وهي تنفر من أمامه كما تنفر الحجال من أمام البواشق. وترتجف بين يديه كما ترتجف الأرض عند وقوع الصواعق هذا والحرب قائمة على قدم وساق والفرسان تدخل أبواب المحاق ساعية وراء العدم تنظر الفناء في أي جهة فتنقض عليه وتصافحه مصافحة الأم ولدها عند غيابه عنها ووصولها إليه وفرسان العجم تتأخر وفرسان خيبر تتقدم وقد اشتدت همتها بما فعله مقدمها خارتين الليث الغشمشم ولم يكن من يقدر أن يلقاه في جيوش الفرس ورجال العجم وعساكر الديلم ولذلك سطا سطوة الجبابرة وفعل العجائب والأهوال إلى أن جاء الزوال ودقت طبول الانفصال وحينئذ رجع الفريقان إلى الخيام على أصعب ما يكون من التعب والملال ولا أحد منهم يصدق أن يرجع بسلام .

وعندما رجعت الأعجام إلى خيامها دخل الوزير المدينة واجتمع بالملك كسرى وباقي الوزراء فقال كسرى إني أخاف أن عساكري تفشل في هذه المرة ويلحق بنا الويل ونصاب بمصيبة وقد تبينت ولاحظت أن عساكري لم تأت بالمقصود بل تأخرت ولحق بها

النقص وكان بودي منذ الأول أن أرسل إلى الملك النعمان واستدعي جماعة العربان للحضور والقتال معنا فمنعتني ووعدتني بالنصر والظفر . فقال له كن يا سيدي براحة واطمئنان فإن جيوشنا كثيرة ولابد أن يكون الفوز لنا ولا حاجة لاتيان العرب لأنهم إذا حضروا معنا حرباً وانتصرنا بها ينسبون النصر لهم وبسببهم وعليه فلا أريد وصولهم الينا وحضورهم معنا وأكره مساعدتهم ولا أحب أن يتفاخروا علينا وينظروا إلينا إلا نظر العبيد إلى الأسياد فيبقون عمرهم على الذل والطاعة فتأثر الوزير بزرجمهر من كلام بختك وعرف أن في هذه المرة لابد من كسرة العجم واحتياجهم إلى مساعدة العرب ولا سيما الأمير حمزة فهو وحده الذي يقتل خارتين ويكون ذلك سبب وصوله إلى كسرى والتصرف به ولذلك قال لبختك أن امتناعنا عن العرب ودعوتهم لقتالنا من باب الخطأ والغلط لأنهم من عمالنا وملزمون بخدمتنا أثناء القتال والدفاع عنا وعن بلادنا كما نحن نحامي عنهم ونلحظهم وننظر إليهم بمراعاة ونكرمهم فإذا كنا لا نستدعيهم وقت القتال فلا يكونون من أتباعنا ورجالنا غير أن الوقت الآن قد فات ولا تفيدنا شيئاً دعوة العرب والأوفق أن تنظروا فيما تفوز به عساكرنا وتنجو من قبضة خارتين هذا ورجاله فقال بختك أن أمر القتال مناط بي ومفروض إلي ولا يمكن أن نتأخر ببركة النيران وعنايتها وكيف وعدد عساكرنا يفوق عساكر خيبر ونحن قادرون على الدوام إلى زيادتها بخلاف الأعداء فلم يبد كسرى إذ ذاك قولاً وصبر ينتظر ما يكون من أمر عساكره مع الخيبريين .

وأما خارتين فإنه عند المساء أمر أن تنقل خيامه إلى الأمام وقد سر بما وقع له من النجاح في ذاك اليوم وأمل بالفوز العظيم وأوصى عساكره وأبطاله أن لا أحد يدعوه منذ ذلك الحين إلا الملك كسرى ملك العجم والعرب والديلم وسيد ملوك الزمان ويعدهم بالنجاح والعطايا وأنهم يحكمون على تلك المدن ويكون لهم المقام الأول على سكان تلك البلاد وصبر طول تلك الليلة إلى أن أشرق صباح اليوم الثاني فنهض إلى جواده فركبه وتقلد بسلاحه وأرخى شعره على أكتافه إلى ظهر جواده وتقدم في أول عساكره وطبوله تضرب بما يشبه الصواعق فركب بختك بن قرقيش وأمر عساكر العجم أن تركب فركبت وتقدمت، إلى ساحة الميدان طالبة القتال ولم يكن إلا القليل حتى اشتبك القومان وقام قائم الحرب والطعان وانتشرت الفرسان في ذاك المكان وبقي القتال على أشد ما يكون من الدوران إلى أن كان المساء ضربت طبول الانفصال وقد حل في ذاك اليوم بالأعجام اعظم مما حل بالأول وتأخروا إلى الوراء وقتل منهم مقتلة عظيمة .

ودام الأمر على مثل ذلك والقتال يعمل مدة عشرة أيام حتى لجأ الفرس إلى المدينة وتأخروا كل التأخير وتبدد شملهم كل مبدد وثبت عند كسرى أن العدو لا بد أن يدخل

بلاده في اليوم التالي أو الذي بعده ولذلك طلب من وزيره بزرجمهر أن يسعى له بطريقة تقيه وتخلصه فقال له الآن ما من وسيلة لنجاتنا من هذا الطاغي وعندي من الصواب أولاً أن نبعث في هذه الليلة بأولادنا وعيالنا وكل ما يتعلق بنا إلى مدينة طهران لنحفظها من الأعداء ونكون على أمان من جهتها وبعد ذلك نسير نحن وهناك ننظر في أمر خلاصنا لأن الخيبريين سيدخلوا المدينة في الغد ويتملكونها وحينئذ نتركها نحن موقتاً ومن ثم نعود إليها وسوف ترى بعينك ما يكون من أمر العرب الذين تتم النصرة لنا على أيديهم فاستصوب كسرى هذا الرأي وأمر أن ترسل الحريم والعيال إلى طهران أي حريم الأمراء والأعيان والوزراء وحريمه مع من هو عزيز عندهم وثمين ليكون محفوظاً فلا تنهبه قوم خارتين ولا يصير عليه أمر من الأمور . وصرفوا تلك الليلة على ما تقدم وفي اليوم التالي نهض خارتين وهو مؤمل بالفوز والنجاح وهجم على بقية عساكر الأعجام وضربها بقومه ضرباً أليماً موجعاً فبددها وما جاء آخر ذلك النهار حتى ضايق المدينة كل المضايقة وأنزل بها الويل والعبر فالتزم كسرى أن يتركها ويسير عنها من جهة ثانية برجاله وأبطاله الأخصاء قاصداً مدينة طهران .

وبعد ذلك سلمت المدينة إلى خارتين فدخلها منتصراً فائزاً وتملكها بقوة سيفه وقبض على كل عاص فيها ونهب أموالها وذهب إلى الإيوان الأكبر وجلس على تخت الملك كسرى واعتز بنفسه وقال لرجاله الآن صح ما كنت أزعمه وأقوله من أن عرش كسرى سيكون لي أي أني سأسمى بهذا الاسم وأكون أنا الملك على العرب والعجم وكل ما يملكه كسرى فتهابني الملوك وتخشاني الأبطال حيث أعلم من نفسي أن لا فارس بين فرسان هذا الزمان يقدر أن يلقاني في حومة الميدان أو يثبت أمامي ساعة من الزمان فهنأه الجميع بما وصل إليه وشكروه على شجاعته وأطنبوا في مدحه وسألوه أن ينظر في أحوالهم ويقدمهم على أهل البلاد . قال لهم هذا لا بد منه لأن من الإصابة أن تكونوا أنتم الحكام والولاة المالكين على الأعجام حتى لا تقوم لهم قائمة فيها بعد غير أن هذا سيكون بالتتابع ومرادي أن أبعث في الغد إلى سائر عمال الملك كسرى وأدعوهم أن يأتوا إلي فمن جاء طائعاً كان له النجاح والتوفيق فأبقيته وصبره عليه إلى أن أعزله عزلاً ومن امتنع وأظهر العصيان قلعت آثاره وخربت دياره . ونام تلك الليلة إلى أن كان الغد وفي ذاك اليوم أخذ فكتب الكتب إلى كل نواحي بلاد فارس والعرب إلى داخل المدائن حتى ما ترك بلداً إلا ودعا عاملها أن يحضر إليه وأعلمه بما فعل في العجم وكيف استولى على الكبير والصغير في المدائن وطرد الملك كسرى ووزراءه وتهددهم بأن كل من امتنع عن الحضور بعث اليه بالعساكر وأنزل به العبر وسمى حاله كسرى الخيبري أو كسرى الجديد . وبعد أن أرسل الرسل المكاتيب جعل ينتظر وصول المرسل إليهم فلم يقدم عليه أحد ولا وصل منهم إليه

أحداً ولا جاءه خبر من أحد ولذلك وقع بالغيظ والكدر كيف أنه لم يطع من أجد وأراد أن يذهب العساكر إلى تلك العمال غير أنه رأى نفسه أنه في ذلك الوقت غير قادر على المسير وترك المدائن خوفاً من أن يستغنم كسرى فرصة غيابه ويرجع إلى تلك البلاد فيكون ضيع تلك النصرة وأذهبها سدى فبقي في المدينة على ما تقدم وفي نفسه الشر لكل أولئك العمال ولا سيما الملك النعمان ملك العرب الذي كان ينتظر وصوله قبل الجميع لأنه كان يخاف العرب أن تتجمع عليه لعلمه أن فرسانها كثيرة وأبطالها مشهورة .

قال فهذا ما كان منه وأما ما كان من الملك كسرى أنو شروان وقومه الذين هربوا معه فانهم داموا في مسيرهم إلى أن وصلوا إلى طهران وهي إحدى مدائن كسرى أنو شروان قريبة من عاصمته عامرة حصينة فدخلوها وهم ملهوفون خائفون مكدرون لضياع بلادهم وغلبتهم من العدو الألد وبعد أن استقر بهم المقر وارتاحوا من التعب اجتمع كسرى بوزيريه ينظر في أمر خلاص بلاده وإذ ذاك قال بختك لكسرى لقد جاء بفكري كلام كنت قد سمعته منذ سنين وترددت في صحته حتى تبين لنا كذبه الآن وعدم صحته . فقال كسرى وما هو هذا الكلام قال ان وزيرك بزرجمهر قال ان رجلاً من العرب يخلص بلادك من الأعداء ويردها إليك ويساعدك عند وقوع مثل هذه الأهوال ومما ظهر الآن أنه لم يصب في قوله وأن ما زعمه لم يقع بعين الفعل قال صدقت فلم أر صحة لذلك مع إني سمعت بهذا الرجل العربي من الملك النعمان ثم التفت إلى بزرجمهر وكان يسمع كلام بختك بن قرقيش ويضحك منه بكدر لعلمه أنه صادر عن فؤاد مجبول بالحسد والبغض والتهكم وقال له أي وزير أي وزيري بزرجمهر أين هذا الذي أشرت إليه فقد احتجنا إلى مساعدته ولم يأت لمساعدتنا مع أننا صرفنا عليه الأموال وخسرنا الخسائر الباهظة وربيناه على حسابنا .

قال إني لم أغلط في قولي ولا أخطأت ولا نطقت إلا بالصواب وبعين الحقيقة فإن الأمير حمزة هو الآن في مكة بلاد أبيه وأجداده ولا يعلم ماذا جرى علينا ولا ما كان من أمر خارتين والمدائن وهو ينتظر إشارة منا ليأتي ويخلص البلاد وهذا أقوله ولا أخشى فيه لومة لائم إنه كان من الله إلهي الذي أعبده أنا ويعبده هذا الأمير منذ عشرين سنة وقد وقع عليك وأنت في الحلم لتسبق معرفته وتستذرك نفسك ولا تسلم بلادك للأعداء الذين مثل خارتين صاحب حصن خيبر . قال كسرى إننا نحن الذين أخطأنا في حق أنفسنا وتهاملنا في الإرسال وراء الأمير الذي تزعم أنه يكون العلة الوحيدة لخلاص بلادك وأرى الآن من اللازم أن تذهب أنت بنفسك وتدخل بلاد العرب وتجمع الجيوش منها ومن كل نواحيها وتأتي معها بهذا الفارس المدعو بحمزة العرب لخلاصنا وخلاص بلادنا وأكون أنا قد جمعت العساكر من سائر نواحي بلادي فأسير من هنا لدى وصول العرب ونخلص

المدائن ونهلك هذا الطاغي الذي قد جاءنا فقم الآن وخذ ما تقدر تأخذه من هذه البلاد هدية للأمير حمزة ولأبيه ولا تدع باباً من أبواب الفرج إلا وأفتحه وإلا انتقل ملكنا لغيرنا . وطردنا من البلاد وأصبحنا لا نملك إلا ما علينا .

فاستحسن الوزير كلامه وقال إني في هذه الليلة أستعد لذلك وعند الصباح أكون في الطريق كي لا يضيع منا الوقت . ثم إنه قام على الاستعداد كل باقي النهار والليل وقبل الصباح أخذ جماعة من الأعجام ليكونوا برفقته وسار عن طهران على طريق الحيرة حتى وصلها بعد أيام فدخل على الملك النعمان وسلم عليه فلاقاه وترحب به وعرض عليه مكاتيب خارتين وأنه يدعوه للطاعة والانقياد وأنه يسير إليه في الحال وأخبره كيف لم يجبه ولا التفت إلى كلامه وأنه أخذ في أن يجمع الجيوش العربية ليسير بها إلى قتال الخيبريين . فشكره بزرجمهر وقال له لا يجب السير إلا والأمير حمزة في مقدمة الجيوش لأنه هو وحده الذي عليه المعول والذي كتب له من السعادة ما لم يكتب قط على غيره وها أنذا قد ابتدأت أيام سعادته ووصل إلى بداية المنتظر فابق أنت على عملك واجمع جيوشك وانتظرني إلى أن أعود إليك بالأمير حمزة فتسير معه لأني ذاهب إلى مكة المطهرة إلى الأمير إبراهيم وأرجع من هناك به وبجماعته وبعد أن أقام ثلاثة أيام عند الملك النعمان ذهب من هناك يقصد بيت الله الحرام إلى أن وصل إليه وعرف به الأمير إبراهيم فخرج إليه وسلم عليه وترحب به ومعه الأمير حمزة . فلما رآه بزرجمهر نزل عن جواده وتقدم إليه فقبله وقد رأى على وجهه علائم الشجاعة والسعادة والاقبال والتوفيق فصح عنده كل ما كان يظنه من أجله وبعد رجوعهم إلى الخيام قال له الوزير اعلم يا حمزة إني ما جئت إلا لأجلك لأذهب بك إلى كسرى أنو شروان تقتل له عدوه وتفرج عن بلاده . ثم إن الوزير حكى للأمير إبراهيم وولده الأمير حمزة كل ما كان من أمر خارتين وكسرى وكيف أنه استولى على عاصمة المملكة وجلس على كرسي العجم وفي ظنه أنه يمتلك البلاد ويكون الحاكم بالعباد وكيف أن كسرى بعثه إليه بالهدايا والتحف يرجوه المسير إلى خلاص بلاده . فلما سمع الأمير حمزة هذا الكلام اشتد به الغيظ والحنق ولهبت برأسه النخوة العربية فقال وحق البيت والصفا لا بد لي من المسير إلى هذا الخيبري وذبحه ذبح الأغنام وتشتيت عساكره ولو كانوا بعدد الرمال كل ذلك إكراماً لك ولإتيانك إليّ مع أني من أضعف الناس يضم افصيرت لي مقاماً عند الملوك الكبار وذكرتني عند كسرى حتى يرى من نفسه أنه محتاج إلى مساعدتي وعليه فلا أبخل بروحي في سبيل أنت وعدتني لأسلكه وأسير فيه فتعجب الوزير من كلامه وفصاحة لسانه وقال له سوف يكون لك المقام الأول في زمانك وتسود على كل قائم وقاعد ولست أنا الذي رفعت مقامك وذكرتك عند الملك كسرى بل إن الله سبحانه وتعالى أظهر له ذلك قبل وجودك في الوجود وسخرني لأخبر به

وأسعى في تربيتك على حساب الملك كسرى لتكون من رجاله وتخلص له بلاده ومن ثم يكون لك بعد ذلك الحظ الأوفر والسعد الأعظم وينتشر صيتك في الآفاق وتطيعك العواصم والمدائن فهذا لا بد منه . ففرح الأمير بكل ما سمعه من نوال الحظ الأوفر والسعد الأعظم .

وبعد ذلك قام الوزير إلى البيت فطاف حوله ثلاث مرات ثم سجد للات والعزى وأدى الفروض الواجبة على العرب التي كانت في ذاك العصر ثم رجع إلى بيت الأمير إبراهيم فأقام عنده في ضيافته مدة ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع سأله أن يتأهب للسفر فأجابه وأمر أصفران الدربندي أن يستعد وجماعته وأمر أيضاً الأمير عقيل أن يستعد مع الثمانمائة فارس أخصائه ورجاله وهو فرحان بنفسه كل الفرح يكاد يطير شعاعاً أولاً لحبه أن يخوض مثل هذه المعمعة ورغبته في الحرب والقتال وثانياً ليرى الفرس شجاعة العرب ويدعوهم إلى الاعتراف بأنهم أشد منهم بأساً وأعلى مقاماً ولا سيما ليرى كسرى أفعاله وشدة قتاله وهو يقول في نفسه لو لم يكن كسرى يحبني حباً عظيماً لما أرسل خلفي من يدعوني إليه وهو أكبر رجلٍ في مملكته أي وزيره بزرجمهر ويستنجدني لمثل هذه المهمة وبقي على مثل ذلك إلى اليوم التالي وفيه نهض الأمير إلى أبيه فقبل يده وطلب رضاه ودعاه وسأله مداومة الأدعية له ودخل البيت فسأل الله المساعدة والتوفيق في بلاد العجم وما يكون له فيها وركب جواده وصاح بأخيه عمر أن يركب بين يديه فأجابه وقد حمل كنانته وقسيه وتقمط بوسطه بقماط من الجلد ملأه من الخناجر معلقة به وشد على رجليه طماق من الجلد الأحمر إلى حد ساقيه ووضع على رأسه طاسة صغيرة من الفولاذ مدورة ربطها بسلسلة رقيقة من النحاس إلى تحت ذقنه وانطلق بأسرع من لمح البصر وغاب عن العيّان ثم ظهر كما يظهر البرق في اللمعان ثم اختفى بأسرع من طرفة عين حتى تعجب الوزير منه ومن عمله وكاد لا يصدق أنه من الإنس وقد تذكر عمل أبيه وكيف أنه ضرب أمه لتلد في ذاك اليوم الذي ولدت به أم حمزة وغيرها من العربان طمعاً بالمال وما كان ذلك إلا لسعادة الأمير حمزة . ثم بعد ذلك تقدم الوزير فودع الأمير إبراهيم وكان قد خرج لوداعهم فأوصاه بولده وأن يكون له ركناً فأجابه ووعده بكل خير ثم تقدم حمزة فقبل يدي أبيه فقبله وبكى على فراقه وأوصاه أيضاً بالالتفات إلى نفسه وإلى الشرف العربي ومراعاته وقيام ناموس الطوائف العربية . فأجاب الأمير حمزة قول أبيه بالرضا والقبول والطاعة وبكى عند وداعه وسار كل واحد منهم في سبيله فرجع الأب بقومه إلى مكة وسار الأمير مع بزرجمهر وحوله جماعته ورفاقه وأخوه عمر يعلو الآكام والجبال ويبحث الطرق والمغائر ويعود إلى بين يدي أخيه بأسرع من لحظة عين وداوموا المسير مدة أيام حتى وصلوا إلى الحيرة وعرف الملك النعمان بقدومهم فخرج إلى ملتقاهم وكان قد جمع العساكر والرجال

وأقام بانتظار الأمير حمزة ورجوع الوزير إلى أن بلغه إتيانها فخرج وترحب بهما وسلم على الأمير حمزة مزيد السلام ودخل به وبجماعته المدينة وعمل لهم الولائم الفاخرة وأضافهم كعادة العرب مدة ثلاثة أيام ثم طلب منهم الوزير بزرجمهر أن يسيروا معه إلى طهران ليجتمعوا بالملك كسرى ويسيروا معاً إلى مقاتلة خارتين .

فقال حمزة وأي فضل للعرب إذا قاتلت مع العجم أليس أنهم باقون على العظمة والكبر فإذا فزنا نسبوا هذا الفوز لهم وضيعوا حقوقنا وإني أريد أن أذهب بنفسي مع جماعتي الأخصاء الذين جئت بهم من مكة فقط وإني بمعونته تعالى أقدر أن أقتل خارتين وأبيد قومه . فقال بزرجمهر لا تسلك سبل الغلط يا ولدي لأن خارتين فارس صنديد ولا سيما معه من أبطال خيبر أربعمائة ألف نفس وبهم تغلب على جيوش العجم وعددهم تسعمائة ألف نفس ولذلك أرى من الصواب أن تسير إلى كسرى وتقاتلوا معاً ولا تضيعوا الفرصة . فقال أقسم بالرب العظيم رب زمزم والحطيم أني لا أقاتل قط مع العجم ولا أحب أن أضيع تعب العرب بكبرهم وعظمتهم فتبسم الوزير من كلامه وقال له لقد أصبت يا ولدي فإنك تقدر على ما تقول فقط أريد منك أن تصحب معك الملك النعمان برجاله وما تجمع عنده من العساكر وما في ذلك من عار قط لأنك تكون أنت القائد وأمير عليهم ويكونون تحت امرتك وافعل ذلك إكراماً لخاطري قال هذا أفعله ولا أمتنع عنه لا لكوني محتاج إليه وقت الحرب والقتال لكن ليقال إن العرب أهل غزوات وحروب ويكون لهم على العجم التقدم ويكسبون من الفخر ما أكسبه وأقاسمهم السعادة وأرفع لهم ناموسهم وشرفهم وأمنع عبدة النار الاختلاط بعبدة الله ورجاله .

فلما سمع الوزير هذا الكلام فرح به وقال في نفسه الحق بيده ومن كان مثله لا خوف عليه لأنه يعبد الله ويكرمه ويطيعه ومن يحب الله لا يتركه ولا يتخلى عنه وبعد ذلك أخذ الملك النعمان يأمر الجيوش التي تجمعت بالركوب كل قبيلة بقبيلتها وكل طائفة بطائفتها وكان عددها كلها نحو خمسين ألف فارس من كل مدرع ولابس وليث عابس ولما انتهى الجميع وركب كل واحد جواده ركب الأمير حمزة كأنه طود من الأطواد أو أسد من الآساد ومن خلفه إخوانه بالسن وإلى جانبه الملك النعمان بن المنذر وإلى الجانب الآخر أصفران الدربندي وما مضى إلا ساعات قليلة حتى تحركت ركابهم في تلك الأرض وإذ ذاك تقدم الوزير من الأمير حمزة فودعه ودعا له بالتوفيق والنجاح وودع النعمان وسائر الأمراء وسار من هناك في طريق طهران وسار حمزة في طريق المدائن يسير مسير البرق وهو يتوق كل التوق إلى مشاهدة خارتين هذا والاجتماع به في ساحة القتال ونفسه تطلب أن يخوض معامع الوغى ويحضر الوقائع العظام وأكثر سروره بارتفاع اسمه وعلو منزلته وقيادته للعرب تحت امرته والمسير بهم إلى قتال الخيبريين وسوقهم إلى أي مكان أراد وهم

على طاعته وإكرامه ولما تمادى به المسير وتذكر ما سيكون له عند كسرى من المقام والاعتبار وعلو المنزلة ورفعة الشأن وكيف أنه مع صغر سنه قد فاق سواه وأعطاه الله ما لم يعطه لغيره من أبناء زمانه وذلك أنه سبق فوعد به الملك كسرى أنه يخلص له بلاده إلى غير ذلك ولهذا أنشد وقال :

سوف تلقى مني العداة وبالا ... وترى في حربي أمورا ثقالا
فأخوض الوغى بسيف صقيل ... وبرمح ينقصر الآجالا
فأنا المقدام الذي قيل عني ... يوم طعن القنا أصون العيالا
وأنا حمزة القتال ولي عز ... م شديد به أدك الجبالا
وأبيد الطغاة بالسيف قسرا ... وأسر العفاة أنسا ومالا
قام لي فوق كوكب السعد بيت ... شيدته يد الإله تعالى
شيدته فعز فوق دعام ... وتسامى بالمجد أصلا وحالا
وزهى رونقا يفوق سواه ... وتباهى سعادة وجمالا
ودنت تسجد الأسود لديه ... فاني قد عودتها الإذلالا

ولما انتهى الأمير حمزة من أبياته تعجب الملك النعمان من فصاحة لسانه ومن ميله إلى الفخار واجتهاده إلى ركوب الأخطار وزاد إليه ميلاً وحباً وعرف أن نجمه سيعلو في أفق المجد إلى أن يدرك أعلى شأو وأن سيكون له في زمانه شأن وأي شأن وبقي سائراً إلى جانبه على الحالة المتقدم ذكرها مدة الطريق إلى أن قربوا من المدائن وتبينوا عاصمة الفرس وهي عامرة مشيدة البنيان تظهر للرائي عن بعد كأنها قطعة واحدة كثيرة الألوان لعظم قصورها ولقربها من بعضها ولكثرة زخرفتها وإذ ذاك أمر الملك النعمان بالنزول في تلك الأرض وقال للأمير حمزة لا يجب أن تتقدم أكثر مما تقدمنا بحيث تخرج إلينا عساكر خارتين فتقيم في الفسحة التي أمامنا فأجابه إلى سؤاله وأقامت العرب في تلك الأرض وقد ضربت خيامها وسرحت خيولها وانتشرت منتظرة ما يكون من أمرها مع الخيبريين وبعد أن استقر بهم الجلوس سأل الملك النعمان الأمير حمزة أن يكتب كتاباً إلى خارتين يتهدده فكتب إليه .

« اعلم أيها الخيبري الطاغي المتكبر الذي ظن بنفسه فوق ما هو أني قبل أن خلقت سبق ذكري إلى الملك كسرى وإني سأقتل له عدواً عظيماً يتسلط على بلاده وهو أن الملك كسرى رأى من مدة عشرين سنة حلماً أنه كان في إيوانه وأمامه مائدة عليها وزة قدمت ليأكلها وهو جائع جداً وقبل أن يمد لها يداً جاءه كلب شنيع الخلقة هائل المنظر طويل الشعر اختطف الوزة من أمامه وهو لا يقدر أن يمنعه وقبل أن يخرج ذاك الكلب من

الديوان ظهر عليه أسد فضربه بيده سحقه سحقاً ونزع منه الوزة وأرجعها إلى كسرى فاستيقظ مرعوباً وعرض حلمه هذا على وزرائه ففسروه بما معناه أن الكلب هو أنت وأنك تظهر على بلاده وتطرده من ملكه وتستولي على تخت حكمه ومن ثم يأتي الأسد وهو أنا فأخطف روحك من صدرك وأعيد إليه ملكه وها قد أتيت اليك اليوم بما كان من ذاك الحلم فأخرج إلي في الحال بجميع رجالك وأبطالك لأبيدك وأبيدهم دفعة واحدة وإذا امتنعت عن الخروج دخلت المدينة وقتلتك في نصف الديوان ويكون ذلك أكبر عار عليك تهان به مدى الزمان ويتحدث به جيلاً بعد جيل وهذا آخر ما أكتبه اليك وسيجمعنا الميدان والسلام » .

ثم طوى الكتاب بعد أن وقع عليه وختمه وسلمه إلى أخيه عمر وأمره بأن يسير به إلى خارتين ويعود منه بالجواب فأخذه وسار نحو المدينة وكان خارتين قد عرف بوصول الملك النعمان وهو في ديوانه برجال العرب فظن أنه جاء لتقديم الطاعة . وقادته فروض العامل على موليه فقال لمن حواليه كنت أظن بالملك النعمان العصاوة والعناد وأنا متكدر من عمله كيف لم يحضر لمبايعتي كما أنا متكدر من غيره من ولاة البلاد حتى رأيته الآن قد جاء بقومه ولا بد من أن أرقيه وأرفع منزلته وأغمره بالعطاء لأن العرب ممن يجب أن يراعون لكثرتهم وشجاعتهم وفيما هم على مثل ذلك وإذا بعمر قد دخل عليه بكتاب أخيه ولما صار أمامه ونظر اليه ضحك منه حتى استلقى على قفاه وقد رأى من هيبته كل عجيبة ثم سأله عن غرضه فدفع إليه الكتاب وبحلق عينيه فيه وكشر نابه حتى زاد منه تعجباً ثم فض الكتاب وقرأه وعرف رموزه ومعناه فاضطرب في بعضه وأرغى وأزبد وقام وقعد وقال لعمر من هذا الذي يقال له حمزة وقد تجاسر وكتب مثل هذا الكتاب وهو بدوي لا أصل له ولا نسب ويريد أن يتعرض لي ويجعل لنفسه مقاماً بين الناس فلا بد لي من قتله مجازاة له على تعديه حيث دعاني بالكلب ودعا نفسه بالأسد قال إن كنت لا تعرفه فسوف تعرفه إذا اجتمعت به في ساحة الميدان ورأيت منه شدة بأسه وخبرته بمعرفة الطعان ومن المقرر الثابت أنه لا بد أن يقتلك ويرجع البلاد إلى كسرى فأكتب له الجواب لأسير به اليه لأنه قائم على الانتظار إن كنت تخرج اليه ،أو تخافه فلا تخرج فقال له لا يستحق لهعندي كتاباً ولا بد أن أخرج إليه في الغد وأقتله وأقتل الملك النعمان وكل من جاء لأجل هذه الغاية وأقيم حاكماً على العرب من قبلي اختاره وأصطفيه فاذهب وبلغه أن يلاقيني في الغد إلى الساحة لأذهب بعمره وأري فرسان العرب والعجم وكل من يكون حاضراً ما يحل به وبكل من يجسر أن يلقاني في ميدان أو يعصاني في شأن فخرج عمر من الديوان وهو يتعجب من قباحة منظر هذا الرجل وضخامة جسمه وطول شعره وشعر عينيه وحاجبيه .

ولما صار أمام أخيه حمزة أخبره بما كان من أمر خارتين وما رأى منه من قباحة المنظر

مع أنه كان يلبس تاجاً كملك العجم فقال حمزة لا بد لي من قتله في الغد أو ما بعد الغد ونزع هذا التاج عن رأسه وباتوا تلك الليلة على مثل تلك الحالة ينتظرون خروج الخيبريين إلى أن كان الصباح وفيه نهض الأمير حمزة من منامه وخرج من صيوانه فرأى أبواب المدينة قد فتحت وأخذت العساكر تخرج منها أفواجاً أفواجاً وتنتشر في تلك الأرض وتضرب خيامها ودامت على ذلك طول النهار حتى صدت ذاك المكان وملأته من الشرق إلى الغرب فانبهر الملك النعمان من كثرتها ووقعت الرعبة في ركبه وخاف من الفشل والخيبة والتشتيت وقال للأمير حمزة أن عساكر خارتين كثيرة ولا بد أن يوقع الرعب في قلوب رجالنا منها وقد كان بفكرنا أن نستنجد الملك كسرى ونسأله أن يبعث إلينا بالعساكر فخالفت ولم ترض والآن أرى شدة احتياجنا إلى ذلك لأن بغير الكثرة لا نتغلب على هؤلاء العساكر. فقال له الأمير حمزة إني كنت أحب أن لا تأتي أنت أيضاً ولا أصحب معي غير رجالي وإني أعرف إن أقدر أن أكبح بهم خارتين ورجاله وليس هو فقط بل أقدر أن أغلب بهم ملوك الأرض قاطبة لأنهم فرسان وأبطال خلقوا للحرب والقتال كل واحد منهم يلقى الألف والألفين والثلاثة آلاف وإذا كنت قد وهمت من ذلك فارجع بقومك ودعني اقضي الأمر بنفسي فذاك أحب لدي وأفضل عندي وقد أخبرتك إني لا أحب أن أخلط عباد النيران بعباد الله ورجاله فلا يختلط العرب بالعجم ولا سيما إني لو جئت بعساكر العجم لبقي قدر العرب منحطاً وظن رجال كسرى أن النصر كان بسبب مساعدتهم لنا وانضمامهم إلينا وإني أعرف أنك لا تزال موهوماً وخائفاً إلى حين ترى بعينك حالة الخيبريين وما يحل بهم وبقائدهم خارتين فسكت النعمان وأصبح ينتظر ما يكون من أمر الأمير حمزة ورأى أن كلامه بالصواب وأن الفرس قوم معودون على الكبر والعظمة ينظرون على الدوام إلى العرب بعين الذل والاحتقار ولا يسلمون قط بشجاعة أحد منه.

قال وانقضى ذاك النهار دون حرب ولا نزال إلى أن كان اليوم الثاني ضربت الطبول وأسرعت[1] الرجال من كل ناحية إلى خيولهافأسرجتها واعتلت فوقها وتقدمت إلى ساحة الميدان وكانت العرب مترددة في أمر الامير حمزة لا يترجح في عقلها أنه يقدر على الاتيان بالمطلوب أو يمكنه قتل خارتين ولذلك كانت قلوبها خائفة تنتظر ان ترى قتاله لتعرف عظم رجاله الأخصاء وقومه وأمرهم أن ينقضوا في كل مكان ينقض هو فيه فيحمون ظهره ويقاتلون كقتاله وقال لهم اعلموا أن المعول في هذه المعمعة عليكم والرجا بكم فإذا تأخرتم أنتم تأخر جماعة النعمان وإذا تقدمتم تقدموا واشتدت ظهورهم فقال لهم اصفران الدربندي إني أعلم أننا نحن وحدنا نكفي لقتال هؤلاء الخيبريين مهما كانوا كثيرين ولا حاجة لنا بالعرب وقوم النعمان وسوف ترى بعينك ما يكون لنا وإذا شئت فاسمح لي أن

أقاتل هذا اليوم وحدي برجالي وعند آخر النهار تظهر الحقيقة ويعلم الملك النعمان أن أربعين من خدامك ورجالك لاقوا أربعمائة ألف وعادوا منصورين ظافرين فمدحه حمزة وعرف أنه يقدر على ما يقول لعلمه ببسالته وشجاعته وبينما هو على مثل ذلك وإذا بعساكر خارتين قد صاحت وهجمت هجمة واحدة فاندفعت كأنها السيول عند اشتداد الرياح فالتقتها العرب ملتقى اسود البطاح . وأخذت معها بالمحاربة والكفاح . وحمل الأمير حمزة البهلوان . بما أعطى من قوة القلب والجنان وبأقل من نصف ساعة اختلط الخيبريون بالعرب . واشتد لهيب الحرب واضطرب وعلا الصياح من كل فارس وهمهم كل بطل مداعس حتى خيل للرائي ان يوم القيامة قد حل وأن نذير السلامة قد انقرض واضمحل فزهقت النفوس وقطعت الرؤوس . وعملت السيوف على تفريق الحتوف فقسمتها على الرجال . وفرقتها على الأبطال فأصبحوا شفاراً لضربات الآجال . وعصفت فيهم رياح الأقدار . فذهبت بهم الى عالم الفناء والبوار وقصرت ما لهم من الأعمار وكان الأمير حمزة رأى ازدحام العساكر ففرح منه القلب وسر الخاطر وغاص في بحار تلك الواقعة وانقض على الخيبريين انقضاض الصاعقة ومحقهم بصمصامته الماحقة وفرقهم تفريق الرياح إذا ضربت بالرماد وشردهم بين تلك البراري والوهاد ومن خلفه أصفران الدربندي وبقية رجاله الأجواد يزأرون كما تزأر الآساد وينزعون الأرواح من الأجساد ولما رأى النعمان حمزة وفعاله ورأت العرب حربه وشاهدت أعماله اشتدت ظهورها وثبت عندها أنه بطل لا كالأبطال وقيل لا تقاس به الأقيال ودامت الحرب على مثل تلك الحال إلى أن قرب الزوال فضربت طبول الإنفصال ورجع حمزة برجاله والدماء تغطي جسده وهو كأنه الليث الخارج من الغاب فتلقاه الملك النعمان بالأحضان وقبله ما بين عينيه وشكره كل الشكر وأثنى عليه وقال له بالحقيقة أنك فارس هذا الزمان ومنشىء شرف العربان فلله درك من فارس أوجد وبطل أمجد فقال له حمزة إني أقاتل لاحياء شرف بني جنسي وارفاع مقامهم إلى أوج الفخار وكان بودي أن أفضي الأمر في هذا النهار غير أن كثرة الأعداء خابتني وأحيت من آمال الأعداء بطول البقاء ولا سيما أنهم يعقلون أملهم بخارتين لعلمهم أنه من أفرس فرسان هذا الزمان فما دام حياً لا تنقطع منهم الآمال وعندي لو بارزته في هذا النهار وقتلته لتفرق قومه وطلبوا البراري والقفار فقال له النعمان إلا أرى أنه ليس في برازك له من فائدة ومن الموافق أن تبقى الحرب على ما هي فلا تمضي إلا أيام قليلة حتى تضعف شوكتهم ويقلون وإذا ذاك يفر خارتين ويترك هذه الديار وإلا إذا حل بك أمر أو تغلب عليك انقلبت الحال علينا وتفرقنا في كل قطر وسبسب فقال حمزة لا أزال أراك خائفاً من خارتين وليكن مؤكداً عندك أنه لم يبق من عمره غير هذه الليلة وفي اليوم الآتي يمسي تحت حوافر الخيل فكن مطمئن البال فإني موعود من الخضر عليه السلام إني أكون متوفق

الأعمال في كل الأجوال وأفوز على كل عدو مناضل وهذه أول مرة سلكت فيها سبيل الفخار وطلبت ميادين القتال فلا أظن أني أكبح وأصاب بما تزعم ولا يمكن لمن وعدني بالسعادة ان يخلف وعده وحاشا لله من ذلك .

وبات حمزة تلك الليلة ينتظر اليوم التالي وهو متيقن كل اليقين أنه سيقتل خارتين وينهى امره دفعة واحدة ويرى النعمان فعاله وما وصل إليه من الاقبال وقوة البأس وعند الصباح المنتظر نهض من فراشه إلى سلاحه فأفرغه عليه وخرج إلى جواده فركبه وكان قومه قد جاءوا خيولهم فركبوها وتقدموا معه إلى ساحة القتال بينما كان كل من العسكرين يتعدد ويتقدم على الترتيب والانتظام وقبل أن تم وقوف القومين على ما اعتاد عليه أهل تلك الازمنة عند القتال سقط الأمير حمزة إلى وسط الميدان كأنه أسد من الآساد وهو مضيق اللثام على كفه والرمح اللهذام وفي وسطه السيف الصمصام وعلى جسده من الحديد ما يثقل حمله على كل بطل همام .

ثم إنه صال وجال ولعب على اربعة اركان المجال حتى تحيرت منه عقول الرجال واندهشت من أعماله الفرسان والأبطال وفيما هو على مثل تلك الحال صدمه خارتين صدمة تتعتع الجبال وهو كأن الغول في قباحة منظره وطول أظافره وشعره وقال لحمزة أنت هو حمزة صاحب الكتاب الذي أرسل إلي وأنت الذي يقال عنه سيقتل خارتين ويبدد رجاله قال نعم أنا هو الأسد وأنت الكلب ومن المعروف الثابت عند الناس وفي العقول ان الأسد يبطش بالكلب وأي نسبة بين الكلب والأسد وفي هذا اليوم تنظر فرسان هذا الميدان ما يحل بك ويصل اليك أي يرون يوم مصرعك وانقضاء أجلك ويشاهدونك وأنت مداس من جوادي بعد ان يسلك سيفي في جسمك مسلكاً واسعاً فلعب الغيظ بقلب خارتين عند سماعه كلام حمزة وتمزقت أحشاؤه ولم يعرف بما يجيبه ولذلك امتشق حسامه وضرب به حمزة فالتقاه بقوة زنده وعظم مقدرته وشدة بأسه وأخذ معه في القتال والطعن بالرماح الطوال والضرب بالسيوف الصقال وشخصت اليهما الأبصار وأحدقت بهما أعين النظار وما فيهم إلا من انتظر النهاية بينهما بقلة الاصطبار وقد علا فوقهما الغبار واجتمع عليهما بقوة البتار . وسبح جوادها بالعرق كما تسبح الأسماك بالابحار . وهما تارة يفترقان وتارة يجتمعان كأنهما يلتطمان أو أسدان يتناطحان ودامت بينهما الحال على مثل هذا الشأن نحو خمس ساعات من الزمان . وقد خافت العرب على حمزة من خارتين لما رأته كأنه الجبل الراسي لا يتزعزع من مكانه وهو يهدر كفحول الجمال وضرباته تسبق نزول القضاء ولعلمهم أن الأمير حمزة صغير السن لم يحصر في ميادين القتال ولا قاتل مثل هذه الأبطال ودعت الله المتعال أن يخلصه من هذه الحال وإذ ذاك سمعوا صيحة عظيمة ارتجت منها السهول وجفلت منها الخيول ومالت اليها الأنظار والعقول وكان الصائح الأمير حمزة

قد انحط على خصمه انحطاط الصواعق وضربه بمتين عزمه بسيفه الماحق فوقع على عاتقه الأيمن فقطعه وخرج السيف من تحت إبطه الأيسر فمال خارتين عن ظهر جواده كأنه طود من الاطواد يختبط بدمه وقد ذهبت روحه من جسده وكانت عموم الفرسان تنظر إلى تلك الضربة فلما رأت العرب أن أميرها قتل خارتين فرحت غاية الفرح وأملت الفوز والنجاح وثبت عند الملك النعمان ما كان يتردد في ثبوته ولذلك أمر رجال العرب أن تحمل حملة واحدة لما رأى الأمير حمزة وقد خاض ذاك العباب وأغمد بالفرسان سيفه القرضاب وبين يديه عمر كأنه النشاب يدور حول جواده كالدولاب وحمل أيضاً اصفران الدربندي والأمير عقيل وباقي الثمانمائة فارس اخصاء الأمير . واشتبك القتال بين القومين وصاح على رؤ وسهماغراب البين وقصرت الأعمار وحل على الخيبريين الدمار . وأيقنوا بالهلاك والبوار وهم يقاتلون مدافعة عن الأرواح قاطعين الرجاء من الفوز والنجاح وقد ظنوا أنهم يلجأون إلى المدينة للخلاص من قتال العرب غير أنه قد خاب ظنهم حيث أن العجم من سكان المدينة كانوا بانتظار النهاية حتى رأوا عن بعد وتأكدوا أن خارتين قد قتل فتجمعوا وحملوا السلاح ووقفوا عند الأبواب لمنع الخيبريين من الدخول وعندما رأوهم وقد أقبلوا صاحوا بهم ووضعوا فيهم السيف وقلوبهم محروقة من أعمالهم فوقعوا بين عدوين كل منهم يطلب هلاكهم وفناءهم فلم يروا أوفق من الهرب والفرار والبعد عن تلك الديار . طمعاً بالنجاة وأملاً في الحياة فشردوا يميناً وشمالاً وانتشروا متفرقين ما بين عشرة وعشرين والأمير حمزة يضرب فيهم وقد أشفى غليله وأهلك قسماً كبيراً ومثله كانت تفعل رجاله حتى ما جاء آخر النهار إلا وهم بعيدون عن تلك الديار وقد امتلأت الأرض من قتلاهم وسبغت بأدميتهم تلك الساحة حتى لم يعد يرى وجه الأرض وبعد ذلك اجتمع الأمير حمزة بالنعمان فقبله ما بين الأعيان وشكره على فعله وقال له بالحقيقة أنك فارس الزمان الأوحد وبطله الأمجد وليس لك ثان وما شاهدته اليوم من قتالك وحربك ونزالك لم أره قط من غيرك ولا بد أن يحلك كسرى محل الاسياد العظام ويجعل لك عنده أرفع منزلة وأعلى مقام فقال إني لا أطلب المنزلة لنفسي ولا أريد من كسرى إلا أن يعترف بفضل العرب وبسالتهم لأني لا أحتاج إلى التفاتة ما زلت قادراً على أن أنشىء الشرف لنفسي وأقيم لي في صدر هذا الزمان مركزاً حسناً فإذا لم يعترف كسرى بفضل العرب ألزمته إلى ذلك بقوة سيفي الأحدب وشدة بأسي وما أعطاني الله من قوة الجنان .

ثم إنه بعد ذلك جاء الأمير حمزة إلى نحو أبواب المدينة فتلقاه أهلها بالترحاب والإكرام وقدموا له مزيد الاعتبار والاحترام وأدخلوه المدينة بالفرح والسرور ونظر الأمير إلى أخيه عمر فوجده يحمل رأس خارتين وكان عند نهاية القتال أسرع إلى وسط الميدان وقطعه وجاء به فقال له لم هذا وما هذا السبب الذي دعاك لحمله قال لا خفاك يا أخي

إني أعلم أنك لا بد أن تبعثني إلى كسرى لأبشره هذه البشارة فإذا كان معي الرأس ورآه كان فرحه أعظم فاحصل منه على انعام زائد وأموال غزيرة مقابلة لمثل هذه البشارة ولا خفاك أن جماعتي من العيارين الذين اصطفيتهم لنفسي يحبون المال ودائماً يسألوني دفع معيناتهم وأنا حتى الآن لا مال عندي ولذلك أريد أن أحصل على الأموال الغزيرة ولي ثقة كبرى بأن من الآن وصاعداً يحصل لي كل ما أطلبه وأرجوه بمساعدتك . فوعده حمزة بكل جميل ودخل وإياه المدينة ومعهما الملك النعمان وبعض الأمراء ودخلوا قصر الملك كسرى وناموا به تلك الليلة وفي الصباح جاءوا الإيوان وصعدوا عليه ونظر حمزة إلى كثرة الأموال التي كان جمعها خارتين وأبقاها في الخزائن مع الأموال التي كان جاء بها من بلاده والتي نهبها في أثناء إتيانه إلى المدائن فإذا هي شيء كثير يكاد لا يحصيه العقل ويضيع عنده وإذ ذاك قال له الملك النعمان إن هذا المال هو مالنا ولنا الحق بالتصرف فيه ومن الواجب أن نأخذه لأنه من مال خارتين وقد قتلناه وأصبح ماله مباحاً لنا وما من مانع يمنعنا عنه . فقال حمزة هذا لا أوافق عليه ولا أريده فهو الآن في قبضة الملك كسرى وصار ملكه لأننا نحن نقاتل عنه ولِه كل ما يقع بأيدينا فهو من ماله دون شك فإن أنعم علينا كان خيراً وإلا فإننا في غنى عن ذلك لأظهر للفرس عفة نفوس العرب ولكي لا يقال عنهم إنهم لصوص وطماعون فانتبه النعمان إلى كلامه ووعاه وعرف أن الحق بيده وأن الله قد جمع به كل خصائل حميدة وجمله بأحسن الصفات وأبهاها . وبعد ذلك كتب الأمير حمزة كتاباً إلى الملك كسرى يخبره به ما كان من أمره وأمر خارتين ودفعه إلى أخيه عمر وقال له خذ هذا الكتاب واعجل به إلى طهران وادخل على كسرى فادفعه إليه وأقرء مني السلام إلى الوزير بزرجمهر واسأله أن يرضى علي وأخبره بأني مشتاق إلى تقبيل يديه ففرح عمر بهذه الرسالة وقال في نفسه لا بد لي من أحصل في هذه المرة على الأموال الغزيرة والانعامات الكثيرة وأنال كل ما أتمناه وأقدر بعد ذلك أن أنعم على أصحابي العيارين الذين اتخذتهم لنفسي وودع أخاه والملك النعمان وخرج فرحاناً مسروراً وطول الطريق يفكر بما سيحصل عليه ويناله وكلما سار برهة يردد في عقله مقدار ما يأخذ ومقدار ما يعطي إلى أن وصل إلى طهران وهي البلاد التي أقام فيها الملك كسرى كما تقدم معنا .

قال وكان الوزير بزرجمهر بعد أن ودع الأمير حمزة بقي سائراً إلى أن وصل إلى طهران وهو مسرور من الأمير مؤكد بنجاحه ولما دخل على كسرى قال له بشرتي أيها الوزير النصوح العاقل الخبير . قال قد جاء الأمر على أحب ما تريد وأن الفارس الذي نحن نرتجي منه نصراً قد وجدناه فجاء الحيرة ومنها سار إلى المدائن مع الملك النعمان وفرسان العرب . قال لقد أخطأت وكان من اللازم أن يأتي إلينا ونجتمع به أولاً ومن ثم نسيره بالعساكر لأني أخاف أن رجال العرب لا يأتون بالمطلوب ولا سيما أن قوم خارتين

كثيرون وأشداء : قال بزرجمهر إني عرضت عليه ذلك فلم يقبل ولم يرض أن يقاتل إلا وحده مع جماعته وقال ما من حاجة لتنازل الملك الأكبر وازعاجه بمثل هذا الأمر واني سأنهي له الأمر على أحب ما يريد ويختار . فقال بختك بن قرقيش إن العرب أجلاف ولا أظن أنهم يأتون بالنصر وإذا توفقوا إلى ذلك لا نعود نقدر على مرضاتهم فيطمعون فينا ومن عمل هذا الأمير حمزة يظهر ذلك لأنه لا يريد أن نشترك معه بهذا القتال لغاية خبيثة منه دلت عليها قرائن الأحوال فقال بزرجمهر لو كان كما تقول لما سعى في خدمتنا وجاء يقاتل عن بلادنا وأوطاننا وخاطر بنفسه من أجلنا ولا سيما فإنه يعرف نفسه أنه من رجال كسرى أنو شروان صاحب التاج والإيوان وما أراد بذلك إلا تخفيف الثقلة عن العجم وكيف كان الحال فهو يظهر طاعته ويرغب في خدمة دولتنا على أنه من المقرر أن العرب هم عمالنا وأننا عند الاقتضاء نطلب إليهم القتال معنا كباقي أتباعنا ولا يجب أن نظن بهم غير ما استحقوه ما زالوا مطيعين لنا مجيبين لأوامرنا فقال كسرى إن كان حمزة بقتل عدوي ويخلص لي بلادي يكون قد استحق ليس فقط المدح والثناء بل الانعام وعلو المرتبة وسوف أكافئه على عمله هذا بكل جميل وإحسان وكان بختك كما تقدم رديء القلب حاسد لا يرضى في غير مصلحته فكدره كلام بزرجمهر وأضمر الشر للأمير حمزة عند سنوح الفرصة وترك ذلك إلى وقته .

وبقي كسرى في طهران ينتظر خبراً من قبل حمزة ويرغب في أن يعرف ماذا جرى على بلاده وعلى خارتين فيها ومضى عليه مدة أيام إلى أن وصل عمر العيار بكتاب أخيه فدخل المدينة وجاء الديوان وهو محتبك بأعيان المدينة ووزراء كسرى وكلهم من حواليه وهو في وسطهم ولما رآهم عمر أراد أن يسبق بالبشارة مكتوب أخيه فصاح وهو في الباب بصوت استدعى انتباه الملك والجميع ومالوا بأعناقهم إليه وقال أبشر أيها الملك العظيم والسيد الجسيم الذي ملكت العرب والعجم واتصل حكمك إلى كثير من الأمم أن عدوك خارتين قتله فارس هذا الزمان وزهرة الفخر وعلو الشأن من ذل بين عينيه كل جبار عنيد وفارس صنديد الذي تفجر الملوك إذا تشرفت بلثم يديه ورضيت السعادة أن تكون على الدوام حواليه وهو الأمير حمزة العرب وتاج المجد والنسب وقد أعاد البلاد إليك ورد ملكك عليك وقد بعثني لأبشرك بذلك وأشرح لك ما لحق بأعداك من المهالك وهاك رأس خارتين صاحب حصن خيبر اللعين ثم إن عمر رمى الرأس في الوسط وهو على هيئة الكتيبة فجفل منه الجمهور وقد انبهر كسرى مما سمع ولم يعد يعرف بماذا يجيب وصاح صياح الفرح وصفق بيديه وقال لوزيره بزرجمهر لقد تم وعدك أيها الصادق الأمين وانتهى ما أشرت اليه وعادت بلادي إليّ ولم يفتني ما كنت أرجوه ثم قام ودنا من الرأس فرفسه برجله وقال هذا رأس الكلب الذي رأيته في حلمي قد قتل من الذي أعاد إليّ الوزة وبعد

ذلك تقدم عمر وسلم الكتاب إلى الملك كسرى فدفعه إلى وزيره بزرجمهر ليقرأه عليه فقرأه وإذا به (من الأمير حمزة عابد الرحمن ومبيد أهل الكفر والطغيان ورافع شرف العربان إلى الملك كسرى أنوشروان صاحب التاج والإيوان) .

(إني لما كنت قد ربيت على نعمتك ونشأت تحت عنايتك وهمتك وكان من الواجب على خدمتك والقتال عن بلادك والدفاع عن حصونك وتاجك كي لا يطمع عدو بك ولهذا السبب سرت بأمر وزيرك بزرجمهر إلى المدائن والتقيت بعدوك الخبيث خارتين فبارزته في الميدان وبساعات قليلة أنهيت أمره وبددت شمل رجاله وفرقتهم في كل قطر وناد لا يعرفون في طريقهم يمينهم من شمالهم حتى إذا كان المساء دخلت المدينة محفوفاً بالنصر المجيد وقد أجليت الأعداء عنها تاركين أموالهم وغنائمهم ولم يأخذوا معهم غير أرواحهم وهم غير آمنين عليها عدا عن الذين قتلوا وملئت الأرض من جثثهم وقد بعثت إليك مع عياري عمر وهو أيضاً من رجالك رأس خارتين لتدوسه برجلك وتتحقق موته وإني باق في المدينة على انتظارك حتى تأتي وتستلم كرسيك وأموال عدوك فإنها باقية على ما هي لم يمد أحد إليها يداً ولا زالت عساكر العرب قائمة خارج البلد لم تدخل قط إلا إذا أمرتها أنت والسلام مني إليك) .

فلما سمع الملك كسرى مآل الكتاب فرح بالأمير حمزة وقال لقومه لا بد لنا من الذهاب والرجوع إلى المدائن لنشاهد الأمير حمزة وننعم عليه هناك ونكافئه على معروفه بما استحقه فعله هذا ثم إن كسرى قال لوزيره بزرجمهر أخبر عمر هذا العيار الذي جاءنا بالبشارة أن لا مال عندي هنا لأعطيه وأنعم عليه مكافأة على بشارته إياي ولكن عند عودي إلى المدينة أزيد من عطاه وأغمره بالأموال وكان عمر قائماً على الانتظار وأن يسمع أمر كسرى بدفع البشارة له إلى أن بلغه الوزير كلامه فتكدر من ذلك وخاف أن يذهب عليه تعبه بلا جدوى ولا نتيجة ولا يناله بارة الفرد إلا أن الوزير طمنه ووعده بكل جميل وإحسان وأكد له أن يحمل كسرى على الأنعام عليه عند وصوله إلى خزينته . وبعد ذلك أمر كسرى عمر أن يسير مع الوزير بزرجمهر أمامه وكتب كتاباً إلى حمزة يقول له فيه إنه آت اليه على أثر وزيره وأنه لا تمضي أيام إلا ويكون في المدينة . وأبدى منه كل مسرة وحبور ووعده بكل جميل عند وصوله إليه ومن ثم أمر الوزير أن يركب إلى المدائن وقال له سر أمامي إلى المدائن وأقر حمزة مني السلام وأخبره أني بعد أيام أكون عنده بحيث تسير بين يدي عيالي وأعياني الذين جاءوا معي وحال وصولك احتفل باكرامه وأحسن معاملته وقم بكل ما يليق بشأنه فأجاب الوزير أمر سيده وركب وسار الى المدائن وقال له عمر أخاف أن ينسى أن يدفع لي أجرة سيري إليه وبشارتي فيضيع تعبي سدى ولا بد لي عند وصولي إلى جماعتي أن يطالبوني بنصيبهم من إنعام كسرى فإذا قلت لهم إنه لم يعطني شيئاً

يضحكون مني ولا يصدقون أن خزينة طهران فارغة لا مال فيها .

فقال له كن براحة لا يضيع عليك بشارتك وأنه لو شاء أن يعطيك قليلاً لأمكنه أن يأخذ من خزينة إيران أو من أمواله الخاصة غير أنه يعرف أن مثل هذه البشارة يحتاج لأموال تعادلها فأخر ذلك إلى حين وصوله إلى بلاده وكرسي حكمه فيزيد من عطاك ويجعلك راضياً عنه وليس كسرى ببخيل ليمنع عنك أمواله . قال إني أخاف أن يكون ساذج القلب فيلعب به الوزير بختك ويمنعه من غاية يريدها قال هذا فيه صحيح وقد يلعب فيه الوزير بختك بحسب مشتهاه عندما يخلو له الجو وهو يظنه أميناً على مصلحته ولا يعلم ما هو عليه من رداءة الأعمال وخباثة الأفكار وتركيب أساليب الخداع والكذب الذي لا طائل تحته غير أن كسرى يركن لي ويعرف مني أمانتي له فإذا منعه بختك عن أن يدفع أجرة بشارتك جعلته أن يعطيك قياماً بوعده فكن مستريحاً . وداما على المسير وبزرجمهر يشتاق ان يصل إلى المدينة ويرى الأمير حمزة ليهنئه بهذا النصر المجيد ويبشره بحسن الاستقبال وبالسعادة حتى وصلا إليها ودخلاها .

قال وكان الأمير حمزة بعد مسير أخيه عمر أقام بين رجاله خارج البلد فيدخل مع الملك النعمان إلى المدينة يقيم فيها ساعات ليتفرج عليها أو يقيم في ديوانها ثم يعود إلى بين رجاله وقد أمن المدينة وأعاد إليها الراحة والسلام وجمع كل أموال خارتين وما تركه إلى الخزينة وإلى مخازن المملكة لم يترك أحداً يمد يده إلى حاجة تساوي بارة كي يعرف كسرى أن العرب كرام النفوس لا كما يظنون بهم من البربرة والدناءة وفي ذات يوم وهو اليوم الذي جاء به بزرجمهر دخل حمزة ومعه الملك النعمان وأصفران الدربندي والأمير عقيل إلى ديوان كسرى فوجدوا كرسيه يتلألأ بلمعان البرق لعظم ما عليه من الجوهر وهو من الذهب الخالص منقوض بالنقش المختلف من ضنعة الفرس فقال الملك النعمان للأمير حمزة ارتفع إلى هذا الكرسي واجلس عليه فأنت على استحقاق من ذلك قال لا أطمع لنفسي أن أجلس على هذا الكرسي ذات يوم ولا أريد أن أشغل نفسي عن خدمة أبناء جنسي والقيام بينهم غير اني أجلس على سبيل التجربة فقط لأرى كيف يكون حال الجالس عليها ثم إنه انتهض بخفة وسرعة إلى الكرسي وجلس عليه فغرق إلى وسطه لأنه كان مشدوداً بالمخمل الثمين محشواً بريش النعام الأبيض فانسر وشعر بليونة وقال للنعمان هنيئاً لكسرى فإنه يتنعم بجلوسه على كرسيه الناعم فقال له النعمان أني أريد أن أسألك أمراً فهل ترضاه وتقبل به ولا ترجعني عنه وتحرمني منه قال إني لاأمنعك من أمر تريده وذمة العرب فأمرني بما تشاء . قال اني أريد منك أن تجرب التاج على رأسك لأرى في جلوسك على هذا الكرسي كم تزيد على كسرى بهاء وعظمة وكم يوجد فرق بينك وبينه فقال له إني كنت لا أحب أن أجرب بمثل هذا الأمر لكون لا يلبس التاج إلا من دخل

خطة الملوك وأنا لاحق لي بالدخول في هذا الباب وما أنا إلا بدوي ابن امير أقيم على قبيلة صغيرة حقيرة غير أني لا أريد أن أحرمك من أمر تريده فأجيبك إلى سؤالك قال اننا جميعاً نعترف بشرفك وعلو حسبك ونسبك فما أنت إلا ابن امير مكة المكرمة أعلى العرب شرفاً وأكرمهم, أما وأبا وما الملوك إلا دونك في المرتبة والمنزلة وعلاوة على ذلك فإن سيفك سينتصب حكماً في زمانك فتخضع له الملوك وتدخل له السادات العظام وبعد قليل من الوقت يعترف لك أكبر ملوك العالم وهو كسرى أنوشروان صاحب التاج والإيوان الذي كان سبب رجوعه إلى كرسيه أنت ولولاك لما عاد ثانية إلى بلاده ولا فرح بأن رأى التاج على رأسه بل بقي مطروداً مهاناً وانتهت هذه الدولة به .

وفي الحال دعا النعمان ببعض خدمة الإيوان وأمره أن يأتي بتاج من تيجان كسرى الذي كان يلبسه خارتين فأتى به وهو مرصع بالجواهر الكريمة وكل حجر كالكوكب يضيء ويلمع وكان كسرى قد اصطحب هذا التاج الكبير الذي يلبسه وقت الأعياد والزين وفي الاحتفالات الرسمية وهو بثمن يساوي بلاد كسرى بأجمعها قيمة وأبقى ماله من التيجان في قصره . فلبس الأمير حمزة التاج على رأسه فزاد بهاء وكان جميل الصورة أبيض الوجه ناعم الخد مورده أشقر الشاربين صغيرهما لأن الشعر قد بدأ يخط في وجهه فانبهر النعمان منه وقال له إنه يليق بك وأليق من كسرى مهابة وفيما الأمير حمزة على مثل ذلك مع الملك النعمان وإذا بالوزير برزجمهر قد دخل ورأى الأمير حمزة على تلك الحالة فهجم عليه واحتضنه وقال لم أر أبهى منظراً ولا أجمل بحياتي من هذا المنظر البهج فنزع حالاً التاج عن رأسه وقال له لا تؤاخذني يا سيدي فاني فعلت ذلك تجربة بطلب الملك النعمان. قال لا بأس منه فأنت أبهى من كسرى وأليق منه تخته على كرسيه ولابد أن تنظر كيف الدهر أوصلك إلى أن تجلس على مثل هذا التخت ثم تتخلى عنه لصاحبه الذي وجوده عليه يكون منك وبك. ثم سلم النعمان على الوزير وقبل حمزة يده فشكره الوزير على كل ما فعل وبلغه رسالة كسرى ووعده أنه آت على أثره لأجل أن يراه ويقدم له مديحه وشكره . ثم سأله إذا كان أكرم قومه من مال خارتين قال كلا يا سيدي فاني لم أدع أحداً يمدد يداً إلى عقال واحد لأن المال وكل الأسلاب حفظت تحت خاطر كسرى أنوشروان فإن شاء وهب منها شيئاً وإن شاء أخذها لنفسه فما نحن ممن يطمع بأموال ولا نريد أن نخرج عن طرق الآداب فقال برزجمهر وهو يتعجب من حسن صفاته وكرامة ذاته لقد أصبت يا ولدي غير أن كسرى لا يفكر بهذا الأمر ويعرف أن هذا المال اغتنمتموه من سيوفكم فهو من حقكم وما من معترض عليه فيه ولابد له عند إتيانه إلى هذه المدينة أن يكافئكم ويقسم عليكم غنائمكم ويجازيك على جميلك ومعروفك ومفاداتك بنفسك لأجل بلاده وهو عارف أكيداً أنك تحسب من رجاله ولك الحق عليه والقيام بنعمته . ثم أن برزجمهر

عمل لهم وليمة فاخرة وأكرمهم غاية الإكرام إلى أن قرب مجيء كسرى فسأل النعمان الأمير حمزة أن تقيموا في الخيام حتى إذا جاء لا يرونه بل يكونون في معسكرهم فيدعونهم إليه أو يأتي هو بنفسه إذا عرف حق الجميل فاستحسن الأمير حمزة ذلك وخرج مع النعمان إلى خيامهم وأقاموا فيها مسرورين بتقدم العرب واجتماعهم بكسرى بعد قليل. وفي اليوم التالي لمجيئهم تقدمت الأخبار بقدوم كسرى فخرجت الرجال من سكان المدينة والنساء وكل إنسان لملاقاة ملكهم ولتهنئته بعودته سالماً إلى بلاده بعد أن سار مطروداً عنها قاطعاً الرجاء من النجاح فيها ولما التقوا به أظهروا كل فرحهم وأبدوا له من حسن الملتقى ما يستدعيه ذلك المقام وأعادوا عليه كل ما كان من أمر خارتين أثناء تملكه على البلاد وبعد ان دخل المدينة وجلس على كرسيه في ديوانه وحوله الوزراء والأعيان سأل عن الأمير حمزة فقال له بزرجمهر أنه لم يدخل المدينة إلا عدة مرات فقط دون أن يراه أحد من قومك بل كان يأتي هذا الديوان وهو خال من الحكام فيتفرج عليه ومن ثم يعود . قال ولم ذلك قال إنه لم يقبل مفارقة قومه ولا رضي أن يتناول واحدة من أموال خارتين بل أبقاها كلها في الخزائن إلى حين مجيئك لتراها كما هي وما ذلك إلا من عزة نفس العرب وعفة جانبهم فضحك بختك من كلامه وقال من أين العرب مثل هذه اللغة وهم مشهورون بالسلب والنهب والسبى يعيشون من السرقات والشحاذة لا يعرفون غير ذلك : فقال له بزرجمهر إن عملهم لا يحسب من قبيل السرقة إذا غار بعضهم على البعض واكتسب ماله بقوة السيف على أن حفظ الزمام والمروءة عندهم فلا يضيعون حرمة الجار ولا يتعدون إلا على العدو ويحسنون إكرام الضيوف إلى غير ذلك ولنا شاهد عمل الأمير حمزة وقومه وإني أعرف أكيداً أنه لو أخذ مال خارتين بل مال المدينة بأجمعه لما غاظ ذلك سيدي الملك بل كان يسر منه لعلمه أنه له الفضل الأكبر والمعروف الذي يكافأ بأعظم الأشياء وأثمنها .

وفيما هم على مثل ذلك وإذا بالأمير عمر العيار قد دخل الديوان لأنه كان قد عرف قدوم كسرى فصبر عليه إلى أن استقر به المقام واجتمع في ديوانه فلبس ثوباً أسود قصيراً ضيق الصدر والاكمام واسع الوسط علق به على دائرة من الاجراس شيئاً كثيراً ولبس على رأسه قبعة طويلة معلق بها كثيراً من الاجراس أيضاً وفي وسطه منطقة من الجلد الأحمر المنقوش بالنقش الرفيع وسار إلى أن جاء الديوان رآه كسرى عرفه حق المعرفة أنه الأمير عمر فنظر إليه وإذا به رآه قد قفز إلى سلسلة معلقة في باب الديوان وقلب من فوقها ثم رمى بنفسه إلى الأرض وسلم على كسرى فرد عليه السلام ومن ثم عاد فقفز إلى نافذة عالية في حائط الإيوان ورجع عائداً إلى الأرض وهو يقلب بالهواء ويلعب ألعاباً مضحكة حتى ضحك مه الملك كسرى وجميع الموجودين .

وبعد ذلك قال له الوزير بزرجمهر قد كفى يا عمر فقد سرمنك حضرة الملك

وأعجب من أعمالك ـ قال إني أريد أن يفي لي بوعده فإنه ممن وفى وإني ممن يوفي له ولا أريد أن أضيع حقاً وعدني به . قال كسرى ماذا يقول فحكى له بزرجمهر عن كلام عمر فقال لقد أصاب فإني وعدته بذلك ولابد من القيام بالوعد لأن له علينا ثمن البشارة وأمر أن يدفع له ألف دينار فبلغه الوزير فضحك منه وقال له هذا المبلغ لا يكفي في جنب عذابي إلى طهران وركضي وراء نواله لا سيما وأن لي جماعة يبلغ عددهم أربعون عياراً فماذا يا ترى ينال الواحد منهم فشرح الوزير لكسرى كلامه فضحك منه وأمر له بعشرة آلاف دينار فأخذها وودع الوزير وكسرى وقفز من نافذة من أعلى الإيوان إلى الأرض وانطلق من هناك والجميع يتعجبون من خفة عمله وسرعة جريه وعياقته وبقي سائراً إلى أن دخل بين معسكرهم ووصل إلىَ أصحابه فقال لهم اتبعوني فقد جئتكم بالمطلوب وسينال كل واحد منكم قسمه وسار أمامهم فانطلقوا حواليه حتى جاء أكمة صغيرة فصعد عليها وأبقى جماعته في أسفلها فجعل ينثر الذهب من فوق فيقع إلى الأسفل فيزدحمون عليه ويتضاربون لالتقاطه وهو يضحك الضحك الشديد مسروراً من عمله هذا إلى أن فرغ الذهب من يده فحزن جداً على فراغه وتمنى بأن يكون باق معه شيء ينثره ثم نزل عن الأكمَة وسار وسار جماعته من خلفه وما منهم إلا من أصابه بمال الكثير إلا هو فقد رجع صفر اليدين ولما دخل بين الخيام جاء إلى أخيه فسأله عن سبب غيابه فحكى له ما كان منه عند كسرى وكيف أنعم عليه بعشرة آلاف دينار فتكدر الأمير حمزة من ذلك وقال لماذا هذا العمل فإنه مهين بشأن العرب ويظن الاعجام أنا شحاذون نقصد أخذ المال منهم بالخداع والحيلة وهذا مما لا يرضيني فإياك من العود إليه ثانياً وعندي أن نذهب بالمال إلى الوزير بزرجمهر وتخبره أن يعيده إلى كسرى فاننا في غنى عنه وما من حاجة لنا فيه لأنه لم يكن على سبيل الانعام عليك منه بل طلبته على سبيل السؤال منه قال لم يبق معي من الذهب ولا واحد قال اين ذهبت به قال أنفقته في سبيله ثم حكى له ما كان منه ومن أصحابه فضحك حمزة وتركه فأوصاه أن لا يعود ثانية إلى مثل هذا العمل .

فهذا ما كان من الأمير حمزة وأما ما كان من كسرى أنوشروان فإنه أقام في المدينة إلى اليوم التالي بقصد الراحة وفيه خرج من قصر منامته وصعد إيوانه العالي ودخل الديوان وجلس في صدره على كرسيه المرصع وجاء أرباب مجلسه كل على رتبته وإذ ذاك قال لبزرجمهر إني لا أريد أن أصبر أيها الوزير الأمين عن مشاهدة الأمير حمزة أكثر مما صبرت وأريدك أن تذهب إليه وتدعوه عن لساني أن يأتي إلي لأراه وأقوم بما هو لائق به وبشأنه فأجاب الوزير أمر سيده وخرج بالزينة الفاخرة واصطحب معه جماعة من أعيان بلاده وجاء خيام الأمير حمزة فخرج إليه ولاقاه وقبل يديه وسلم عليه ودخل وإياه صيوان الملك النعمان فترحب بهما وجلسا عنده وإذ ذاك بلغ الوزير الأمير حمزة دعوة كسرى وأنه بعثه

إليه ليأتيه به فقال حمزة إني لا أضيع لك تعباً ومن الواجب أن أسير بخدمتك إلى ديوان الملك كسرى حتى أراه وأسلم عليه فقال الملك النعمان إن ذلك لا يوافق وقد يحصل منه سبب وربما تخرب لأجله المدائن ويقع ما ليس في الحساب فقال حمزة وكيف ذلك قال أعلم أن العجم متكبرون ولا يعاملون العرب إلا معاملة الهزؤ والسخرية فإذا دخلنا المدينة على مثل دعوة الملك أو إذا جلسنا في ديوانه فلابد من أن أحدهم يضحك علينا ومنا وإني أعرف ذلك وقد وقع معي مراراً فما أصبر عليه حتى أن أن صغيرهم كان يضحك علي كأني موضوع للهزؤ إلا أنك إذا شاهدت أنت ذلك ووقع عليك أو على أحد أتباعك لا تصبر عليه فتلتزم إلى إشهار السلاح ويقع بيننا وبين الاعجام ما يكدرنا ويغيظنا ويغيظ الملك أيضاً فاذا شاء الملك كسرى ومنع قومه من استعمال هذه العادة التي اعتادوا عليها ومن تجاسر عليها قتلناه فلا يطالبنا أحد بدمه دخلنا وإلا فاننا لانرى كسرى ولا مواجهته وقد حان الزمان الموافق لقيام شرفنا ومنع ذلنا من هذه الطائفة التي احتقرت عباد الله وكرمت عباد النيران من أبناء جنسهم فسلم له بزرجمهر بذلك وقال له أصبت به ومن الواجب أن تسعوا في كل ما به راحة العرب ورفع شأنهم فقال الأمير حمزة لما كنت تعرف ذلك يا سيدي فلم أتيت إلينا قبل أن تقرر هذه الحالة قال إن مولاي الملك أمرني ولا أقدر على مخالفة أمره وإلا فيغضب مني وحيث قد أبديتم ذلك فإني أبلغه إياه ومن ثم رجع الوزير عائداً إلى المدينة فدخلها وقدم إلى كسرى فسأله عن الأمير حمزة فأخبره بكل ما كان من أمره وأمر النعمان وقال له إن هذا الأمير حر الضمير لا يقدر أن يصبر على إهانته فإذا رأى سبباً يحط من شرفه جرد سيفه وفعل العجائب في من أهانه وبذاك خاف من أن يبد من قومنا سوء معاملة بحقه فيلتزم إلى نقص محبتنا ومن ثم تنقلب بيننا وبينه الاحوال ونلتزم عوض أن نعامله بالاكرام أن نمنع شره فقال الملك كسرى لقد أصاب في هذا فإذا وقع من أحد في حقه ما يغيظه جازيته بالقتل ولذلك أريد منك أن تبعث منادياً ينادي بكل أسواق المدينة وشوارعها أن من لا يبدي الاستحسان من اعمال الأمير حمزة أو أحد أتباعه أو من يظهر سوء أدب أو ضحك من قبيل الهزؤ والاستخفاف يكون دمه مباح فإذا لم يقتله حمزة يقتله الملك ففعل بزرجمهور كل ما أوصاه به الملك حتى بلغ الخبر الكبير والصغير وبعد أن انتهى من كل هذه الأمور بعث الوزير برسله إلى الملك النعمان والأمير حمزة يخبرهما بما كان من أمر كسرى وكيف نشر إعلانه بكل المدينة ولذلك ما من بأس من إتيانهما إلى داخل المدينة إجابة لدعوى كسرى أنوشروان .

وشاع في كل البلدان أن الأمير حمزة سيدخل المدينة باحتفال مع رجاله لأجل دعوة الملك فجاءت الناس افواجاً نساء ورجالاً وما ذلك إلا كون المنادي كان وسيلة لتشويقهم إلى الفرجة في تلك المرة مع أنه دخل قبل ذلك دون أن يفكر أحد بالاتيان إليه إلا الأعيان

فقط ولا سيما في تلك المرة لما رأوا أن الملك قد بعث وزيره بختك ليلاقي الأمير عند أبواب المدينة وهو بالملابس الرسمية المذهبة ومعه جماعة من ديوان الملك وأن نصف العساكر على الطرقات وهي على غاية الانتظام والاحتشام كل ذلك بتدبير الوزير بزرجمهر ليعرف الخاص والعام محبة كسرى للأمير وقد بين له أن كل ما عمله معه لا يعادل عمله وهو إرجاع بلاده إليه .

فلما بلغ النعمان والأمير حمزة كلام الوزير نهضا وركب كل منهما جواده وأخذ اتباعه وركب أصفران الدربندي والأمير عقيل ووزراء النعمان وامراء القبائل الذين كانوا معه . في محاربةخارتين وتقدموا إلى أبواب المدينة وعند دخولهم وجدوا تلك الزينةوالابهة فانبهروا حمزة وقال للنعمان لم كل هذا الشيء فما من موجب له فإن كسرى يريد أن يفرج الناس علينا كأننا ألعوبة ومن الموافق أن ندخل دون أن يعلم بنا أحد قال هذا مما يزيد في عظمتك ويظهر حب الملك لك لأنه يريد أن يلاقيك ملاقاة الملوك الكبار وها قد بعث وزيره الاكبر بختك لملاقاتك قال وهل عند كسرى وزير مقدم غير بزرجمهر قال عنده وزير آخر اسمه بختك هو الذي ستراه الآن غير أنه يبغض العرب جداً ويتمنى لهم الهلاك والقلعان ولولا وجود بزرجمهر عند كسرى لكان سعي منذ زمان بهلاكنا قال إذا لابد من كبحه واذلاله وأريه كيف يبغض العرب وفي تلك الاثناء وصلوا إلى أمام الوزير فترجل النعمان وترجل الوزير وسلما على بعضهما ففعل الأمير حمزة كذلك وكان بختك متكدر من هذه الحالة كل التكدير ولم يسبق له أن ضحك بوجه النعمان مرة فكيف هذه المرأة أجبر بأمر سيده يبدي للعرب الآتين كل اعتبار واحترام إلا أنه كان قد ضمر الشر في المستقبل للأمير حمزة ومع ان طالع الأمير كان محبوباً وكل من يراه يسر ويعشقه أولاً لجماله وثانياً لشجاعته كان بختك بعكس ذلك فإنه حالما وقع نظره عليه جفل قلبه منه وزاد له بغضاً ولم يربداً من السعي في هلاكه وكان ذلك منه مزية اعتاد عليها أو جدتها به دواعي الحسد الخبيث وبعد أن سلم كل من النعمان ومن معه على الوزير بالاشارة لأنه كان لا يعرف باللغة العربية. وهم لا يعرفون الفارسية مشوا جميعاً إلى جهة الأيوان والناس تزدحم من اليمين والشمال والنساء قد تسلقن السطوح وصعدن على الجدران يتفرجن على الأمير حمزة الذي خلص لهم بلادهم وكيف أن ملكهم أدخله بالزينة والعظمة .

قال وكان من العادة أن لا يدخل أحد على كسرى وهو في ديوانه لابساً سلاحاً بل من الواجب عليه أن ينزع سلاحه في الخارج ويبقيه عند الحجاب إلى حين خروجه اعتباراً للملك وحرصاً على حياته من ان يغدر به أحد من أصحاب الغايات والمفاسد أو يحصل من ذلك خلل في ناموسه وشرف عظمته . فعندما وصل حمزة إلى باب الديوان أراد

أن يدخل بسلاحه فمد الوزير بختك يده لينزع منه السيف دون أن يكلمه بكلمة فجفل الأمير من ذلك وامتنع عن تسليم السيف وقال في باله لابد من أن تكون غاية الفرس رديئة يريدون أن يأخذوا سلاحنا ليبطشوا بنا وقد أخبرني النعمان باحتقارهم العرب . ثم مد بختك يده ثانية ليأخذ السيف وأشار إليه أن يسلمه إياه فزاد حنق الأمير وتكدر من عمله وصاح إني لا أسلم سيفي لاحد قط ثم رفع يده وضرب الوزير كفاً على صفحة خده من قلب محروق منه سمع له صوت وعوي بختك كما تعوى الكلاب ووقعت أضراسه وأسنانه وسال الدم من فمه وتألم جداً وفي الحال وضع بختك يديه على خده ودخل متألماً متوجعاً وأما الأمير حمزة فإنه صاح في الحجاب وقال كل من يدنو منكم إلي أعدمته الحياة وتركته ممداً على الأرض ونظر إلى الملك النعمان فرآه قد نزع سيفه فصاح به وقال له البس سيفك فلا تنزعه فإن الفرس يقصدون لنا شراً فقال له إن هذه من العوائد عندهم أن لا يدخل أحد بسيفه وسلاحه إلى بين يدي الملك قال أنا لا أعرف هذه العادة ولا بيني وبين كسرى شرط عليها فإن أعجبه أن أدخل بسيفي دخلت وإلا رجعت من حيث أتيت وسمع كسرى من الداخل الصياح ورأى وزيره بختك على تلك الحالة فانبهر وخاف أن يكون أحد أغاظ الأمير فسأل عن الخبر فقيل له أن حمزة لا يدخل إلا بسيفه وقد أراد الوزير نزع السيف منه فضربه على وجهه صفعة كادت تعدمه الحياة وقد ذهب بثلث عمره وأضاعت منه أسنانه فالتفت وزيره بزرجمهر وقال له أسرع إلى الأمير وأدخله بسلاحه ومن معه فما من خوف منهم وإلا أوقع بالعساكر وجرى بينه وبين العجم أمر مكدر فجاء الوزير إلى خارج الإيوان فوجد حمزة عند الباب والناس قد تفرقوا من حواليه وخافوا منه كل الخوف فدنا منه الوزير وقال له ادخل يا حمزة بسيفك ولا تلم أحداً سواي لأني نسيت أن أخبرك بذلك أو آخذ الإذن لك بالدخول فلا يعترضك أحد قال أنا لا أفارق سيفي قط ولو وقع الشرط بيني وبينكم منذ الأول ما دخلت هذه البلاد وما أخذ السلاح إلا دليل على سوء الظن وأن يقصد الملك أو رجاله أن يجردونا من سلاحنا ثم يهجموا علينا فيقتلونا فمسكه الوزير من يده وأدخله وهو يقول له حسناً جازيت بختك فهو يستحق أكثر من ذلك فقال له أكد يا سيدي أنه طالما وقعت عيني عليه جفل قلبي منه وكنت أريد أن أقتله في الحال غير إني عرفت أن كسرى يحبه وقد قدمه عليك فلم أرض أن أغيظه لكن لابد من قتله .

ولما دخل على كسرى وشاهده وهو على تلك الهيئة والجمال وقعت محبته في قلبه صبر عليه إلى أن قرب منه وقبل يديه فنزل له قليلاً عن عرشه وقبله وشكره على فعله وأمر أن يقدم له كرسي إلى جانبه فجلس وهو مسرور من معاملة كسرى له ثم التفت إلى يمينه فرأى الوزير بختك جالساً وقد ربط حنكه بمنديل وقد سمن وورم فعرف أن لابد أن

يكون متكدراً منه غير أنه لم يبدأمراًاولا اعتذر إليه بل أعرض عنه إلى الملك كسرى وقال له لا تؤاخذني ياسيدي حيث قد ضربت الوزير بختك لأنه قصد أن ينفذ عظمته في وأراد أن يجعلني ذليلاً حتى تصورت أن نيتك عليّ غير سليمة ومرادكم أخذ سلاحي لتوقعوا بي وهذا الأمر أجهله أنا وليس معروف عندنا نحن العرب وقد رأى مجازاته على سوء تدبيره لأنه كان من الزم أن يدخل عليك ويستأذن لي منك كما أذنت لي مع وزيرك بزرجمهر ومن المعلوم عندك أني لا أحب أن أدع أحداً يتعدى علي لأني ربيت على نعمتك وقبل أن خلقت دعيت من رجالك فما الداعي يا ترى لإهانتي. فقال له كسرى لابأس أيها الأمير إذا غلط وزيري وأخطأ فهو محب لك لا يقصد إهانتك ولابد من إصلاح الأمر بينك وبينه. ولم يبد بختك ولا كلمة بل بقي صابراً على دهره ينتظر سنوح الفرص لينتقم من الأمير حمزة ويعجل عليه أخذاً بثأره. من ثم قدم للأمير حمزة وجماعته الشراب واستعاد الملك كسرى منه حديث حربه مع خارتين وكيف قتله فأعاد عليه ذلك إلى أن مضى قسم من النهار.

ثم إن كسرى سأل الأمير حمزة إذا كان يرغب في الأكل لتقدم لهم موائد الطعام فقال له نعم إني جائع وكذلك جماعتي وأريد أن أبقى بقية النهار إلى المساء هنا فأمر في الحال أن تمد الموائد للغذاء ودعى الأمير حمزة وجماعته وأعيان الفرس والملك كسرى ليأكلوا على تلك الموائد فنهضوا إليه ونظر الأمير حمزة إلى ما على المائدة فوجد صحوناً من الذهب تضيء مثل الكواكب وهي تلمع وعليها من المآكل الفاخرة مالم يذقه قط من طيور مقمرة بالسمن محشوة بالصنوبر ودجاج وغير ذلك من السكارج واللحومات والكبيبات وكلها موضوعة بتلك الصحون وعند كل صحن فوطة من الحرير المزركش وملعقة وشوكة من الذهب مما تأكله أهل الحضارة ولدى جلوس الاعجام على المائدة أخذ كل واحد منهم ملعقة وشوكة وبدأ يأكل وبقي حمزة جالساً لم يمدد يداً إلى المائدة فطلب كسرى من بزرجمهر أن يسأله لم لا يأكل فسأله فقال له إني ربيت على عادة العرب ولا أريد أن آكل بغير عادتي وأنتم تأكلون هنا بالواسطة أي تجعلون بين يديكم وفمكم واسطة ونحن لا نحب الواسطة وعندي إذا شئتم أكلنا بأيدينا دون أن يظهر مكدر منكم عند أكلنا والا فاننا لا نأكل معكم قط فبلغ الوزير كسرى كلامه فقال له لابأس فإني أعرف أن البدو يأكلون بأيديهم وهذا أمر اعتادوا عليه وهو من الأمور التي لا يلتفت إليها وكل إنسان يأكل بحسب مشتهاه.

وحينئذ شمر الأمير حمزة عن ساعده ومد يده إلى الخبز فمزقه وأدار بيده اللقمة ولفها بما في الصحن من الطعام وفعلت العرب مثله وأخذت الأيدي تنزل وتطلع ودار معمل الأكل واشتغل فيه الأمير حمزة بجد واجتهاد وبقي ذلك إلى أن فرغ الجميع من الطعام

فرجعت الصحون ووضعت غيرها من الحلويات من كامل الأشكال المصطلح عليها عند العجم من أفخر المآكل وأعظمها فأكلوا الحلوى واكتفوا منها ثم نهضوا ورجعوا إلى مراكزهم وقدمت لهم القهوة فشربوها وبعد ذلك قال كسرى إني أريد أن أقدم للأمير حق أتعابه وإن كان ليس من شيء يقوم بحق واجبه ثم أمر أن يقدم إلى العرب كل واحد ثوب عربي ثمين وأن يقدم إلى الملك النعمان ثوب أيضاً وإلى الأمير حمزة فقدمت الثياب المذكورة وكان ثوب الأمير حمزة من أغلى الثياب وأعظمها وأبهاها قد خصه به تفضيلاً له على سواه ولما رأى أصفران الدربندي أن إنعام كسرى قد وصل إليه وأنه جلس بين يديه نهض اليه وقبل يديه وشكره على إنعامه وطلب منه المسامحة عما كان يبديه في أول حياته قبل أن يجتمع بالأمير حمزة من قطع الطرقات والتعدي على أصحابه فسأل الملك كسرى عنه ومن هو وما يريد . فقال له بزرجمهر هذا هو أصفران الدربندي الذي كان يرابط في الطرقات ويتعدى على أهل السبيل فقد لاقاه الأمير حمزة في الطريق وحاربه وأسره فصالحه على أن يكون من رجاله ومن قومه ويعيش بقية عمره في ركابه وأنه الآن يعتذر إليك عما سبق منه ويسألك المسامحة والعفو عنه فقال إني أسامحه إكراما لخاطر الأمير حمزة لأنه من رجاله ومساعديه .

وبعد أن بقي العرب عند كسرى كل النهار طلبوا اليه الاذن بالذهاب والرجوع إلى خيامهم فقال لوزيره بزرجمهر أن يخبر حمزة ليبقى بالمدينة وينام مع جماعته في قصر خصوصي يعده لهم أفضل من قيامهم في الفلاة فقال له حمزة إننا لا نرغب أن ننام إلا في خيامنا فهي أفضل عندنا من القصور الشامخة التي تبتنوها وتتكلفون عليها ثم انه ودع الملك كسرى وخرج من الديوان وتبعه قومه ولما وصلوا إلى الخيام قال النعمان للأمير حمزة إني سررت جداً في هذا اليوم لأن كسرى غير مسراه مع العرب وعاملهم معاملة اللين والرقة واللطف وأبدى لك ما يرفع من قدرهم ويعلي شأنهم بخلاف الأول فإني كنت أحضر على الدوام في كل سنة إلى بين يدي كسرى فكنت أعامل بالإهانة والاذلال وعدم الاكتراث ليس فقط من كسرى بل من جميع قومه لاحتقارهم العرب وحطهم من شأنهم وما ذلك إلا إكراماً لك وخوفاً من تكدير خاطرك قال حمزة لا بد أن تنقلب الأيام فتعامل الأعجام نفس المعاملة التي كانوا يعاملون بها العرب لأن الله سبحانه وتعالى يرضى على العرب لطاعتهم له ولا يقبل بأن يبقوا أذلاء عند عباد النيران .

ثم إن النعمان دخل إلى صيوانه لينام وذهب الأمير حمزة إلى صيوانه فدخله وأقام الأمير عمر عند بابه للمحافظة عليه إلى أن مضى قسم من الليل وعمر لا ينام ولا يأخذه هدوء بل كان كالشيطان الرجيم ينطلق من جهة إلى ثانية طائفاً حول الصيوان وفيما هو كذلك إذ لاح له شيخ يتقدم إلى جهة الصيوان فانقض عليه كالبرق وقبض على عنقه وقال

من أنت فقال له اتركني فإني عربي مثلك قال هو أنك عربي ولكن لبسك لبس الأعجام قال إني خادم عند ستي مهرد كار بنت كسرى أنو شروان وقد دعتني هذه الليلة وأعطتني كتاباً لسيدي الأمير حمزة وبعضاً من طعامها أمرتني أن أقدمه إليه وأعرض عليه كتابها وأجيء إليها بالجواب وإني خادم عند أبيها من عدة سنوات أعرف اللغة الفارسية جيداً وهي أوصتني وصية أن أقصد عمر العيار وأتوقع عليه من قبلها وأدعوه لمساعدتها عند أخيه الأمير حمزة فقال له لقد وصلت فأنا هو عمر وإني أساعدها بكل ما تريده بشرط أن لا تقلل لي من المال الذي يقع بيدها لأن عندي أربعون عياراً وأزيد على الدوام أن أبذل لهم الأموال ليثروا ويعرفوا حبي لهم قال إن ذلك يكون لك على الدوام . فقال له أعطني الكتاب وما جئت به وانتظرني لأحضرك أمام الأمير حمزة فأعطاه الكتاب والوعاء الذي فيه الأكل الفاخر وخاتم من الذهب عليه فص من الجوهر الثمين وقال له أوصل كل ذلك إلى سيدي الأمير حمزة فأخذها منه ودخل داخل الصيوان ودنا من سرير الأمير حمزة وصاح عند رأسه يدعوه فاستيقظ مرعوباً وقال له ماذا جرى ولم جئت إلي في مثل هذا الوقت .

قال ليس الآن وقت النوم بل انهض وتيقظ وتبصر . قال ماذا تعني أهل وقع أمر مكدر قال لا بل وقع أمر مفرح جداً وهو أن رسولاً جاء من قبل مهردكار بنت الملك كسرى يحمل كتاباً لك وخاتماً من الماس ووعاء به أطعمة وهو ينتظر في الخارج للجواب . فخفق قلب الأمير حمزة وشعر عند سماعه اسم مهرد كار بنت كسرى شعوراً غير اعتيادي ولم يكن رآها ولا سمع بها ولا عرف بوجودها ولا يعرف مثل هذه الأميال ولا كيف أن الإنسان على الدوام أسير قلبه في مثل هذه الأحوال . وفي الحال نهض من سريره وتناول الكتاب وجاء إلى قرب المصباح ففضه وقرأه فرآه مكتوباً بالخط العربي ومعناه :

أسيرة الحب قيدها الجمال قيوداً لا تنحل ورمتها أيدي ألطافك بسجن من الهوى يريد ويقود بها على الدوام لم يسبق لي أن ملت إلى غرام أو فكرت بمثل هذه الأوهام أو خطر لي أن أعلق قلبي بفتى من الفتيان أو أسلك سبل هذا الميدان ولا أعرف أن نظرة واحدة كافية أن تفعل بي ما فعلت وترميني بالوسواس وتلقيني على سرير الضنا وتجعلني أسلك سبيلاً ربما كان غير موافق سلوك من لا يعرف ولا يدرك مفاعيله . أنا مهرد كار بنت الملك كسرى أنو شروان رجعت مع أبي إلى المدائن من طهران وقد زرع بفكرى خبر أعمالك وبسالتك وإقدامك وعلو منزلتك عند أبي فأخذني لذلك الشوق إلى أن أراك على سبيل الحب على أمل أن لا يحصل لي ما أنا فيه الآن وفيما أنا في قصري المقابل للإيوان الذي يقيم به أبي سمعت من قهرمانتي أن الأمير حمزة سيأتي في هذا اليوم لزيارة المدينة ويأتي الإيوان ففرحت جداً وقلت في نفسي لا بد لي من أن أرى هذا الذي فعل معنا الجميل وأعاد الينا بلادنا إلى ملكنا وقتل عدونا فجلست في شباك مطل إلى باب الايوان

لعلمي أنك لا بد في مرورك أن تدخل من هناك فأراك وصبرت إلى أن رأيت موكبك قد أقبل وأنت إلى جانب الملك النعمان فأخذت من القرينة أنك أنت المقصود لأني رأيتك كالبدر إشراقاً والغزالة بهاء والأسد بسالة وأنت أصغر الذين معك سناً وكنت سمعت أن الشعر لم ينبث حتى الآن بعارضيك أكبر برهان دلني على أنك أنت هو الأمير حمزة انعطاف قلبي إليك بالرغم عني وتوجيه أفكاري لنحوك من غير قصد مني حتى بحت بالرغم عني إلى قهرمانتي وقلت لها أني بكلي أريد أن أرمي بنفسي على هذا الأمير العربي الذي أراه . وكنت أنت لا تنظر إلى فوق ولو نظرت لكنت رأيتني وعلمت حالتي ومع أن حواسي كانت مشغلة كلها بك كنت أتمنى أن تنظر إلى جهتي لأرمي عليك التحيات ولا بد أن قلبك كان يميل إلي كما مال قلبي إليك فنصبح متحابين على الدوام . وها اني أعدك من هذه الساعة إلى الابد اني قائمة على حبك لا أختار عنك بديلاً ولا أرضى لي سواك محباً ولم يكن قصدي من حبي لك إلا أن أتدين بدين الله الذيُ تعبده أنت وأكون لك زوجة فإذا قبلتني تكون السعادة قد عاهدتني على الراحة والهناء وإلا فالشقاء والويل والعذاب والتعاسة لي لأني سأموت حالاً بعد قطع الرجاء من نوال غايتي فاشتر حياتي واشفق على ذلي ولا تضيع فتاة حفظت مع صغر سنها كل قواعد الآداب وتعلمت العلوم الفارسية والعربية وإني وإن كان أبي له غيري عدة أولاد فانه يحبني ويفضلني عليهم جميعهم ولا يفعل إلا ما يرضيني وقد بعثت إليك يا سيدي بعربون الحب والعهد هو خاتم من خواتمي الثمينة لتعرف بعظم محبتي وتتذكرني كلما نظرت إلى هذا العربون ومتى قبلته يكون ذلك دلالة كبرى على قبولك إياي ورضاك بي ولا أريد منك بدلاً من ذلك إلا تناول الخاتم والابتسام منه . وحيث لاخفاك أن الإنسان يسر جداً إذا رأى أنه يشارك ويقاسم حبيبه في كل شيء يأكله ويلتذبه عاهدت نفسي أن أبعث اليك مع خادمي وهو أمين جداً بألوان الطعام التي آكل منها فتطمئن نفسي وتستريح جداً عندما أفتكر أن الذي آكل منه أكل منه حبيبي فاياك من أن تمتنع عن قبولي خوفا من أن الله سبحانه الذي يعرف ما في الخفايا يجازيك على ظلمي ولا يترك لك مثل هذه الخطيئة إذ تكون قد قتلتني ظلماً والله لا يحب الظالمين . وإني أعلمك يا سيدي إذ شئت أن تراني فإنك حال دخولك إلى الإيوان أنظر إلى الوراء وارفع بنظرك إلى فوق فتراني قائمة بالشباك أراقب خطواتك وأنظر إليك مترقبة أن تراني لتعلم أني لا أريد ظلمك ولو أعرف من نفسي أني غير موافقة لك لتحملت شدة الحب وسلمت بذاتي إلى الموت دون أن أطلعك على أمري لعلمي أنه ليس من العدل أن تحب وتعلق آمالك إلا بمن هي نظيرك كمالاً وجمالاً وأدباً ولا أقول ذلك مفاخرة بنفسي بل لتكون بأمان من هذه الجهة وتعلم بأنك ساكن بقلب فتاة قادرة على خدمتك بأحسن أسلوب تريده فاقبلني اقبلني واعذرني (وتحت الكتاب هذه الأبيات) :

خذ سطوراً اليك قد بعثت ... تروم للنفس ما يعللها
أكتبها والدموع تنقطها ... بعبرة لا زلت أهملها
نعم فظني إذا بصرت بها ... نيابة عن فمي تقبلها

وكذلك غيره) :

يا ربع كم لك من شجي هاتك ... مغري بجوذرك المصون الفاتك
أوقفت دمعي في غرامك بعدما ... سد الهوى إلا اليك مسالكي
عهدي وشمل السعد فيك مقيدا ... والعيش يبسم عن ثنايا ضاحك
وعليك من وجه الأمير بشاشة ... أفديه من وجه أغر مبارك
مولى جناحا خيله ورجاله ... يوم الوغى من فتية وملائك
تمشي الفوارس تحت ذيل ركابه ... طوع القياد فيا له من مالك

وبعد أن فرغ الأمير حمزة من قراءة الكتاب زادت به الوساوس وتلاعبت به أيدي الحب وأخذت تقلبه من اليمين إلى الشمال ومن الشمال إلى اليمين وهو مطرق إلى الأرض ينظر إلى نفسه نظر المتعجب ويفكر في كيف أن هذه الفتاة رغبت في أن تدعوه إلى حبها ومعاهدتها مع أنها بنت ملك يملك على جانب عظيم من الأرض وهو بدوي لا يملك مالاً ولا قصوراً يقدر أن يرضيها بالإقامة بها وإن كان بقوة جنانه وقائم سيفه يقدر أن ينال كلما يريد غير أنه لا يحكم على المستقبل فلما رآه الأمير عمر على تلك الحالة قال له لم هذا التهامل بالجواب وهل تتردد بالقبول ومن يصل إلى أن يكون محباً لبنت الملك كسرى ويتأخر وأي شرف أكبر من هذا وهي تقول لك إنك إذا امتنعت عن إجابة طلبها تلقيها بالخطر وتسبب لها الضرر قال ويلك يا وجه القرد إني مرتاب في موافقة هذا الأمر وأخاف أن لا تكون جميلة كالواجب وتكون كبيرة بالعمر وهذا مما لا أرضاه لنفسي ولا أريد أن أرهن قولي عندها وأرجع عنه فيما بعد نعم إني أرى من ذاتي داع يدعوني إلى محبتها ويصور لي ذهني أنها جميلة ولا أريد أن أبت شيئاً قبل النظر إليها والسؤال عنها وعن معارفها وآدابها : قال له هذا في الغد نسأل عنه ونمتحنه من الملك النعمان لأنه أخبر بأقوال كسرى وأولاده ويعرف كم سنة سن كل واحد منهم قال أتريد أن تفضحنا عند العرب ونشهر هذا الأمر قبل أن نباشره ونسعى فيه لا سيما وأن الأمر خطر ولا بد أن يحول دونه صعوبات جمة . قال أنت هذا الأمر لا يعنيك فلا أدع أحداً يعرف غايتنا ثم إن عمر خرج إلى رسول مهردكار وقال له إن مولاي مسرور من عمل سيدتك وليس يملك الآن دواة وقرطاساً ليكتب إليها جواباً وسيجيبها في غير هذا الوقت فقل لها تكن بأمان واطمئنان فالأمر يقضى على حسب مشتهاها وما من مانع يمنعها بل لا تنسى ما وعدتني به من المال

وفي صباح اليوم الثاني خرجت العرب إلى الخارج وانتظروا الأمير وفي ظنهم أنه يقصد المدينة في ذاك اليوم ويقيم في ديوان كسرى كاليوم الأول فلم يخرج بل بقي إلى أن جاءه النعمان فخرج إليه إلى صيوانه وبعد أن سلم عليه جلس بالقرب منه واجتمع أمراء العرب هناك فقال النعمان ألا تحب أن تنزل هذا اليوم المدينة وتجتمع بالملك كسرى فإنه ينتظر قدومك قال إني لا أريد في هذا اليوم أن أقيم عنده بل أقيم بين قومي كي لا يقال عنا عند الأعجام إننا ثقال الأعمال وليعرف كسرى أن أنفسنا تأنف التمسك به كثيراً إلا إذا هو طلبنا وسعى في أن نكون عنده أي وقت أراد وبينما هم جالسون وقد أخذ بينهم الكلام على كسرى وبلاده وأحواله .ومحبته للأمير حمزة ومعاملته إياه معاملة الملوك مع أنه لم يكن قبلاً يكرم عربياً ويعتبر أن العرب قوم همج لا يصلحون للمجالسة ولا يوافقون للاستئناس .أما الآن فقد أصبح محباً لهم إكراماً له ولا بد أنه في كل يوم يفتقده ويدعوه إلى الانضمام مع رجال ديوانه فقال عمر وكان واقفاً بالقرب من أخيه حمزة سل ان كسرى له أولاد وهل أن أولاده مثله أرقاء وأصحاب لطف وكمال وآداب . قال نعم ان الملك كسرى له ثلاثة أولاد ذكور اسم الكبير منهم هومزتاج والثاني فروح والثالث خرسف وأما من جهة صفاتهم فهم مختلفو الأطوال وحتى الآن لم يظهر من أعمالهم شيء قط . قال إننا نريد أن نعرف أحوال كسرى وأحوال بلاده وعائلته وهل عنده غير هؤلاء الثلاثة أولاد ذكور قال إني أعرف أن له عدة بنات لكن لا أعرف أسماءهن جميعهن وما أعرفه ما هو شائع عن بنته الصغيرة واسمها مهردكار ومعناه بالعربي شمس الدنيا وقد اشتهرت ببلاد العرب والعجم بأنها لا يوجد واحدة أجمل منها في أيامها لكني لم أرها وقد طلبها ملوك وعمال وأبناء وزراء ولم تقبل أحداً منهم قط وأبوها يحبها جداً ويعلم أنها وحيدة في عصرها جمالاً وأطواراً فلكي يجعلها كاملة في كل خصالها وضع لها الأساتذة والمعلمين حتى تعلمت كل العلوم التي يمكن لأحسن الرجال وأذكاهم أن يتعلمها ويدرسها . قال وهل هي كبيرة بالعمر لأن لا بد أن لن تكون فوق العشرين حيث اكتسبت هذه الشهرة والوقت التي تعلمت به لا بد أن يكون طويلاً فعرف النعمان أن عمر يقصد معنى بهذا السؤال وترجح عنده أن حمزة يريد أن أخاه يسأل مثل هذا السؤال لأن دلائل الحب كانت لا تخفى عليه وقد مال بكل سمعه وآذانه على الانتباه فلحظ الواقع وقال لعمر لا تبلغ الرابعة عشرة وقد تعلمت لا بطويل الوقت ولو كان غيرها لصرف عشرين سنة لكنها بمدة خمس سنوات تعلمت عدة لغات وعلوم نافعة عربية وفارسية .

وكان الأمير حمزة صاغياً إلى هذا الكلام وقد ثبت عنده كل الثبوت أنها موافقة له لما اشتهر عنها من الجمال وحسن الخصال وأن كثيراً من الأمراء والوزراء رغبوا فيها فلم يحصلوا عليها وأخذ الحب ينمو في فؤاده ويزيد دقيقة فدقيقة وهو لا يتصور الا جمالها

وقلبه يتحدث بها وصار يودان ينزل المدينة ويمر من المكان الذي أشارت له عليه ليراها ويشاهد جمالها وأقام مدة في صيوان الملك النعمان ثم رجع إلى صيوانه وأقام إلى المساء وقد قال له عمر أسمعت يا أخي ما قال الملك النعمان عن مهردكار وإني أراها موافقة من كل وجه واسأل الله أن يوصلك إليها وتصبح زوجة لك . فقال له دع عنك هذا الكلام ومن الصواب أن لا تفكر بشيء بعيد النوال قال لأي سبب بعيد النوال ؟ قال أما سمعت كم طلبها من الملوك فلم ينل أحد مراده لأنها بنت كسرى أنو شروان وجميلة للغاية وقد تربت على الدلال تربية تؤذن بوجوب عظمتها ومجدها ولذلك أرى صعوبة كثيرة وخطراً عظيماً بالسعي في نوال مثل هذا الأمر وأرى من الواجب قبل التطرف والدخول في مثل هذا الشأن أن ننظر في العواقب ونرى تلك الصعوبة وإني أعرف من نفسي إذا امتنع كسرى أو حالت أمور أخرى بيني وبين نوال غايتي التزم إلى تجريد سيفي فأقتل كسرى أو غيره ممن يهم مهرد كار أمرهم ولذلك أرى من الصواب أن لا نفكر إلا بأمر تحت طاعتنا من إمكاننا ولنا قال له إن كسرى يحبك ولا يمنع عنك أمراً تريده فلا بد إذا علم برغبتك بزواج بنته أن يسرع إلى اتمام ذلك ويفعل كل ما يرضيك قال وإن كان كسرى يحبني إلا أنه يرى من العار عليه أن يزوج بنته لبدوي وهم يكرهون العرب ويحطون من قدرهم ولم يسبق أن وقع مثل هذا الأمر فيلزم أن ينقض تلك المحبة ويسلك معي مسلك العناد إذا رآني مصراً على طلبي ولا ريب أني أعرف شرف الملوك وأعرف كثرة رغبتهم في المحافظة على ناموسهم وأعرف أيضاً إذا رضي كسرى بزواجي يقال عنه أنه زوج بنته برجل من أصناف الناس ومما يليق به أن يكون خادماً عنده وهذا يورثه العار والشنار قال إذا كان القاضي راضي فلم تطفل الشهود فحيث هي راضية عنك قابلة فيك أخذناها بالرغم عن الجميع وإذا شئت دخلت قصرها وأخرجتها منه وسرت بها إلى أي مكان أمرتني دون أن أترك أحداً يعرف بها . قال هذا لا أفعله قط ولا أريده فما هذا الفعل إلا فعل أدنياء الناس واللصوص كيف أسرق بنت كسرى وصار بيني وبينه معرفة ومودة وكيف أرضى وأنا حمزة هذا الزمان أن يقال عني قد تزوجت ببنت كسرى على هذه الطريقة المهينة فاقصر كلامك في هذا المعنى ودع التقادير تدبر هذا الأمر ولا تبح به قطعاً إلى أحد .

ثم تركه عمر وذهب إلى جماعته العيارين فزارهم وأقام بينهم نحو ساعتين وهم يلعبون الملاعب الرياضية ويتمرنون على مصلحتهم ومهنتهم ثم عاد إلى الصيوان وحال وصوله وجد رسول مهرد كار قد جاء بالطعام ودفعه إليه وبلغه سلامها وأنها كانت بانتظار مروره في ذاك اليوم إلى ديوان أبيها فقال له عمر إن اليوم بقي في الحلة وفي الغد يذهب إلى أبيها ثم دخل بالطعام على أخيه ووضعه بين يديه ففتح العلبة وإذا به يراه سخناً تفوح منه الروائح الزكية بما يتوق المرء إلى أكله مهما كان شبعان فنظر حمزة إليه وقال إن الفتاة

علقت بي كل التعلق وليس من العدل أن أضيع لها أو ارجعها بالخيبة وإني أستعين بالله على نوال المراد وأن يساعدنا في تدبير هذا الأمر ومنع ما يقف في طريقنا من الصعوبات ووطد العز على أن ينزل في الغد المدينة ويراها ويتدبر بعد ذلك في الوصول إليها والاقتراب منها ثم أكل من ذاك الطعام وهو كاد لا يشبع منه حتى فرغ عن آخره فرفعه عمر وبقي حمزة في صيوانه كل تلك الليلة لم يخرج منه قط ولا أراد مواجهة أحد وجل ما كان يفكر به كيفية الوصول إلى بنت الملك وكلما رأى إلى ذلك عظمت عليه الحال واتسعت دائرة الصعوبة فكان لا يعلق أملاً بالوصول اليها إلا بمساعدة الصداقة وعناية الله ونام تلك الليلة وفي الصباح نهض من فراشه فلبس أفخر ثيابه وتقلد بسلاحه واعتلى فوق جواده وخرج إلى الملك النعمان فوجده بانتظاره وقال له هل لك أن تذهب اليوم إلى الملك كسرى لأنه قد بعث رسولاً إلينا يلومنا على تأخيرنا عن المسير إليه في اليوم الماضي فوعدته أننا نذهب الآن فقال إني أذهب فأمر أعيانك أن يركبوا معنا فأجابه وركب أصفران الدربندي ووزراء النعمان وساروا إلى المدينة والأمير حمزة ينظر إلى فوق وهو يتمنى أن يرى مهردكار ويشاهد ما هي عليه من الحسن والجمال وهل هي كما وصفها النعمان أم لا . كان كل قلبه وفكره يقول له بأنها فوق ذلك ولما قرب من الإيوان مال بنظره إلى الوراء فرأى شمس الدنيا واقفة في الشباك كأنها البدر يتلالأ في سنا محاسنها وهي لابسة ثوباً أصفر عليه عروق سوداء . وعليها من الحلي والجواهر ما يزيد في إشراق جمالها وعلى رأسها إكليل من الزهر الأبيض فوق إكليل من الألماس والجوهر يلمع كأنه الكواكب في الليلة الظلماء وحال وقوع نظر الأمير حمزة عليها أشارت إليه بالسلام وحيته برأسها تحية لطيفة . فأجابها بعياقة كأنه يضع يده على رأسه لإصلاح خوذته كي لا يلحظ عليه أحد فعرفت أنه يجيبها على تحياتها فسرت مزيد السرور ولولا تقدر أن تضبط نفسها وتتمالك قواها لألقت بجسمها كله عليه بل صبرت على نفسها واطمأن بالها نوعا .

ودخل الأمير إلى الداخل وهو مشغول الفكر وقد انبهر مما شاهد من جمالها وعرف أن مثل هذا الجمال لا يمكن أن يدركه عقل فيصفه حق وصفه أو يشرح منه مقدار معشاره ولما دخل الديوان نهض اليه جميع الأعيان وتقدم بزرجمهر إلى الأمام ولاقاه لأنه كان كما تقدم يحبه ويريد أن يظهر محبته له على رغم حاسده وعدوه ودنا من كسرى فقبل يديه وسلم عليه فترحب به وهش بوجهه وأمر أن يجلس إلى جانبه بقرب وزيره بزرجمهر حيث هو الترجمان فيما بين العرب والعجم وبعد أن استقر به الجلوس ومن معه قال لهم كسرى إنه كان بودي أن تكونوا كل يوم ما دمتم في ضيافتي فلم تأخرتم في الغد ولم تحضروا أكان لذلك سبب هل بدا من أحد من قومي ما يغيظكم لأنتقم لكم منه جزاء على فعله فقال له حمزة أنه لم يكن من سبب غير أني لم أرض أن أثقل عليك كل يوم كوني أعرف أن ديوانك

لا يعد على الدوام للضيافات بل يحتاج إلى تدبير الدولة فوجودنا فيه يؤخر في مصالح البلاد . قال هذا لا أرضاه لأني أريد في كل يوم أن تكونوا في ديواني فأراكم ولا سيما أنت يا حمزة العرب فإني مولع بك ولا أريد أن يمر يوماً ولا أراك به فعدني الآن أنك في كل يوم تأتيني وتجلس إلى جانبي دون تكليف وخجل كأنك ولدي فوعده حمزة بذلك وقد فرح من معاملته له باللطف والمحبة كل الفرح وعرف أن هذه المعاملة ستنيله مراده من الوصول إلى مهرد كار غير أنه لم يبد إشارة تدل على شيء من ذلك وبقي حافظاً على اللياقة والآداب إلى أن يرى طريقاً يتوصل منها إلى نوال مراده . وأما بختك بن قرقيش فانه كان لا يزال موجوعاً من صفعة الأمير حمزة وكلما وقعت عينه عليه يتألم ويتوجع وتتمزق أحشاءه وتنفطر مرارته ويكاد يقع إلى الأرض من عظم الغيظ وهو يتمنى أن يرى باباً يتوصل منه إلى هلاكه .

قال وفيما هو على ذلك خطر بفكره خاطر سر منه مزيد السرور وفرح غاية الفرح وطفح على وجهه طافح البشر والتفت إلى الملك كسرى وقال له باللسان الفارسي لقد خطر لي أمر يا سيدي أريد أن أبديه لك فهل تصغي إلي به . قال ما هو . قال إنه من المقرر الثابت أن الأمير حمزة هو أشد الفرسان شجاعة وأقدرهم قوى غير أننا لم نشاهد قتاله ولا حربه ولا نزاله فخطر لي أن نسأله إذا كان يقدر أن يصارع الأسد الذي عندنا بالقفص أم لافقال له كسرى دع عنك هذا الأمر فما من فائدة فيه وأخاف أن يبطش به الأسد أو يوصل إليه بأذى فنخسره ونقع بعده بالندم : قال من أين للأسدان يبطش به وعلى ما أظن ويظهر لي أنه يقدر أن يصرع الأسد مهما كان عظيماً على أن الخوف لا يكون بهذه الدرجة فإن الأسد يبقى مربوطاً وما ذلك إلا لنرى مقدار قوته ونعرف هل يمكنه أن يثبت أمام الأسد أم لا وإني اسمع كثيراً من الناس ولا سيما العرب يسطون على الاسود فيقتلونها وينالون بذلك المجد والفخار . قال هذا لا يمكن قط وفيما هما على مثل ذلك قال حمزة لبزرجمهر أريد منك يا سيدي أن تخبرني عن معنى الكلام الواقع بين كسرى ووزيره فإني أراهما على اختلاف وأخاف أن يكون ذلك مما يتعلق بي . قال إن كل ذلك يتعلق بك وهو ان هذا الخبيث بختك يريد يقنع كسرى ليدعوك إلى مصارعة أسد هائل عندنا محبوس في قفص منذ الصغر وهو لا يوجد أكبر منه بين الآساد جيء صغيراً ووضع بهذا القفص وعين الخدام والوكلاء لطعامه وهو يكبر ويسمن حتى صار النظر إليه يخيف ويرعب أشد الناس يسأله له الآن عدة سنين عديدة ولا ريب أنه إذا خرج من القفص يأكل الناس ويفعل الأفعال القبيحة لكونه محبوساً ويشتاق إلى الفلاة والخروج من الحبس ولهذا أرى أن غاية بختك خبيثة من نحوك وأنه يريد أن يلقيك بمثل هذه التهلكة العظيمة ليأخذ بثأره منك فقال له إذا أريد منك أن تسأل لي الملك أن يسمح بصراع هذا الأسد

فإني أريد أن أصارعه وأرى أهل المدائن كيف يصير بأسدهم وادع بختك هذا يموت من الكمد . قال دع عنك ذلك فما نحن بحاجة إليه . قال هذا لا بد منه ولا أريد إلا مصارعة هذا الأسد بالقرب من باب هذا الايوان ولا أرجع عن هذا الطلب مطلقاً فسأل كسرى عن الحاج حمزة فعرض عليه بزرجمهر كل ما تقدم ذكره وأنه يريد مبارزة الأسد فقال له إن هذا لا يريده الملك خوفاً عليه وإذا مات ما نتيجته بمصارعة الأسد فأعاد عليه كلام كسرى فقال حمزة اني اذا لم يسمح لي بصراع الاسد تركت ديوانه وخرجت غضباناً من حضرته فإن شيئاً أريده يمنعني منه وأما من جهة خوفه علي فأخبره إني قبل أن وصلت إليه قتلت أسدين وهذا الثالث .

ولما رأى كسرى الجاحه أجابه الى سؤاله وقال في نفسه إنه بطل شديد الذراع ولا أخاف عليه من الأسد ومع كل ذلك فإني أسأل النار حفظه وإرجاعه سالماً من الأسد . وفي الحال أمر كسرى أن يؤتى بالأسد إلى أمام الايوان حيث هناك ساحة واسعة يمكن الأسد إذا فلت لا يضر بأحد حيث لا أحد يبقى عند وجهه فأتى بالقفص وهو على عجلات الى تلك الساحة ووضع في وسطها وأخبر الأمير حمزة ففرح غاية الفرح وقال في نفسه لا بد أن أرى مهر دكار فعلي وكيف أقتل الأساد وأقود ما كالخرفان وأكيد بذلك بختك الخبيث المحتال الذي ظن أن الأسد يقتلني ويعدمني الحياة ثم ان الملك جالس على ظهر الايوان ينظر إلى الساحة ومثله جميع الوزراء وأرباب الديوان ولم يجسر أحد أن يقف في الساحة خوفاً من الاسد واجتمع الناس كالنجوم على الجدران من كل ناحية يتفرجون نساء ورجالاً وخرجت مهردكار الى شباكها وجلست عليه وهي حزينة القلب منفطرته وقد بلغها أن حمزة يصارع الأسد فخافت عليه منه وجعلت تذرف دموع اليأس وتسأل له السلامة ولما تيقن حمزة أن مهردكار جلست تنظر إليه سقط الى وسط الساحة ونزع ما عليه من السلاح وأعطاه لأخيه يحفظه له وبقي بثيابه وعمامته ولم يخفف شيئاً منها حياء من حبيبته . ولما قرب من القفص كسر بابه من فوق الى أسفل ليتمكن الأسد من الخروج وفي الحال خرج من قفصه كأنه الغول الهائل ولما شم النسيم ونظر نفسه في الخارج تنفض وفرح فكان حمزة قد دنا منه وفك قيوده فاصبح مطلق الأيدي والأرجل فزاد حيلاً وتنشق رائحة الحرية فزأر بصوت أشبه بالرعد ورفع بيديه إلى فوق وبقي واقفاً على أرجله وانحذف على الأمير حمزة وهو يطلب افتراسه فأجابه بصوت أشد ارتفاعاً من صوته والتقاه بقوة قلب وجنان ومسكه من وسطه ولم يدعه يتمكن منه وصار كلما أراد الأسد أن يدنو بفمه منه ليفترسه فيضربه بيده على وجهه يدوخه .

قال وكان الأسد مرتاحاً كل هذه المدة وقوائمه شديدة قوية فجعل يجذف بحمزة إلى اليمين والشمال بقصد إلقائه إلى الأرض وحمزة يحاول ويدافع وهو ثابت أمامه ثبات

الأبطال وقد نشبت أظافر الأسد في زنديه فسال منها الدم وتمزقت ثيابه وبقي الأمر على مثل ذلك والأمير مع الأسد في صراع وقتال لا يتمكن أحدهما من الآخر حتى تثبت عند الجميع أن الأمير حمزة من الأبطال الشداد غير أنهم كانوا لا يرجحون خلاصه من بين يدي الأسد بل كان أكثرهم حزيناً عليه ولا سيما مهردكار فإنها رأت عن بعد الدم سائلاً من جسده فتأكد لديها أن الأسد يفترسه ويميته ولم تقدر أن تضبط نفسها من البكاء ودموعها تذرف على خدودها منتظرة النهاية وبكل عزمها أنه إذا لحق بحبيبها أمر مكدر رمت بنفسها من الطاقة فتموت حالاً وتلحق به ولا تعيش ساعة بعده. وفيما كان الأمير حمزة مع الأسد في جدال ونضال لاحت منه التفاتة الى مهردكار فرآها باكية العين تنظر إليه بانكسار كأنها مرجحة عدم نجاحه فطار عقله وصاح صيحة اهتزت منها تلك القصور وارتجت الأرض وتزلزلت وارتبك الأسد وضاع عقله فانحط عليه حمزة ودخل بسرعة البرق تحت وسطه فتمكن من يديه فشدهما الى بعضهما ثم ميله إلى الشمال ومال هو إلى اليمين فوقع الأسد إلى الأرض كأنه الطود فداس حمزة على رجسه وشد بإحدى يديه بما أعطاه الله من القوة فقلع اليد وبنحو من نصف ساعة اختبط الأسد ومات فمد حمزة يده إلى جوفه وأخرج قلبه وأكله. وقد صدر عن ذلك غوغاء وصياح من العرب والعجم وكان أشد الجميع سروراً مهردكار وجعل قلبها يخفق خفقان المسرة وتمنت أن ترمي بنفسها عليه وتضمه إلى صدرها وتتمكن من أن تشكره على فعله وتمدحه عليه وكذلك كسرى فإنه نزل عن ظهر الايوان الى بابه وتقدم من حمزة وقبله بين عينيه وتقدم الجميع إلى تهنئته بالسلامة وفوزه على الأسد إلا بختك الوزير فإنه دنا منه وكلمة التهنئة لم تخرج من فمه بل كاد يموت وحزن على خلاص حمزة من الاسد وغاب وعيه وبعد ذلك رجع معهم إلى الديوان بعد أن رأى بطرف نظره إلى مهردكار وهي تبسم بمباسم الفرح وقد أبدت له علامات الاستحسان من أعماله كل ذلك دون أن يلحظ أحد أو يعلم بها أحد وبعد أن دخل أمر الملك كسرى أن يذهب به بزرجمهر إلى الحمام فيغسل بدنه ويلبس بدلة من أفخر الثياب التي يختارها فأخذه بزرجمهر إلى الحمام واغتسل فيه وهو قبل ذلك لا يعرف الحمام ولا الماء السخن فنظر بدنه مرتاحاً جداً ومن ثم رجع مع الوزير وهو يقول له أن الزمان يخدمني ولا بلا لي من كيد بختك بن قرقيش لأنه يريد لي الهلاك والقلعان وما قصد بمصارعتي الأسد إلا لظنه أنه يفترسني ويميتني فجاء الأمر بعكس ما ظن حتى رأيته وقد كادت تنفطر مرارته ويعدم الحياة قال إني أعلم منه ذلك وأعرف أن الله سيطيل بعمرك وينولك الفوز العظيم على الفرس وعلى غيرهم فتحظى بالسعادة التي وعدت بها من الله سبحانه وتعالى ومن الخضر عليه السلام وبعد أن دخلوا الديوان وجلس في مركزه بجانب كسرى قدم له الشراب وبعده أمر بمد سفرة الطعام المختلفة الألوان فجلس العرب على جانب منها والأعجام على جانب آخر وأكلوا حتى اكتفوا وعادوا إلى مراكزهم فجلسوا على

كراسيهم ومن ثم أمر كسرى أن يعطى الأمير حمزة ثوب فاخر من ثيابه الخاصة يلبسه في أي وقت أراد فأعطى وقد سر من ذلك مزيد السرور وبقي في ديوان كسرى إلى المساء وعند المساء خرج من الديوان مع جماعته العرب وهو يرفل بثوب المجد والفخار وبختك ينظر إليه نظر المتألم المتوجع ويعض على أصابعه من شدة الغيظ كيف أنه لم يفز بالمطلوب ولم يتمكن الأسد من قتل الأمير بل ذل بين يديه حتى قتله وزاد بذلك فخراً ورفعة في عيني كسرى أنوشروان فقدمه أكثر من الأول ونما حبه في قلبه فكأنه قصد بذلك منفعة ورفع شأنه غير أنه صبر على الدهر وأخذ يفكر في طريقة ثانية ينال بها مراده من عدوه الألد .

ولما صار حمزة في باب الايوان رأى مهردكار واقفة على الانتظار فأشار إليها بأسرع من لمح البصر بالوداع وركب على ظهر جواده وركبت العرب من خلفه والملك النعمان إلى جانبه وانطلقوا من ذاك المكان بعد ان كان قد أوصاه كسرى أن لا يبارح ديوانه يوماً واحداً بل من الواجب عليه أن يحضر في كل يوم حيث لا يقدر على فراقه ولما دخلوا الخيام نزل الأمير في صيوانه ولم يكن عنده سوى أخيه عمر فأخذ يفكر في مهردكار وجمالها وما أعطاها الله من الحسن الفائق الحد وفيما هو يفكر بمثل هذا الأمر دنا منه عمر وقال له لقد رأيت مهردكار يا أخي فأعجبتني جداً وعرفت أنها تليق بك وتليق بها وهي كالبدر جمالاً والغصن دلالاً فاسأل الله أن يهنيك بها ولا يحرمك منها قال له إني عرفت أنها كما قلت وأكثر لكن الأمر الوحيد الخطر هو أن صعوبة عظيمة بيني وبين نيل مرادي لأن كسرى حالما يعرف أني أحب بنته وأطلب تزوجها يمتنع وتسقط هذه المحبة التي بنيتها بقلبه ويقع بيني وبينه الخلاف فالتزم أن أحصل عليها بقوة السيف الأمر الذي لا أريده ولا تريده هي أيضاً ولذلك أعلم أن الزمان رماني بحبها قاصداً به أن يلقيني في مخاطر جمة ويجعل لي بذلك كبير عذاب ولا يعرف ما يكون من هذا القبيل فقال له لا زلت تنظر إلى أهون الأمور لديك نظر المتصعب الخائف فكيف يمكن لكسرى أن يمنع عنك ابنته وأنت كنت السبب في ارجاع بلاده إليه وإلا كان لا يزال مطروداً وبنته لا تتزوج إلا بأقل الناس حيث يكون قد سقط من الدرجة الملكية فهل تقاس بنته ببلاده وعلى ما أظن أنه يعرف مقدار الجميل ولا يجحد معروفاً عملته معه بل يقدره حق قدره ولا يبخل ببنته قال وان كنت قد أرجعت إليه بلاده غير أنه يرى أن زواجي ببنته حطة من شأنه بين الفرس فهم لا يحبون الاختلاط بالعرب وعليه فأكون قد القيت نفسي بوهدة التعب خصوصاً ان عند كسرى وزير رديء الطباع شنيع الخصال حسود يريد لي الهلاك وهو مسموع الكلمة بين الفرس لأنه من أعيان البلاد لا يمكن مخالفته من أحد حتى ومن نفس الملك ومع كل ذلك فإني ألقى اتكالي بذلك على الله سبحانه وتعالى وفيما هو على مثل ذلك وإذا برسول مهردكار قد وصل يحمل الطعام فدخل على الأمير حمزةوقال له سيدتى تهديك السلام وترجومنك مداومة

الحضور إلى أبيها لتراك في كل يوم صباحاً ومساء فهي لا تقدر على فراقك يوماً واحداً فقال بلغها سلامي وأخبرها أن ما بي هو أشد مما بها وان قلبي تعلق في حبها واني أريد أن أكون على الدوام قريباً منها ولذلك لا أفارقها قط ولا أبعد عنها فستراني على الدوام إلى أن يسهل لي الله سبحانه وتعالى الوصول إليها ثم تناول الطعام وأخذ في الأكل وهو مسرور من لذته وانطلق عمر ليرى جماعته العيارين ويستكشف حالهم وينظر في أمرهم حسب عادته وعاد الرسول إلى مولاته فأخبرها بكلام الأمير حمزة ففرحت مزيد الفرح وكانت في ذاك اليوم مشروحة الصدر مما شاهدت منه ولا سيما عند ما رأته وقد قتل الأسد كأنه الهر بين يديه وقالت في نفسها قد تم لي ما أرجوه فها قد حياني تحيات المودة وأظهر لي من كرامته وميله ما جعلني أعلق كبير أمل به وأتكل على حبه وأي سعادة لي أعظم من هذا ان أكون زوجة لرجل جميل الصورة مرفوع الشأن قوي الجنان لا تقدر الأسود أن تثبت بين يديه فما هو إلا وحيد هذه الدنيا وبطلها جمع الله به كل خصلة حسنة وعليه فإني أدوم على محبته وأبيع روحي في ما ينيله كل الراحة وكل ما يبديه لي فهو من لطفه ثم دخلت إلى غرفتها وانفردت بنفسها وأنشدت :

شوقي إلى تقبيل ثغـ   ـرك دونه حر السعير
بالله فأذن لي أقبـ   ـل دره بفم الضمير
لو أبصرتك القاصرا   ت الطرف من غرف القصور
لتهتكت كتهتكي   وتعلمت كشف الستور
أولو نظرت إلى الجما   د لجاد بالعذب النمير
أو ليس في حبك لي   عذر ولكن من عذيري
حتى لجأت إلى الشكا   ية من صدودك يا أميري
هات أسقنيها بالصغـ   ـير وان سمحت فبالكبير
وانظر إلى مرافقا   حتى أغيب عن الشعور
واستل روحي يا حيا   تي من جفونك بالفتور
وعلى الحياة وطيبها   مني السلام إلى النشور

وبقيت تردد في فمها ذكر اسمه وتشخص في ذهنها كل ما رأته منه في النهار وما شاهدته حين قتاله الأسد وهي لا تريد أن تنزع تلك الصورة أو تبعدها عن خاطرها دقيقة إلى أن كان المساء فقدمت لها قهرمانتها الطعام فأخذت منه كفايتها ودفعته إلى خادمها وأوصته أن يوصله إلى الأمير حمزة وأكلت قليلاً وأقامت على انتظاره الى أن عاد إليها وأخبرها بما سمع منه فكادت تطير فرحاً وهي لا تعرف في أي مكان هي من النعيم وتأكد عندها حب الأمير لها وان لا يبقى عليها الاهتمام بأمر الاجتماع وتدبير طريقة تحفظ لها

بقاء أملها وزوجها به .

ونام الأمير حمزة تلك الليلة على ما تقدم ذكره وفي الصباح بكر إلى صيوان النعمان وقال له هلم بنا نذهب إلى كسرى فإنه لا بد أن ينتظر في هذا اليوم إذا تأخرنا عن الرواح إليه أو امتنعنا مع اني وعدته في كل يوم أحضر اليه إلى أن يسمح لنا بالذهاب إلى بلادنا أو يجد أمراً آخر يعيقنا عن الروح فأجاب النعمان طلبه وركب هو وأصفران الدربندي والأمير عقيل وساروا جميعاً حتى جاءوا باب المدينة فدخلوه وتقدموا من الإيوان وهناك رفع حمزة نظره إلى جهة قصر الست مهردكار بنت الملك وسلطانة الحسن والبهاء فوجدها قد جلست على الشباك وهي مدبجة بالجواهر عليها ثوب من المخمل الأحمر يلمع بلمعان الشمس والكواكب وفي وسطها منطقة من الذهب الوهاج مزركشة بالحجارة الكريمة وفي رجليها حذاء مزركش بالذهب والحجارة الكريمة ولم يكن ذلك يحسب بشيء بالنسبة إلى بهاء جبينها ونور طلعتها ولمعان خديها الموردين وطول عنقها اللامع الأبيض القائم بين كتفيها المركبين على أحسن نسق وبالاختصار أن كل ما بها مصنوع بيده تعالى وهو راض منها فجاءت فتنة للعالمين . فلما رأى حمزة ذاك البهاء مال بنظره عنه وهو لا يقدر أن يضبط نفسه وخاف ان أحدق بها أو نظر إليها دقيقة كاملة يقع إلى الأرض وحال وقوع نظره عليها حيته باشارة لطيفة وقعت من قلبه موقعاً عظيماً غير أنه أظهر الجلد وأخفى الكمد ودخل الباب وهو يدعو الله إلى مساعدته وبقي إلى أن وقفت في ديوان كسرى فسلم عليه وقدم فروض التحيات بكل لباقة وأدب فنهض له كسرى عن كرسيه وحسب العادة قبله بين عينيه وأجلسه إلى جانبه وأخذ معه في الحديث وهو يجيبه عن كل ما يسأله عنه محافظاً على اعتباره وتعظيمه والملك مأخوذ من ذلك مدهوش من طاعته له يزيد حباً فيه . وبالاختصار أنه صرف ذلك النهار في ديوانه وفي المساء نهض ورجع إلى الخيام برفاقه من العرب بعد أن ودع بالاشارة مهردكار . وبعد أن دخل صيوانه بقليل جاءه الطعام مع خادم مهردكار فقدمه له مع عمر فأكل وشكر الله وأقام على الفكر والاهتمام بأمره ينظر في عواقب ما هو فيه ويتمنى مساعدة الله ومعاونة الصدف لينال ما هو طالب وقد رسمت في ذهنه مهردكار على الحالة التي رآها فيها ذاك النهار وهي فتنة للناظرين وعليها من المهابة والجلال ما لا يوجد على أبيها ولا على غيره من الملوك وكان كلما دقق النظر وأمعن في ذاك الرسم المطبوع في ذهنه يضيق صدره ويقل صبره ويتمنى أن يكون في قصرها وبين يديها يراها ويسمع عذوبة الفاظها ويلتقط من حب جمالها ما يمكن أن يلتقطه بأيدي نظره ودام على ذلك كل السهرة وهو لا يخرج من صيوانه ولا يرضى بمواجهة أحد كي لا يضيع معه الوقت أو يغيب عن ذهنه شخص محبوبته وهو على انفراد لأن المحب الصادق يحلو له الانفراد لمثل هذا السبب أي ليتسع معه المجال في أمر من أحب فيشخص جماله نصب

عينيه ويكلمه بأفكاره . ويخابره ويهتم بأمور كثيرة تتعلق به ويتمنى أموراً كثيرة أن يعرضها عليه ناظراً إلى ذلك بلذة ورغبة كأن حبيبه يسر من أعماله هذه وقد رأى الأمير حمزة أن الحب يستدعي التبصر بمثل هذه الظروف والتسلي بالأوهام والتصورات وأخيراً بمناشدة الأشعار ولذلك أنشد قائلاً :

بابي الظباء الفاترات جفونا ... الفاتكات سوالفا وعيونا
المطلعات من الثغور كواكبا ... المسبلات من الشعور دجونا
الراشقات من اللواحظ أسهما ... المرسلات إلى القلوب متونا
سفروا وقد صبغ الحياء خدودهم ... أرأيت ورداً خالط النسرينا
ونفرن غزلانا وتهن غوانيا ... وسفرن أقماراً وملن غصونا
غيدا إذا هزوا المعاطف لا ترى ... إلا صريعاً بينهن طعينا
سود النواظر ما كحلن بأثمد ... والحسن حقا يغلب التحسينا
بالائما قد جار في تعنيفه ... هلا رحمت متيما مفتونا
فأنا الذي اتخذ المحبة والهوى ... شرفا لأرباب الغرام ودينا
ومريضة الأجفان ساحر لحظها ... ينبيك عما في الفؤاد كمينا
في طرفها السفاح أصبح خدها ... الهادي ترى نعمانه مأمونا
معشوقة الحركات حرك قدها ... قلبا إليها كان قبل سكونا
وإذا انثنت خلت الرماح معاطفا ... وإذا رنت خلت السيوف جفونا
شمس لطلعتها الهلال قد انحنى ... أدبا فأصبح يشبه العرجونا
والورق غنت إذ تثنى قدها ... طربا فأعرب لحنه التلحينا
لا تسألن إذا قصدت قصورها ... واقصد بحيث ترى الجمال مصونا
وإذا أردت ترى هلال جبينها ... فانظر الى حيث الصباح مبينا

وكان وهو ينشد يرى لذة في داخله وارتياحاً إلى من أحبها وهو يعجب من نفسه ومن تلك اللذة ولم يكن قبلاً قد سلك طريق الغرام ولا عرف الاسباب الدافعة إليه والمثبتة فيه فكان كمن يتدرج في سلمه كل ساعة يرى له فيه نوعاً جديداً .

قال وبينما هو على مثل ذلك إذ دخل عليه أخوه عمر وقال له أن على الباب رجلاً فارسي يتكلم العربية وقد أخبرني أنه جاء من قبل بختك بن قرقيش ليعرض عليك امراً فيه الصالح والخيرلك . قال إن ذلك لا يصدر عن بختك ولا بد أن في الأمر سر فدع الرجل يدخل واحترس منه كل الاحتراس فخرج إليه وأدخله ولما صار أمام حمزة سلم عليه وجلس إلى جانبه وقال له اعلم يا مولاي أني رسول الوزير بختك بن قرقيش وزير

كسرى وقد أرسلني إليك بكلام أطلعك عليه حتى إذا رأيت فيه الموافقة والخير صدقته وإلا فالأمر لك فإني أسمع لك قال إن مولاي قد أخبرني أن أقول لك إنك تنظر إليه نظر العداوة مع أنه يرغب في نجاحك وفلاحك تعديت عليه وضربته على وجهه وخرقت ناموسه بين عموم أعيان الفرس وفوق كل هذا وقد أوجعته ولهذا كان قد نوى ان يحقد عليك غير أنه رأى في ذلك صعوبة فأراد أن يتخذك خليلاً وحليفاً ويبدل ما بقلبك من الغيظ منه برضى وتكون أنت صديقه وتتخذه كما اتخذت بزرجمهر خصوصاً لما رأى أن الملك يحبك حباً عظيماً وليظهر لك برهاناً على ما تقدم أمرني أن أعرض عليك أمر جواد عظيم موجود عند كسرى أنوشروان اسمه الاصفران لا يوجد له نظير في هذا الزمان فإذا ملكت هذا الجواد فزت على كل فارس وبطل ونلت كل ما تتمناه لأنه نادرة هذا الزمان ووحيد فيه يبلغ ارتفاعه ارتفاع الجمل أشقر صبوح الطلعة شديد القوائم واسع الصدر إلا أنه قوي جداً لا يقدر أحد أن يعلو ظهره إلا إذا كان مثلك فيقوده كالكلب وهذا من باب الحب والولاء وسوف تعلم إذا رأيت هذا الجواد أن بختك محب لك أكثر من غيره وذلك لما رأى أنه لا يصلح إلا لك ولا بد أن يصعب عليك كسرى أمر الحصول عليه ويظهر لك صعوبة بذلك فإياك من الامتناع وسوف تعلم الصحيح . فلما سمع حمزة كلام الرجل عرف أن بختك لا يقصد بذلك خيراً غير أنه علق بالجواد وتعشقه كعشقه لمهردكار وعرف أن هذا الجواد يحتاج إليه إذا كان كما وصفه له الرجل عن لسان الوزير بختك وقال في نفسه لا بد أن يكشف لي الغد عن المسألة . ثم قال للرجل بلغ مولاك مني السلام واشكره عني وقل له إني في الغد أطلب هذا الجواد من كسرى وإني ألح عليه وأسأله التكرم به قال الرجل لكن أريد منك أن لا تخبر الملك أن بختك أخبرك بذلك إلا بعد نوالك إياه ودخوله في يدك وتجريبه في ساحة الميدان وتأكيدك نصح سيدي فوعده بذلك وأرجعه فرحاً مسروراً قال وكان بختك من نفس ذاك اليوم الذي قتل فيه حمزة الأسد وهو يفكر في طريقة ثانية يهلكه بها لكي يأخذ منه بثأره فضاقت في وجهه كل المذاهب وانقضى ذاك اليوم واليوم التالي وهو عامل على الفكرة ليلاً ونهاراً لا يترك باباً يتوصل به إلى موته إلا وأمعن به وبحث في كيفيته إلى أن كان مساء ذلك اليوم خطر له خاطر وهو أن من عهد عشرين سنة أهدى إلى كسرى جواد عظيم لا يوجد له ثان من بلاد الروم وكان مهراً صغيراً فعين له من يربيه ويحسن طعمه وخدمته حتى كبر فأراد أن يجربه فأركبه لبعض فرسانه فحالما صار على ظهره ضرب رجليه بالأرض وحذفه عنه فألقاه إلى الأرض ورفسه برجله في قلبه بأسرع من لمح البصر فأماته فتكدر من ذلك كسرى أنوشروان وأراد قتل الجواد فقامت عليه الفرسان الأمراء والأعيان وقالوا له إن هذا الجواد هو أفضل من المدائن فإذا كان هذا الفارس لم يثبت على ظهره فغيره يثبت ولا بد من وجود رجل يقدر أن يعلوه

ويتخذه له فيكون سنداً لفارس وكان عند كسرى حينئذ فارس صنديد وجبار عنيد اسمه رستم البهلوان وهو بهلوان بلاد العجم وفارس فرسان الديلم فتقدم من كسرى وقال له هبني هذا الجواد فأنا أركبه وأطيعه فظن كسرى أنه يقدر عليه فسمح له به فجاء إليه وأراد أن يركب على ظهره فضربه بقوائمه والقاه إلى الأرض واتبعه بالأول ولذلك تكاثر الناس على الجواد واحتاطوا به بالحبال فربطوه وقادوه إلى اصطبل مخصوص ووضعوه فيه وصار في كل سنة يظهر فارس في بلاد الفرس أو في غيرها فيطلب هذا الجواد فلا يقدر أن يدنو منه وهو على الدوام يسمن ويقوى ويشتد حتى أصبح كالفيل وامتنع الناس أن يذكروه بفمهم وتأكد أن لا أحد يقدر أن يعلوه أو يمتلكه ولذلك خطر لبختك أن يلقي الامير حمزة بهذه التهلكة بحيث يطلب الجواد من كسرى ويقصد أن يركبه فيفعل به كما فعل بغيره ولما ترجح عنده هذا الظن سر مزيد السرور وطفح قلبه من الفرح ودعا بترجمانه وكاتم أسراره وأوصاه أن يذهب إلى حمزة بقضاء هذه المهمة ولما عاد إليه وأخبره بما قاله له ثبت عنده أنه لا بد أن يموت في اليوم الثاني لدى وصوله إلى الجواد ولعظم فرحه لم ينم تلك الليلة وما صدق أن طلع النهار وأخذت الناس في الذهاب إلى مجلس كسرى فكان أول من سار فدخل وأخـذت الناس ترد حسب العادة وتجلس في مراكزها .

قال وأما الأمير حمزة فإنه سار في اليوم الثاني مع النعمان وجماعته وهو مشغل الفكر من جهة الجواد ويتمنى أن يصل إليه ويراه وهل هو كما وصف له أم لا فإن كان كما قيل له يكون قد نال سعادة يحسبها من السعادات العظيمة وقبل أن يدخل الإيوان رأى محبوبته على حسب العادة فحيته وحياها حتى أدرك النعمان الحقيقة ولحظ الحب الواقع من تكرار التحيات في الصباح والمساء ولما صار أمام كسرى قبل يديه فقبله بين عينيه وأثنى عليه وأجلسه إلى جانبه بينه وبين بزرجمهر . وبعد أن استقر به الجلوس وتمادى مع كسرى قليلاً التفت إلى بزرجمهر الوزير وقال له أريد منك يا سيدي أن تبلغ كسرى كلاماً أريد أن أعرضه عليه قال قل ما شئت فإني أطلعه عليه . قال أرجوه أن يسمح لي بالأصفران فقد سمعت عنه أنه من الخيول الحسان وإني أحتاج أن يكون عندي مثل هذا الجواد لأنال به غاية القصد والمراد وأقهر الأعداء والحساد . فقال له بزرجمهر وقد أظهر التعب والاندهاش ممن عرفت ذلك ومن أطلعك على مثل هذا الخبر فلا ريب أنه عدو ألد يقصد لك الاهلاك والوبال لأن الجواد هذا هو أشد حيلاً من الأسد قوي القوائم قد أمات عدة فرسان وأبطال من الذين تضرب بهم الأمثال في بلاد فارس دون أن يقدر أحد أن يصل إليه ولذلك لا أريد أن تذكر ذلك لكسرى ولا يقبل هو أيضاً منك ذلك ولا يخاطر بك إلى هذا الحد إذ لا يريد أن يعدمك هذه الدنيا بل يرغب في بقاك وطول عمرك . قال لا خوف علي من هذا الجواد ولابد لي من الحصول عليه وأخذه لنفسي وأريد منك أن تتكرم علي وتسأل لي الملك أن يهبه لي فيكون قد فعل

معي جميلاً وأكرمني أكثر مما استحققت . وكان الملك يرى ما هو يرى ما هو دائر بين حمزة ووزيره فالتفت إليه وسأله عن سبب ذلك فأطلعه على سر المسألة وأخبره أن بزعم حمزة أن يأخذ الأصفران. فامتنع عليه كسرى وقال له بلغه أن هذا ليس من الصواب فهو مثل ابني وقد تربى على نعمتي فلا ألقيه بيدي بين يدي الهلاك والموت وإني انتظر أن أكافئه بالخير لا بالشر فإذا سمحت له بالجواد أكون قد عاملته بأقبح الأعمال فيقال عني إني قتلت من أرجع إلي بلادي وحارب من أجلي وقهر لي عدوي فدعه يعدل عن ذلك فقد كفى ما كان من أمر الأسد وصراعه له وما في العناد من فائدة فلما سمع حمزة هذا الكلام اشتد عنده ميله إلى الجواد ورغبته فيه فقال للملك إن هذا الجواد يصلح لي وليس من الصواب أن يبقى متروكاً لا نفع له ولا سيما أفضله على كل أمر يريده أن يكرمني به وأما خوفه علي منه فهو بغير محله وإذا كنت أخاف من جواد مثل هذا لا يصلح بي أن أقم في ديوان كسرى واتشرف بين يديه على الدوام وأحسب من أتباعه فطلبي الجواد لابد منه وأرجو من سيدي الملك أن لا يحرمني من شيء أريده ولابد أنه يسر إذا رآني راكباً فوق هذا الجواد وهو عندي كالطفل الرضيع أقوده كيف شئت فلما سمع كسرى كلامه رأى أن لابد له من الجواد فسمح له وقال إني لا أبخل عليك بجواد أريد أن يكون لأعز الناس عندي إلا خوفاً على حياتك وإلا لو طلبت مني نصف مملكتي لدفعتها إليك وشاركتك فيها فانك تأخذها باستحقاق مني .

ثم إن الملك أمر أن يؤخذ حمزة إلى الاصطبل الموضوع فيه الجواد فيفتحه بيده ويرى ما يكون من امره وشاع الخبر إذ ذاك بين الخاص والعام وسر الوزير بختك وثبت عنده أن الأمير سيداس بأرجل الجواد وينتهي أمره فكان مسرور الفؤاد مَرجحاً أخذ ثأره منه وأما مهردكار فإنها حزنت حزناً كثيراً عندما بلغها هذا الخبر وخافت كل الخوف على الأمير وقالت في نفسها إنهم كل يوم يرون له مهلكاً كانهم يريدون موته وعلى هذا يظهر انهم اعداء له وهذا الأمر اشغل لها بالها كثيراً وضاق من اجله صدرها واحتارت فيما تفعل وعولت ان تخاطر بنفسها إذا سلمه الله من الجواد وتستدعيه اليها في الليل وتجتمع وإياه وتسأله في تدبير طريقة لزواجها به وخلاصه من كيد الأعداء أقامت في مكانها تنظر ما يكون من أمر حبيبها وهذا الجواد وهي تطلب له من العناية إن يخلص ويطيل بعمره وينجو من هذا الفخ الذي نصب له وفي تلك الساعة خرج الأمير حمزة وبين يديه خدامين يذهبون إلى الاصطبل وأقام الملك ورجال دولته وباقي الأعيان على الجدران والسطوح وكذلك النساء والأطفال وازدحمت الأرجل وهم يطلبون الفرجة على الأمير حمزة وعلى الجواد الذي له مدة سنين داخل الاصطبل لا يقدر أحد أن يصل إليه ويدنو منه وقد قتل عدة فرسان ولما وصل الأمير إلى الباب قال له الخدم هذا هو الباب وهو من الحديد وهذه مفاتيحه فمتى بعدنا نحن فافتحه وأخرجه قال ومن كان يقدم لهذا العلف حتى كلكم تخافونه أما كان منكم واحد يأسف عليه . قالوا كلا

بل فتح له في السقف نافذة يدلى له العلف منها وقتل عدة خدامين . وإذ ذاك أخذ المفاتيح وتقدم من الباب وكان الأصطبل في جانب الإيوان عند اسفله ففتحه ونظر إلى الداخل وإذا به يرى الجواد قد صهل صهيلاً قوياً فتعجب من عظم جثته وهول منظره وتاقت نفسه إليه وتقدم بقلب قوي إلى الداخل وكان الجواد مقيداً بالحديد بيديه ورجليه مشبوحاً بالسلك ومع ذلك كان يضرب بيديه ورجليه فيسمع له قرقعة وضجيج يرتج منه الأصطبل بل الإيوان برمته ولما قرب منه ضربه بيده على رأسه وأخرجه مقيداً بعد أن استلم زمامه فهدأ الجواد قليلاً ولما صار في الخلاء نظر إلى جهة قصر بنت الملك فوجدها تنظر إليه باسمة كأنها راضية عن عمله فعرف انها غير خائفة عليه بعد أن رأته فعل ما فعل بالأسد وقتل كانه الهر الضعيف فاشتدت به الرغبة إلى تمام عمله وأراد أيضاً أن يرى الملك ما يفعل بالجواد ويقهر بختك الذي كان ينظر إليه منتظراً أن يفك قيود الجواد ويحله من عقاله وبعد ان استقر في نصف الساحة تقدم من رجليه ففك القيود وحالما شعر الجواد بإطلاقه ضرب رجله بالأرض فحفر فيها خليجاً عميقاً ثم رفع يديه بالهواء واستوى واقفاً وأنحدف إلى جهة الأمير حمزة قاصدا إن يفعل به كما فعل بغيره من الفرسان الذين قصدوا ركوبه فصاح به بصوت قوي وضربه بكفه على صدغه وشد له بمقوده فغيب هداه وضيعه ووقف هادئاً ساكناً خائفاً فأخذ اللجام وأدخله فمه دون أن يبدي منه أقل حركة أو ممانعة كانه عرف ان هذا الفارس هو فارسه الذي يستحق ان يركبه ويملك قياده ووضع السرج على ظهره وشده وقفز من الأرض إلى ظهره كأنه فرخ النعام وأرسل نظره بخفة إلى جهة قصر مهردكار فرآها تزيد ابتساماً وعلائم الفرح والمسرة تطفح على وجهها فأطلق الجواد من تحت قصرها وقد صاح فخرج كأنه السهم إذا انطلق حتى كادت لا تراه العيون لخفة جريه وسرعة مشيه وبأقل من دقيقة مر من تحت المكان الواقفة فيه مهردكار فكادت تطير من الفرح ولولا خجلها لرمت بنفسها عليه وذهبت قتيلة هواه غير ان وعده وعمله وأشارته جعلها أن تعلق الأمل بالاجتماع به بوقت قريب وبعد ان انتهى إلى آخر الساحة دار بالجواد إلى الجهة الثانية واطلقه فانطلق كالبرق الخاطف ومر من تحت الإيوان والملك واقف ينظر نظر المسرور المبتهج وعند ما رآه رفع بعينيه لنحوه أشار إليه استشارة الأستحسان وأما بختك فإنه كاد أن يموت وتنفطر مرارته وثبت عنده أن الأمير حمزة ليس ممن يقهر وأن الجواد صار في قبضته فيستعين عليه في حروبه وعلى أخصامه ويتقوى عما هو عليه ويزيد قوة وبسالة بواسطته وبقي الأمير حمزة يصول ويجول على ظهر الجواد حتى طاع ولان وسال العرق من جسده كالمجاري ولما رأى حمزة منه اللين وصل إلى باب الديوان ونزل عنه وإذا بالأمير عمر قد انقض عليه فمسكه من مقوده وربطه إلى باب الإيوان ودخل الأمير فتقدم منه بالأول بزرجمهر وقبله بين عينيه وهنأه بالجواد وقال له لقد اعطيت مالم يعط لغيرك وما ذلك إلا من توفيقك وسعادتك لأنك موعود بذلك من الله فقال

له ان ما وصل إلي كان بمساعدتك والتفاتك وحبك ودعاك وأنا على الدوام متخذك عوناً وسنداً ومرشداً ومدبراً ولا أحيد عما تأمرني على الدوام ولو كان بذلك موتي وفنائي ومن ثم تقدم حمزة من الملك فقبل يديه فقبله وقال إن هذا الجواد لم يخلق إلا لك وقد أبى أن يعلو على ظهره سواك ولذلك سمحت لك به وقدمته ليكون جوادك الخصوصي تقاتل به أعداءك ثم التفت أيضاً إلى جهة بختك وقال له لقد كان سبب وصول هذا الجواد لي بواسطة مساعيك ولو لم ترسل لي من يخبرني عنه لما عرفت به فلأجل هذه الغاية فقط أشكرك . فوقع هذا الكلام على بختك وقع الصاعقة لأنه كشف له عن عمله فتلافى أمره وقال له والنار تتقد في أحشائه لقد ظهر لك حبي وأني على الدوام أريد ان تكون ممتازاً على غيرك وذلك لعلمي أن سيدي الملك يرغب فيك كل الرغبة ويطلب على الدوام أن تكون في الدرجة الأولى بين رجاله فأنا وجميع المخلصين للملك يتمنون لك الخير حباً فيك ورغبة في مجاراته لأنه سيدنا والنار تنذرنا على الدوام بطاعته وموافقته على كل ما يطلبه منا ويريده فحفظته لنا وأبقيته سالماً مدى الأيام والأعوام فلم يخف على الأمير حمزة أن كلامه هذا كان خلاف ما اضمر ورغب .

وبعد ذلك دخل الملك إلى ديوانه وجلس على كرسيه وإلى جانبه الأمير حمزة البهلوان وحوله باقي الأعجام من عرب وعجم وترك وديلم وغيرهم من القبائل والأمم وبعد أن استقر بهم الجلوس أمر ان تمد لهم بواطىء المدام والنقل ثم أمر لهم بالطعام فنهضوا إلى مقام الأكل فأكلوا واكتفوا وغسلوا أيديهم ورجعوا إلى مراكزهم كل هذا والملك كسرى ينظر إلى وجه الأمير حمزة نظر المحب الهائم وهو متعجب منه ومن قوة بأسه وكثرة شجاعته وما وجد فيه من البطش والأقتدار الذي لم يوجد بغيره من بني الإنسان وهو يؤمل على يده الفوز والنجاح إلى أن كان المساء وعند انصراف الناس نهض الأمير حمزة والملك النعمان ومن معهم من الأعيان والفرسان فخرجوا من الديوان وركبوا خيولهم وساروا بعد أن نظر الأمير معشوقته نظر المودع وبقي سائراً إلى صيوانه فدخله والجواد معه وهو فرحان به كل الفرح مسرور كل المسرة لا يرفع نظره منه وقد حسب ذلك من أكبر أسباب السعادة وعرف شدة احتياجه إلى مثل هذا الجواد الحسن وقال لأخيه عمر إني أرى نفسي في هذا اليوم مالكاً الدنيا فهذا الجواد عندي أعز من الدنيا وأفضل لا يقاس به ثمن قال له إني أعرف ذلك وأطلب من الله الذي نولك مرادك وملكك الجواد يملكك مهردكار ويزوجك بها قال إن في ذلك لصعوبة عظيمة هل سمعت قبل الآن أن عجمية تزوجت ببدوي وبين البداوة والحضارة بون عظيم فقال له أن لم يكن سبق ذلك فاجعل أنت نفسك أول من سن هذه العادة فيتبعك غيرك عليها وما المانع من ذلك وفي العرب لياقة أكبر من العجم لاسيما وأن بنت الملك تحبك وهي نفسها تطلب ذلك وترضاه والملك يحبك ويتمنى لك كل خير وما طلبت منه امراً الا وكان فعله أسبق اليه من قولك قال إني علقت بنفسي بمهردكار واعتمدت

على زواجها ولا عدت ارجع عن عزمي فإذا صار لي ذلك عن رضا كان من جملة توفيق الباري سبحانه وتعالى وإذا امتنع الملك ولم يصر جردت سيفي ضد الفرس وأخذت من أحببتها بقوة السيف والسنان رغماً من كل ممانع .

وما استقر الأمير في صيوانه حتى جاء رسول مهردكار بالطعام فدفعه إلى عمر فقدمه إلى الأمير فأكل وبعد ان اكتفى ذهب إلى صيوان الملك النعمان فصرف السهرة عنده تلك الليلة تضييعاً للوقت وتسلية لنفسه وذهب عمر إلى أصحابه وجماعته وصرف وقتاً عندهم على حسب عادته ومن ثم رجع إلى أخيه وعاد معه إلى صيوانه إلى أن كان اليوم الثاني نهض الأمير حمزة ونزل إلى ديوان كسرى على حسب العادة مع الملك النعمان وجماعته فلاقاهم بالبشاشة والترحيب وأجلس الأمير في مركزه المعتاد وأخذ معه في الحديث وهو يظهر له طاعة وخضوع ويقدم نفسه إلى خدمته على طول الأيام وبزرجمهر بينهم ترجمان . وفيما هم على مثل تلك الحالة وإذا بأحد الحجاب قد دخل على الديوان وقبل يدي الملك كسرى وقال له اعلم يا سيدي أن الباب مقبل البهلوان وهو يسأل الدخول عليك فهل تأذن له أن يدخل فقال دعه يدخل فلما سمع الأمير حمزة باسم مقبل البهلوان مالت نفسه إلى أن يراه ويعلم من هو هذا وإذا به قد دخل فنظر إليه فرآه كأنه الفيل قطعة كبيرة الدماغ والجثة طويل القامة كأنه النخلة لا يوجد له ثان بين الرجال بأياد طوال وصدر واسع وأعين تقدم ناراً وشراراً ولما وقف بين يدي الملك فقبلها ووقف ينظر إلى اليمين والشمال فأمره كسرى أن يجلس فقال له إن سمح لي سيدي الملك لا أجلس إلا بعد ان يجيب طلبي ويمنحني ما أطلبه . قال وما تطلب إسألني فأجيبك قال إني لا أطلب إلا ما هو من حقوقي لأني بهلوان مقدم في كل بهلواني بلادك وقد عرفت في هذه الأيام أن أحد العرب المعروف بالأمير حمزة قد جاء البلاد وأخذ الرتبة الأولى عندك وأنعمت عليه بكل ما هو عزيز لديك ولذلك رأيت أن من الواجب ان أجرب نفسي معه إما في القتال وإما في مقام الصراع فإذا صرعني فدمي مباح له وإذا صرعته يرجع بالخيبة من بلادنا ولا يعود إلى الأفتخار علينا لأن كيف يكون بين فرسان الفرس الوف من البهلوانية ويأتي رجل بدوي ينال التقدم مع أن العرب على الدوام هم كعبيد لنا لا نرفع لهم شأناً ولا نعظم لهم قدراً .

فقال له كسرى دع هذا الطلب وارجع عنه فما انت من رجاله ولا أريد أن أخاطر بنفسك بصراعه وما في ذلك من فائدة فأنت عندي عزيز وهو أكثر عزة . قال كيف اتركه وأنت تعلم ان من الواجب على خدام الملك أن يكونوا على الدوام سالكين مسلك الجد والاجتهاد فمن منهم نال الفضل اكتسب المقام الأول من حقوقي انا لا أدع احداً في ديوان سيدي مقدماً علي فإذا قهرت حمزة كان لي المقام الأول عليه ويشهد الخاص والعام أني أشد منه بسالة واقداماً ويحق لي الفخر عليه وعلى سواه . قال هذا لا أوافقك عليه قط .

وكان يتكلم وينظر الى جهة الأمير حمزة فعرف أن الكلام دائر بسببه. فسأل بزرجمهر عن طلبه وماذا يريد فعرضه عليه وحكى له كل ما كان من أمره وأمر الملك كسرى فقال له أريد منك يا سيدي أن تبلغ الملك أن يأمرني بصراعه فإني أرغب فيه ولا اتركه ومن كان مثلي لا يخاف من ألف بهلوان مثل هذا البهلوان قال اني اعرف ذلك وأريد منك أن تصارعه وتصرعه لأني مؤكد أن الوزير بختك قد بعث اليه وأحضره مع أنه كان غائباً عن المدينة وما حضر الا بالاتفاق معه وهو يظن أنه ينال منك المقصود ويعدمك الحياة أو يقل من مقامك ويحط من قدرك. ثم التفت الوزير إلى الملك وقال له أعلم يا سيدي أن الأمير يرجو منك أن تسمح له بمصارعة مقبل وهو مصر عليه ولا أظن أنه يرجع عنه قال إني غير قابل في ذلك فإن كلا الإثنين عزيز عندي ولا أرغب بوقوع عداوة بينهما أو نزاع اوامر آخر مكدر. فقال مقبل إني استرحم منك ألا تحرمني من شيء طلبته وأرى من نفسي أن لابد لي منه فأخبره وأكرم علي به حالاً. وبقي مقبل البهلوان يلح على كسرى حتى أجابه إلى طلبه وعين ساحة الصراع خارج الأيوان وخرج كسرى إلى خارج الإيوان وجلس على كرسي فوق باب الديوان وفي الحال نزل إلى الساحة الأمير حمزة ومقبل البهلوان وكان مقبل يرجح كل الترجيح أنه يقتل حمزة حيث ما كان شاهد قبل فعاله بل كان يتكل على قوته وعلى قول بختك الوزير له بأنه يقدر أن يتمكن منه ويعدمه الحياة ووعده إن أهلكه أو أذلّه وأرجعه بالخيبة عمره بالعطاء الجزيل وأنعم عليه جداً.

ولما صارا في وسط الساحة نزع مقبل ثيابه ولم يبق عليه سوى لباس من جلد قصير ثم أخذ شيئاً من دهن الشحم ودهن به بدنه حتى صار يلمع كالبلور وصارت لا تستوي عليه ولا تلبث على الجسد ثم أشار إلى الأمير حمزة أن ينزع ثيابه ويفعل كفعله فلم يقبل وأشار له أن لا أفعل ذلك وكان قد نظر إلى فوق فرأى مهردكار وهي تنظر إليه نهاية عمله مع خصمه فلم يعد يأخذه هدو ولا اصطبار وقد استقبح هذه العادة ان ترى مهردكار بدن رجل وانقض عليه ومد يده إلى وسطه ليقبض عليه فلم يتمكن من أي يمسكه وأما مقبل فإنه مسكه من زناره وشده إليه وفي ظنه أنه بهذه الشدة يلقيه إلى الأرض فلم يتزعزع بل أثبت رجله في الأرض فأصبح كأنه الجبل الراسي لا تميله الزوابع ولا القوات ودامت المجاولة بين الاثنين وكل واحد منهما يظهر من قواه كل ما عنده وقد خاف الناس من محي حمزة عليه عند ما رأوا مقبلاً عرياناً لا يتمكن الأمير من مسكه وكذلك مهردكار فأنها كانت تعرف اصطلاح أرباب الصراع فخافت أن يقع حمزة ويتغلب عليه خصمه وذلك لما رأته يمد يده فلا يقدر أن يقبض على شيء وذاك قابض على وسطه فمضى عليهما أكثر من ساعتين والأمير حمزة يحاول القبض عليه وهو يفلت منه حتى تعب مقبل ولم يعد في وسعه الثبات وكاد يقع إلى الأرض فلحظ حمزة ذلك فانحط عليه ومد يده إلى رقبته فقبض عليه وأرسل يده الثانية إلى ما بين ساقيه

ورفعه بما اعطى من القوة والبأس فصار فوق رأسه ثم مشى به وقصد أن يضعه أمام كسرى ليرى نفسه ولما رأت تلك الجموع أفعال حمزة صفقت من الفرح وكذلك الملك وبزرجمهر فإنهم سروا مزيد السرور وعرفوا أن حمزة فارس كرار وبطل مغوار ليس له نظير في سائر الاقطار وأراد حمزة أن يضع مقبلاً إلى الأرض وإذا به قد رفع يده وهو مرفوع إلى فوق رأسه وضربه بباطن كفه على وجهه لطمة غيبت الأمير حمزة عن صوابه وكاد يطير عقله من رأسه ولم يعد يعرف من أمامه ولا من وراءه ولكثرة حنقه ضربه بالأرض أمام باب الأيوان بكل عزمه فانخلعت رقبته وخرجت روحه فتكدر بختك الوزير من ذلك وقال للملك أن الأمير قد خرق حرمتك وحرمتنا ولم يراع جانب الأدب وقد قتل رجلاً من كبراء الفرس كثير الأهل والعيال فما عمله هذا إلا من باب التعدي والجور . فقال له بزرجمهر إن حمزة ليس بمخطىء فإنه هو الذي تعدى عليه وطلب صراعه ولم يكن من قصد الأمير حمزة قتله إلا بعد أن لطمه بحضرة الملك على وجهه تلك اللطمة فلو نزلت على ركن لهدمته . فأجاب كسرى إني أعرف أن حمزة مصيباً فخرق حرمتي وقع من مقبل لا منه . ثم نظروا وإذا بهم رأوا الأمير مال إلى أخيه عمر وأخذ منه سلاحه فتقلد به وأمره أن يقدم له الجواد ليركبه فعرف أنه يكدر من عمل مقبل وخاف من أن موته يغيظ الفرس فيقدموا على عناده فقال في الحال لوزيره بزرجمهر أسرع إلى الأمير حمزة وأدخله الأيوان وأخبره أن مقبلاً قد نال ما استحقه وقد سامحناه بدمه فنزل إليه بزرجمهر وتعطف بخاطره وأرجعه إلى صوابه وجاء به إلى أمام كسرى فأقبل إليه واعتذر عن فعله وقال له بواسطة بزرجمهر أعلم يا سيدي إني ما قصدت له شراً إلا بعد ان بدأ بالشر وكان بودي أن القيه بتمهل أمامكم مغلوباً فعاملني بالخيانة ففعلت به ما فعلت . قال إني مسرور من عملك وعليه فاني أعهد إليك بكل أمواله وأملاكه واسلابه تأخذها لنفسك فاعتذر حمزة وقال يا سيدي إني لا أرغب بشيء إلا برضاكم علي . قال لابد من ذلك وسوف أزيدك من أموالي أضعاف الأضعاف وإذ ذاك تقدم الأمير عمر وقال له قد مضت مدة يا سيدي ولم تسمح لي بشيء من المال حتى ضجر جماعتي العيارون . فأمر له بخمسة آلاف دينار فقبضها وهو من الفرح على جانب عظيم جداً لا يصدق متى يجتمع بعياريه حتى يبذل المال عليهم وينثره على رؤوسهم .

قال وصرف حمزة كل ذاك اليوم عند كسرى وهو مسرور الخاطر قرير الناظر بقربه منه ويفرح به ويهش بوجهه وعند المساء خرج من الديوان ونزل إلى الأسفل وركب الاصفران ورفع عينيه إلى فوق فوجد مهردكار كالعادة واقفة في طاقة قصرها فأشار إليها مودعاً فأجابته على إشارته بإشارة وقعت على قلبه أرق من وقوع الماء في جوف الظمآن وبقي سائراً إلى أن دخل الخيام وبقيت هي واقفة ترقب خطواته وقلبها يتبعه من ورائه طائراً يرف حواليه إلى أن غاب عن أعينها فشعرت من نفسها بانقباض وانفطار قلب كيف أنه غاب عن أعينها

فصرفت نحواً من ساعة تنظر إلى الطريق التي سار فيها والأرض التي مشى عليها حتى اسودت فحمة الليل فتركت الشباك ودخلت غرفتها وهي تخاطب وتقول لم يا ترى هذا التهامل وإلى متى وأنا على هذه الحيلة لا أسعى في وسيلة تقربني منه وتقربه مني وتجمعنا معاً وأخذ هذا الفكر في خاطرها مأخذاً عظيماً ورأت من الصواب أن تكتب له مع الرسول الذي يحمل الطعام تستشيره في هذا المعنى وتطلب إليه أن ينظر في الطريق الموصل إلى الغاية . ولذلك أخذت فكتبت (من مهرد كار بنت كسرى أنو شروان صاحب التاج والإيوان إلى الأمير حمزة البهلوان حبيبها ورجائها في هذا الزمان من اتخذته لها سندا وغوثا وتطلب بقاءه مدى الدوران) (قد ثبت عندي شدة حبك لي وتنازلك بقبولي لخدمتك ونظرت إلي نظر الهائم المغرم حتى أصبحنا في الحب على درجة عظيمة وقلب كل واحد منا بيد الآخر وقد نظرت إلى الحالة التي عليها فتعجبت كل العجب كيف أننا متقاعدون عن تدبير الوسائل التي توصلنا بعضنا إلى بعض وتحفظ لنا راحتنا في المستقبل وننتهي من هذه الحالة وإني أرى أن لا يتم إلا بتدبيرك واعتنائك فدبر أنت ما تراه حسناً وإذا تسهل لك أن تتوصل إلي فلا تتأخر وعرفني عما يخطر لك من هذا القبيل وإذا كان لا يخطر لك الإتيان إلي فاسمح لي أن أقول لك أن تذهب إلى أبي وتسأله أن يزوجك بي وعلى ما أظن أنه لا يمتنع عن ذلك لأنه يحبك محبة زائدة ويرضى كل ما يرضاه فلا يمنع عنك شيئاً تريده وإني أزودك أخيراً المحبة الخالصة والمودة الأكيدة وأعدك إني رهينة لأمرك أسيرة بين يديك أينما سرت أتحمل كل ما تأمرني به وأقاسمك الشقاء والهناء أي إني أكون شريكة لك لا أنفك عنك وعن خدمتك فلا صالح لي في هذه الدنيا إلا أن أرى وجهك وأنظرك على الدوام في الصباح والمساء بل وفي كل آن ولا أريد منك إلا أن تبقى راضياً علي قانعاً بأنك السند الوحيد لي والغوث الأكبر) ثم أنها طوت الكتاب وختمته ودفعته لخادمها الخصوصي وأوصته أن يأتي منه بالجواب ثم حملته الطعام وسار إلى جهة الأمير حمزة حتى وصل إليه فرأى الأمير عمر العيار عند باب الصيوان فناوله الكتاب والطعام وسأله الجواب فأخذه إلى حمزة ولما قرأه وعرف ما فيه شغل باله وأخذ يفكر في معناه وخطر له أن يذهب إلى قصر مهردكار ويجتمع بها ويسمع حديثها ويلتذ كل اللذة بالتقرب منها وهو عليه الحب كل صعوبة دون ذلك فدعا الرسول وقال له أخبر مولاتك إني أسير إليها في هذه الليلة بعد ساعتين فلتكن على حذر وتسعى في أمر مروري من الباب حتى لا يراني أحد حفظاً لشرفها وشرفي كي لا يقال عنا ما يثلم صيتنا . فقبل الرجل يده وسار إلى سيدته ولما وصل إليها بلغها ما قاله الأمير ففرحت غاية الفرح وسرت مزيد السرور وأمرت قهرمانتها بتدبير غرفة الشراب ووضع كل مشروب ومشموم ونقل عليها ثم أنها أمرت الرجل خادمها الخصوصي أن يقف عند الباب عوضاً عن الحارس وأن يدعوه إليها فسار ووقف بالباب وجاء حاجب الباب فقالت له إنك منذ أكثر من عشر

سنين وأنت حارس على باب قصري وأنا لا أمنع عنك وإني الآن أريد أمراً فأجبني عليه ولك مني الجزاء العظيم فقال لها إنك تعلمين صدق قولي وتعرفين خدمتي وصداقتي قالت لاخفاك حالة الأمير حمزة البهلوان الذي جاء هذه البلاد وفعل ما فعل حتى غمر بلادنا بأفضاله وكنت لا أعرفه بل أسمع بهَ فقصدت أن أراه وتسهل لي أن يزورني في هذه الليلة وأراه وأنعم عليه مكافأة على فعله ببلادنا ولذلك أريد منك أن لا تمنعه إذا جاء وأن لا تظهر أمره إلى أحد ثم دفعت إليه قبضة من الدراهم فلما سمع حاجب الباب كلامها صفق من الفرح وقال لها أصحيح ما تقولين يا سيدتي وهل أن الأمير حمزة يأتي هذا القصر قالت نعم إنه يأتي بعد قليل قال إني مولع به يا سيدتي وأتمنى على الدوام أن أبقى بين يديه وفي خدمته لأني شاهدت أفعاله ورأيت أعماله وتعشقته نفسي وأستعد على الدوام أن أفديه بروحي وأعاهدك أني لا أخبر أحداً بمجيئه ولا أمنعه ولو كان بذلك فقدان حياتي وسعادتي فمدحته مهرد كار وأثنت عليه وأعادته إلى الباب وصرفت الخدم إلى غرف منامتهم ولم تبقى إلا قهرمانتها فقط وأمرت الرجل الذي يحمل الطعام أن يقف خارج الباب ليخبر الأمير حمزة ويطمئنه بالدخول وإن كل شيء قد تسهل له . ومن ثم دخلت إلى غرفة ملابسها فنزعت ما عليها ولبست أفخر ما عندها من الملابس وتزينت بالحلي الفاخرة وتتوجت بتاج من الألماس والحجارة الكريمة من عمل الفرس وفيه شموس من الذهب على دائرة وخرجت إلى الغرفة التي أعدتها قهرمانتها فوجدتها قد أنهت كل شيء وصفت المدام ووضعت الزهور عليها النقولات الفاخرة وأقامت على الانتظار وقلبها يخفق الدقيقة بعد الدقيقة وأفكارها تضرب من جهة حبيبها مفتكرة كيف تكون حالة إجتماعها به ووجوده عندها ولم تقدر تلك الحالة من السعادة واللذة مع أنها لم تكن قد اجتمعت قبل ذلك الحين برجل غريب وخصوصاً على مائدة الشراب قال هذا ما كان منها أما ما كان من الأمير حمزة فانه بعد تناول الطعام جلس ينتظر عودة أخيه عمر من جماعته لأنه سار إليهم وفرق عليهم الأموال ولم يبق معه بارة واحدة وبعد أن عاد إليه أمره أن يسير أمامه إلى المدينة فأجابه وسار بين يديه حتى وصلا إلى الباب فدخلاه ولم يكن ثم مانع لأن الأبواب كانت تفتح ليلاً ونهاراً دون معارضة ولا ممانعة فتدخل الناس وتخرج إما للنزهة وإما لأشغال خصوصية . ومن ثم سار إلى أن قرب من قصر مهردكار وإذا بخادمها ينتظرهما هناك فتقدم من الأمير حمزة وقبل يديه وقال له تفضل يا سيدي فإن سيدتي قد أعدت كل شيء لدخولك وما من مانع يمنعك وعند قربه من باب القصر تقدم منه الحاجب وقبل يديه وقال له إني أخدمك على الدوام وأفدي بنفسي لأجلك فشكره حمزة وقال له سوف أكافئك على جميلك هذا وبعد ذلك دخل القصر وأمامه الرجل يسير به من سلم إلى آخر ومن دهليز إلى آخر حتى صعد به الطابق العلوي وحالما وصل إليها شعرت مهرد كار بإتيانه فطار قلبها شعاعاً وخرجت حالاً لملاقاته ولما رآها الأمير وهي على

تلك الحالة لم يقدر أن يتمالك نفسه عن أن يقبلها قبلة اللقاء وحياها تحيات العاشق المشتاق فأجابته على تحياته بالمثل وأخذته من إبطه ودخلت به إلى الغرفة السابقة الذكر وإذا به يراها فائحة بروائح الند والعنبر والبخور والزهور تبعث أيضاً بزكاء روائحها العطرية فانشرح صدره لهذه الحالة ولم يكن قد مر عليه تنعم مثل هذا النعيم أو جلس مثل هذا المجلس البهيج الأنيق ومن ثم أجلسته على كرسي من العاج عليها شبكة من اللؤلؤ والمرجان وهي من المخمل الأحمر الحريري المزركش بالزراكش الفضية والذهبية وبعد أن استقر بهما الجلوس أمرت قهرمانتها بالخروج فخرجت وخلا لهما الجو وأخذ كل واحد منهما يطارح الآخر غرامه ويشكو له ما يلاقي من الوجد والهيام وقد قالت مهرد كار إني كنت لا أظن الزمان يسمح لي أن أراك إلى جانبي وفي القرب مني كل أسباب الحظ ومعداته وكفاني الآن عيشة في هذه الدنيا فقد وصلت إلى أعظم السعادات وأفضل الراحات وألذ العيشات كيف لا وأن محبوبي أمامي وعليه المعول ومنه أرجو دوام هذه الحالة إن أراد الله أن يحسن إلي ببقائي بعد فقال لها قسم الله الحظ بيننا فإنني مثلك أشعر بهناء وراحة عجيبين لم أكن أظن ألاقي مثلهما في حياتي بطولها وعليه فإني سأحافظ على مثل هذه الحالة وأسعى في كل ما فيه راحتك وهناك وأطلبك لنفسي زوجة من أبيك فإذا أجاب كان خيراً وإلا أخذتك بقوة السيف والسنان وفتكت بأبيك ولا أدعك تكوني لغيري مطلقاً ما زلت في قيد الحياة قالت إني أفضل أن يبقى الحب على حاله بينك وبين أبي وأن لا يتكدر أحد من الآخر حيث إني أحب أبي جداً وأفضل أن أبقى على الدوام تحت طاعته ونظره قال وإني مثلك أريد ذلك إلا أن قلبي يخبرني الحرب ستنتشب بيننا والتزم إلى عناده وتقع بيننا الأهوال ولا بد أن القلب دليل الإنسان فأرادت أن تمانع ذلك إلا أنها خافت من تصديع خاطره وغيظه وتركت الأمور لتدبير العناية وقالت له ليس الآن وقت كلام فقبل كل شيء أريد أن أصرف وقتاً على الحظ وشرب العقار فاغتنام مثل هذه الفرصة أوفق من تضييعها ثم تناولت قدحاً من الشراب وناولته إياه بعد أن شربت منه قليلاً فأخذه من يدها وهو يتأمل في محاسنها ويحدق بجمالها وبما أعطاها الله من الحسن الفائق والجمال الرائق وأن كل ما رآه فهو حسن فإذا نظرت كانت تنظر بأعين الغزال وإذا نطقت كانت تنطق بلفظ أشهى من السحر الحلال كيف لا وهي شمس الدنيا وبالحقيقة أبهى من الشمس والقمر فكم من أقمار تضيء في أفق جبينها اللامع وكم من شمس تختفي تحت ثنايا محياها الساطع بأنف أقنى وخد أبيض مورد أصيل مدور وفم قيل في الأمثال كأنه خاتم سليمان فإذا أغلقته لا يمكن أن يعرف الناظر أين مكانه ولا بد أن نأتي بوصف جمالها بتمامه وإذا لم يكن كله فبعضه في غير هذا المكان مما يأتي . وبعد أن أحدق بجمالها متأملاً كثيراً أنشد :

زرت أزرتها على الأقمار   أو ما رأيت مطالع الأنوار

وتبسمت عن راح ريق خلته بـرداً أذيب بمرشف النـوار
وتبـرقعت بسحـاب بـرقعهـا فـما أبهى طلوع البدر في الأسحار
وتضوعت حبات وجنتها فقل في نشر طي حدائق الأزهار
وسطا على العشاق جفن لحاظها أسمعت جفناً ناب عن بتار
ورنت جآذر لحظها عن ساحر أعرى. فؤاد الصب بالانذار
حمراء بيضاء الازار كأنها شمس تجلت في ضياء نهار
لو لم تكن كالغصن ما هاجت على ذاك القوام بلابل الأطيار
كلا ولا هام الشقيق بخدها إلا لتظهر جنة في نار
فأعجب لناظرها أراق دمي وقد لبس الجنوب عليه ثوب غبار
حاكمت عنبر خالها في خدها والأصل في الدعوى على دينار
فقضى بتعذيب الحشا نعمانه لما قضى بتنعم الأبصار
لم أبكها لكن بنظرة غيرها طهرت أجفاني بماء جاري

وبعد أن فرغ من انشاده شرب الكأس وأرجعها فارغة وهو ضائع العقل من شدة الهيام ومثله مهرد كار فانها لما سمعته وقد أنشد ما أنشد فيها وفي جمالها تهلل وجهها فرحاً .وثبت عندها أن محبته صادقة وافية بالمقصود ولا ريب أن كل حبيب يطمئن باله ويرتاح ضميره ويزداد فرحاً وخلوصاً عندما يرى أن محبوبه يخلص الود وأنه يصفه عن فؤاد صادق ولا بد أيضاً أنه يرغب في أن يزيده في محبته له ليجعل نفسه بدرجة حبيبة تفوقه أي أنه يرغب في أن يجاري من أحبه ويبرهن له أنه أحبه أكثر ما هو أحب وهكذا كانت مهردكار وحالتها على أعظم راحة وسعادة لم تغد تفكر بأبيها وإخوتها ولا ببلادها وصار عندها أفضل شيء ما هو أمامها ولا سيما عندما رأت الأمير حمزة قد دنا من المائدة وتناول كأساً فارغة وسكب فيها من الخمرة شيئاً وناولها إياها فمدت يدها وكانت تلمع وتضيء لشدة بياضها وفيها دملج من الذهب يغطي نصف زندها مرصعاً بالحجارة الكريمة الغالية الثمن وبعد أن تناولت القدح لم ترد أن تشربه على الفور بل أرادت أن تمزجها بتصورها من ماء جماله لتشرب الخمر والجمال في كأس واحدة وبعد أن أحدقت في حبيبها نحو من خمس دقائق تسمع لفظ عذوبة حديثه المسكر وعند ذلك أنشدت :

وافى وأرواح العذيب نواسم والليل فيه من الصباح مياسم
أهلا بمن أسرى به وعدله متأخر وهوى لنا متقادم
غض الشبيبة يعذر المضني به لجماله ويلام فيه اللائم
النضر من أعطافه وكنانه بلحاظه وبمهجتي هو هائم
هو ناظر متعشق وجوانح فيها مواطن للجوى ومعالم

هيهات أن أثني عناني والصبا غض وغصن العمر رطب ناعم
أو أشتكي حالي ومن أحببته أبداً لإخلاف القبول ملازم

ثم تنهدت من فؤاد متلوع بنار الغرام وأنشدت :

يا من شغلت به سري وأوهامي ومن بمعناه انجادي واتهامي
ومن الفت رضاه الرحب جانبه وفزت منه بإحسان وانعام
لم أنس أقدامك اللاتي سعت ومشت بهن خيناً على الحسناء أقدامي
كن كيف شئت فداك الناس كلهم فالناس كلهم في ظلك السامي
وحسن أيامك الغر التي حسنت بها ليالي من دهري وأيامي

وبعد أن شربت الكأس ناولته إياها فشرب وهكذا صرفا نحواً من ساعتين على أطيب هناء وأصفى عيشة وأنعم راحة وبعد ذلك طلب الأمير الذهاب فقال لها أريد منك أن تمنحيني الرضا والقبول وأن تعاهديني على الوفاء والمودة فهذه أول مرة اجتمعنا بها ومن الواجب أن تكون قلوبنا مرتبطة بروابط لا تنفصم عروتها إلى أن ندرج بالأكفان وإني أقسم لك بالله العظيم وبيت الله الحرام أن لا أتركك ولا أمتنع عنك ولا أزال أطلب زواجك حتى أحصل عليه ولو حالت دون ذلك المصاعب والمصائب ولو اجتمع علي أيضاً ألوف من الناس ولي الله فهو يساعدني على ما أريد فقالت له وإني أيضاً أقسم بربك الذي أعبده مجدداً وأعتبره أنه الحي القيوم الذي لا يموت ولا يترك عباده من عنايته أني أحافظ على حبك حتى الموت وأرعى عهدك ولا أخونه قط ولا أنثني عن وعدي هذا ولو فتكت بي فواتك الهلاك ولعبت بجسمي سيوف الانتقام وعاندني أبي ورجال مملكتي كلهم . ولما ارتاح بال كل واحد منهما من هذا القبيل قال لها الأمير حمزة إني في صباح الغد سآتي أبيك حسب عادتي وحال وجودي عنده أطلبك منه زوجة وأنظر ماذا يقول وبماذا يجيب ولا ريب أنه ينعم لي بك إذا ترك على غايته وإرادته لكن جماعة الفرس ينكرون عليه ذلك فلا يوافقهم قط ولا يرضون به أبداً . قالت إني أحذرك من الوزير بختك فهو خبيث محتال خادع غاش يسعى بهلاكك على الدوام وإذا وجد من يمانع أبي أو يبعده عن الإجابة فيكون هو لأنه مسموع الكلمة عنده جداً وليس عنده فقط بل عند عموم رجال الفرس لأنه من عائلة شريفة جداً مكرم الخاطر عند الخاص والعام بعد أبي وأبي يعلم منه ذلك إلا أنه يرى نفسه مضطراً للانقياد إليه حباً برعاية مع أنه يعرف أن بزرجمهر أعقل منه وأحكم وأفضل أدباً غير أن العجم يعلمون أنه يعبد الله ولا يعبد النار فيميلون إلى بختك قال لها كوني براحة من هذا الوجه فما علي خوف من أحد ما دامت عين الله ترعاني وتحفظني ثم ودعها وخرج وهو يقول لها يصعب علي بعادك ومبارحتك ولا بد أن نجتمع قريباً إن شاء الله فبكت لفراقه وشعرت بأن حياتها انسلخت

من جسمها فدخلت غرفتها ونزعت ثيابها ورمت بنفسها على سريرها ولولا أملها بقرب وصولها من زمن راحتها لما نامت تلك الليلة مطلقاً غير أنها اطمأن بالها عند فكرها بأن الغد يكشف عن باطن سر حياتها وهل إن أباها يجيب أو يمتنع وعليه فإنها بعد إمعان الفكرة نحواً من ساعة غرقت ببحر النوم الطويل .

وأما الأمير حمزة فإنه بقي سائراً ومعه الأمير عمر حتى وصل إلى صيوانه ولم يشعر به أحد فدخله ونام وهو موجه بكل فكره إلى محبوبته مؤكد بأنه سيحصل عليها بأي طريقة كانت إما بالرضا وإما بالقتال وجعل يفكر كيف يطلبها من أبيها في الغد وماذا يقول له وإذا امتنع ماذا يجب أن يفعل وما لبث على ذلك نحواً من ساعة حتى ذهب به شرب العقار إلى النعاس فنام تلك الليلة غائباً عن الهدى ولم ينتبه إلا عند الصباح فنهض من فراشه وذهب إلى الملك النعمان فوجده بانتظاره فجلس عنده إلى أن اجتمع عنده الأمراء وحان الوقت الذي يذهبون به إلى ديوان كسرى فقام كل منهم إلى جواده فركبه وساروا جميعاً إلى المدينة ولما قربوا منها نظر حمزة إلى قصر مهردكار فوجدها بالشباك كعادته فحياها على نظر من الملك النعمان وجماعته حتى لم يعد يخفي أمره على أحد قط وبعد ذلك دخل الديوان وكل من العرب يتعجب من حال الأمير وما هي العلاقة الواقعة بينه وبين بنت كسرى وحسب الملك النعمان لذلك حساباً وخاف العاقبة ولم يخطر له أبداً أن الأمير حمزة يفكر بزواج مهردكار أو يقدر على الزواج بأدنى بنت من بنات الفرس وهذا ما كان كل العرب يتمناه لما هن عليه من الجمال البارع والحسن البديع الذي خصهن الله به دون سواهن من نساء العالم قاطبة .

قال ولما دخل الأمير الديوان وجلس في مكانه بالقرب من كسرى جعل يباسطه ويحادثه وقد زاد معه بالكلام عن العادة لشدة حبه له إلا أن الملك قال لوزيره بزرجمهر أريد منك أن تخبر الأمير حمزة أنه الآن براحة وما من صعب دون ترقية المعالي وأني أشعر على الدوام بصدقة في خدمته وقد فعل معنا جميلاً لا أنساه قط وحتى الساعة لم أكافئه من تلقاء نفسي وأريد أن يطلب مني الآن ما يتمنى فأعطيه إياه في مقابلة فضله على بلاد الأعجام . فبلغ بزرجمهر الكلام إلى حمزة وسأله أن يطلب ما أراد فقال له أخاف أن أطلب شيئاً فلم يجبني إليه فعاد الكلام على الملك قال فليطلب مهما أراد فإني لا أمنع عنه شيئاً ولو كان كرسي ملكي وتاجي ولما سمع الأمير هذا الكلام حركه الغرام وثبت عنده أن الصدفة قد خدمته فجاء الأمر على أحب ما يشتهي ولذلك قال لبزرجمهر أريد أن تسأل الملك زواجي ببنته مهردكار وهذا الذي أريده وغيره لا أريد فإذا جاد كان ذلك كرماً منه وجبراً بخاطري وإلا فيكون قد منعني من شيء أحبه وملني بغير الحق فلما سمع بزرجمهر هذا الكلام نشف ريقه في فمه واضطرب اضطراباً عظيماً وقال لحمزة إن هذا الذي تطلبه لا يمكن أبدا فارجع عنه ولا تلق بنفسك في

سبيل العناد فينقلب الحب الواقع الآن بينك وبين الملك بغض وعداوة فاطلب أمراً لا تمس به ناموسه ودينه : قال لا أريد إلا أن يسمح لي بينته فان أجاب بالرضا كنت له خادماً على طول الزمان وإلا جردت في وجهه سيف الإنتقام وعملت على عداوته ولا أنفك إلا بعد نوال غايتي وليس عليك يا سيدي إلا إبلاغ كلامي للملك وما من بأس عليك حيث لم أطلب أمراً به إخلال ناموسه ودينه فالزواج سنة محمودة عند عموم بني الإنسان وأما دينه فإني لم أمسه قط وقد بلغني أن مهردكار هي على دين الله عز وجل ولهذا طلبت أن لا أبقيها بين عبدة النار فوقع هذا الكلام من الوزير بزرجمهر موقع الاستحسان غير أنه كان لا يجسر أن يعرضه على كسرى وكان كسرى لحظ حالة الوزير واضطرابه ان طلب حمزة خطيراً فأراد أن يعرفه ويجيبه إليه ليظهر محبته أمام جميع الحاضرين فقال للوزير لم هذه المعالجة فأخبرني بما يطلب حمزة فلا أمنع عنه شيئاً ولو كان طلبه بنتي مهرد كار أليس إني فوضته ووعدته ومن كان مثلي لا يقول ويخلف . فقال له يا سيدي أنه يريد أن يتقرب منك يتزوج بنتك مهرد كار وما قصد بذلك إلا ليكون على الدوام بين يديك وفي ديوانك ويدافع عن بلادك وهذه الطريقة تجعله مضطراً وقد أردت أن أمنعه عن هذا الطلب لعلمي أن بنتكم لا تليق أن تكون زوجة لرجل عربي فقال لي هذا لا بد منه وأن حضرة الملك وعدني بأن يعطيني كل ماأطلبه وخصوصاً إني مترب على نعمته كما يتربى أحد أولاده وأولاد عمه والذي حملني على الطلب إعتقادي بحلم الملك وكرمه . فلما سمع الملك ذلك لم يرض أن يمتنع واستحى من أن يرجع بقوله فقال على الفور بلغ حمزة أني أجبته إلى طلبه وأنعمت له ببنتي مهرد كار زوجة وحليلة فإني أعرف أنها وإن كانت بنت أعظم ملوك هذا الزمان وقد أعطيت من الحسن والآداب وجودة العقل ما لم يعط لغيرها قطعاً إلا أنها تحتاج أن يكون لها زوجاً كالأمير حمزة يقابلها بالشكل ويقدر على أن يحميها من كل عدو ومطارد وزواجه ببنتي لا يقوم مقام تخليصه لبلادي من عدوي . فلما سمع الوزير وجميع الحاضرين هذا الكلام اعترتهم الدهشة وأخذهم الجمود ولم يكن من واحد منهم يصدق قبل ذلك أن كسرى يصدر منه مثل هذا الكلام وخصوصاً الملك النعمان فإنه عندما سمع الوزير يبلغ حمزة كلام سيده تعجب كل العجب وهو لا يصدق أنه ينتهي مثل هذا الأمر وأما بختك بن قرقيش فإنه وقع باليأس ونزلت عليه صاعقة من الغضب وانفطرت مرارته وكاد يغيب صوابه وأصبح فاقد الحس والعقل بوقت واحد وبقي أكثر من ساعة لا يقدر على الكلام ولا يخرج ريقه من حلقه .

قال ولما سمع الأمير حمزة كلام الملك نهض إليه في الحال فقبل يديه وشكره مزيد الشكر فقبله الملك وبش في وجهه وأعاده إلى موضعه وأمر أن يوضع الطعام حسب العادة للغداء فجلسوا على مائدة الطعام وأكلوا وقاموا عن الأكل يشكرون الله تعالى وشاع الخبر من ديوان الملك إلى غير أن الملك قد زوج بنته مهرد كار بالأمير حمزة حتى وصل إلى مهردكار من

حاجب بابها فإنه حالما بلغه هذا الخبر دخل عليها وقال لها إني أبشرك يا سيدتي بأمر أظنك ترضينه وتحبينه قالت وما هو وقد شعرت به في داخلها لأنها كانت طول الوقت تفكر في هذا المعنى وتتوق نفسها إلى معرفة ما يكون جواب أبيها وهي في خفقان قلب دائم إلى أن قال لها الحاجب أن أباك أنعم بزواجك إلى الأمير حمزة عن رضا وقبول . فطار قلبها شعاعاً عند سماعها هذا الخبر ونزلت دمعة الفرح على خدها من أعينها وبقيت أكثر من ساعة صامتة لا تعرف ما تقول لعظم ما وقع عليها من الفرح وبعد ذلك نزعت عليها عقداً من الجوهر كان برقبتها فدفعته إلى الحاجب وقالت له هذا جزاء بشارتك إلا إني أريدك أن تكتمه كي لا يقال عني أني مرتبطة معه على ذلك فكاد الرجل يطير من الفرح وهو لا يصدق أنها أنعمت عليه بمثل هذا الإنعام وبعد أن قبل يديها خرج من عندها يدعو النار أن تساعدها ولا تحرمها من غايتها وأقامت بعده على أهنأ حال وأنعم بال ترى إلى نفسها وما سمعته بين التعجيب والإندهاش تنتظر أن يأتي المساء لتبعث إلى الأمير حمزة بالطعام وتسأله عما كان من أمر أبيها مفصلاً وأما الأمير حمزة فإنه بقي في ديوان كسرى إلى أن ارفض فذهب كل إلى حاله ورجع الأمير مسرور الخاطر طيب الفؤاد فودعه كسرى أكثر من العادة أنساً ولطفاً ولما سار في الطريق قال النعمان للأمير حمزة إني لا أصدق أن كسرى يجيب على طلبك بالإيجاب وما ذلك إلا من السعادة الكبرى التي خدمتك بالأول ولا تزال تخدمك قال وما عجيب ذلك ولم يمتنع كسرى عن الإجابة ألست أنا خلصت له بلاده وأرجعته إلى ملكه ولي عليه الفضل الذي لا يوصف وهل يرى لبنته أليق مني فتى . قال ليس القصد إلا العادة فقط فإن الفرس يكرهون جداً التقرب من العرب فلا يعتبرونهم إلا اعتبار الخدمة ويستحقون معيشتهم وأطوارهم فيضربون بهم الأمثال ولهذا نتعجب من ذلك ومن نفس مهردكار كيف يمكنها أن تعيش مع بدوي وتترك القصور الشوامخ والراحة والرفاهية قال إني لا أغير عليها أمراً فتبقى عائشة كما كانت وأن من جهة العادة أن الفرس يحطون من قدر العرب فإني سأبطل هذه العادة وأجعل الفرس يتمنون التقرب من العرب ولا يكرهون أمراً من أمورهم وسوف ترى ما يقدرني عليه الله سبحانه وتعالى فدعا له الجميع بالتوفيق وطول العمر ودوام الإقبال وساروا حتى وصلوا إلى الخيام فتفرق كل إلى صيوانه وسار حمزة إلى صيوانه فدخله وجلس ينتظر الطعام حسب العادة وقلبه يخفق سروراً فدخل عليه أخوه عمر وقال له أما قلت لك مراراً أن الأمر سهل وما من صعوبة تحول دون غرضك فأهنيك من الآن قال إني قلت لك منذ الأول إن قلبي وضميري ينبهاني أن الأمر صعب ومع أني الآن سمعت كلام كسرى وثبت لدي أنه زوجني ببنته بمحضر من الناس يشهدون عليه ولم يعد في وسعه الرجوع لا أصدق أن أحصل على مهردكار دون قتال ونزال وإراقة دماء وصعوبات جمة . قال لم يعد من موجب لذلك فإذا قال كسرى قولاً فعله إلا إذا غيره عنك بختك الخبيث المحتال وفيما

هما على مثل ذلك وإذا بالخادم قد جاء بالطعام فقدمه إلى الأمير وسأله عن لسان مولاته أن يخبرها بما كان فحكى له الواقعة وقال له بشرها بكل خير وسعادة فقد قضي الأمر وانتهى. فرجع الرجل فرحاناً وأخبر مولاته .

قال وفيما هي على مثل ذلك وإذا بأبيها وقد دخل عليها فقامت له ولاقته وقبلت يديه فقبلها وأجلسها إلى جانبه وأخبرها بما كان من أمر الأمير حمزة وأنه أنعم عليه بزواجها فلم تظهر شيئاً مما في قلبها بل قالت له أنت أبي ومالك قيادي وأمري بيدك كيف شئت دبرتني فلا حياة لي بغير رضاك ومساعدتك . وفي تلك الساعة جاء الوزير بختك إلى ذاك القصر وذخل على الملك فقام له وترحب به وسأله عن سبب مجيئه في مثل ذاك الوقت وإتيانه إلى قصر مهرد كار . قال إنك لا تجهل يا سيدي أمر مجيئي إليك في مثل هذا الوقت لأني رأيت منك في هذا اليوم ما أدهشني وجعلني لا أصدق أنك كسرى أنو شروان وأخاف أن قد طرأ عليك أمر غير من شرفك وناموسك وطباعك قال لم ذلك وما الذي أدهشك قال تنازلك بزواج مهرد كار إلى هذا البدوي فقد أنزلت من قدرك وقدر بلادك وبني جنسك إلى أدنى درجة وأنت تعلم أن الأمير حمزة لو أراد الزواج بأقل بنت من بنات فارس لامتنعنا عليه فكم بالحري بنتك التي لا نظير لها في هذا الزمان فعملك هذا مما يغضب النار ويبعد عنك أولاد عمك وأقاربك ويحط من قدرك عند عموم رعاياك وبما أني واحد منهم ومسئول بحفظ ناموسك من السقوط أتيت لأرجوك الرجوع عن قولك . قال هذا لا يمكنني بعد لأني قلت ولا أرجع بقولي فإذا امتنعت يقال عني كاذب وناكث الجميل على أني أرى أن الأمير حمزة يستحق أن يكون زوجاً لمهرد كار وحاكماً على بلاد الفرس ولابساً لتاجي . فقال له الوزير لا ريب أن الزمان غير من صفاتك يا سيدي فما كلامك هذا من باب الكمال ولا أعرف ما السبب الذي أوصلك إلى هذه الدرجة فماذا يقول عنك إذا رجعت بقولك غير أنك وعيت إلى نفسك وطلبت حفظ ناموسك لأن عموم رعاياك في هذه الليلة يتحدثون بشأنك ويتعجبون من أمرك وسماحك ببنتك شمس الدنيا وزينتها . قال قلت لك ولا أرجع بقولي إني لا أرغب في الكذب ولا أندم على شيء صدر مني قال إن كنت لا تريد أن ترجع عن قول وقع منك بإرادتك فالنار تدعوك إليه بالرغم عنك وإلا تكون مغتاظة منك لأنك زوجت بنتك برجل على غير عبادتها فتلتزم أن تترك عبادة النار وتعبد الله الذي يعبده زوجها وإذا كنت لا ترضى الرجوع عن قولك فاعهد إلي بتدبير هذا الأمر بإني أخلصك منه بطريقة أخرى وماذا يا ترى عدت ترتجي من الأمير حمزة فقد انقضى الأمر الذي كنا نطلبه منه وتم الحلم فبقاؤه نقمة للفرس وأنا أرسله إلى تهلكة تتخلص منها أنت من قومك ولا يعرف ذلك منك أحد وإلا إذا زوجت بنتك بحمزة تكون قد رفعت عن العرب نيراً ثقيلاً وأضعت الملك من يدك لأنهم الآن عارفون أن لا قدرة لهم على عنادنا وخرق حرمتنا فيطمعون ويظنون أن لولا خوفك من

بأسهم ومن الأمير حمزة لما زوجته ببنتك وخصوصاً إنه متى اتصل نسبك بنسبه يرى أنه له الحق في الملك إما على العرب وإما على العجم فتقع في أمر خطير يصعب علينا دفعه فيما بعد وبقي بختك على الملك حتى غيره عن عزمه وأقنعه أن لا يزوج بنته بالأمير حمزة وإن في زواجها مضرة كبرى للفرس . وكانت مهرد كار تسمع كل هذا الكلام فاسودت الدنيا في عينيها وانقلبت أفراحها إلى أتراح وضاق صدرها فخرجت من أمام أبيها وذهبت إلى سريرها فانطرحت عليه حزينة كئيبة وبقي الملك والوزير فقال له كيف التدبير الآن للخلاص من هذه الورطة الوبيلة قال ان من الواجب أن تبقى أنت على قولك ولا ترجع عنه وإذا سألك حمزة الإنجاز بالوعد فقل له إني وعدتك ولا أرجع بوعدي وبنتي هي لك وقد طلبتها مني ومن اللازم أن تطلبها من وزيري بختك وبزرجمهر حيث أنهما مدبرا ملكي ولا ريب أن بزرجمهر يجيب وأنا أدبر أمري وأقول له شيئاً تتخلص منه أنت على غير كدر ويبقى الأمر على حاله .

قال وبعد أن اتفقا على ما تقدم سار الملك إلى قصره وسار بختك فرحاً مسروراً بنوال مراده لإقناع الملك بإرجاعه عن عزمه وبغضه لحمزة وسعيه مع وزيره على هلاكه وكان كسرى على جانب عظيم من البساطة أقل أمر يرجعه عن عزمه ولا سيما أن وزيره بختك كان معدود الخاطر عنده محبوباً منه فهو بصفة وزير ديني وإمام في الدولة الفارسية في ذاك الزمان وما كان ذلك من كسرى إلا لحسن حظ حمزة وسوء حظ الملك ليجلب على بلاده حروباً وأهوالاً ويرمي بنفسه في وهدة الأخطار ولم يعد يلتفت منذ ذلك اليوم إلى عمل الأمير حمزة معه ومعروفه ونسي ما هو عليه من البسالة والاقدام وما ذلك إلا بتدبيره سبحانه وتعالى يحيي ويميت ويقلب الأحوال فهو على كل شيء قدير قال فهذا ما كان من أمري كسرى ووزيره وأما ما كان من الأمير حمزة فانه قام في الصباح مسروراً فرحاً وعول على الخروج من صيوانه إلى صيوان الملك النعمان وإذا به يرى عند الباب خادم مهرد كار ينتظر خروجه فارتبك من إتيانه في مثل هذا الوقت على غير عادة فتقدم منه وسأله عن سبب مجيئه فدفع إليه كتاباً كانت قد أعطته إياه سيدته ليعطيه إلى الأمير حمزة تذكر له فيه كل ما كان من أمر أبيها وبختك وما سمعته منهما وتذكر له فيه أن لا يظهر ذلك بل يبقى كاتمه في صدره إلى حين يرى ما يكون من أمر أبيها فاغتاظ الأمير حمزة من ذلك وقال لعن الله الفرس فما هم إلا قوم أشرار ولا بد لي من هلاك بختك كيف ما كان الحال غير أنه وعى إلى كلام حبيبته وصبر على أمره وقال للرجل سلم على مولاتك وأخبرها أني سأكتم ذلك واصرف كل جهدي إلى دوام الألفة والمحبة بيني وبين أبيها إكراما لخاطرها ولو تحملت في ذلك صعوبة عظيمة وثقلة أعظم .

ثم إنه بعد ذلك سار إلى صيوان الملك النعمان فوجده له بالانتظار فقال له هلم بنا نسير إلى ديوان كسرى لنرى ما يكون من أمره في هذا اليوم ونطلب إليه أن يعين لنا يوم

الزفاف وفي أي وقت يكون . فركب الجميع وساروا حتى جاءوا إلى باب الايوان فنظر حمزة إلى فوق فرأى مهرد كار جالسة في مكانها وأعينها تذرف دموع الحزن منكسرة الخاطر لا تبتسم كالعادة فانفطرت لذلك مرارته وتكدر مزيد الكدر وانطبقت المدائن على رأسه وحياها التحية المعتادة بأجابته بالإشارة . ثم دخل الديوان فتلقاه كسرى بالبشاشة وترحب به وأجلسه إلى جانبه وقربه منه وأمر أن يقدم له ولجماعته الشراب كالعادة . ومن ثم التفت الأمير إلى بزرجمهر وقال له أريد منك يا سيدي أن تسأل حضرة الملك أن يعين يوم زفاف ابنته وفي أي يوم يكون وما يريد لها مهراً فإني لا أرغب في التطويل وحيث قد أنعم وأوعد فلم يبق إلا إنجاز الوعد .

فبلغ الوزير كسرى كلام حمزة . فقال إني زوجته بنتي ولا أرجع بوعدي قطعاً غير أني وعيت إلى نفسي فعرفت أني خرقت حرمة وزرائي وكان من اللازم أن أستشيرهم بذلك ومن الواجب أن يرضوا هم قبلي لكونهم مدبرين أمري وأمر مملكتي ومثل هذا الأمر له تعلق بهم ولا سيما الوزير بختك لأنه يجب أن يرى ان كان ذلك موافق الشريعة الفارسية أم لا .

فلما سمع بزرجمهر ذلك أدرك بفطانته وذكائه الدسيسة وعرف أن بختك قد غير خاطر الملك على حمزة وعليه فإنه بلغه كلامه وقال له أن الأمور بحسب الظاهر ما من مانع ولكن في المسألة سر . فقال حمزة للوزير أريد أن تسأل لي بختك وخبره أني مزمع أن أقترن بمهردكار بنت الملك كسرى فهل يقبل بذلك أو يرى ما يمنع وقوع هذا القران وأريد أن أعرف فكره من هذا القبيل وماذا يقول . وحينئذ قال لبختك لما كنت أيها الوزير الخبير مدبر الدولة الفارسية وسيد فيها ولك المقام الأول في صدر أعيانها يريد منك الأمير حمزة أن تبدي رأيك في زواجه بمهرد كار بنت كسرى سيدنا فهل من مانع يحول دون إتمام هذا الزواج وهل تصادق عليه أو تمتنع عنه . فقال له قل للأمير حمزة ما أخبرك به حرفاً بحرف وهو أني في ليلة أمس كنت مجتمعاً مع سيدي الملك في قصر بنته فوجدته مضطرب الأفكار متكدراً فقلت له لم ذلك وأنت كنت في النهار مسروراً وقد زوجت بنتك بالأمير حمزة ومن اللازم أن تهتم بهذا الزواج وتنظر فيه وتدبره لأن عموم بلاد الفرس ينتظرون مثل هذا الزواج حيث أنهم جميعاً يحبون الأمير حمزة مخلص بلادهم ويحبون مهرد كار بنت ملكهم ووحيدة عصرها فقال لي إني من أجل ذلك مغتاظ لا ندماً على وعدي للأمير حمزة ببنتي حيث أعلم أنه يستحقها وهو رجل عندي أحبه حباً لا يوصف غير أني كنت قبل وقوع مثل هذا الأمر أريد أن أرسله إلى الأمير معقل البهلوان صاحب حصن تيزان فقد عصاني ولم يعتبر أوامري وبعثت له بعدة جيوش وفرسان فبددها وشردها وحتى اليوم يدوس كلامي ويوقع بأصحابي وكيف أكون كسرى أنو شروان ملك الأرض شرقها والمغرب ويعصاني مثل هذا الأمير . وحيث أن الأمير حمزة قد طلب بنتي ووعدته بها لم يعد في وسعي أن أعرض عليه مثل هذا الأمر أو أطلب إليه

الذهاب إلى تيزان خوفاً من أن يظن بي السوء وتتهمني العرب ورعاياي بالغدر والخداع فقلت له أن هذا الأمر سهل جداً لأن من عادة العرب أن لا يتزوجوا فتاة ما لم يقدموا لها مهراً وصداقاً فاطلب منه مهر بنتك إذلال معقل البهلوان وبذلك تكون قد أنصفته وأرحته وأرحت نفسك من هذا العاصي الخادع وعندي أن صهره حمزة لا يقبل أن يتزوج بمهردكار وعلى أبيها مثل هذا الكدر والهم فيزيله قبل أن يفتكر بزواجه ويحتفل به فقال لي إني لا أوافق على ذلك ولا ينطق به لساني فقلت دعني أقول له وأعرض عليه هذا الأمر وبعد ذلك يرى ما يريده حتى إذا امتنع على الذهاب إلى قتال معقل ولح بزواج مهرد كار أجبناه لأنه صار كواحد منا ولهذا نريد منه إذا كان يرضى ويرى نفسه قادراً على كبح جماح هذا العاصي يسير إليه ويقتله ويأتي به الينا وإلا فالخاطر له والأمر مفوض إليه . فلما سمع بزرجمهر هذا الكلام كادت تنفطر مرارته لعلمه أن الأمير معقل هو فارس لا يوجد مثله في ذاك الزمان وله عدة سنين عاص في قلعته لا يمكن لألوف ألوف من الفرسان أن تتوصل إليه أو تنال منه مراداً إلا أنه كان يرى نفسه مضطراً إلى إخباره بكل ما قاله بختك فأعاده على حمزة حرفاً بحرف وأطلعه أن المانع هو هذا الأمر فقط : ولما سمع الأمير حمزة هذا الكلام وقف أمام كسرى وقال على مسمع من الجميع إني أقسم بالله العظيم رب موسى وإبراهيم وبالركن والحجر والبيت العتيق المطهر إني لا أتزوج بمهرد كار ما لم أحضر إلى هذا الديوان هذا العاصي الذي يزعم أنه لا يقدر على إذلاله وهو معقل البهلوان كي لا يكون حجة ببختك وغيره وأقسم برأس كسرى صاحب هذا الإيوان لا أسير إليه برفيق بل أسير وحدي ومعي عمر العيار كي لا يكون في ذلك من يعينني ويساعدني ولا أصبح في اليوم القادم إلا سائراً على طريق تيزان لغاية عمي الملك أبي مهرد كار .

قال ولما سمع كسرى كلام بختك علم أنه ألقاه في خطر عظيم وأمر جسيم وقال في نفسه لله درك من وزير قادر على الاحتيال لقد سعيت في خلاص بنتي وانقاذ غايتك بوقت واحد إلا أنه قال علناً بواسطة بزرجمهر إني لا أريد أن يذهب صهري حمزة وحده فليأخذ جيوش العرب والعجم معه ولا أريد أن يخاطر بنفسه أو يلاقي صعوبة من أجلي وهو عندي من أعز الناس وبذلك يكون ضميري مطمئناً عليه ومرتاحاً من جهته . فقال الأمير حمزة هذا لا يمكن أبداً وقد أقسمت أن لا أسير إلا وحدي ولا أصحب معي غير جوادي الأصفران وسيفي وأخي عمر وكفا بي مثل هؤلاء الرفقاء المساعدين ثم أنه طلب الانصراف من ديوان كسرى وخرج وهو على نية السفر متكدر من مساعي بختك ولما رأته مهردكار وقد خرج على غير الاستواء وقبل الوقت المعتاد خفق قلبها وخافت من أن يكون قد وقع أمر مكدر بينه وبين أبيها وتمزقت أحشاؤها وتاقت إلى معرفة الحقيقة فلم تقدر ولم تعلم من نوائح وجهه غير أنها رأته متكدراً وأشار إليها إشارة المودع فدخلت غرفتها في الحال وهي حزينة ووضعت رأسها

بين يديها وأذرفت دموع اليأس وشعرت بأن الدهر سيعاندها ولا يترك لها سبيلاً لهنائها وتصورت بأفكارها أن الأمير حبيبها قد تنازع مع أبيها وبسبب هذا النزاع لا بد أن يتصعب عليها التقرب منه ولا ذلك لما خرج غضباناً ومتكدراً في مثل ذلك الوقت وبقيت حالتها على ما هي منتظرة المساء لتعرف ما كان من أمر أبيها والأمير .

قال وعندما اسودت فحمة الليل وعقد الخيط الأسود على هامة البلد دعت بخادمها ودفعت إليه الطعام وسألته أن يطلب من الأمير أن يخبرها بما وقع بينه وبين أبيها فسار الرجل إلى أن وقف بين يدي الأمير فدفع إليه الطعام وقال له أن سيدتي لما رأتك وأنت عائداً من عند أبيها على تلك الحالة تكدرت ولا تزال مكدرة حتى الآن وهي لا تعلم السبب الذي دعاك إلى الخروج قبل الوقت وأنت على تلك الحالة وقالت لي أن أستفسر لها عن السبب الموجب لمثل هذا وقد شعرت بتعاسة حظها وسوء مستقبلها فقال له أنه لم يكن ما يكدرني من أبيها إلا تسليمه أمر زواجها للوزير بختك ومع كل ذلك فإني لا أزال أحافظ على مودتها وأرعى عهودها أكثر من الأول وبألف مرة فلتكن براحة ولتتأكد أني لا بد أن أحصل عليها ولو كان دونها سد الإسكندر . وإن أباها بواسطة الوزير بختك طلب مني أن أطيع له الأمير معقل البهلوان صاحب حصن تيزان ظناً منه بأنه يرميني بتهلكة جديدة وبهذه الطريقة يتخلص مني وقد وعدته أني أسير وحدي إلى هذا العاصي وأجيء به ذليلاً إلى بين يدي أبيها ليعلم أني أقول فأفعل فيقتصر مرة ثانية عن مثل هذا العمل وفوق كل ذلك فإني أقصد كيد الوزير بختك فإذا رآني وقد تخلصت من هذه التهلكة وعدت منصوراً ظافراً فائزاً انفطرت مزارته وزاد قهراً فوق قهر وغيظاً فوق غيظ ولا بد أنه بعد رجوعه يدبر لي أمراً آخر يشغلني به عن الزواج وإني اعاهدها أني أبقى محافظاً على السلام مع أبيها إكراماً لخاطرها فأجيبه إلى كل ما يطلبني ويندبني إليه إلى النهاية أي إلى اليوم الذي يأمر به الله سبحانه وتعالى بعقد زواجنا ومراعاة راحتنا فاقرءها مني السلام وأخبرها أني لست متكدراً من أبيها أبداً ولا أريد أن أسمع أنها مكدرة أو مقهورة ويسرني أن أسمع أنها براحة ومسرة من أجلي ومن أجل كل شيء فقبل الرجل يديه وخرج . وبعد أن أكل حمزة الطعام جاء اليه الملك النعمان وأصفران الدربندي والأمير عقيل وباقي الأمراء وعندما استقر بهم الجلوس قال له الملك النعمان ويصعب علينا الوعد الذي وعدت به الملك كسرى وإني من أجلك في شاغل عظيم لأنك رميت بنفسك في خطر جسيم وشرطت على نفسك أنك تأتي بالأمير معقل مع أنه نادرة هذا الزمان وفارس لم يخلق مثله بين الفرسان انتشر صيته من الشرق إلى الغرب وفاق على كل فارس ندب فقصدته الفرسان من اليمن والعراق وأقاصي الهند لتجرب نفسها معه فلم يكن من يثبت أمامه حتى أن الملك كسرى طالما بعث اليه بالفرسان والأبطال فبدد شملها وشردها وهو لا ينقاد إلى أحد ولا يذل لأحد فقال له الأمير حمزة ان هذا مما يزيدني تشوقاً إلى ملاقاته

ليعرف كسرى مقدار شجاعتي ويؤكد أن العرب علة البسالة والإقدام وأن فرسانهم مقدمة على غيرها وليعرف أيضاً أنه يصاهر بطلا لا يعجز عن أمر من هذه الدنيا ولا يثبت لديه فارس وأني أكرر قسمي الآن أني لا بد من أن أجيء بمعقل حياً معترفاً بفضلي وشجاعتي فقال أصفران الدربندي إن كان ولا بد لك من ذلك فاني أسير في ركابك وأقاتل بين يديك حيث لا أطيق فراقك ولا أصبر عنه قال هذا لا يمكن قط لأني أقسمت أن أسير وحدي فإذا سار معي أحد يقول بأني رافقت مساعداً فساعدني فلا يطمع أحد بمرافقتي غير أخي عمر . فسكت الجميع عن الجواب وبعد أن انصرفوا دعا أخاه عمراً وقال له إني أريد أن أسير في الصباح فكن على حذر وهيىء نفسك للسفر وسيس الجواد وأكثر له من العلف وأصحب معك كل ما نحتاجه من زاد وطعام واسأل لنا عن الطريق المؤدية إلى تيزان قال إن كل شيء قد حضر وما جئت الآن إلا بعد أن عرفت الطريق ورسمتها وفي أي جهة قلعة تيزان فما أنا ممن يتهامل بأمر وإذا شئت فأذن لي أن أسير وحدي إلى معقل هذا الذي تطلب المسير إليه فأجيئك به مقيداً لتسلمه إلى كسرى . قال لا يمكن ذلك ولا أريد أن أحك جسمي إلا بظفري . ثم إن الأمير نام تلك الليلة ينتظر الصباح .

فهذا ما كان من الأمير حمزة وأما ما كان من مهردكار فانها انتظرت إلى أن عاد اليها رسولها وأخبرها بما سمعه من الأمير وأنه سيسافر إلى حصن الأمير معقل ليأتي به ذليلاً إلى بين يدي أبيها فأدركت سر المسألة وعرفت أن أباها قد اتفق مع بختك على هلاكه وقد رجع عن عزمه وترك الوفاء وخان الوعد الذي وعد به فتكدرت مزيد الكدر ولولا شروط التربية لكرهت أباها وتمنت موته على خيانته هذه حيث كانت لا تحب الخائنين وتفضل أصحاب الأطوار الثابتة الكاملة وتمدح العبد وإذا كان أميناً وتفضله على السيد إن كان غاشا وخافت كل الخوف من ان الأمير معقل هذا الذي كانت تسمع عنه أنه نادر المثال بين الأبطال يبطش بمحبوبها أو يوصل اليه أذى ومما كان يزيدها خوفاً وكدراً واضطراباً لقول الرسول أنه سيسير إلى قلعة تيزان وحده لا يصحب غير الأمير عمر العيار فقط ولا يرضى بمساعدة أحد على هذا الأمر . وصرفت تلك الليلة بطولها مشغلة البال مقلقة الأفكار خائفة من غوائل الأيام والليالي بعد أن كانت قد أوصلت اللقمة إلى فمها عادت إلى محاولة اختطافها منها وشتتت محبوبها إلى الأماكن البعيدة ولم تر لانحباس همها وحزنها فرجاً إلا بالشكوى ومناشدة الاشعار ولذلك قالت :

ما كان أغناك يا عيني عن النظر ... فمصرعي كان بين السحر والحور
أجلت لحظي في خديه فاشتعلت ... غلالة الوجنة الحمراء من نظري
فلو تأملتها أخرى لأحرقني ... شعاعها واختفت عني من الخفر

رفقـا بتعـذيب قلبي يـا معـذبـه ... فـانـي بشـر يـا أحسن البشـر

صيرت جسمي رقيقاً كـالزجـاج غدا ... يشف من جمر نار الشوق والفكـر

دخـانها زفـرات والحـريـق بهـا ... قلبي بـلا ذلـة والـدمع كـالشـرر

وعـاذل قـال لي إن الهـوى خـطر ... لا كنت إن لم أكن منه على خطر

ولما لم تر وسيلة لإخماد نار بلوها غير الصبر والتسليم لارادة العناية صبرت منتظرة الفرج منه تعالى وأملت كغيرها من بني الإنسان أن الدهر لا يبقى على حالة ولابد من أن يأتي بالمقصود مهما أخلف وان مر فلابد أن يحلو وهكذا تركت كل شيء لعنايته تعالى . قال وكان كسرى بعد ذهاب حمزة قد اجتمع ببختك ومدحه على فعله وقال له إني سررت منك في اليوم سروراً عظيماً لأنك دبرت تدبيراً حسنا به ننال المراد كيف كان الحال فإذا فاز الأمير معقل تخلصنا من الأمير حمزة وعدنا كما كنا قبلا وتخلصت أيضاً من وعدي له وإذا فاز حمزة وطيع معقلاً كان الأمر أفضل وأوفق . قال إني أخبرك ان الأمير حمزة لا يعود من هذه الخطرة فإن هلاكه فيها وسوف ترى وتسمع ما يصير به فما معقل ممن يحسب حساب ألف من مثل حمزة : وبعد ان ذهب بختك إلى بيته دعا بأحد خدمه وقال له مرادي أن اكتب كتاباً إلى الأمير معقل صاحب حصن تيزان واريد منك ان تذهب به هذه الليلة وتسير به على عجل بحيث تقدر ان تصل إليه قبل وصول حمزة العرب وإياك من التأخير فأجاب طلبه ومن ثم كتب بختك كتاباً إلى معقل يقول له فيه :

لما كنت الآن وحيداً في بلاد فارس وكنت اعتقد أنه لا يوجد لك ثان أردت أن أطلعك على أمر لك به النجاح والفلاح . وهو أنه ظهر في بلاد العرب فارس صنديد وبطل عنيد جاء إلى بلاد كسرى وخلص له ملكه من خارتين الذي تملك المدائن وجلس على عرش المملكة فوقع من الملك موقعاً عظيماً واحبه غير اني كرهته كل الكره فأردت ان ارميه بقتال الأسد وصراعه مؤملاً أنه يفترسه فقتل الأسد وزاد رفعة بعيون الاعجام جميعهم ثم اخذا الجواد الأصفران وقتل البهلوان مقبل واخيراً طلب مهردكار بنت الملك الذي لا يوجد لها ثان في هذه الأيام بكل صفاتها وخصالها وجمالها فأنعم عليه ابوها بها ووعده بزواجها فكدرني ذلك وغاظني ولم ار وسيلة لهلاكه إلا أني اقنعت الملك باخلاف وعده وأرسلته اليك على امل ان بذلك ويأتي بك بالرغم عنك إلى الملك كسرى ذليلاً حقيراً فأقسم أنه لابد من قهرك وان يسير اليك وحيداً وهكذا بعثت إليك قبل ان يصل لاخبرك بأمره لتكون على حذر منه وتقتله شر قتلة ولك مني العطاء الجزيل علاوة على ما بعثته اليك الآن وإني ابقى على الدوام شاكراً لك أسعى بأمرك وأسأل النار مساعدتك على هذا الطاغية العربي الذي إذا أهملنا امره طردنا من ملكنا وفاز هو بالنجاح والذكر الحميد .

ثم طوى الكتاب ودفعه إلى خادمه وأمر له بجواد من الخيول الجياد وأعطاه صرة من

المال والجواهر ليدفعها إلى معقل البهلوان وسار الرجل الليل والنهار حتى وصل إلى قلعة تيزان فسلم المكتوب إلى معقل ففضه وقرأه وعرف مابه فقام وقعد وارغى وأربد وقال للرسول بلغ مولاك انه لابد لي من قتال هذا الأمير الذي حكى لي عنه وسوف ابعث له برأسه ليطرحه أمام كسرى فيعلم إني الرجل الوحيد على وجه الأرض فلا يطمع نفسه مرة ثانية أن يرسل لي أحداً وإني اصبحت الآن شاكراً لسيدك على اخباري وأمله بي وثقته ولولا حبه لما كان فعل ما فعل وأظهر لي أنه يحبني. فشكره الرسول وقبل يديه ورجع من عنده وبعد ان غاب دعا بأحد أتباعه وقال له أقم في أسفل القلعة ومتى رأيت فارساً بين يديه رجل اسود لا تدع أحداً من جماعتي ورجالي يتعرض له وارجع إلي وأخبرني به حالاً فقال له الرجل لم يا سيدي لا تأمر أحد رجالك أن يبارزه وينهي أمره ويريحك من شره ولا تتنازل أنت إلى قتاله قال له إني اعرف أكيداً أنه فارس صنديد وبطل مجيد فأحب أن أجرب نفسي معه أولاً واني لا أريد له شراً لأنه يعبد الله عز وجل وهذا الإله أنا اعبده وكان أبي قبل أن جاء من بلاد العرب إلى هذه البلاد يعبده وهي العبادة الحقيقية فكيف أوقع به إكراماً لخاطر بختك الوزير الذي يعبد النار ولاسيما أن الفرس اعداء لنا ولا ارغب بالتقرب منهم وأراد بختك أن يغرني بالمال والجواهر فأهلكه الله من رجل خبيث وقد ظنني من الناس الذين يؤخذون بالحيل وسوف ترون ما يكون وإني قبل ان أرى هذا الرجل الآتي إلي أشعر بحبه ولم تقع له بغضة قط بقلبي فسار الرجل الى أسفل الحصن وأقام على الانتظار .

فهذا ما كان من معقل البهلوان وأما ما كان من الأمير حمزة فإنه عند الصباح نهض من فراشه وأمر أخاه أن يسرج له الجواد ففعل ومن ثم تقلد بسلاحه وركب وذهب إلى الملك النعمان فودعه وأوصاه بالمحافظة على قومه وجماعة العرب فقال له إني أخاف بعد ذهابك يحصل علينا أمر مكدر من الفرس فيوقعون بنا ولاسيما إذ رأوك قد طال سفرك قال إذا وجدتم أن معاملة الفرس قد تغيرت وأن عين الغدر قد ظهرت منهم فأرسلوا إلي بالخبر وان كنت لم اقض شغلي فأرجع واخرب المدائن على رأس كسرى وبختك وبعد ذلك سار حمزة في طريق تيزان وهو يود أن يصل بأقرب وقت ويلتقي بمعقل البهلوان فيأسره ويرجع به حالاً وقد خاف أن تكون نية كسرى خبيثة على العرب فيستغنم فرصة غيابه ويجري غايته فيهم إلا انه كان مطمئن الخاطر بوجود أصفران الدربندي والأمير عقيل وقومه الاخصاء الذين كل واحد منهم يقوم مقام جيش من جيوش كسرى ولما تبطن القفار وتمادى به التسيار تذكر ما جرى عليه من كسرى وبختك وما وقع بينه وبين محبوبته مهردكار من الحب الخالص الذي حمله على المسير والتغرب إلى ابعد ديار فأنشد وقال :

يكفيك أني فارس الأقطار ومذل كل صميدع جبار
وقويم رمحي قد أعد سنانه لصدور أهل البغي والكفار

أنا حمزة الأعراب مسعود الركا ب مشيد الاطناب غوث الجار
أنا شمس هذا الدهر بل أنا بدره أنا نجمه الوضاح ذو الأنوار
أنا من تمنى المجد يخدم ساحتي وسقتني العليا بكأس فخار
أنا من رضعت الحب عن صغر أنا طول الزمان حبيب مهردكار
أنا من سقيت لبان كل فضيلة قبل الوجود بحكمة الأقدار
يا أمة الأعجام إني حمزة عالي المقام مكرس الأطوار
إن كان بختك قد سعى بمذلتي فالدهر زاد بهيبتي ووقاري
لولاك يا شمس الجمال ونوره أنزلت بالأعجام كل دمار
وتركت حولهم الجوارح حوما فتنوشهم بالناب والاظفار
لكنما الأيام سوف تريك ما يبدو بهم من سيفي البتار

ودام الأمير حمزة على المسير وبين يديه أخوه عمر يخترق الشعاب والقفار كأنه السهم إذا أطلق من الأوتار يسبق الاصفران بالمسير عند ركضه سائرين على طريق تيزان مدة أيام إلى أن قربا منها وتبينا عن بعد القلعة القائم فيها معقل البهلوان فعندها نزل الأمير حمزة عن جواده فأكل واكتفى من الماء وسقى الجواد وارتاح نحو من ساعة وكان الوقت إذ ذاك قارب المساء فبات إلى الصباح وفي الصباح نهض وتقدم إلى جهة القلعة وإذا به يرى اثنين من جماعة معقل البهلوان سائرين فأطلق جواده نحوهما ولما رأياه تقدما هما أيضاً إلى نحوه وسألاه عن حاله فقال لهما اذهبا إلى الأمير معقل وأخبراه أن حمزة العرب قد جاء من بلاد كسرى لأجل ذله وكيده واسألوه أن يبرز لي إلى ساحة القتال لأنهي أمره في هذا النهار وأسير به إلى أعدائه فقالا له إننا ننصحك أن ترجع من حيث أتيت ولا تعرض بنفسك إلى الاخطار فما معقل البهلوان كمن رأيت من الفرسان ونخاف عليك ان يوقع بك ويعدمك الحياة مع أنك شاب ومن الجنون أن تلقي نفسك وأنت في زهرة صباك مع اميرنا وفيما هم على ذلك أقبل الرجل الذي أقامه معقل بانتظار الأمير ولما تأكده عاد حالاً إلى سيده وأخبره بوصول الأمير حمزة فركب معقل البهلوان وتقلد بسلاحه حتى اصبح كأنه قلة من القلل وكان كما تقدم فارساً صنديداً وبطلا مجيداً وقد سار إلى جهة الأمير حمزة وكان لا يعرفه وقال له الرجلان اللذان كانا قد التقيا به هوذا سيدنا آت وعما قليل يظهر لك الحق وتعرفه من البطل فتركهما وسار إلى ان التقيا ولما وقعت عيونهما ببعضهما أحدق كل برفيقه برهة قال معقل البهلوان للأمير حمزة إني أتوسم فيك الخير ولا اعرف من عداوة بيني وبينك فلم جئت إلي وماذا تريد مني قال إني علمت انك عاص على الملك الأكبر فأردت ان أرجعك عن هذا العصيان وأذلك وأسحبك خلفي موثوقاً بالقيود لأقدمك إلى كسرى مهراً لبنته وقد وعدت بذلك. قال لا تأمل المحال ولا تقاتل من لا يريد أن يقاتلك حباً لك لأنك أنت تعبد الواحد الديان

وانا على عبادته أيضاً ولا تعلق أملاً بوعد العجم فما هم ممن يقول ويفي ولو لم أكن عارفاً أمرك وما هو السبب الذي دعاك إلى القدوم إلي أو بالحري السبب الذي حمل كسرى وبختك على أن يلقياك إلى وهدة الهلاك لقاتلتك وأريتك نفسك في الحال غير ان هذا وجدته من باب الظلم والجور بل رأيت من العدل أن اصطحب وإياك فنسير إلى بلاد كسرى ونخرب المدائن عليه ونأخذ بنته بالرغم عنه ويقتل بختك الخبيث المحتال . فنظر إليه حمزة نظرة المتعجب وكاد يوافقه على غايته لولا تذكره بأنه أقسم يميناً في ديوان كسرى أنه لابد أن يقوده ذليلاً حقيراً. فقال له لا تظن أني ممن يقاد بالحيل والخداع فما أتيت إلي هذه البلاد إلا لاجل غاية واحدة وهي أخذك إلى عدوك مقيداً فكيف اخلف بقولي وأحنث بيميني وأتفق معك عليه فخذ سلاحك والقني ولا تطمع بغير القتال .

ثم إنه جرد سيفه وهجم على معقل البهلوان: فالتقاه بقوة قلب وثبات جنان ودخل معه مضيق الحرب والطعان وهاجا كما تهيج فحول الجمال والتطما كما تلتطم البحور عند هيجان ريح الشمال وبطل من بينهما القيل والقال وعادا إلى الجد بعد المحال وتركا الهزل والجدال وقد أخذهما الضجر والقلق وسبح جوادهما بالعرق وداما على مثل هذا الحال إلى قرب الزوال فرجعا عن القتال دون أن ينال أحدهما من الآخر مراما وبعد أن رجع معقل البهلوان سيفه إلى غمده قال له قد انتهى معنا النهار دون ان نصل إلى الغرض المطلوب وإني أريد منك الآن أن تأتي إلى القلعة وتأكل عندي الطعام وتنام في قصري حيث أنك غريب هنا وليس من مكان أن تقيم به غير هذا المكان قال كيف أن يقع بيني وبينك مثل هذا الأمر ومتى أكلت طعامك حرم علي قتالك وكيف أكون أميناعلى نفسي وأنا عند عدوي قال ليس بيننا عداوة قط وإني أعتبرك أكبر صديق لي ولا يمكن لأحدنا أن يبطش بالآخر لابد ان تعرف من هو الفائز ومن أقدر من الآخر وإني أقسم لك بالله العظيم أني ارعى زمامك ولا أخونك ومتى دخلت معي القلعة يتبين لك صدقي ولا سيما عند ما أريك كتاب بختك والمال الذي جاءني منه لأجل هذه الغاية فقبحه الله من خبيث مخادع وإذا كنت لا ترغب بترك النزال فإننا نعود اليه في كل صباح وفي المساء نرجع الى المؤالفة والموافقة إلى ان يظهر الفوز لواحد منا وكيف كان الحال فاني صديق لك على الدوام لا أرضى إلا التقرب منك لأنك من فرسان هذا الزمان ولم ترعبني ولا قاتلت فارساً مثلك قط فلما سمع الأمير حمزة كلام معقل رآه صادراً من خلوص ومودة وما من ريب فنظر إلى عمر العيار كأنه يستشيره في ذلك فقال له ادخل مع معقل البهلوان إلى قلعته ونم عنده فمثله لا يخون وعندي أنه خير لك من كل الأعجام نساء ورجالاً فنزل الأمير عن جواده وسار مع معقل إلى مكانه وكلاهما فرح بالآخر وعندما صار في الداخل نزع الأمير سلاحه وهو بأمان واطمئنان وقد احتفل بوصوله جماعة القلعة وقدموا له كل ما هو واجب عليهم ثم مدوا سفرة الطعام فأكلوا والأمير مسرور سروراً

عظيماً مما يراه من معاملة أصحاب معقل وإكرامه وبعد ذلك جاء معقل بكتاب بختك وترجمه له وشرح معناه وجاءه بالأموال والجواهر وأراه إياها وقال له خذ كل هذه معك حتى تصير لك حجة تقمع بها هذا الوزير الخبيث فقال أني لا احب ان اظهر ما أريد إضماره ولا أزال أراعي الفرس واتجنب كل امر يلقي العداوة بيني وبينهم وذلك حفظاً لشعائر الملك واكراماً لخاطر بزرجمهر الوزير غير أني اعرف حق المعرفة انه لابد أن تفرغ جعبة صبري فأثير على الفرس حرباً هائلة تقرض بها دولتهم لعلمي أنهم بعيدون عن الأمانة والوفاء ما زال فيهم بختك هذا الخبيث المخادع المحتال والآن فلا أريد ان ادخل المدائن إلا وافياً بقولي قائماً بقسمي وقال انه يخطر لي أن اسلمك بنفسي واسير بين يديك إلى ديوان كسرى على الذل والطاعة فتكون قد وفيت وصدقت قال وهذا أيضاً لا اريده لأني ما جئت إلا لمحاربتك نعم انه قد ارتفع بيننا كل دم وعداوة وصار من المؤكدان لااحد منا يرغب في أذية الآخر لكن لابد من مداومة البراز ببذل الجهد والمجهود فإذا قهرتني كان رجوعي عن غايتي بحق وصدق وإلا فأكون ما أطلبه قد نلته باستحقاق وعدل فلا أغش كسرى والعالم وأغش نفسي ونفسك فتعجب من حسن اطوار الأمير حمزة واستقامته وعرف انه صادق فيما يقول وانه كريم الطباع مستقيم الأطوار .

قال ونام الأمير حمزة تلك الليلة في القلعة إلى ان اشرقت شمس نهار اليوم التالي فركب معقل البهلوان وركب الأمير وعادا إلى الحرب والكفاح وإلى ما كانا عليه في اليوم السابق كأنهما عدوان لا صديقان. واجهد كل واحد نفسه وابدى كل ما عنده ودام الطعن والضرب مختلفاً بين الأثنين إلى ان توارت الشمس عن العيون فعندها تركا القتال وعادا إلى القلعة وكل منهما يعجب من بسالة الآخر وحسن أسلوبه بالقتال ثم وضعا الطعام فأكلا وقاما عن سفرة الطعام وجلسا للمحادثة إلى أن جاء وقت المنام فناما إلى اليوم الثالث فتبارزا إلى مسائه وعادا على حسب العادة .

الحاصل أن الأمير حمزة ومعقل البهلوان داما على مثل تلك الحال وهما بحرب ونزال مدة خمسة عشر يوماً دون ان ينال أحدهما من الآخر مراداً أو يقع له وجه للفوز عليه وكان قتالهما سلمي لا يقصد احدهما فيه قتل الآخر وبسبب ذلك ضاق صدر الأمير وعيل صبره واحتار في أمره وخاف من أن طول غيابه يجعل العرب والفرس يقطعون الرجاء منه وربما وقع من الفرس بحق العرب أمر مكدر بسبب ذلك وأصبح في شاغل عظيم وندم على مسألة معقل البهلوان وقال في نفسه لو كنت عدوه لربما كنت قتلته وعجلت وقت الرجوع ولما دخل القلعة أكل الطعام مع معقل البهلوان وأقام وإياه نحو ساعة ثم طلب المنام ودخل في غرفته ونزل في فراشه وهو على تلك الحالة وما لبث ان طرق ذهنه جيش الغرام وأخذ بكل أفكاره إلى جهة حبيبته مهردكار فتذكرها اشوق تذكار وطار قلبه إليها ولابد أن تكون قد فعلت به

هذه الذكرى أشد فعل وغيبته عن هداه ولا سيما عندما خطر له أن تكون لمدة غيابه قد شغل بالها وحسبت ألف حساب كيف لا وهي معلقة كبير امل به ومنتظرة عودته لتكون بقربه وزوجة له تتنعم بوصاله وتصرف العمر معه على الحب والمودة التي قاداها إليه وأرغماها على ان تلقي بكل اتكالها عليه فكان كلما فكر بمثل هذه الافكار تعظم عليه الأهوال وتصفر الدنيا في عينيه إلى ان فاضت دموعه على خديه وتنهد من شدة الشوق والوجد فانشد .

أخا الريم ما هذه العيون القواتل	بقيت لتفنينا وهذى الشمائل
فماء حياة ما تحوز مراشف	وروضة حسن ما تضم الغلائل
ويخجل اغصان الربى إذ تمايلت	قضيب لجين بين برديك مائل
ولو أن في بدر الدجى منك لمحة	لما شابه نقص ولا قيل آفل
تروح بك الالباب نهي كأنها	قبائل تسبيها ببدر قبائل
كثير من الأرواح أنت حياتها	وان هي راحت في هواك قلائل
أبيت بحال ليس يعلمها سوى	فؤاد شجي للنجوم يشاكل
يجرد لي من جفنه الليل صارماً	اسميه صبحاً وهو بالبين قاتل
واكتم سري عن هواه مهابة	وألمس رأسي وهو بالفكر جائل
وجسمي لضيفان السقام موائد	ودمعي لزوار الغرام مناهل
ولست على رسم الطلول بنادب	ولا سائل عن ذاهب هو سائل
ولكنني أبكي الحبيب وبعده	فهذا الذي أهوى وهذي المنازل

وصرف الأمير حمزة تلك الليلة على مثل ما تقدم لا يميل بأفكاره عن مهردكار وعن قصرها وما فيه كأنه قائمة امام عينيه تشكو إليه البعد تارة وتتبسم أخرى وتبكي طوراً ولا زال إلى الصباح دون أن يأخذه النوم وما صدق أن رأى شمس النهار حتى نهض إلى جواده الاصفران فوجد عمر العيار قد أسرجه فركبه وهو متقلد بسلاحه كأنه قلة من القلل أو قطعة من جبل ولما وصل الى محل البراز وجد معقلاً قد وصل إليه فحياه ثم قال له اعلم أن هذا اليوم هو اليوم الأخير ولابد لي من إنهاء الأمر وإلا ضرت بنا هذه الحالة ولم تكن إلا دقائق قليلة حتى اشتبك الاثنان وقام بينهما سوق الحرب الطعان وهاجت نفساهما إلى الفوز أي هيجان وكل منهما يعرف الجد والاجتهاد إلى نوال الغاية والمراد وداما في أشد قتال وأعظم نزال لا يأخذهما فتور ولا إهمال كانها أسداد حال أو لبونان فقدتاالاشبال حتى تحطمت من أيديهما الرماح فعمدا إلى البيض الصفاح وقد ثار الحنق في صدريهما من كل ناح إلى ان كان العصر وهما على مثل ذلك الأمر والأمير حمزة يزيد في قتاله الدرهم قنطار على أمل ان لا يفوت النهار إلا وهو على غاية من الفوز والانتظار وإذا به قد وقعت منه ضربة حسام على طارقة معقل البهلوان فانجابت عن الطارقة ووقعت على رقبة الجواد فبرتها كما يبري الكاتب

القلم ووقع معقل إلى الأرض ولما رأى الأمير حمزة ذلك تأخر إلى الوراء وصاح به قم أيها الفارس الأمجد واركب لك جواداً آخر ولا تضيع فرصة باقية لنا من هذا النهار فقال له معقل معاذ الله يا أخي أن أشهر بوجهك حساماً أوعدت أقف بوجهك مرة ثانية لأنك والحق يقال أبسل رجل في هذا الزمان واشد من يدعي الحرب والطعان ولست من رجالك واعترف انك قد ذللتني وقهرتني وأنزلت بي العبرة وان شئت تقتلني فلك الحياة وان شئت تربطني بالحبال وتسحبني إلى ديوان كسرى ذليلاً فلك الحق بذلك لأني أسيرك وإذا أردت أن تكرمني وتتخذني لك صديقاً أميناً على طول الزمان أقاتل بين يديك واخدمك جهدي ولا ابخل بروحي عليك وسوف تظهر لك الأيام ما يكون مني فلما رأى الأمير حمزة حال معقل البهلوان وذله لم يهن عليه فنزل عن جواده وقبله بين عينيه وقال حاشاك من الإهانة والذل فما أنت إلا أخي ورفيقي على طول الزمان لا أفارقك ما زلت في قيد الحياة لأني عرفت مقداراقدامك وشجاعتك ولولا قتل جوادك لما حل بك ما حل ثم إنهما تصافيا وتحابا وألقيا السلاح إلى الأرض وحلف كل منهما يميناً على الأخاء ودوام المحبة والصحبة وهذا معقل البهلوان يكون اول رفيق للأمير حمزة وأفضل صديق له يقاتل معه في كل غزواته بخلوص وأمانة . وفرح جميع رجال القلعة بهذا العمل وما منهم إلا من تقدم من الأمير وقبل يديه وقدم له طاعته وشكره على قبول رئيسه وكانوا بأجمعهم قد أحبوا الأمير وتمنوا أن يكونوا من رجاله وأبطاله يقاتلون بين يديه ويموتون على خدمته وتحت طاعته . ومن ثم رجعوا إلى القلعة جميعاً وهم على الفرح والمسرة ولاسيما الأمير عمر فإنه كان يصفق من الفرح ويقول لأخيه اليوم قد فزت الفوز العظيم لأنك صحبت من يقارنك بطشاً وإقداماً ولما دخلا القلعة نزعا الدروع ولبسا الملابس الناعمة ووضعا سفرة المدام والطعام وصرفا تلك الليلة على الحظ والاستبشار وعند الصباح نهض الأمير حمزة وقال لمعقل البهلوان أطلب اليك يا أخي ان تكون على اهبة السفر لأني لا أريد ان أبقى هنا اكثر مما بقيت خوفاً على قومي وعلى ضياع الوقت فأقع بالندامة بعد ذلك. فقال له إليك ما طلبت فإني لا أخالف امراً ثم أمر رجاله ان تجمع أمواله والتحف التي داخل القلعة من كل ما هو ثمين وخفيف وترفعه على ظهور الجمال وان يركب كل واحد جواده وأمر أن تحمل المؤ ن والمآكل اللازمة مدة الطريق فأخذ الجميع في تدبير أمورهم إلى ان انتهى كل شيء وحينئذ ركب الأمير حمزة الأصفران وركب معقل البهلوان جواده وفعل مثله باقي الرجال ولم يكن إلا القليل حتى بارحوا القلعة سائرين في طريق المدائن والأمير لا يصدق أن يصل اليها ويشاهد قومه ويرى محبوبته وهو يجد المسير وقد بعث بأخيه عمر أمامه يكتشف له الأخبار ويعود إليه بعلم اليقين إن كان وقع عليهم بأمر وإذا كانوا على ما تركهم يبشرهم بقدومه وداوم على السير من بعد مسيرة مدة أيام إلى أن قرب من المكان القائم فيه قومه .

قال وكانت العرب باقية في الخيام والملك النعمان قد انقطع عن ديوان كسرى خوفاً من الإهانة والرجوع إلى ما كان عليه العجم من قديم الزمان وأقاموا ينتظرون رجوع أميرهم وفارسهم إلى أن طال عليهم المطال فارتبكوا واضطربوا واجتمعوا إلى النعمان وقالوا له نخاف أن يكون قد وقع أمر مكدر على أميرنا ومرادنا نسير في أثره فقال لهم هذا ليس بصواب لأني أعلم أن الأعجام يرقبون أمرنا وينتظرون الخبر عن الأمير حمزة إذا تبينوا أو سمعوا خبراً مكدراً عنه أوقعوا بنا فإذا رأونا قد سرنا في طريق قلعة تيزان يثبت عندهم أن حمزة بضيق أو أصيب بسوء فيبعثوا خلفنا بالعساكر ومن الرأي السديد أن لا نظهر علينا أمراً يتوهمون فيه نوال غايتهم وعندي أن نرسل عياراً من جماعة الأمير عسى يكشف لنا الخبر ويعرف ماذا حصل على الأمير وأخيه . فقال أصفران الدربندي إني أسير أنا بذاتي وأدي الأمير بنفسي وبينما العرب على مثل هذه الحالة وإذا بعمر العيار قد أقبل ودخل الصيوان وهو قاطب الوجه عابسه فتلقاه النعمان بلهفة وقال له أخبرنا عن الأمير فلم يبد كلمة ولا أجاب بل بقي على حاله فزاد قلق الجميع وقال أصفران الدربندي وكان يعرف غايته أخبرنا بالخبر اليقين وإليك مني خمسمائة دينار فقال النعمان وأنا أزيدك مثلها فعجل الخبر ولا تتأخر . فقال اعطوني الدنانير وخذوا مني التباشير . فنقدوه المال وإذ ذاك قال لهم أبشروا أيها العرب بقدوم فارسكم الأوحد وسيدكم الأمجد فقد أسر معقل البهلوان ثم اصطحب معه وجاء الاثنان وبأقرب وقت يكونان في هذا المكان. فلما سمع الملك النعمان هذا الكلام فرح غاية الفرح وصاح بالعرب أن تركب عن بكرة أبيها إلى ملاقاة الأمير وبوقت قريب ركب الجميع وساروا من تلك الأرض وقد ارتفع لهم أصوات عالية وصياح ارتجت منه تلك النواحي واضطربت المدائن وسكانها وهم لا يعلمون ما السبب وسارت العرب عدة ساعات إلى أن التقوا بالأمير حمزة ومعه معقل البهلوان وجماعته فنزل الجميع عن خيولهم وتقدموا إلى بعضهم البعض وسلموا على الأمير وسلم عليهم وكان لهم ساعة عظيمة وبعد ذلك ركبوا وعادوا راجعين إلى الخيام ولما وصلوا حولوا عن خيولهم وأقاموا الأفراح ودارت بينهم المسرات والولائم . ثم كتب الأمير حمزة كتاباً دفعه إلى أخيه عمر العيار وقال له خذه إلى الملك كسرى وبلغه خبر وصولي فأجابه بالسمع والطاعة وسار بالكتاب على عجل .

قال وكان الملك كسرى بعد غياب حمزة ومسيره إلى قتال معقل البهلوان يجتمع كل يوم ببختك ويتحدث معه بأمرهما فيقول له كن بأمان فما من أمل برجوع حمزة إلينا سالماً لأننا نؤكد غاية التأكيد أن معقل البهلوان يعدمه الحياة فكم وكم قد أمات مثله من الفرسان وكسرى يتردد في هذا الأمر ويقول له إن موت حمزة لم يكن بخاطري لأنه فارس صنديد وبطل مجيد وقد عمل معنا معروفاً وليس من العدل أن نقابله بمثل هذه الأعمال ولو لم يطلب بنتي زوجة له لما سلمت بهلاكه وبعده غير أني أرى أن شريعة النار لا تؤذن باختلاطنا

بأجلاف العرب عباد دين الله وإلا فالأمير حمزة كفؤا لها وبه اللياقة من كل وجه غير أنه عربي وهذا عار به عندنا هذا وبختك يزيد له فوق ذلك فلا يتركه في كل مرة حتى يوغر صدره حنقاً على الأمير حمزة ويقنعه بأن في موته راحة له إلى أن كان ذاك اليوم وهو في ديوانه مع رجال دولته وإذا به سمع صياح العرب بالأفراح فبعث من يسأل له عن الخبر فعاد الرسول وأخبره بوصول الأمير حمزة سالماً ومعه معقل البهلوان . فوقع هذا الكلام على بختك كالصاعقة إلا أنه أظهر الجلد وتعجب غاية العجب وقال للرسول هل رأيت معقل البهلوان مقيداً أو مطلقاً قال رأيته راكباً على جواده إلى جانب الأمير . فقال كسرى لبختك أنت قلت لي الأمير حمزة لا يعود سالماً من قتال معقل فها هو قد عاد ولا ريب أنه أسره ثم أطلقه واصطحب معه فكنا بواحد صرنا باثنين قال لا أظن ذلك وأكثر ظني أن معقل البهلوان هو الذي أسر الأمير حمزة وأطلقه وجاء وإياه إلى حضرتك ليقدم طاعته إليك ويسألك فيه وإلا لو كان حمزة أسر البهلوان لما أطلقه إلا في ديوانك لأنه أقسم أن يدخله ذليلاً مقيداً بين يديك وفيما هما على مثل ذلك وإذا بعمر العيار قد دخل من باب الايوان وهو يقلب بالهواء كأنه اللولب السريع الدوران ويصفق من الفرح حتى وقف أمام الملك كسرى وهو يضحك من أعداه وقد سر منه سروراً عظيماً وإذ ذاك دفع إليه الكتاب فأخذه منه وأعطاه إلى الوزير بزرجمهر ليقرأه ويترجم له معناه ففضه وإذا به :

(من حمزة العرب وبهلوان تخت الملك كسرى إلى عمه الملك) .

اعلم يا سيدي إني سرت من حضرتك وأنا أتمنى أن أصل إلى معقل البهلوان لإذلاله وأعيده إلى الطاعة لأنه يصعب علي أن أكون صهرك وبهلوان تختك وصفيك اسمع إن أحداً من الناس يعصاك ولما وصلت إلى قلعة تيزان وبعد قتال عدة أيام أسرته وتملكت القلعة وأنا إذا ذاك وحدي ليس معي إلا رفيقي عمر العيار والحق يقال إنه فارس من الفرسان الشداد لا أظن أن أرى له ثانياً في هذه البلاد وقد استجار بي فأجرته وجئت به وهو الآن في قبضتي وقد بعثت لأبشرك بذلك وأطلب إليك أن ترسل لي قفصاً مع الأمير عمر لأحبسه فيه وأدخله إليك مقيداً في هذا القفص ليعرف عظمتك وأنك قادر على نوال مرادك وكيد أعدائك . ولا أريد منك عوضاً عن ذلك إلا رضاك عني وتركك كلام المبغضين الذين يقصدون الضرر لك ولدولتك والسلام .

فلما قرأ بزرجمهر هذا الكتاب وفسره للملك قال له اعلم يا سيدي أن الأمير حمزة وهو نادرة هذا الزمان وفارس لا نظير له فيه وقد سبق صيته فعله وما جاء إلا رحمة لبلاد الفرس وعندي أن تتخذه سنداً لك وتصفو له نيتك فمن كان مثله لا يترك ولا يهان ولو كان غيرك من الملوك لرفع منزلته ومقامه وحاربك به وانتصرك على بلادك ونزع منك ملكك فأكرمه

ففي إكرامه نفع لنا ولا ترض بغير ما أقوله الآن فكان بختك يسمع وقلبه يتقطع ولعظم ما جرى عليه خرج من الديوان . وأما كسرى فإنه أنعم على الأمير عمر بألف دينار وأمر أن يعطى قفصاً من الحديد ليوضع فيه معقل البهلوان فأخذ عمر المال وخرج مسروراً والقفص محمولاً أمامه ولما قرب من الإيوان نظر إلى قصر مهردكار فوجدها هناك فأشار إليها مبشراً أن أخاه قد جاء فلعظم ما لحق بها من شدة الفرح وقعت إلى الأرض مغمى عليها فأسرعت إليها القهرمانة وسكبت ماء الزهر على وجهها وأحرقت في أنفها خرقة حتى وعيت فسألتها عن السبب فقالت إني فرحة اليوم بما نالني من العادة والإقبال واليوم هو العيد العظيم الذي به نلت الشفاء والعفاء حيث قد عاد الأمير حمزة سالماً من سفره منصوراً وبعد قليل أراه وأشاهد بدر جماله وأسر من كماله وأتمتع برؤ ياه وهو يشير إلي اشارة السلام اللطيفة التي طالما سر منها فؤ ادي وفرح بها قلبي فقالت لها بلغك الله مناك وأعطاك مشتهاك .

فهذا ما كان منها وأما ما كان من الأمير عمر فإنه سار بالقفص حتى وصل إلى أخيه حمزة فسلمه إياه وقال له أعلم يا أخي أن الملك قد سر من هذه البشارة سروراً عظيماً ولعظم مسرته قد دفع إلي ألف دينار وأعطاني هذا القفص حسب طلبك . فقال له إني أعرف أن بختك الوزير لا يتركه على إرادته بل يغير له فكره ويقلبه ولا بد لي من قتل هذا الوزير ولولا علمي بأن قتله يغيظ الملك كسرى لسرت الآن إليه إلى بيته وقتلته شر قتلة غير أن ذلك يكدر العجم بأجمعهم ويكون أكبر وسيلة لحرماني من مهردكار وزواجها زواجاً شريفاً ثم إنه قال لمعقل البهلوان أعلم يا أخي أني أقسمت بالله العظيم أن أقدمك إلى ديوان كسرى مقيداً ذليلاً ويصعب علي جداً أن تدخل إلا مكرماً معزوزاً غير اني أحب أن أفي بقسمي فأريد أن تدخل القفص ليذهب بك إلى الديوان وهناك أطلق سبيلك . قال إني لا أحرمك من حاجة بنفسك غير أن كسرى يتمنى جداً أن يراني على هذه الحالة ذليلاً ولو كلفه ذلك فوات ملكه وإني أعرف أن الملك يأمر بقتلي حالاً إذا تذكر ما فعلته معه في مدة زماني فإذا كنت محبوساً في القفص لا أقدر أن أدافع عن نفسي . فقال له الأمير أنه يصعب علي جداً إذلالك وتمكن الأعداء منك واشفاؤ هم بأسرك إلا أني مضطر إليه وأما من جهة قتلك فلا يقدرون عليه لأنه إذا صدر منهم أدنى إشارة من ذلك أو حكى واحد من رجال كسرى في هذا الأمر ونوى الملك عليه كان سبب خراب هذه المملكة لأنك وأن كنت مقيداً فإني مطلق وأقدر أن أفك قيودك واكسر القفص وأعيد اليك الحرية حالاً وسوف أرسلك في صباح الغد قبل بدقائق قليلة لأعلم ماذا يقال عني وماذا يكون أمر بختك ومن الذي يختار لك الخير ومن يقصد لك الشر . فأجاب معقل طلب الأمير وصبروا إلى صباح اليوم الثاني وفي المساء تفرق كل إلى صيوانه فذهب الأمير إلى صيوانه فوجد خادم مهردكار بانتظاره فبلغه سلامها ودفع إليه كتابها وقدم ما جاء به من الطعام فأكل حتى اكتفى ثم فض الكتاب وقرأه وإذا مكتوب به .

من مهردكار إلى حبيبها الأمير حمزة العرب سيد الفرسان وقمر هذا الزمان .

تركتني أتقلب على جمر الغضا من حر نار البعاد لا أعرف ما أصل إليه في زماني فحبي يزيد بفيضان البحار مع تمادي الدقائق ويتراكم بتراكمها في حجر الأيام وأنا لا أريد من زماني إلا أن أكون قد رافقتك في مثل هذه السفرة وأي شيء ألذ على قلب مغرمة امتلأ حنجور فؤادها من معاطر هوى حبيب حسن المعاني باهي الجمال كريم الطباع صافي المودة زائق البال عظيم البسالة نادر المثال في هذا الزمان نعم بقربك ينتعش فؤادي وتتروض أفكاري ويطفح السرور على قلبي وأرى الدنيا تبسم في وجهي كيف ملت ونظرت وببعدك أصادف عكس ما قلت فالزمان ضنين ولا بد أن تقلب الأحوال وأنال المنال وأحظى بما أريد صرفت مدة غيابك على البكاء منفطرة الفؤاد من كيد الأوغاد الذين يريدوون لك الشر ويطلبون هلاكك فأشكر الله على سلامتك حيث عدت منصوراً ظافراً حاملاً راية المجد وبيدك سيف العز الذي تشق به أفئدة باغضيك فأهلاً ومرحباً قد أبيض وجه المدائن الآن وانتشر فوقها رواق البهاء وحق لمحبوبة حمزة الجمال أن تبرز بثوبها الأبيض علامة على نزعها البكاء ودخولها في عالم المسرات فأطلب اليك يا حبيبي أن لا تتهامل في أمر الحصول علي والوصول إلي وإنك تراني في كل يوم في شباك قصري انتظر مرورك وأتمنى أن أراك فلا تنقطع يوماً واحداً عن الزيارة إلى أبي فما من وسيلة لامتلاك قلبي وحمله على الصبر ولا تظن أن دهري مهما كان ظالماً ينفخ في أنفي فيمنعني عن الوصول إليك والتقرب منك فأنت سعدي وأنت غايتي .

لا ومرأى جمالك المسعود	ما سقى ماء العز بعدك عودي
وحق الهوى وطاعة جفني	لولى الدموع والتسهيد
لم أبح مهجتي لغيرك فامحو	بنهار الوصال ليل الصدود
إن يوماً تراك فيه عيوني	هو عيد أجل من كل عيد
لست أرضى مولى سواك وعزي	أن تسميني بيا أقل العبيد
لم أهبك الفؤاد غصباً ولكن	عن طواعية وبر وجود
أنت أشهى من المنام لعيني	ومن الأمن للفؤاد العميد
كل يوم يجد فيه غرامي	ويح قلبي من الغرام الجديد
مدمع سائل ووجد مذيب	وفؤادي يقول هل من مزيد
مات نومي وعاش حي سهادي	عظم الله أجركم في الهجود
وبراني الضنا فكدت أوارى	عن شهود ولم أقل بوجود
إن سود العيون أوقعن قلبي	به مهاوٍ أضللن كل رشيد

وهذا بعض ما أشرحه إليك الآن طالبة منه تعالى أن يجعل اجتماعنا قريب الميعاد بعد

الموانع والسلام .

وكان الأمير حمزة يقرأ وهو مسرور من كتابة مهردكار ورقة أشعارها وحسن مودتها وكان يخفق قلبه فرحاً ومسرة عند قراءته الفاظ شكواها وطلبها منه أن يسعى في ما فيه قربهما ورأى من الواجب إجابتها على كتابها فكتب لها :

(من حمزة العرب وبهلوان العجم إلى حبيبته مهردكار)

(أنت تعلمين أن كل ما أنا فيه هو لأجل المحافظة على حبك واستجماع هنانا مقروناً برضا أبيك ولو أني أقصد أن اتخذك كسبية لقتلت أبيك ونلت المراد فهذا يبرهن لك أن الحب الخالص والمودة الكاملة في قلب محبك تزيد كلما زادت عداوة بختك لي وبغضه فيّ سرت من هنا إلى حصن تيزان وشخص جمالك يرافقني على الدوام فهوكان أنيسي ورفيقي يسليني في يقظاتي وغفلاتي في النهار نصب عيني وفي الليل ضيف أجفاني فوصلت إلى معقل البهلوان فإذا هو من الذين يعبدون الله تعالى يحب أبنـاء دينه فنازلته أياماً وأنا ضيافته وقد عرض عليّ خدمته دون قتال فما قنعت إرضاء لخاطر أبيك وأخيراً اعترف وهو في القتال بقصوره ومقدرتي فاصطحبت معه وجئت به لأقدمه عن طوع منه أسيراً إلى أبيك فهكذا تكون سيم الكرام وإلا فلا وفي صباح الغد تريني ملتفتاً إلى شباكك على أمل أن تراك أعيني واقفة به وهذا هو موضوع أفكاري أي أني على الدوام أوجه بأفكاري إلى هذا الشباك الذي أراك على الدوام واقفة فيه فهو لا يبعد رسمه عن فكري ويتخيل في ذهني إشراق وجهك منه وظهورك فيه كظهور البدر في خرق من الغيم الكثيف .

جلا الحسن عن بدر التمام اجتلاؤه وحاشاه من عين الحسود اعتلاؤه
وأبـرزه في دارة الحسـن والبـهـا قـران سعـود لايجاب انقضـاؤه
لـه الله مـن بـدر أضـل بنـوره محيـا تسـاوى صبحـه ومسـاؤه
أنـيس عـيـون الهـائـمـين لأنـه إذا جنـهـم ليـل جـلاه اجتـلاؤه
لئن سعـدت عيني بـرؤيـة نـوره فحق لقلبي في هـواه شقـاؤه
وإن كـان كتم الحب للقـلب داؤه فـإفشـاء سـر الحب فيـه دواؤه
تـراءى فـأحـيي سعـده شهـداؤه ومن لي ببـدر أسعـدت شهـداؤه
وتم فضـاهتـه الغـزالـة في الضحى فغشى سنـاه الأزهـري سنـاؤه
وكيف يفـوق الشمس حسناً ونـوره لـطلعتهـا الغـراء يعـزي ضيـاؤه

فأنت مليكي وبك سعادتي وإليك منتهاي ويحق لك أن تكوني كذلك فلوامع صباح جبينك الوضاح مترفع في سماء الافكار جل عن ان يكون له مثيل في هذا الزمان ولأجله أتحمل كل عذاب وتعب فلو سرت الى أقاصي الأرض وطرقت أبعد البلدان على أمل أن

أرضى بذلك أباك فيسمح لفعلت أليس الانسان عرضة لنوال غاياته .

ومليكـة صـانت شقـائق خـدهـا من نـاظـري بنـاظـر وبحـاجب
جـزمت بكسـر حشـاشتي وتحجبت عن عـين نـاظـرهـا بـرفـع الحـاجب
واستـأصلت طـير الفؤاد وقـد رمت بسهـام لحظ عـن قسـى حـواجب
نـاديتهـا كـفـى فنـادى لحـظهـا أوليس قلبـك من طيـور الحـاجب

ثم إن الأمير حمزة طوى الكتاب وسلمه إلى الرسول وأوصاه أن يهدي السلام مولاته وان يحافظ على المكتوب فلا يقع بيد احد فأخذه وسار اليها فأعطاها الكتاب ففضته وقرأته وهي طائرة الفؤاد تطلب بفروغ صبر إتيان النهار لتقيم في شباكها وترى غزالها تحته وتبل أشواقها من النظر اليه .

وأما الأمير فإنه نام تلك الليلة مطمئن الخاطر ينتظر الصباح ليسير إلى ديوان كسرى وبعد نومه سار الأمير عمر العيار الى أصحابه فسلم عليهم وقال لهم هلموا لأدفع اليكم ما وصل إليّ من الأموال فاجتمعوا عليه كالزنابير واحتاطوا به كالأولاد دخول الأم وأخذ ينثر عليهم الذهب وهم يلتقطونه من كل ناح وهو يضحك من عملهم حتى فرغ كل ما كان قد أخذه وناله من انعام كسرى والنعمان ما وصلت اليه يده فتكدر من فراغ المال ورجع حزيناً إلى أخيه متمنياً لو كان حصل على مال اكثر وبقي في حراسة الصيوان الى الصباح فنهض الأمير حمزة من رقاده وجاء إلى صيوان الملك النعمان وما استقر حتى اخذت الامراء تلقى واحداً بعد واحد وأخيراً جاء معقل البهلوان فسلم على الجميع وأخذ قيداً فقيد نفسه ودخل من تلقاء نفسه إلى قفص الحديد وسأل الأمير حمزة أن يقفل عليه ويرسله إلى الملك كسرى فتعجب الجميع من كرامته وتقدم الأمير فأقفل باب القفص وأمر أربعة رجال من العربان أن يحملوه ويسيروا أمامه إلى الديوان ففعلوا وبعد ذلك ركب الأمير حمزة ظهر جواده الأصفران وسار نحو المدائن وإلى جانبه الملك النعمان وباقي أمراء العربان ولما قرب من باب الديوان نظر إلى فوق فوجد مهردكار جالسة في الشباك تنتظر قدومه وهي بالملابس البيضاء الحريرية وعليها من الجواهر ما يتكسر نوره بما يماثل نور الشمس وعلى رأسها إكليل من الماس محاطاً بباقات من الزهور البيضاء والحمراء ولما رأته تبسمت ووضعت يدها على قلبها وأشارت اليه مسلمة فأجابها على ذلك فتدحرجت من عينها دمعة وقعت على صدرها وشكرت الله على رجوعه سالماً وكيف سمح لها أن تراه كما فارقته .

فهذا ما كان من الأمير وأما ما كان من الرجال الذين أخذوا معقل البهلوان فإنهم ساروا به محمولاً على أكتافهم حتى دخلوا صيوان كسرى فوضعوه أمامه وقالوا له هذا يا سيدي معقل الذي طلبت من سيدنا حمزة إذلاله فها قد أوصلناه اليك على حسب ما تشتهي

وبعد دقائق قليلة يكون سيدنا الأمير حمزة عندك فهو آت وراءنا مع الأمراء والملك النعمان .

فلما نظر كسرى وباقي الاعجام الى معقل وهو مقيد تعجبوا من عظم جثته وكبر هامته وهو كالفيل وأكثر عجبهم كان كيف أن الأمير حمزة قدر على أسره وإدخاله في هذا القفص مع ما هو عليه من البطش والاقدام وعلو المنزلة في القتال وبعد الصيت في عالم ذاك الزمان .

وأما كسرى فإنه سر بأسر معقل البهلوان وقال له كيف ترى نفسك الآن أيها المتكبر المعتدي أتظن أني أعجز عنك أو لا أقدر على أسرك وقتلك وقد بعثت اليك برجل واحد فأتى بك على هذه الحالة . فقال معقل انك لو بعثت إلى رجال العالم أجمعها وأنا في حصني لما حسبت لهم حساباً ولا قدرت أن تراني في مثل هذه الحالة غير أن الأمير حمزة غش بك وتوهم أنكم على صفاء الباطن والنية فسعى في إنقاذ مآربكم .

فقال بختك لكسرى اعلم يا سيدي أن قتل معقل في الحال كثير الفائدة وأريد منك أن تأمر بقتله وتريحنا منه لأنه وهو في الأسر يتطاول ويأنف الذل وإذا تذكرنا السالفة نرى ان كل عمل يحتاج من أجله أن يحرق بالنار فقال معقل إن قتلي صعب عليكم جداً وليس في وسع أحد منكم أن يمد إلي يداً إلا الذي أسرني فهو وحده له حق التسلط علي والتصرف بي فإن عفى كان كرماً منه وإلا فله الحق بقتلي وأما انتم فإنكم بعيدون عن نوال هذا المنال وتعجزون عن الدنو مني وأنا مقيد الايدي والارجل فإياكم من المخاطرة بأنفسكم فاغتاظ كسرى من كلام معقل البهلوان وكاد يختنق فأدرك ذلك بختك فاغتنم الفرصة للانتقام من معقل البهلوان وقتله خوفاً من أن يظهر الكتابة التي بعثها اليه بقتل الأمير حمزة ، وفي الحال أمر الحجاب ان تحمل القفص بما فيه وتلقيه في النار ليحترق فهجم الحجاب وفي نيتهم ان يحملوا القفص وينفذوا امر بختك وإذا بالأمير حمزة قد وصل الى الايوان بجماعته ورأى قبل دخوله مهردكار على ما تقدم في شباك قصرها واقفة كالعادة وعند دخوله رأى الحجاب وقد احتاطوا بالقفص ليحملوه فأدرك سر المسألة ولا سيما عندما شاهد معقلاً وهو يصيح بهم ليبعدوا عنه فصاح وهجم عليهم غير ملتفت إلى كسرى وقومه وقد جرد السيف بيده حتى أرعب الجميع وخافه كل من كان حاضراً في المكان من أكابر وأعيان ولا سيما الوزير بختك فإنه وقع الرعب في قلبه وعلم أن حمزة إذا قتل أحد يكون هو في الأول ولذلك اضطرب وخاف ومثله الملك وقد قال لوزيره بزرجمهر ارجع حمزة عن غايته ودعه يغمد سيفه ومهما طلب أعطيناه ونحن لا نعرف أن معقلاً في زمامه فأمر بزرجمهر الحجاب ان يتفرقوا عن القفص وتقدم من الأمير حمزة وقبله وقال له اغمد سيفك يا ولدي فما من لزوم لمثل هذا الأمر فاستحى حمزة من بزرجمهر وأطاعه لأنه كان يحبه جداً ويعتبره لعلمه أنه من كرماء الناس وعقلائها وأنه يحبه عن خلوص ومودة محبة الأب لولده . فأغمد سيفه وقال له اعلم يا أبتاه

أن معقل البهلوان أصبح صديقي ومن اتباعي وعاهدته على الوفاء وأنت تعلم أن من يريد أن يضر بأحد أتباعي أهلكته لا محاولة فكيف يمكن أن أترك عدوه يفعل به ما يشاء دون معرفتي واطلاعي . فأمره بزرجمهر ان يتقدم من كسرى ويقدم له واجبات الاحترام فتقدم من عرش الملك وقبل يديه فوقف له وقبله وشكره وبعد ذلك سلم حمزة على بختك وباقي الأعيان وجلس في مكانه الى جانب كسرى وسيفه على ركبتيه وبعد أن استقر به الجلوس وهدأ روعه قدم له الشراب فشرب وسأل كسرى ان يأمر باطلاق سبيل معقل . وقال اعلم يا سيدي اني لا أسلم بقتل مثل هذا الفارس العظيم والبطل الكريم وفي بقائه نفع لنا وقد صاحبته وعاهدته أن يكون باقي عمره في خدمتي وبين أتباعي ولذلك أريد مراعاته منكم ما زلتم تراعوني فأمره كسرى أن يخرجه من القفص فنهج حمزة إلى معقل البهلوان وأخرجه من القفص وفك قيوده وهنأه بالسلامة وأمره أن يتقدم من كسرى ويقبل يديه ويظهر له طاعته ففعل كما أمره حمزة وأظهر خضوعه للملك فأمر له بخلعة وأجازه جائزة عظيمة وفرح به مزيد الفرح وكان قد راق خاطر كسرى من جهة الأمير حمزة وصفا باطنه وفكر أنه فارس لا مثيل له في زمانه وانه إذا صاهره يفتخر به ويسود على كل فرسان ذاك الزمان وملوكها ويمتلك الدنيا بأسرها ويدوخ بلاد الرومان ويهدم تخت قيصر ولا سيما وقد صار عنده مثل معقل البهلوان وأصفران الدربندي وغيرهما من الرجال ومن ثم قدموا الطعام فأكلت الاعجام والعرب معاً ونهضوا عن الطعام وجلسوا الى المساء وفي المساء ودع حمزة الملك وخرج من الديوان وركب جواده وأشار إلى مهردكار وهي بالشباك مودعاً فأجابته بمثل إشارته وقد بعث في أثره نظرها تحدق به وهو سائر وقلبها يرف طائراً من حواليه ليحرسه ويحفظه من رواشق حب سواها وليبقى على الدوام مطمئناً عليها . ولما بعدوا عن الايوان قال حمزة للأمير معقل لقد صعب عليّ ما جرى في هذا النهار وإني أشكر الله على سلامتك . قال ما أنا إلا عبدك وفي يدك واني لم أكن أظن قبلاً أن كسرى يجيب سؤالك إذا سألته العفو عني أو يراعي خاطرك إلى هذا الحد حتى أني ما كنت أظن ان أبقى حياً وقد سلمت بنفسي إليك وأنا على يقين من هلاكي غير أني كنت أرضى بالموت وأفضله عن مخالفتك حتى شاهدت بعيني نفوذ كلمتك في كسرى وعليه قال اني أقسمت لك بأبر الاقسام ان أحافظ على حياتك فكيف أدع أحداً يقرب منك بأذى ولو لم يجب الملك في الحال وإلا كنت قتلت كل من في الديوان وفككت قيودك بالقوة وأوقعت في أهل المدينة وتخلصت من الاعجام وغدرهم ولما دخلوا الخيام تفرق كل إلى مكانه وكان معقل البهلوان قد ضرب خيامه مع قومه إلى جهة ملاصقة للعرب وما استقر الأمير في صيوانه حتى جاءه رسول مهردكار بالطعام حسب العادة فأكل واكتفى وأرسل سلامه إلى خطيبته وبات تلك الليلة وهو يفكر أنه عند الصباح يسأل كسرى في زواج بنته ويطلب إليه تعجيل العرس . ونام تلك الليلة يتردد في إجابة كسرى هل إنه

يوافق على طلبه أو يمتنع ويختلق له حيلة ثانية يبعده فيها عن دياره .

قال فهذا ما كان من الأمير وأما ما كان من الملك كسرى أنو شروان فانه ذهب من ديوانه إلى قصر ابنته ولما اجتمع بها قبلت يديه فقبلها بين عينيها فقال لها اعلمي يا عزيزتي أن الأمير حمزة هو وحيد في هذا الزمان ولا بد من إتمام زواجك به وقد وعدته وعداً صادقاً ولا أريد أن أرجع بقولي ولولا بختك لما بعثته إلى قلعة تيزان وقد عاد منصوراً ومعه معقل البهلوان مساعداً ومعيناً فكان ذلك موافقاً له ونافعا لخيره ونجاحه حيث صار من خدامه وأتباعه فقالت له أليس أنت والدي ومدبر أمري فماذا يكون بيدي فإذا ألقيتني بالنار كان لك الحق وإذا وضعتني بأعلى الجنان كان من حبك الأبوي فقبلها ثانياً ثم سار إلى قصره وإذا ببختك الوزير ينتظره فحياه وجلس وبعد أن استقر قال بختك إني لما كنت أعرف يا سيدي أنه لا بد في الغد أن يطلب إليك الأمير حمزة زواج ابنتك إيفاء للوعد قصدت أن أجتمع بك في هذه الليلة لتدبير طريقة تحفظ بنتك من عدوك وعدوها قال إني أرى في نفسي وجوب إجابتي إلى سؤاله ولا أرى مانعاً يمنع من قيام زفاف ابنتي عليه غير أنت . قال نعم إن المانع لأني مسؤول بحفظ شرفك وشرف الفرس أجمع ولا أريد أن تسود علينا ويرتفع مقامهم ويظنوا أننا نخافهم ولذلك أريد أن نتخلص من زنخة البدو نعيدهم إلى بلادهم ونرجع حمزة إلى مكة لرعي المواشي فابن من هو ليطمع بزواج بنت أكبر ملوك الدنيا وأعظمهم قدراً وأرفعهم شأناً ملك من الشرق إلى الغرب فعد إلى نفسك واعرف قدرك وارجع إلى الصواب فخير للملك أن يفقد ولعرشك أن يهدم من أن يلحق بشرفك مكدره ويقال في تاريخ الأزمان إن بعد البدو تزوج ببنتك فيسود تاريخ الأكاسرة . قال الملك هذا أعرفه غير أني أرى أن من كان كالأمير حمزة يكرم ويرفع قدره ويعظم شأنه قال ماذا يهمك ذلك فخذ مني تدبير الأمر ولا تترك العدو يسود فما العرب إلا كالعبيد عندنا قال ماذا عولت قال عزمت أن أبعثك على أن ترسل إلى سرنديب الهند إلى محاربة اندهوق وهذا من الفرسان العظام وعندي أنه يهمك حمزة ويذله ونرتاح من شره قال وبأي طريقة نرسله إلى هناك قال عندما يجتمع العرب عندك ويجلس حمزة في مقامه بش في وجهه وقربه منك جداً وقل له إني فرح بك جداً وصار من اللازم أن أتخذك عوناً لي لكيد الأعداء وقد خطر لي كما أنك أحضرت لي معقل البهلوان أن تأتيني بأندهوق صاحب سرنديب لأنه فارس عظيم ودائماً يطمع نفسه بالاستيلاء على تختي فأما تقتله أو تأتيني به أسيراً فيرتاح بالي فأنام أميناً ولا يبقى من يخاصمني بعد ذلك ولا عدو يعاديني وأنا أزيده من الكلام ولا ريب أنه يقبل منا ذلك ويعدنا بالمسير إلى سرنديب ومتى سار فلا يعود يرجع وهذا مؤكد عندنا فنرتاح منه ويسلم شرفك وتصان ابنتك شمس الدنيا من تعرض أجلاب العرب فانطلى الملك بكلام بختك وقال له تول أنت هذا الأمر ثم إن بختك ذهب إلى قصره وبات الملك ينتظر الصباح وقد تغير كل فكره على حمزة وتكدر قلبه

وخاطره عليه من كلام بختك .

وبقي الأمير حمزة نائماً إلى الصباح فخرج حسب عادته واجتمع بقومه في صيوان الملك النعمان وسار الجميع من هناك يقصدون الايوان وفي فكر الأمير حمزة أن يجيب طلبه في ذاك النهار أو يحاول إلى غير ذلك ولما صار عند باب الايوان نظر إلى فوق فرأى مهرد كار جالسة في الشباك كأنها ملاك من النور البهي البهيج فحياها وحيته وقد ابتسمت عن ثغر نقي من الماس وقلبها مملوء بالفرح والبشر لما سمعته من أبيها في اليوم الماضي ولم يكن عندها علم بخبر بختك وهي تسأل الله أن لا يقف مانع في سبيل نيل المراد . ولما دخل الأمير بجماعته ترحب به الملك وأجلسه إلى جانبه بعد أن قبله مراراً وأمر أن تقدم له الأشربة والأطعمة حسب العادة ودار فيها بينهم الحديث وإذا بالملك قال لبزرجمهر أن يبلغ حمزة ما يقوله فأجابه فقال الملك إني لعظم فرحي لم أنم في الليلة الماضية بل صرفت ليلي أفكر بإقدام صهري وبسالته وبطشه وقلت أن النار أوصلته إلي من رضاها علي وسعادتي لكي يذل لي أخصام دولتي ويعزز ملكي فقد أذل كل خصم وجعل من كان يعصاني يجلس في ديواني بين رجالي كأصفران الدربندي ومعقل البهلوان ولم يبق من يشغل لي فكري إلا فارس واحد في العالم ولا بد بعد زواج صهري حمزة ابنتي مهرد كار أن أرسله اليه ليذله أو يقتله فأجاب حمزة إني أريد منك أن تخبرني من يكون هذا الفارس وفي أي البلاد لأقلع لك آثاره وأخرب دياره وأجيء به ذليلاً حقيراً . قال إني لا أريد أن أخبر باسمه وإذا أخبرتك أخاف من أن تحدثك نفسك بالمسير اليه قبل الزفاف فقال بختك أن مسيره إليه قبل الزواج واجب جداً لأسباب ولا أظن أن نخوته ومروءته تطيعانه على الصبر إلى الزفاف ولا سيما إذا علم أن عمه متكدر لا يطيب عيشه ومن المعلوم أن الأفراح لا تطيب إلا بعد إزالة المكدرات ومحو الأتراح وأي شيء أحب على قلبه من أن يكون أخذ مهرد كار باستحقاق أي أنه منع كل تعد عن بلاد أبيها وأصلح شؤون الرعايا وأذل كل رجل يطمع بالبلاد وبهذا العمل يقال إن الملك كسرى قد زوج ابنته بفارس ما هو كذا وكذا فقتل فلاناً وأهلك فلاناً وفتح الحصون والقلاع فحق له أن يكون بعلاً لفتاة ضربت بها الأمثال في سائر المحال وحازت من العقل والآداب ما لا يوجد بأعظم الرجال فضلاً عن حسنها الباهر وجمالها الذي ندرت به والحق يقال إنها ما خلقت إلا له وما خلق إلا لها : فقال الملك إني أرغب زواج ابنتي قبل مسيره إلى سرنديب لأني أحب صهري وأحب أن يكون مسروراً نعم إني أكون مضطرب الأفكار خائفاً على بلادي فلا يطيب عيشي ولا يروق بالي إلا بموت عدوي لكني أحب أن يرتاح ضمير صهري فيعلم خلوصي له . فلما سمع الأمير حمزة كلام عمه وبختك لعبت برأسه النخوة العربية وحركه داعي البسالة والإقدام إلى الفوز وإشهار اسمه ليكون قد تزوج بمهردكار عن استحقاق واكتسب مدح الناس وخافه البعيد والقريب ولذلك نهض في الديوان وقال : أنتم

تعلمون أنكم عندما طلبتم مني معقل البهلوان أقسمت بالاتيان به بأقرب آن ومن فضله تعالى وفيت بوعدي وقسمي وكان ذلك عائداً لخيري ونفعي لأني اتخذته صديقاً أقدر به أن أفتح الأرض بالطول والعرض والآن أقسم نفس ذاك القسم وأعاهد عمي الملك إني لا أتزوج ببنته قط ولا أدخل ديوانه هذا إلا ومعي اندهوق صاحب سر نديب ذليلاً مهاناً مقيداً ليعرف عمي إني صادق بخدمته وأن غيري يغشه ولا يرضى النفع لدولته وسيكشف المستقبل عن سرائر كل من يتظاهر لديه بالخلوص فقال الملك إني لا أريد يا ولدي أن تخاطر بنفسك من أجلي وتلاقي هناك الأتعاب والأوصاب فما أنا مبغضك وخير لي أن أرى بلادي خراباً من أن أراك متضجراً مني والناس تنسب إلي عدم الوفاء والأمانة وكان كسرى يعلم صدق حمزة وأنه إذا عزم على شيء لا يرجع عنه مطلقاً وعرف أيضاً أنه وعد بالذهاب إلى سرنديب الهند ولا بد له من الرجـوع ولذلك قصد أن يمكنه من الثبات على كلامه وأن يظهر له أنه يحبه ولا يرغب في عذابه وقد أدرك بزرجمهر أن هذا الكلام هو مصنع بين بختك والملك غير أنه رأى نفسه أنه مضطر إلى السكوت ومجاراة سيده وقد قال في نفسه لا بد من نجاح الأمير حمزة كيف كان الحال وأن العناية تساعده كيف سار ولا بد أن تكون هذه السفرة محمودة العواقب حميدة الجدوى .

وبعد ذلك نهض الأمير حمزة وجماعته فودعوا الملك وأعيانه وخرجوا من الديوان وما منهم إلا من ينتفض من الغضب والغيظ ولا سيما معقل البهلوان فإنه قال للأمير أن تحمل اذلال الأعجام ضرب من الجنون فانهم ينوون لك شراً أو من الصواب أن توقع بهم ونقيمك ملكاً مكان كسرى فتتزوج بمهرد كار ولا تحمل أثقال خباثتهم وحيلهم ويظنون أن المحال يطلى علينا وإننا نصدق كلامهم ونأخذه على محمل الصدق فيستصغرون عقولنا ويضحكون من غباوتنا فلما سمع الأمير حمزة كلام معقل تنهد وأرسل الدموع على خدوده وقد تذكر حب مهردكار وقال له يا أخي لا تلمني على انقيادي لكسرى ألا تعلم أن التي أحببتها هي ابنته ومن الواجب على الإنسان إذا أحب فتاة جميلة وفريدة عليه أن يطيع ويكرم أقرب الناس اليها ليتوصل إلى غايته بسهولة وصفاء عيش نعم إني أعرف إذا جردت سيفي نلت غايتي بأسرع من لمح البصر لكن كيف يطيب عيشي مع زوجة قتلت أخاها وأباها فأرى من واجبات الحب أن أصبر إلى أن تفرغ جعبة صبري وأجتهد في مرضاة أبي محبوبتي وأبذل الجهد وما في إمكاني ولا بد أن الله سبحانه وتعالى يجعل حداً أخيراً لكل هذه الأمور ومما أعرفه أيضاً إني سأرجع فائزاً ومنصوراً في هذه المرة وأؤكد أن كسرى وبختك سيختلقان عذراً آخر ومانعاً أعظم فيطلبان مني إزالته . فقال عمر العيار سر يا أخي على توفيق الله فإني أرى من نفسي أن هذه السفرة تعود علينا بالنفع العظيم ويحصل لنا الخير العميم وأما مهرد كار فإنها باقية لك ولا يمكن لأحد غيرك أن ينال منها مراداً أو يتوصل إليها على سبيل الزواج

ما زلت أنت في قيد الحياة وداموا في سيرهم إلى أن وصلوا الخيام فتفرق كل إلى صيوانه بعد أن سألوا الأمير أنهم يسيرون معه في ركابه فأجابهم إلى طلبهم لعلمه أن بلاد الهند بعيدة وأنه يحتاج إلى مساعدين ورفقاء .

قال وكان الأمير عند خروجه من الإيوان مال بأنظاره حسب العادة إلى الشباك فرأى مهرد كار واقفة تنظر إليه وهي تنظر أن تقرأ في وجهه معاني أسطر الحديث الذي كان بينه وبين أبيها لتعلم هل هو في فرح أو هو في كدر فرأته قد بسم عن شنب ينطوي تحت الغيظ والحنق فسقط قلبها من مكانه وتأكدت أن الأمر خطر والوقت حرج وأنه لم يكن راضياً من أبيها وطار فؤادها إلى معرفة الحقيقة فدعت في الحال خادمها وأمرته أن يكتشف الأمير ويسأله عما كان من أمر أبيها ودفعت إليه الطعام أيضاً ليقدمه إليه فأخذه وسار إلى أن جاء صيوان الأمير فدخل عليه وقبل يديه وقدم له الطعام الذي جاء به وقال له اعلم يا سيدي أن سيدتي باضطراب عظيم من جراء ما رأته على وجهك في هذا اليوم من وسام عدم الرضا فألقاها في اليأس وهي تجهل ما كان واقعاً بينك وبين أبيها وقد أوصتني أن أسألك الخبر واستفسره منك ليطمئن بالها فحكى له الأمير حمزة كل ما جرى بينه وبين أبيها وقال له أخبر مولاتك أني صادق المودة وأراعي حرمة أبيها إكراماً لها فلو كلفني أن ألقي بنفسي في تون من النار وكان ذلك لأجل خاطرها ورضاها لما تأخرت دقيقة حيث يبقى لي بقية أمل أن أنجو من النار فأعود إليه مسترضياً طامعاً بأن يكون قلبه قد تغير وانقلبت تلك الأسباب العدوانية وعرف الحقيقة فأمات قول الحواسد وأحيا آمال صفيه ومخلصه ثم أن الخادم رجع إلى مولاته وشرح لها كل ما سمعه وكانت بالانتظار على مقالي النار تتقلى وتتشوى لا تعرف ما يكون الجواب إلى أن سمعت ما سمعت فشعرت بانفطار كبدها وكادت تقع إلى الأرض واسودت الدنيا في عينيها وتركت دموعها تتدحرج على خدودها ونظرت إلى الأرض ضائعة العقل خائرة القوى مشتتة الأفكار لا تعرف أتذم حظها أو تذم الزمان أو تذم أبيها واشتد عليها الغيظ عندما ترك ذهنها أن كل تلك الأعمال لا بد أن تكون بتدبير الوزير بختك ومسعاه فهو عدو للأمير ولها ودامت على البكاء والشكوى على حالتها ولم يكن لها سلوة قط حيث بفكرها أن طرق الهند بعيدة وأن المقصد موت من أحبته وغاية ما يرجو أبوها هلاكه واعدامه والتخلص منه وكل ذلك مما جعلها تقطع الرجاء لولا تعلقها ومعرفتها أن الزمان كريم الفعال بقدر ما هو لئيمها يجود ويبخل ويأخذ ويعطي ويضحك ويبكي وأن لا بد من نوال المراد إذا ثبتت مع حبيبها على المودة لكن يلزم أن يكون موفقاً من الله ليعود سالماً وأشفعت بكاءها بنظم الأشعار فقالت :

طرب الفؤاد وعاودت أحزانه ... وتشعبت بشعابه أشجانه
وبدا له مني بعد ما أندمل الهوى ... برق تألق موهنا لمعانه

يبــدو كحـاشيــة الـرداء ودونـه ... صعب الـذرى متمنعـا أركـانــه
فبدا لينظر أين لاح فلم يطق ... نـظراً إليــه وحــده سبحــانــه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه ... والمــاء ما سمحـت بـه أجفانه
واقنـع بمـا قسم الإلــه فـأمـره ... ما لا يزال عـلى الفـتى إتيانـه
والبؤس ماض لا يدوم كما مضى ... عصـر النعيم وزال عنك أوانـه

وبقيت هذه الحالة حالتها كل مدة غياب الأمير فهذا ما كان منها وأما ما كان من حمزة فانه نام تلك الليلة على نية السفر في الصباح وعندما أشرقت شمس اليوم الثاني وتكسرت أشعتها على البسيطة وهب نسيم الشرق بارداً نهض الأمير حمزة كالأسد إلى جواده فركبه وأمر أن تركب العرب حالاليسيرواعن تلك الجهة فلا يبقى لهم أثر فيها فركب الجميع من الصغير إلى الكبيروانتشرت راية العرب فوق رأس الملك النعمان وهو راكب إلى جانب حمزة وإلى جانب أصفران الدربندي ومعقل البهلوان والأمير عقيل وعمر العيار يسير أمام الجميع بجماعته العيارين وهو يجري بأسرع من لمعان البرق وبأعجل من طيران الطير وما تعالت شمس ذاك النهار إلا كانت العرب قد بعدت عن المدائن وتوغلت في الطرقات . واستلموا طريق سر نديب الهند لا يعلمون ما يكون لهم هناك وحمزة يتمنى سرعة الوصول إليها لينهي الأمر الذي جاء بطلبه ويعود حالاً إلى كسرى ولطمئن بال حبيبته من قبله لأنه يعلم أنها تبقى كل مدة غيابه مضطربة الأفكار ضائعة العقل لا تعلم ما يجري عليها وما من أحد ليوصل أخباره إليها لا سيما وهو سائر لمحاربة رجل اشتهر بين العالم بالبطش والإقدام والبسالة وأن أباها أرسله إلى هناك لأجل التخلص منه وإهلاكه في تلك النواحي ودام العرب على مسيرهم مدة أيام وليال يسيرون أكثر الليل وقسم من النهار وعند اشتداد الحر ينزلون ويقيمون في الخيام إلى أن وصلوا .

وكان بختك لما رأى العرب قد قلعت عن تلك الدار فرح فرحاً عظيماً وسر سروراً لا مزيد عليه واجتمع بالملك كسرى وقال له انظر كيف أننا براحة من زنخة أولئك الأوباش فلقد خلت الديار ولم يبق لهم فيها آثار وصرنا نقدر أن نعي على أنفسنا فنلتفت إلى ذواتنا وندبر أمر ملكنا فما العرب إلا نقمة لنا حملوا علينا بكل ثقالتهم وغلاظتهم فإذا أبقيناهم على مسراهم تعبنا معهم جداً .

فقال له كسرى إني أشعر الآن براحة من قبلهم وما كنت أكرمهم إلا إكراماً لخاطر الأمير حمزة لأنه فارس صنديد وأمين على خدمة حكومتنا . قال إننا لا نحتاج إلى أمانته وخدمته وعندي أن نفس حمزة لا بد أن تطمح عينه ذات يوم إلى الجلوس على كرسيك وليس تاجك وذلك بعد أن يتزوج ببنتك مهردكار ويظهر في نفسه أنه صالح لذلك وتقع الحروب

بين العرب والعجم ونكون نحن السبب في خراب دولتنا وأنت تعلم أن العرب يربون على الغزوات والغارات لا يتعلمون ولا يتهذبون فينشأون على أقبح طريقة وأسوأ حال ولذلك لا يعرفون قدر الملوك ونعمهم . ودام بختك في مثل هذا الحديث إلى أن امتلأ صدر الملك كسرى حنقاً على الأمير حمزة والعرب وصار يطلب هلاكهم ويتمنى كل التمني أن لا يعودون من هذه السفرة ولا يرجعون إليه فيراهم في ديوانه مرة ثانية . وعند ذلك طلب بختك من كسرى أن يسمح له بخاتمه وقال له مرادي أن أكتب كتاباً إلى أندهوق صاحب سرنديب أطلعه على باطن المسألة وظاهرها وأشرح له كل ما توقع لنا وأسأله أخيراً إهلاك العرب وتبديد شملهم وإذا فعل ذلك كان له منا الخير العظيم فوافقه كسرى على ذلك فكتب بختك .

من كسرى ملك العجم والعرب وحاكم الأرض بالطول والعرض إلى اندهوق صاحب سر نديب الهند فارس فرسان هذا الزمان وفخر أبطالها الشجعان .

اعلم أيها الصديق الودود أنه خرج من العرب فارس صنديد اسمه حمزة العرب من برية الحجاز وجاء بلادنا ونحن بضيق عظيم مع خارتين فقتله وأعاد البلاد إلينا فأكرمته على ذلك وأنعمت عليه وقدمته من ديواني حيث رأيت من قواعد الإنسانية أن أكرم من هو مثله فلما رأى منا هذا الاكرام الزائد حدثته نفسه بأن يتخذ بنتي زوجة له فغاظني منه ذلك وتكدرت منه مزيد الكدر أن أكون كسرى أنو شروان ويطمع بزواج بنتي أحد العربان وعند ذلك أردت أن أمنعه وأبعده فأرسلته إلى رجل عاص يقال له معقل البهلوان في حصن تيزان على أمل أن يهلكه وأرتاح من شره فسار إليه ولحسن حظه تغلب عليه وقاده ذليلاً إلى ديواني ثم اصطحبه معه وصار له صديقاً صدوقاً ولهذا عاد ثانياً إلى طلب زواج بنتي كما كان قبلاً وسألني أن أزفه عليها وأسلمه إياها فكان من وزيري بختك أنه قال له اننا لا يمكن أن نزفها عليك ما لم يصف بالنا ويطيب عيشنا لأن اندهوق صاحب سر نديب عدونا ويريد أن يزحف على بلادنا فلسخافة عقله صدق ذلك وفي الحال وعد أنه يسير إليك ويقبض عليك ويأتي بك مقيداً أسيراً إلى ديواني وأنت على الذل والإهانة وكان يفكر وزيري أنك فارس صنديد لا يوجد لك ثان في هذا الزمان فتهلكه وتعدمه الحياة وتريحنا منه ونعطيك عوضاً عن ذلك حكومة العرب أو غيرها والآن أخبرك أن الأمير حمزة وجماعته ساروا إلى بلادك على أمل أن ينفذوا غاية الأمير حمزة فدبر أنت أمره وإذا تم لي مطلوبي أي إذا أهلكته وفعلت به ما أريد أعطيك كل ما تطلبه والسلام .

ثم إن الوزير بعد أن ختم الكتاب بختم الملك طواه وسلمه إلى الرسول وأوصاه بالسرعة إلى أن يسبق العرب إلى سر نديب ويعطي الكتاب إلى أندهوق ودفع إليه هدية فاخرة من الجواهر والأموال يقدمها له ويخبره أن هذا جزاء من كرامة الملك له فأخذ الرسول

الكتاب وسار على غير الطريق الذي سارت فيه العرب حتى وصل إلى سرنديب فدخل على أندهوق وناوله الكتاب وبلغه رسالة كسرى وبعد أن قرأ الكتاب صبر إلى حين وصول العرب واستنتج مآل التحرير أن كسرى يريد أن يظلم الأمير حمزة ويعامله بغير ما استحقه وحيث أن خلص له بلاده فيريد أن يهلكه ويعدمه الحياة غير أنه كتم ذلك إلى وقته ولا زال الأمير حمزة وباقي العرب سائرون من مكان إلى مكان عدة أسابيع إلى أن أقبلوا على واد يقال له سرنديب وهو يبعد عن بلاد أندهوق مدة عشرة أيام فرأت العرب في ذاك الوادي كثرة الأشجار وينابيع المياه وحسن الهواء فنزلت فيه وهي منتعشة الأرواح من جري الروائح الذكية المنبعثة عن الزهور العطرية ولاح لحمزة أن يقيم في ذاك الوادي ثلاثة أيام ليرتاح من معه من التعب الذي لحق بهم مدة السفر الطويل فضربوا خيامهم وشدوا أطنابهم وسرحوا خيولهم مسرورين بقيامهم بذاك الوادي طوال ذاك النهار وفي اليوم الثاني ركب الأمير حمزة وقصد أن يوسع في البر أولا ليصطاد من وحش ذاك الوادي وثانياً ليتفرج عليه فسار عن عسكره مقدار ساعتين ثم استلم طريق الآكام والجبال وجعل يسير فيها وهو لا يرى وحشاً ولا ما يصطاده فتعجب كيف أن ذاك المكان خال من الوحوش والأرانب إلا أنه داوم المسير وتقدم شيئاً فشيئاً إلى أن اشتد الحر وحمي الهجير فاشتاق إلى شرب الماء وكان قد وصل إلى نصف الجبل فلم ير هناك ولا عين ماء فعرف أن الماء كله في الأسفل غير أنه أمل ربما يلاقي بعد قليل عين ماء فجعل يتقدم وكلما تقدم يشتد عليه الحر ويظمأ حتى ضاقت منه الأنفاس وبينما هو على مثل ذلك وإذ لاحت منه التفاتة إلى رأس الجبل فتبين هناك صومعة عليه ففرح وقال لا بد أن يكون في هذه الصومعة أناس يسكنونها فيوجد عندهم الماء فأطلق لجواده الأصفران العنان وسار يتقدم بسرعة حتى وصل إلى أعالي الجبل ودنا من الصومعة وطرق بابها ففتح له فدخل وإذا به يرى أربعين شيخاً يسكنون فيها كلهم بذقون بيضاء قائمين على الصلاة والعبادة فحياهم وقال لهم هل تسمحون لي بشربة ماء فلما سمعوا كلامه وشاهدوه تقدموا منه وقالوا له على الرحب والكرامة يا حمزة وجاءوا حالاً بالماء فتعجب كيف أنهم عرفوه في الحال ولم يروه قبل ذلك اليوم وبعد أن شرب قال لهم أريد أن أسألكم من أين عرفتموني فناديتم باسمي ومن الذي أخبركم عنه قالوا أن الخضر عليه السلام من زمان طويل حضر الينا في هذه الصومعة وأخبرنا أنه سيأتينا في زماننا الأمير حمزة العرب من برية الحجاز من أشرف مكان في العالم أي من مكة المطهرة فيزوركم وهو عطشان ومن ذاك اليوم إلى يومنا هذا لم يحضر إلينا أحد سواك غريب . ونحن على الدوام نصلي لله وقد خصصنا أنفسنا لعبادته آناء الليل وأطراف النهار وإننا نبشرك أن لك عندنا أمانة أوصينا من سيدنا الخضر عليه السلام أن نسلمك إياها ثم جاءوه برمح طويل مكعب يلتوي كالأفعى له سنان حاد مسقى بالسم إذا مر على الجسم قتل ودفعوا إليه أيضاً ثوباً ثميناً مدبجاً بالزخارف وفيه

اللؤلؤ والياقوت والجوهر مما يأخذ بالأبصار فتعجب منها واندهشت أبصاره وأخذها وأخذ الرمح وقد فرح به فرحاً لا يوصف وشكر رجال الله وودعهم ورجع من حيث أتى وهو طائر الفؤاد وقد لبس الثوب علس جسمه وتقلد بالرمح ودام في رجوعه إلى أن بقي بينه وبين المعسكر نحو ساعة وإذا بأخيه عمر قد خرج لأنه استبطأه وانشغل باله عليه حيث قد ذهب ولم يخبره ولا أخذه معه فلما رآه مال إليه وسلم عليه واندهش لما رأى من ثيابه والرمح الذي معه وقال له من أين لك هذا كله ومن أين جئت به قال نصيب كان لي في مكان فدفع إلي ثم أخبره بخبره وما كان من أمر الشيوخ الذين في صومعة فقال له إنك لا ترغب في ربحي لأن لا بد أن يكون لي نصيب في ذاك المكان ولو أخذتني معك لكنت حصلت على مثل ما حصلت عليه أنت فسر إلى المعسكر وأنا لا أرجع ما لم أزر الصومعة وأطلب من الشيوخ نصيبي .

ثم ترك الأمير وقفز كالغزال وانطلق كالرق يسير بسرعة كلية وبمدة قصيرة وصل إلى تحت تلك الصومعة فرأى بابا مقفلاً فطرقه وإذا به قد فتح فدخل وشاهد الشيوخ فسلم عليهم فترحبوا به وقالوا أهلاً وسهلاً بالأمير عمر العيار فتعجب من امرهم وقال كيف عرفتم بي وان اسمي عمر قالوا إن ذلك نعرفه من زمان قال إني أسألكم هل من نصيب لي عندكم كنصيب الأمير . فقالوا لا بل نصيبك عندنا أفضل من نصيب الأمير ونحن بانتظارك تأتي من تلقاء نفسك ثم ذهب أحد الشيوخ وجاءه بسيف صقيل مجوهر لا يوجد مثله في ذاك الزمان وقال له هذا لك يا عمر واني كنت وكيلاً عليه لأسلمه اليك واسمه ذو الشلطين فأخذه وقد فرح به كثيراً ثم قال وهل باقي لي نصيب عندكم فأعطواني إياه ولا تحرموني منه فقام شيخ آخر وجاءه بخنجر أحسن من السيف قبضته من الماس وهو مصفح بالذهب مجلى به وقال لعمر خذ هذا فلا نظير له في هذا الزمان واسمه خنجر اسماعيل وهو محفوظ لك من زمن اسماعيل فانبهر منه عندما أخرجه من قرابة ثم إنه التفت إلى شيخ ثالث وقال له وأنت ما عندك لي فذهب وجاءه بجراب من الجلد طوله ذراع وعرضه ذراع فدفعها اليه وقال له هذا يا أمير عمر اسمه جراب اسماعيل مهما وضعت فيه لا يمتلىء يعني لو أدخلت فيه هذه الصومعة ونحن كلنا لما بنا فيه فأعجبه ذلك أكثر من الجميع ثم قال للرابع وأنت هل سلم اليك شيء فادفعه حالاً لأن الله يسألك عنه في اليوم الأخير فقام الشيخ وجاءه بطماقات من الجلد وقال له إذا لبست هذه في رجليك ومشيت الدهر بطوله لا تشعر بتعب ولا ملل ولا وجع حتى لوطفت الأرض بطولها لأمكنك ذلك بسهولة ثم قام الخامس والسادس فجاءه الأول بمرآة والآخر بمكحلة وقالا له هذه المكحلة إذا تكحلت فيها وضربت على المرآة بقضيب وقلت بحق ما كتب عليك من الأسماء أصير مثل فلان تصير في الحال مثله وبهما يمكنك أن تكون مثل من شئت وإذا أردت ان تقصد مكاناً أو محلاً فضع المرآة لجهة القبلة

فاذكر اسم المكان الذي تكون قاصده يظهر لك في الحال بطرقه وكل جهاته فطار قلبه من هذه البشارة وفرح فرحاً عظيماً وسر سروراً لا مزيد عليه ثم سأل الباقين إذا كان عندهم شيء له فقالوا ليس لك عندنا إلا الدعاء ودعهم وخرج من عندهم وهو فرح بالذخائر وكلها نافعة ضرورية له وقد تأكد أنه ملك الدنيا بأسرها وبقي سائر إلى جهة المعسكر حتى كاد يقرب منه فلم يرد أن يظهر نفسه لقومه أو يخبرهم بما نال بل قصد أن يجرب المكحلة وكان الوقت إذ ذاك بعد نصف الليل فذهب إلى ناحية صيوان الملك النعمان ودخل عليه من ورائه وهو نائم ورفعه إلى الخارج ووضعه في صيوان بعيد عن صيوانه ورجع إلى فراشه وانتظر إلى قبل الصباح فأخذ المكحلة تكحل بها ومسك المرآة فنظر فيها وهو يقول بحق ما كتب عليكما من الأسماء العظام إني أريد أن أصير مثل الملك النعمان هيئة وجسماً ثم لبس ملابس النعمان فرأى نفسه كأنه هو وقد تغيرت كل حالته وأصبح من يراه ويرى الملك النعمان لا يعلم أيهما الصحيح وبعد ذلك جلس على كرسي الملك وأقام ينتظر العرب وهي تأتي اميراً بعد أمير وكل واحد يصل ويسلم على عمر وهو يظنه الملك النعمان ويجلس في موضعه حتى كملت العرب ودار بينهم الحديث حسب عادتهم ولم يخطر في بالهم شيء مما تقدم وفيما هم على ذلك تقدم النعمان ودخل الصيوان وهو مندهش لأنه كان قد استيقظ فوجد نفسه في غير صيوانه فتكدر جداً وما عرف من عمل معه ذلك وبقي أكثر من ساعة مضطرباً محتاراً في أمره إلى أن هدأ باله وراق ضميره واستكن ولم ير من خوف عليه فقام وجاء إلى المكان المضروب فيه صيوانه ودخل على العرب فوجد عمراً جالساً في مكانه فتعجب مزيد العجب ولم يعد يتمالك نفسه من الغيظ وصاح على غير وعي من أنت أيها الساحر المتعدي الغاش فنظر إليه العرب فرأته أنه الملك النعمان ثم نظروا إلى عمر فوجدوا أنه النعمان أيضاً فانبهروا وحاروا في أمرهم وهم ينظرون من الواحد إلى الآخر لا يعلمون أيهما النعمان هذا والنعمان يصيح عن غضب وقد قال لجماعته ويلكم أنا ملككم كيف تقبلون هذا الرجل الساحر الذي يريد أن يغشكم ويجعل نفسه ملكاً عليكم فلم يجب أحد منهم بكلمة لما لحق بهم من الحيرة ولا سيما الأمير إلا انه نهض مغتاظاً وجاء إلى النعمان وقال له أين كنت ومن اين أتيت فأخبرنا جلية أمرك لنفحص الأمر لأن هذا الجالس على الكرسي هو ملكنا وهذا صيوانه وقد وجد فيه منذ الصباح وهذه الملابس ملابسه قال إني نمت في هذا الصيوان أمس وفي هذا الصباح وجدت نفسي في غيره لا أعرف من نقلني إلى هناك ولا ريب أن هذا الساحر عمل هذا العمل .

ولما رأى عمر العيار أن النعمان بغيظ عظيم وكدر جسيم نهض عن الكرسي وقال لاتؤاخذني يا عميلي فما أنا النعمان بل أنا عمر العيار فتعجب الجميع من عمله وبهتوا فيه فحكى لهم كل ما مان من أمره في الصومعة وما ناله من الذخائر والتحف التي سمح له بها

شيوخ القلعة فلما سمع العرب كلامه تعجبوا منه وقالوا له لقد أعطيت يا عمر ما يطيب به قلبك ويسر به خاطرك ويعود علينا بالنفع العظيم فما ذاك إلا من تدبيره تعالى ثم قال لهم وما عملت هذا العمل إلا لأجرب أمر المكحلة هل هي كما قيل لي فوجدتها كذلك لأنها اعظم الأشياء لنا نقدر أن ندرك بها الغاية في كل زمان ومكان فقال النعمان وهلا أردت ان تجرب إلا بي حتى اغظتني وكدت تضيع مني عقلي قال إني اعرف أن ذلك جسارة عظيمة لكن أردت أن أكون ملكاً لأعرف هل أن العرب يعرفون ملكهم حيث كلهم ينظرون دائماً إليه ولابد لي أن أفعل ذلك ذات يوم مع الأعداء ثم اعتذر إليه وقبل يديه وترضاه فرضى عنه وشكره على عمله وأنعم عليه بألف دينار فأخذها وسار إلى جماعته حالاً ففرقها عليهم ونثرها فوق رؤوسهم وهم يلتقطونها وبعد ذلك أقامت العرب مدة ثلاثة أيام في ذلك الوادي وعند صباح اليوم الرابع ركبوا بأجمعهم وساروا عن تلك النواحي يقصدون بلاد اندهوق وفي نية حمزة أن يدوخ البلاد ويأتي به ذليلاً حقيراً كما وعد الملك كسرى وقد تذكر محبة حبيبته مهردكار وما هي عليه من الجمال والمودة والبهاء وما يعامله أبوها من الاحتقار وعدم المراعاة ونكران الجميل فعظم عليه الحال وضاق صدره من أجل ذلك وفكر أن الزمان لا يريد أن يعامله على الصفاء والمودة بل قصد له التشتيت والبعد عمن يحب فيخلصه من جهة ويذهب به إلى جهة ثانية ومهردكار من أجله على مقالي النار وتتحسر وتتحرق ولا تقدر أن تأتي بعمل ولذلك باح بما في ضميره فأنشد وقال :

يا قفر جهدك فاتسع بجهاتك ... فمتين عزمي ناهبا فلواتك
مهما اتسعت فانني ذو همة ... تبغي الوصول لمنتهى جنباتك
أرض الحجاز وطيب تربك إنني ... متشوق لك فارسلي نسماتك
ريح الحجاز عن الأحبة فاخبري ... فخواطري تهفو إلى خطراتك
وتحملي عنهم لذيذ حديثهم ... وزكى طيبهم على صفحاتك
وتشرفي من أرض مكة دائما ... فترابها مسك يعطر ذاتك
يا دار كسرى إن قلبي هائم ... وحنينه أبداً إلى عرصاتك
لي بالمدائن غادة عجمية ... ما ضى لواحظها بقلبي فاتك
هيفاء ناعمة الخدود جميلة ... يا قلب باهي في جمال فتاتك
هي بنت سعدي والكمال لها أب ... يا بدر فافخر فهي من أخواتك
راقت محاسنها ولأح جبينها ... كم اشرقت يا قصر في طاقاتك
نظرت لنحوي نظرة فتكت بها ... بحشاشتي أراه من نظراتك
يا بنت كسرى قد جبرت لكسر قلـ ... ـبي عندما أحيتنى حسناتك
جار العداة علي يا أخت المها ... لكنني سأبيدهم وحياتك

سأبيدهم طمعاً بأنهم إذا هلكوا قطفت الورد من وجناتك

وكان الأمير حمزة ينشد وزفراته تتصاعد وأعينه تدمع وكان سائراً إلى جانب الأمير معقل فعذره وقال له لابد ان الدهر يعترف بفضلك فيخدمك وتحيط السعادة لك من كل الجهات وتقضي هذه المصاعب فاصبر لنوال مرادك كيف لا وسيفك ثقيل وباعك طويل وأنت قادر على نوال كل أمر مهما كان صعباً وبين يديك فرسان وأبطال لو حملت بهم على الجبال لدكوها أو البحار لغوروها قال إني عرف بقوة سيفي أنال مرادي لكني لا أقدر أن أجرد هذا السيف لمثل هذه الغاية ولا أنال المراد إلا بالصبر إلى أن تفرغ جعبة صبري وإلا فما زلت أرى نفسي قادراً على الصبر فأتحمل كل عذاب بشكر ورضا ولا زالت العرب سائرة على ما تقدم إلى أن قربوا من سر نديب الهند ولم يبق بينهم وبينها إلا مسافة نصف يوم وكان الأمير حمزة ومعقل البهلوان يسيران في المقدمة لوحدهما وبين يديهما عمر العيار وفيما هما سائران إذ نظرا عن بعد فارساً بعيداً عنهما وبين يديه رجل بمسير الجواد فقال حمزة لعمر اذهب انظر هذا الفارس وائتنا منه بالخبر اليقين فانطلق عمر بأسرع من البرق وكان ذاك الفارس هو اندهوق ابن سعدون صاحب سر نديب الذي جاء حمزة من أجله وقد خرج مع عياره شيخان للصيد على حسب عادته وفيما هو سائر في البرية رأى الأمير حمزة رفيقه فقال لعياره إني مشتبه في حال هذين الفارسين فاني أراهما منفردين معهما راجل يسعى بأخف من الطير وهم يقصدون المدينة ورأيد منك ان تذهب حالاً اليهم وتستطلع على أحوالهم حتى إذا كانوا من الاعداء بادرت اليهم وأهلكتهم الكبير والصغير وفيماهما على مثل ذلك انفرد عمر العيار عن اخيه فقال اندهوق لا ريب انهم غرباء يجهلون امري ولذلك بعثوا بعيارهم نحوي فسر اليه واخبره بحالي وأمره ان يتقدم مني ويعرفني بصاحبيه ويشرح لي حالهما ومن أي البلاد هما فانطلق شيخان إلى ان التقى بعمر العيار فصاح به وقد استصغره بعينه عندما رآه أسود وتركيب جسمه اعجوبة وقال له ويلك يا ابن الزنا اخبرني من أنت ومن معك من أوباش الناس فعجل بالجواب قبل ان يصل اليك قضاء الله المنزل وغضبه المبرم اندهوق بن سعدون فتعود بالندم. فلم يجبه الأمير عمر بشيء بل رفسه برجله إلى الأرض ولف يده الواحدة إلى عنقه والثانية في اعالي رجليه ورفعه إلى فوق رأسه وعاد يعدو كالغزال حتى وصل الى بين يدي أخيه حمزة فألقى شيخان وقال له هاك يا أخي عيار اندهوق الذي أتينا بطلبه فاسأله ما شئت وما فعلت معه ذلك إلا لما أغاظ بالكلام فهو يستحق القتال. فقال له الأمير حمزة من الذي بعثك ومن هذا الفارس الذي كنت بين يديه قال هذا سيدي أندهوق بن سعدون صاحب سرنديب وقد خرج للصيد وفي أثناء ذلك بعثني لأكشف له خبركم لأنه تعجب من وجودكم وحدكم عليكم أدلة تدل بأنكم غرباء ولما وصلت إلى عياركم فعل بي ما فعل وما حسب حساب سيدي صاحب البلاد وفارس ميدان الطراد. فقال له حمزة لولم تطل عليه

الكلام لما فعل معك ما فعل والآن عد إلى مولاك فاننا لا نتعرض لك بأذى وأخبره أنا الأمير حمزة العرب بهلوان تحت كسرى أنوشروان وقد جئت بجماعة العرب من قبل الملك كسرى لأقبض عليه وآخذه أسيراً إلى المدائن وأخبره أن لابد لي من ذلك ومن الموافق له ان يسلم إلي بلا قتال ولا نزاع وينزع سلاحه فيرى مني خيراً وبعد أن أقدمه إلى كسرى اطلقه واخذه صديقاً وصاحباً فعاد لعيار شيحان وهو لا يصدق الخلاص من يدي عمر العيار وبقي سائراً حتى وصل الى بين يدي مولاه وشرح له كل ما تقدم وقال له اعلم يا سيدي أن هذا الأمير هو فارس ربة الحجاز وللشجاعة عليه دلائل وعلائم غير أنه مفتخر بنفسه متعاظم وقد قال لي أن أبلغك أن تسلم إليه أسيراً ليأخذك إلى بلاد كسرى مقيداً وهو لا يعلم من أنت ويجهل مقدار بسالتك فلما سمع اندهوق كلام عياره لم يهتم به وكانت قد وصلت إليه كتابة الوزير وعرف معنى إتيان الأمير حمزة ولذلك وقال لعياره عد بنا الآن إلى المدينة فما من رغبة بقتال حمزة لأنه لاجل عاشق رماه العشق بسهام صائبة فرمى بنفسه في المصاعب لنوال مراده ولابد من صرف الجهد قبل كل شيء إلى مسالمته لأنه يعبد الله عز وجل وما من عداوة بيننا .

ثم إنه رجع أندهوق إلى المدينة ودخلها ونام الملك الليلة الى الصباح وكان الأمير حمزة قد اجتمع بجماعته العرب فجاء بهم وضربوا خيامهم بالقرب من المدينة وانتظروا إلى الصباح كتب اندهوق كتاباً إلى الأمير حمزة يقول له فيه .

اعلم أيها الأمير أنك سلكت في الأعجام مسلك التطرف بالطاعة وحفظت لهم المودة والزمان مع أنك تعلم أنهم من الكفرة يعبدون النار ويتركون الله الواحد الجبار وتعلم أيضاً أنهم أعداء يقصدون لك الهلاك والوبال فما بعثوا بك إلي إلا انتقاماً منك وخباثة منهم ليرموا العداوة بين عبدة الله سبحانه وتعالى ولذلك لا أريد أن يقع مكدر بيني وبينك لا خوفاً من حسامك والسنان لأني اعرف مقدرتي وإني في كل ساعة أقدر أن أقبض عليك ولكن لما لم يكن بيني وبينك عداوة سابقة وكان كسرى ووزيره عاملان على هلاكك وظلمك قصدت ان ابين لك الصواب من عدمه واحذرك ان لا تخاطر بنفسك بل تأتي إلي وتتفق معي عليه فاني اسير وإياك إلى المدائن ونخرب بلاد كسرى وازوجك ببنته رغماً عنه وعن رجاله وإلا فانك نادم فيما بعد وهذا اعرضه من باب النصيحة والسلام .

فأخذ شيحان الكتاب وسار به الى الأمير حمزة ولما فتحه وقرأه وعرف ما به تأكد حسن طوية أندهوق ودخل في ذهنه أنه لابد للوزير بختك أن يكون قد كتب له كتاباً يخبره بواقعة الحال ويطلب إليه هلاكه إلا أنه وجد نفسه مضطراً إلى قتال اندهوق وأسره في ساحة الميدان وفاء لوعده في ديوان كسرى ولقسمه بأنه يأتي به أسيراً ذليلاً وذلك كتب له الجواب كما يأتي :

(من الأمير حمزة فارس برية الحجاز إلى اندهوق بن مسعود صاحب سرنديب) إني اعرف جيداً أن غاية الفرس وخيمة وأعمالهم خبيثة وانهم يكرهون رجال الله وعباده وأعرف أيضاً أن كسرى ما بعثني إليك إلا على أمل ان يهلكني في هذه البلاد غير إني أريد أن أبين له الصحيح من الباطل واظهر له أنه لو بعثني إلى اقاصي الأرض لعدت منصوراً ظافراً ولذلك تراني اطلب إليك عن غير إرادة مني أن تلاقيني في الغد إلى الميدان فيفصل بيننا عود الزان ولاخفاك إني أقسمت بالله في ديوان كسرى أن أدخلك عليه مقيداً ذليلاً هذا لا بد منه فإذا شئت أن تسلم إلي سلاحك وتعترف بشجاعتي وتعدني أنك حال وصولك إلى المدائن تسلمني نفسك فأقبض عليك وأدخلك على الحالة التي وعدت بها ومن ثم أطلقك وأجعلك من رجالي وأبطالي وإلا فما من وسيلة إلا بالحرب والنزال والسلام .

وبعد أن فرغ حمزة من الكتاب دفعه إلى شيحان ليوصله إلى سيده فأخذه ولما أوصله إليه وقرأه عرف أن الأمر لا يفصل إلا بالميدان وأن حمزة عاشق لا يرضى إلا بما في عقله . ولذلك جمع بعض رجاله وخرج بهم إلى ساحة القتال وهو على فيل أبيض من فيلة الهند وبيده عمد طويل كان يقاتل به وهو من الحديد يبلغ ثقله القنطار واسمه الكاؤوس ولما صاروا بالقرب من العرب ضربوا خيامهم تجاههم وعاد اندهوق إلى مراجعة الأمير ثانياً ليرجعه عن عزمه فلم يقبل معه بل تواعدا واعتمدا على البراز في اليوم القادم . وكان قد طلب معقل البهلوان من الأمير حمزة أن يسمح له بقتال اندهوق فقال هذا لا يمكن أبداً لأني اريد أن اقضي أمري بيدي ولا أريد أحداً منكم يسحب سيفاً ما زلت قادراً على البراز والنزال فالأمر يحتاج إليكم والقتال يحصر بيني وبين خصمي لا غير .

قال ولما اشرقت شمس اليوم الثاني وانقشعت الظلمة عن البسيطة هب الأمير حمزة من رقاده فعمد إلى الماء فغسل وجهه وصلى لله تعالى ثم جاء سلاحه فأفرغه عليه كاملاً وخرج من صيوانه فوجد أخاه عمر قد احضر الجواد الأصفران وقدمه ليركبه فركب وتقدم إلى ساحة النزال وركب الملك النعمان وأمر العربان وتقدموا من الساحة ليروا ويتفرجوا ما يكون بين حمزة وخصمه وفي ظنهم أنه سيقع بين الأثنين حرب عظيمة وفعل اندهوق بن سعدون مثلما فعل الأمير حمزة وتقدم من الساحة لملاقاة خصمه ومن خلفه رجاله وقد اوصاهم ان لا يبدي أحد منهم أحد منهم أمراً بل يقفون للفرجة إذ ليس القصد القتال بين عبدة الرحمن وفناء رجال الله بل وعدوعده الأمير حمزة وأقسم لأجله فيريد أن ينفذه وأنه لا يسلم نفسه إلا إذا كان مغلوباً وفي تلك الأثناء برز الأمير حمزة الى الوسط فصال وجال ولعب على أربعة أركان المجال حتى حارت به عقول الرجال. ثم وقف في المنتصف وصاح لبابراز ابن سعد سعدون فما انتهى من صياحه برز إليه وهو فوق فيله الأبيض وعلى عاتقه عمدة الكاؤوس وعند وصوله إلى أمامه حمل عليه بقلب أشد من الصوان فالتقاه بشديد عزم وقوة

جنان كما تلتقي الأرض الجافة وابل الفيضان واختلف بينهما الضراب والطعان . وانبعث منهما زئيراً كزئير أسوخفان وشخصت لنحوهما الأبطال والفرسان منتظرة ما يكون من أمرهما وما ينتهي إليه القتال . وداما على تلك الحال وهما على مثل تلك الحال حتى حجبهما الغبار . عن النواظر والأبصار وبالحقيقة أنهما كانا فارسين عظيمين وبطلين جسيمين . يندر وجود مثلهما في تلك الازمان . بين أبطاله والفرسان وبقيا على مثل هذا الشأن إلى أن أقبل الظلام بسواده . وولى النهار بجيوشه وأجناده فعند ذلك انفصلا دون أن يبلغ أحدهما الآخر مراداً أو ينال ما يتمناه وكان الأندهوق قبل أن يجرب نفسه مع الأمير يظن أنه لا يثبت أمامه باقي النهار حتى بارزه فعرف انه بحر ماله قرار. وقبان ماله عيار . قليل الأمثال بين الأبطال. وتأكد أنه لابد أن يقع في يده وينفذ غايته فيه ويأخذه أسيراً ويقوده أمام كسرى حقيراً وأما الأمير حمزة فانه مال إلى محبة أندهوق عندما تبين له أنه بطل صنديد قد تقلب على بساط البسالة فحفظ فروعها وأصولها وعول بعد أن يأسره يتخذه صديقاً له فيفتخر به على ملوك الزمان ويقدر أن يملك الدنيا برمتها إذا كان عنده مثل هؤلاء الفرسان.

ولما وصل كل واحد إلى أصحابه تلقوه بالاحضان وهنأوه بالعودة سالماً وسار الأندهوق إلى صيوانه فنزع عنه آلة الجلاد وقد اجتمع عنده جماعته فقال لهم إلي أقول لكم والحق يقال ان الأمير حمزة فارس صنديد وبطل مجيد وقد تبين لي في هذا اليوم أنه اسد كرار يزيدني الدرهم قنطار ولذلك أوصيكم أنه إذا قتلني ان تنضموا إليه وتدخلوا في حمايته وتتخذوه سيداً لكم لأنه يقدر ان يحفظكم من عبدة النار ومن غيره هذا إذا قدر المحال غير أني أعرف أنه لا يقصد قتلي وجل غايته أسرى والمسير بي إلى المدائن وهذا علي اصعب من القتل من ان يراني ملك الفرس مقيداً بين يديه ذليلاً فقال له قومه دعنا نحمل نحن بأجمعنا فينتشب القتال ولابد إذ ذاك من وقوع طعن وضرب فنحط كلنا على الأمير ولابد أنه يغلب بالكثرة فقال لهم انكم بذلك لا تفوزون بالمطلوب على ان غاية كل واحد منا حجب أدمية عباد الله وسنرى ما يكون في الغد وأمر الله لابد منه . فهذا ما كان منه وأما ما كان من الأمير حمزة وقومه فانهم في المساء جاءوا إليه وقال له الملك النعمان كنا قبل أن بارزت ابن سعدون نخاف عليك منه إلى أن ظهر لنا انكما كفتان ميزان غير أن الإنسان لا يعرف ما يكون له من حوادث الزمان فدفعا للخطر وحفظا لراحتك نطلب إليك ان تدع معقل البهلوان ان يقاتل اندهوق في اليوم الآتي وكن أنت مرتاحاً وبذلك نأمن عليك . قال هذا لا اريده ابداً نعم إني اعرف أن خصمي هذا بطل صنديد وفارس شديد لا يوجد له ثان في هذه الأيام إلا إني اعرف لا أكون مغلوباً معه ولابد لي من أسره كيف كان الحال وأما قولك إني اسمح لمعقل بقتاله فذلك غير المقصود لأني جئت لاجله ولهذا السبب لا يكون غيري الفائز ويقول كسرى إنك ما اسرته إلا بعد ما استعنت عليه بجماعتك .

وفي اليوم التالي خرج الأمير من صيوانه وركب على جواده وخرج إلى ساحة القتال كاليوم الأول فوجد اندهوق قد ركب أيضاً وجاء بجماعته إلى الساحة وهو قائم على انتظار وحالما وقت العين على العين اشتبك القتال بين الإثنين فصاحا وهجما وتضاربا والتطما وهمهما ودمدما وابديا من فنون القتال ما تعجز عنه صناديد الأبطال وتشيب لهوله الأطفال . وهما تارة يفترقان وطوراً يجتمعان إلى أن قرب الزوال فافترقا على أمان ورجع كل إنسان إلى خيامه ونام تلك الليلة وفي اليوم الثالث عادا إلى الساحة . قال صاحب الحديث واتصلت الحرب بين الأمير حمزة وخصمه اندهوق مدة ثلاثين يوماً على التمام دون أن يبلغ احدهما من الآخر مراداً أو ينال مراماً فضجرت لذلك روع حمزة ورأى ان الوقت قد طال عليه وهو يحاول اسر خصمه دون الوصول الى نتيجة أو جدى ولذلك قال لجماعته في اليوم الأخير اني في هذا اليوم لا بد لي من فصل الحال على أي منوال كان لأن كسرى يظن أننا هلكنا وانقرضنا ويزين له بختك طرق المجال فيزوج بنته ويعود الأمر علينا بالوبال ومثل ذلك قال اندهوق لرجاله لقد سئمت نفسي من قتال الأمير حمزة وأريد أن أجعل هذا اليوم هو الأخير بيني وبين خصمي فلا أرجع عن القتال إلا بعد نهاية العمل وأسلم اليه واتخلص من عذاب القتال وبعد ذلك برز الاثنان إلى ساحة الميدان والتقيا كأنهما فرخاجان . أو عفريتان عن عفاريت السيد سليمان وقد اشهر كل منهما الحسام وانحط على خصمه انحطاط الصواعق وأخذ في العراك والصدام : والافتراق والالتحام : والمحاولة والاهتمام : تارة يكونان باليمين وطوراً باليسار : لا يأخذهما هدوء ولا اصطبار ولا يقر لهما قراراً وقد ارتفع فوقهما الغبار . ودارت به الارياح كالتيار : فتكاثف فوق رؤوسهما حتى احتجبا عن الأبصار : وغابا عن الانظار وكشفا ما للقال من الأسرار وزاحا عن وجه النزال الأستار فتقدمت رجالهما إلى أمامهما ودارت من حواليهما كل منهم يريد أن يعرف ما يحل على فارسه وما يكون من أمروهما على أشد حرب وقتال وأعظم ضرب ونزال حتى فقد منهما الصبر وأخذهما الملل وضاقت أرواحهما من ذاك العمل وكل واحد يضايق الآخر اشد مضايقة ويلاصقه أشد ملاصقة وعند ذلك صاح اندهوق مهلاً يا فارس هذا الزمان إني أرى أن الحرب بيننا على ظهر الخيول مدتها تطول فهل لك ان تقاتل على وجه الأرض لأنها اثبت تحت أرجلنا ويتمكن الفارس منا من الآخر إذا كان قريباً منه قال اليوم يوم الانفصال فأجاب الامير حمزة أفعل ما بدا لك فإني عزمت في هذا اليوم أن لا أعود إلا وأنت معي ثم ان اندهوق قمز عن ظهر الجواد إلى وجه الأرض فعمل الأمير كعمله وأخذا في القتال والمناضلة والجدال كأنهما اسود الدحال مقدار ساعات من الزمان حتى كاد يقرب الزوال وإذا ذاك رمى كل واحد سيفه وطارقته الى ناحية وهجما إلى بعضهما بالأيدي ولم يعد يأخذهما صر ولا توان فتصارعا وحاول كل منهما أن يرمي خصمه إلى الأرض وكانا كجبلين راسيين مدة نصف ساعة حتى تمكر اندهوق من وسط

الأمير حمزة فظن أنه ينال منه المراد فصاح صيحة عظيمة وانتشل الامير إلى جهة صدره وعمد ان يقيمه الى فوق رأسه فوجده لا يتحرك وقد أثبت رجليه بالأرض كأنها قطعة كبيرة من الحديد لا تتحرك فتكدر حمزة من عمله هذا وشده إليه بكل ما أعطاه الله من العزم والقوى فوقع الاثنان الى الأرض فوق الأمير الاندهوق فتجاول وإياه وهو قابض عليه لا يتركه حتى زهقت روحه ورأى من نفسه العجز وشاهد أن يد الأمير قوية لا تدفع فترك نفسه وصاح الامان يا سيد الابطال والفرسان فإني عتيق سيفك على طول الزمان وأشهد أنك واحد العصر والأوان وها إني قد سلمت نفسي اليك وألقيت بكل رجائي عليك فإن أبقيتني فلك الخيار وإن تركتني فأنت الملك المتصرف وقد دخلت منذ هذه الساعة في جملة رجالك فلما سمع حمزة كلامه تركه إلى أن استوى واقفاً فدنا منه وقبله بين عينيه وقال له مثلك لا يذل ولا يهان ولكنني الوم الايام والازمان وألعن بختك وكسرى أنوشروان حيث أجبراني بكلامهما على القسم والحلفان فأنت من هذه الساعة أخي وأعاهدك على الاخاء والمروءة والوفاء فقبله اندهوق وقد امتلأ قلبه فرحاً بمحبة الأمير وصحبته وسر سروراً عظيماً وصافحه قال ومنذ ذاك الوقت أصبح أندهوق بن سعدون صاحب سرنديب صديقاً صدقا في خدمة الأمير حمزة ومحبته ويبقى معه امد طويل أما الملك النعمان وجماعته وجماعة الأمير فإنهم اختلطوا ببعضهم البعض وصافح كل منهم الآخر وسلموا على الأمير حمزة وساروا إلى خيام الملك النعمان فأقاموا ريثما استراحوا وهم مسرورون بهذه المصالحة وقد تأكدوا ان العداوة قد مضت وقربت مدة رجوعهم إلى الاندهوق ومن ثم احضر الطعام فأكل الاندهوق وجماعته على مائدة النعمان وثبتت بينهما المودة اكثر فأكثر بعد ان انقضت السهرة نهض اندهوق واستأذن بالذهاب وطلب إلى الأمير حمزة وجماعته ان يكونوا في ضيافته مدة اقامتهم في المدينة وأن يدخلوا في الغد إليها فأجابه الامير الى طلبه ووعده انه يقيم في المدينة مدة ثلاثة أيام حيث يرغب في سرعة العودة واكثر من هذه المدة لا يقدر أن يتعوق .

ثم إن اندهوق سار من عند العرب إلى المدينة فوجد أهلها قد أقفلوا الابواب وأقاموا على الاسوار يهيئون انفسهم ويستعدون للقتال فصاح بهم وطلب إليهم أن يفتحوا الابواب ففتحوا له ودخلوا مع جماعته الذين كانوا معه فقال لهم لم هذا العمل كيف أقفلتم الابواب قالوا عرفنا مؤكداً إنك وقعت في قبضة الأمير فثبت عندنا انه بعد ذلك لا بد أن يتقدم من المدينة ليدخلها ويمتلكها فعزمنا على الدفاع والقتال فنحاصر ولا نسلم خوفاً من العرب فقال لهم لا حاجة إلى ذلك لأن العرب ما جاءوا هذه البلاد الا من أجلي فقط وقد وقعت بأيديهم وما من حاجة لهم بالمدينة ثم أعاد عليهم ما هو وقع بين الأمير حمزة والملك كسرى وما هو السبب الذي دعاه للاتيان وقال لهم أخيراً أن العرب أصحاب مروءة ومودة يكرهون الغدر ويسلكون مسالك الآداب فلا على احد منكم وأنا أخبركم أني منذ الآن من رجال الأمير حمزة

لا أرغب أن أفارقه حتى الممات فمن كان مثل هذا الامير يحب ويكرم ويخدم على الرأس قبل العيون قالوا له اننا نسير اينما سرت ولا نخالف لك أمراً ولا نطيق فراقك . قال من كان منكم من أصحاب البيوت والعيال فيبقى في المدينة وأقيم حاكماً عليكم منكم . وأخذ الامير منذ تلك الساعة بتدبير امره ليقوم بضيافة العرب وإكرامهم . وفي صباح اليوم الثاني نهض الأمير حمزة واختار سادات قومه وساروا المدينة إلى جهة لزيارة اندهوق فوجدوه قد خرج بقومه لملتقاهم وهو ينتظرهم خارج الأبواب فترحب به وسلم أهل سرنديب على الأمير وسادات قومه وأدخلوهم المدينة باحتفال وتبجيل وعملوا لهم الولائم والدعوات وزادوا بإكرامهم ووقع الحب والوفاق بين الأمير حمزة واندهوق وتعاهدا على الإخاء وأن يكون كل واحد منهما سنداً للآخر ولا يفترقان حتى الممات وجاء اندهوق بكتابة كسرى فسلمها إلى الأمير وقال له إن هذه وصلتني مع رسول مخصوص من بختك بن قرقيش وإني أخبرك أنه ما زال هذا الرجل الخبيث حياًلاً يمكن أن تتزوج ببنت كسرى أو نصل اليها فإنه يختلق الموانع من تحت المجداف وكسرى يطيعه على إرادته ويكرمه ويراعي جانبه . قال إني أعرف ذلك وأن كل عذابي هو من بختك الخبيث غير إني أرى أن الوقت لم يحن بعد لهلاكه ولا أعرف ما يكون من أمري وأمر الأعجام فإني أرى نفسي وعقلي متفقان على قيام الحرب معهم والايقاع بهم وأخذ مهردكار بحد الصارم البتار غير أن قلبي يمانع ويدافع ويخاف على قلب مهردكار أن يسود أو يلحق به كدر بسببي ومن الواجب علي أن أتربص إلى أن يأتي الزمان الموافق واتوقع الفرص المناسبة والآن أريد منك تكون حاضراً لتسير بعد يومين قال إني أهيىء عساكري ورجالي في هذين اليومين وتراني انتظر أمرك على الدوام ولا زال الأمير عند اندهوق على الاكرام إلى أن انقضت المدة وبعد ذلك أمر الأمير سادات العرب ان تذهب إلى رجالها فتأمرها بالركوب وركب هو على جواده الاصفران وركب معقل البهلوان واصفران الدربندي والأمير عقيل وركب اندهوق برجاله وعظماء قومه وعساكره وخدمه وكل ما يحتاجونه من المؤ ن والذخائر والأمتعة وأقلعوا عن تلك البلاد العرب أقلعت ورفعت خيامها وأحمالها على ظهور الجمال وساروا عن تلك الأرض بجيش عظيم المقدار قد ملأ البراري والقفار يبلغ عدده مائتا الف فارس وبطل تحت راية الأمير حمزة البهلوان وبين يديه من الأبطال الجبابرة ما يندر وجود مثلهم ذاك الزمان حتى اصبح كأكبر الملوك عظمة وافتخاراً وشأناً وأجناداً وأعواناً وهو مسرور بنفسه وبرجوعه إلى المدائن على أمل أنه بعد أيام قليلة سيصادف الملك كسرى ويشاهد حبيبته ولا ريب أنها تطير فرحاً إذا بلغها أنه عاد بهذا الموكب العظيم وقد أسر اندهوق وجاء به وافياً وعده لأبيها ولا زالوا سائرين مدة أيام حتى وصلوا إلى الوادي الذين كانوا قبلاً فنزلوا فيه للراحة وضربوا الخيام وأقاموا هناك مدة ثلاثة أيام وقد زار الأمير رجال الصومعة وسلم عليهم وطلب دعاهم وبعد ذلك ركب وسار من هناك قاصداً المدائن وملاقاة

كسرى أنوشروان .

قال فهذا ما كان من هؤلاء وأما ما كان من كسرى فإنه أقام في بلاده على حسب عادته وفي كل يوم يجتمع بوزيره بختك ويتحادث وإياه بخصوص العرب فيقول له بختك إن هذه المرة هي الأخيرة وقد انتهت أيام حمزة ومضى ما كنا نخشاه وإني أضمن لك هذا الأمر ان اندهوق بن سعدون لا يبقي أحداً من العربان ولا بد من قتل حمزة كيف كان الحال ولما طالت المدة قال له ألم أقل لك أن مدة العرب قد فرغت من بلادنا وارتحنا من أمرهم وصار من اللازم أن نهتم بأمر بنتك فتزوجها لأمير من عائلتك يليق بها قال إني لا أفعل هذا إلا بعد أن أتأكد حق التأكيد موت حمزة والا ما زال موجود إلا أفعله لأنه فارس صنديد فأجر على بلادي ويلاً عظيماً وبلاء جسيماً وارمي جمرة الحرب بين العرب والعجم فمن الصواب أن نصبر مدة سنة فإذا لم يظهر عنه خبر تأكدنا موته أو جاءنا أحد فأخبرنا به وكان كسرى لحظ من بنته ميلها إلى حمزة ومحبتها له فكتم ذلك ولم يهن عليه غير أنه رأى أن معاملتها باللين والرفق والتغاضي عن معرفته نحتها أوفق له نظراً لحبه وقال في نفسه متى عرفت بموت حمزة لا تعود تفكر به أو تميل اليه وما مالت اليه إلا على السماع لأنها لم تره ولا اجتمعت به وأقام يترقب الأخبار من جهة الأمير عسى أن يخبر إلى ان كان ذات يوم وهو جالس في ديوانه وإلى جانبه الأيمن الوزير بختك بن قرقيش وإلى جانبه اليسار بزرجمهر ومن ثم رجال ديوانه من أمراء الفرس وأعيانها والناس تأتي لقضاء مصالحها وإذ قد لاحت منه التفاتة إلى جهة باب الإيوان فرأى رجل يقلب الهواء كالدولاب وهو يصفق بيده ويغني بلسانه حتى إذا وصل إلى باب الديوان صاح بصوت رقيق أكد أيها الملك العظيم إني أخو حمزة البهلوان فارس برية الحجاز ومبيد الطغاة في يوم البراز ومن خدمته السعادة والاقبال وانقادت اليه الكرامة بيد العزيز المتعال قد عاد فائزاً منصوراً محموداً مشكوراً بعد ان بلغ الآمال وتوفق بعنايته تعالى على اتم منوال وبين يديه نحو مائتا فارس مختلفي الاجناس من عرب وهنود وغير ذلك وقد عاد معه اندهوق بن سعدون بعد أن أخذه أسيراً في ساحة الميدان ليقدمه اليك على ما وعد وينال منك الوفاء وما أمل فادفع إلي بشارتي لأرجع بالحال .

ثم تقدم من كسرى وناوله كتاباً من أخيه حمزة وكان هذا الرجل هو عمر العيار وقد بعثه حمزة بكتاب ليعلم الملك كسرى بقدومه قبل وصوله كيداً لأعدائه اللئام قال وكان عمر يتكلم والملك وجميع الحاضرين سكوت لا أحد منهم يبدي حركة أو صوتاً وقد جمعت الحملة والخوف على بختك وانفطرت مرارته وضاع عقله وغاب وعيه وكاد يقع إلى الأرض من عظم ما لحق به فتمسك بالكرسي الجالس عليه وقد لحظ منه ذلك كل الحاضرين ومضى عليه نحو ربع ساعة على مثل ذلك إلى أن قدر أن يسكن روعه ويتخلد ويظهر خلاف ما اضمر ولهذا السبب ناول كسرى الكتاب إلى بزرجمهر ليقرأه ففضه وقرأه بصوت عال فصيح وهو

يقصد قهر عدو حمزة وكيده وإذا به (من الأمير حمزة بهلوان تخت فارس بلاد العرب ومبيد اهل الكفر والكير الى عمه كسرى انوشروان سلطان الاعجام والعربان) .

« طرقت سرنديب وأنا أحمل راية اعطيت لي من الله وهي راية النصر والتوفيق فلا أخاف عدواً ولا أخشى ضراً وأرعى كل صديق صدوق واحفظ مودة من يودوني كما اني لا أترك مجازاة من يرغب في ضرري ويقصد لي الشر والعذاب ولما حاربت اندهوق وجدته بالحقيقة فارساً نادر المثال لا مثيل له بين الرجال والأبطال فنازلته ونازلني عدة أيام إلى أن ذل أخيراً بين يدي وعلم من نفسه أنه مغلوب فسلم إلي نفسه أسيراً لأقدمه وفاء بوعدي بعد أن طلب إلي أن يكون في خدمتي وبين رجالي ويقاتل بين يدي كل عمره وقد ترك بلاده وملكه وجاء برجاله وفرسانه الاخصاء منضماً إلى العرب وبعد قليل تراه في ديوانك يؤدي لك فروض الخدمة والطاعة وعلى هذا أراي أن من سعادتي وحسن حظي مسيري إلى سرنديب فكان ذلك نافعاً لي لا مضراً كما فكر أخصامي وأعدائي فجاء الأمر على خلاف ما أضمروا فاشكر الله ربي وإلهي الذي لا يتركني لأقيم دينه بأسنة السيوف الحداد وأطلب إليك أن تكون حكيماً عارفاً لاحبائك من اعدائك وعالماً متملقيك من نصحائك وأكد اني أحافظ على طاعتك إلى الحد الأخير على أمل أن تعي إلى صدق خدمتي فتعرف ما أنا عليه من الرغبة في التقرب منك والسلام » .

ففعل هذا المكتوب في قلب بختك أشد من فعل خبر الأمير عمر وتمزقت احشاؤه إلا أنه تجلد وقال الحمد لله الذي رجع حمزة ونال السعادة والتوفيق وأني مسرور الآن بإتيانه حيث قد أخلصت له الود وعرفت عن يقين أنه موفق وأنه يستحق أن يكون بهلوان تخت بلاد فارس وحاكم على كل البلاد وسوف يكون من أمره عجيباً ثم إن كسرى أمر أن يدفع إلى عمر ألف دينار جزاء له على بشارته إياه غير أنه كان متكدر في قلبه حزناً عارفاً أن حمزة لا بد له من أن يأخذ بنته وبختك مصر على عداوته ويرى نفسه مضطراً إلى مجازاة الاثنين لا يقدر على منع احد منهما ولا يقدر على مصالحتهما والوفاق بينهما .

قال وانتشر الخبر بمجيء الأمير حمزة فوصل إلى مهردكار فسرت سروراً عظيماً ووقفت في الشباك إلى أن نظرت الأمير عمر العيار خارجاً من الديوان فتأكدت الخبر وأشار لها بالسلام وأن أخاه جاء مكللاً بالظفر والنجاح فزادها سروراً وابتهاجاً وأصبحت لا تدري ما تقول وعرفت أن الله لا يرضى بدوام عذابها وعذاب الأمير حمزة بل يرعى جانبه ويعمل على توفيقه فإذا اشغله بحاجة كانت لخير لا لشر فتعود عليه بالنفع والسعادة وأقامت فرحة تهنىء قلبها ونفسها بقرب النظر إلى محبوبها الذي كان بعد عنها مدة غير قليلة وهو في مقاساة أسفار ومشقات وهي قلقة الأفكار من أجله مشغلة البال تنام على البكاء والنوح تندب الاشعار

وتذم الادهار وتجلس في الصباح تسأل الأرياح وتستخبر منها بالافصاح ولما اطمأن بالها أنشدت :

أهـــلاً بمعتــل النسيم ومــرحبــاً ومـذكري عهـد الصبابـة والصبـا
حمـل التحيـة من اهيــل المنحنى وأبــان عنهم بــالمقــال واعــربــا
فـعــرفت عــرفـهـم بـه لـكـنـني أنكـرت صبـراً عن عهــود نكبـا
يـا عاذلي كن عـاذري في حبهم لم ألق للسـلوان عنهـم مـذهبـا
لا تلح فيهم بعد ما إلف الضنا يجـد الغـرام بهم لـذيـذاً طيبـا
غبتم وأنتـم حـاضـرون بمهجتي فبمهجـتي أفـدي الحضـور الغيبـا

وأنشدت أيضاً :

يـا زائـزا جعـل الـدجنـة مـركبـا أهـلا على رغـم الـوشاة ومـرحبـا
أمط اللثـام القـد بــردك يتضـح هو نور عطف كالصباح وكالصبـا
وافــتر مبتســاً فــدمعي ضــامن أن لا يكـون بريق ثغـرك خلبـا
فــأدر عـــلى شيبــه ثغــرك رقــة تهـدي الى شـذاً كعـرفـك طيبــا
صـهبــاءكـم نهبت نهى وصـــانـــة منـــا وأعــطت صبــوة وتــرطبـا

ودامت في مدحها مدة ساعة تدور في قصرها وتصفق من فرحها وتبشر جدران قصرها بقدوم حبيبها وترجع إلى الشباك فتنظر فيه متأملة الطريق التي يأتي منها ومطرقة إلى الأرض التي كان يمشي عليها حين إتيانه إلى أبيها والتي سيدوسها قريباً فكأن لسان حالها كان يقول له بشرى لك أيها التراب فإنك عرضة لموطىء أقدام أحسن الناس عندي وأحبهم إلي فإني أحسدك على ذلك غير أن مهردكار بينما هي على مثل هذه الأفراح والمسرات طرق ذهنها أن أباها وبختك لا بد أن يتفقا مرة ثانية على هلاك حمزة فيرسلانه إلى مهلك عظيم وبلاد أبعد من بلاد سرنديب فلا يكون قدُ تقرب منها ونالت مرادها وهذا الخاطر اشغلها وأقلق فكرها وبدل تلك الافراح بالاضطراب فكأن قلبها اخبرها بوقوع جادث جديد لا بد منه وسيكون سفره طويلاً وعذابه أطول ولا تعرف أيتخلص منه أم لا فأرسلت دموعها على خدودها وهي محيرة الأفكار لا تعرف أتفرح لقرب نظرها لحبيبها أو تبكي احتراساً من وقوع أمر أعظم من سفر سرنديب غير أنها استجمعت كل قواها وقالت في نفسها مالك يا مهردكار لا تقدرين على معاندة الزمان فتسلمين بنفسك الى أهواء الحوادث والأفكار فتتلاعب بك من يد إلى أخرى وأنت غير قادرة على الدفاع . نعم إني غير قادرة على الدفاع عن نفسي بنفسي لكني أعرف كيف يجب ان يكون ثابت الجأش الذي يقف في وجه الحوادث ولذلك سأدعو إلى حبيبي حمزة في المرة وادعه أن يتسبب بالوصول إليّ مرة ثانية فأجتمع به وأخابره في شأن

حياتنا وإذا كان الأعداء يضمرون له شراً فهو قادر على التخلص منهم وموتهم وقلع آثارهم من هذه الدنيا وبعد ذلك يعيش طيب البال ويصفو لي وبه الزمان . ولما قوي في رأسها هذا الخاطر وطدت العزم عليه ونوت أنه إذا أجاب أبوها طلب حمزة في هذه المرة واهتم بأمر الزفاف كان خيراً وإلا سألت حمزة أن يقتل بختك ويذل أبيها ويأخذها بالرغم من كل عدو وكان الحب العجيب والغرام القتال الذي كانت عليه يزين لها أن الموت والعذاب والإهانة والذل لا تحسب بشيء بالنسبة إلى تلك السعادة التي تعد نفسها على الدوام وتطلبها من الله سبحانه وتعالى وكان حالها من هذا الوجه كحال فتاة أحبت حباً عظيماً ثابتاً وتأملت أملاً وطيداً بأنها ستكون زوجة لمن أحبته وتصرف أيامها معه على الهناء ولذة المعيشة غير أن هذا الأمل لا تلبث أن تظهر نتيجته أما تحقق آمالها فتصادف ما كانت ترجو ويطيب لها معاشرة ذاك الزوج ودواء القرب منه وتزداد المحبة من جرى حلاوة تلك العيشة وأما بعكس ذلك أي أنه تخيب تلك الآمال وتصادف الفتاة عذاب المعيشة وكدر المعاملة ويضعف ذلك الحب تدريجاً إلا أن يصير بغضاً .

فهذا ما كان من مهردكار وأما ما كان من الأمير حمزة فإنه لما قرب إلى المدائن بعث بكتاب إلى الملك كسرى مع عياره عمر كما تقدم الكلام فلما رجع إليه أخبره بما كان وما سمع وبقي سائراً حتى وصل إلى المكان الذي كان العرب به قبلاً فأمر جيوشه أن تضرب خيامها كل فئة في جهة على حدة فانتشروا في تلك النواحي انتشار النجوم في السماء وضربوا خيامهم ونزلوا فيها وسرحوا خيولهم وكان الأعجام قد خرج منهم كثيراً نساء ورجالاً للفرجة عليهم وقد تعجبوا منهم ومن انتظامهم وآدابهم وتربيتهم ونظروا إلى اندهوق وهو على فيله الأبيض كأنه الأسد الضرغام وصرفوا ذاك النهار في الخيام للراحة والمنام وفي صباح اليوم الثاني دعا الأمير حمزة إليه أندهوق بن سعدون وقال له أنت تعلم انني يا أخي ماسرت إلى بلادك إلا لأجل غاية واحدة وهي الإتيان بك إلى ديوان كسرى والآن قد وصلنا إلى المدائن ومرادنا في هذا اليوم أن تدخل على الديوان وحيث قد سبق مني يميناً أريد منك أن تسلم إليّ نفسك فأقيدك وأذهب بك فقط إلى كسرى ومن ثم أطلقك . قال إني أسلم إليك نفسي عن رضا وان كان يصعب علي أن أكون مقيداً في محفل كديوان الملك كسرى مع اني لم أذل زماني قط ولا أرضى أن أكون مقهوراً مع غيرك . فأمر الأمير حمزة أخاه عمر أن يربط يدي الاندهوق ويقيده كما لو كان أسيراً عنده وعدواً عاملاً على عناده فعل عمر حالاً وربط اندهوق وركب الأمير حمزة على أصفرانه وسار مع الملك النعمان ومعقل البهلوان وباقي الأبطال والفرسان وقد سحب عمر من خلفه اندهوق ماشياً وقاد الفيل الذي يركب عليه إلى جانبه لعله في حال رجوعه سيكون عظيماً مكرماً لا أسيراً ذليلاً كما أدخل وداموا في مسيرهم إلى أن دخلوا باب المدينة والناس عليها أفواجاً أفواجاً يزدحمون للفرجة على الأمير وأسيره

ومن معه وكانوا يطلبون أن يروا أندهوق حيث كانوا يسمعون بصيته وحديثه وشدة بسالته وإقدامه ولما وصل الأمير تحت قصر مهردكار أرسل نظره إلى فوق فوجد محبوبته قد برزت في شباكها كأنها البدر المضيء وقد تزينت بأفخر زينها وتحلت بأبدع حلاها ولبست تاجاً كسروياً من الجواهر والياقوت وحلة مزركشة من الديباج الأحمر اللازوردي مما زادها حسناً وجمالاً وأصبحت كما قيل فيه :

تمسك أنف وجنتها	فأرغم أنف عذالي
وماس قضيت قامتها	فغرد طير بلبالي
فرمت تمسكا منه	فقالت بل باذيالي
تؤيد أمر حاجبها	بماضي الفعل في الحال
تقول لمن يشبه بالـ	ـهلال جبينها العالي
أسأت وما استحيت وهل	يساوي نصف خلخالي

أو كما يأتي :

أجال الصدغ فوق الخد ليله	وجر على محيا الشمس ذيله
وميلت المحاسن غصن بان	يميل بها الحشا فالذ ميله
وأمر قيصر الا لحاظ قلبي	وقد سل الظبى وتجال خيله
وهب هوى الوشاح فسال دمعي	وانعم في مجاري الخد سيله

فلما رآها الأمير حمزة على تلك الحالة كاد يطير عقله ولم يع على من معه ومن حواليه فأطلق لجواده العنان في ذاك الميدان ولعب على جواده الأصفران على الأربعة أركان ثم أشار إليها بالسلام والناس تنظر وترى حتى ظهر الأمر وبان وعرف الجميع أن بينهما مودة وصحبة قلوب وائتلاف خواطر ولا سيما عندما أجابته على سلامه بإشارة ظاهرة وهي مدلاة من الشباك منعطفة القلب والعقل أنظارها لا تفارقه كيفما سار وكيف مال كأنها لا ترى أحد غيره في تلك الناحية ومن ثم نزل الأمير طائر القلب والفؤاد وفي عهده أنه ملك الدنيا بأسرها طولاً وعرضاً حيث رأى من هي عنده أغلى من الدنيا وأحب لديه مما فيها وكان ديوان كسرى مزدحماً بالأعيان والأمراء فلما وصل الأمير وقف له الجميع وكان عمر قد وصل بأندهوق ودخل به أمام أخيه وهو يحجل بقيوده كأنه الأسد الكاسر ودنا حمزة أولا من كسرى وسلم عليه وقبل يديه وقال له بواسطة الترجمان لقد عدت يا سيدي منصوراً بسيفك غالباً بجاهك وصيتك وها إن الرجل الذي بعثتني لأحضره إليك قد حضر على الحالة التي أقسمت أن أحضره بين يديك فيها ولا سيما محبة بزرجمهر فانه قبل يديه واستمد رضاه فدعا له وسلم أيضاً على بختك حياء من الحضور وتأدباً منه . وبعد أن استقر به

المقام قال بختك لكسرى ها نذا يا سيدي قد حضر عدوك صاحب سنديب الذي طالما تمنيت وقوعه في يدك ومن الواجب أن تنتقم منه غير أني أرى من الصواب أن تشمله بعفوك إكراماً لخاطره وخاطر الأمير حمزة فقال كسرى ليس هو بعدونا غير أن بعض المفسدين أخبرنا أن عينه طمحت إلى التعدي على ملكنا وما ذلك إلا من قبيل الكذب والافساد والآن آمره يعود إلى خاطر الأمير فماذا يريد أن يفعل به فليفعل لأنه أسيره . ثم إن الملك سأل حمزة عن أندهوق وقال له ماذا ترغب أن يكون أمره . قال إنه أصبح من رجالنا وأبطالنا خدمة الدولة الكسروية وصار من اللازم مراعاته والاهتمام بأمره والاعتناء به وأريد منك أن تأمر باطلاقه وتنعم عليه بخلعة سنية فاخرة تليق بشأنه لكونه من الملوك العظام والفرسان الكرام أصحاب البطش والاقدام الذين يندر وجودهم في مثل هذه الأيام وبعد ذلك نهض الأمير حمزة إلى اندهوق فحل وثاقه وقبله بين عينيه وفي عارضه وقال له لا كان يوماً أراك فيه مهاناً فقد انقضى الأمر وتم الوفاء فقبله أندهوق وقال له اني أرى الذل عزاً إذا كان منك وبأمرك وما الموت إلا سعادة كبرى إذا كنت أنت مصدره .

ولما أطلق أندهوق تقدم من كسرى وقبل يديه وقدم له طاعته وشكره وأمر أن تخلع عليه خلعة كسروية من الديباج والاطلس مرصعة باللؤلؤ تلبسها الملوك في وقت أعيادها وعين له كرسياً في ديوانه بجانب الأمير حمزة ومن ثم أمر أن يقدم لهم الشراب حسب العادة وأن تدار عليهم فناجين القهوة وبعد أن انتهوا طلب كسرى من الأمير أن يشرح له ما لاقى في سفرته إلى حين عودته فحكى له كل ما وقع له من النجاح والتوفيق وكيف حارب اندهوق ونال الفوز في الميدان وكيف تصاحبا وتعاهدا على المودة طول العمر فعلم كسرى أن حمزة رجل مسعود وشأنه سيتعالى يوماً بعد يوم ولذلك قال له إني أرى الأيام مقبلة لنحوك والسعادة توافيك شيئاً فشيئاً . كنت في الأصل وحيداً والآن أصبحت كالملك العظيم ولديك من الفرسان والأبطال والجيوش ما لا يوجد إلا عند الملوك الكبار فقال بختك إن سبب فوز الأمير حمزة نحن ومن الواجب عليه أن يعرف ويعترف أننا مخلصون له الوفاء في صالحه أرسلناه إلى قلعة تيزان فتوافق معقل البهلوان واتخذه له ساعداً وصار من رجاله وانضم إلى العرب مع قومه فكان ذلك من الخير له ولنا حيث قد صار من أهل ديواننا بعد أن كان عاص علينا ومثل ذلك وقع له في سرنديب مع أندهوق بن سعدون ولا ريب أنه بواسطتنا واهتمامنا سيجتمع بكثير من الناس فيكون له بينهم شأن عظيم وإني أطلب من النار أن تساعده ليصير أحب ما نشتهي ونريد .

قال وبعد أن صرف الأمير وجماعته باقي النهار في خدمة الملك الكسرى وفي ضيافته ودعه وخرج بجماعته من الديوان وركب اندهوق على فيله والناس تتفرج عليه ويتعجبون من شجاعة الأمير حمزة كيف قدر أن يذل مثل هذا البطل العظيم وأما الأمير فإنه نظر إلى

مهرد كار كعادته مودعاً إياها إلى الصباح وبقي سائراً إلى الخيام وقلبه مملوء من الفرح حيث قد نظر إلى محبوبته فوجدها على ما هي عليه من ازدياد الحب والشغف ولما انتهى إلى صيوانه اجتمع بأخيه عمر فقال له أما رأيت كلام الوزير بختك وعلى ظني أنه يسعى بتدبير طريقة أخرى يرسلنا إليها على زعم أنه يقصد بذلك صالحنا ونفعنا والخير لنا مع أنه يريد هلاكنا ويرغب فيه ويتمنى أن لا يرانا فيها بعد . قال عمر إني كنت عزمت على أن أرسل إلى صدره نبلة فأقتله وماذا يا ترى يجري إذا فعلت ذلك غير أن كسرى يغضب ثم يعود فيرضى قال لو فعلت ذلك لكنت أغضبتني لأني أعرف أن هذا العمل يفصم حبل المودة بين العرب والعجم ونلتزم أن نحاربهم لأن بختك مرفوع المقام بين الفرس معدود الخاطر لا يوجد له ثان عندهم فمن بعد كسرى هو بالمنزلة الأولى . نعم إني أعرف أن لا بد من قتل بختك ومحاربة الأعجام غير أني أرى الزمان الموافق لهذا العمل لم يحن بعد فإني أرى نفسي محتاجاً لأن أكون مسالما لهم إلى أن أعرف ماذا يكون من أمر زواجي بمهردكار : نعم أرى من نفسي غلطاً عظيماً بتعليق قلبي ببنت عدوي إلا أني لم أكن أعرف أن كسرى سيوافق بختك ويقصد ضري حتى سئمت نفسي منه ولولا وعدي إلى بنته وميلي للإقتران بها لكنت تراني الآن أفتك في جيوش الفرس وربما كنت متسلطاً على أكثر بلادهم ومن كان لا يعبد الله منهم أنزلت بهم العبر غير أن هذا سيكون بعد مدة إن شاء الله تعالى فإن قلبي غير صاف عليهم ولا راض عنهم . وبينما كان الأمير مع عمر بمثل هذا الحديث وإذا برسول مهردكار قد وصل بالطعام فدفعه إليه وأعطاه كتاباً منها ففضه وقرأه وإذا به :

(من مهردكار صافية الود وفية الوعد إلى حبيبها الأمير حمزة البهلوان) .

إني صرفت الوقت بعد رحيلك عن المدائن حزينة باكية أندب فراقك وألوم الزمان على بعادك وأنا أتقلب بين اليأس والرجاء لا أعرف إلى أين ينتهي بك المسير وإلى أين يقف بك الزمان الذي عمل على عنادنا وكان حظي منه أن علمني أن أقول كل ليلة :

أضرم القلب في الحشاشة ناراً ... حين قالوا شط الحبيب وسارا
سار عني ولم أجد لي صبراً ... كيف حالي ولم أجد لي اصطباراً
طير العقل ثم قص جناحي ... وقضى منزلا وشط مزارا
ويح قلب وويح كل محب ... فقد العين فاقتفى الآثارا
يرقب النجم في الظلام ومهما ... لمع البرق في الغمام استطارا

كما علمني أن أهفو إذا سمعت حفيف مرور النسيم على الشجر أو تغريد صوت

الهزار على الأغصان أو نوح الحمام على فقد الإلف والخلان وأعاتب الطير إذا زار على بعد المزار .

وإذا نـاح في الغـصـون حـمـام ... مـزق القـلب ثـم شق الازارا
وإذا زار لـلأحـبـة طـيـف ... نـكس الرأس ذلـة وصـغـارا
لازم السـهـد والسـلو وأضـحى ... يـظهـر الحب لـوعـة واستعـارا
وكسـا جسمـه السقـام فـأمسى ... سهـد عينيـه لـلجفـون شعـارا
يـا لـقـومي إلا مـعـين معـين ... غـير دمـع أفـاض منه البحـارا
أشـقـيـق يـرق لي أو رفـيـق ... يحفظ الجـار أو يـراعي الجـوارا
أو سمـير يصغي لشـرح حـديثي ... فـحـديثي يـطـرب السـمـارا
آه مـن حـرقـة وفـرط جـنـون ... صـير الطـرف والفـؤاد حيـارى
من نصيـري وليس غـير فؤادي ... مـات شـوقاً ومـا درى الانتصـارا
ويح أهل الهـوى يرون سكـارى ... بهـواهـم ومـا هـم بـسـكـارى

وكأن الوهم كان يخالج قلبي فيتلاعب به بين الصدق والكذب أو بالحرى بين السعد والنحس فأرى الحقيقة وهماً والوهم حقيقة وأنا ضائعة العقل فاقدة القوى أردد قول القائل :

يـا قسـاة القلوب رفقـا بقلبي ... لم يـكـن قط يـألـف الأحـجـارا
قـد نـسيتـم عـهـودنـا وفـؤادي ... لم يـزده الـبـعـاد إلا ادكـارا
كـل يـوم يـسـومني الـدهـر حنينا ... ينـوى الحب في الأضـالـع نـارا
وإذا مـا الـظلام جـن ومـا بي ... لهـم وجـد يهـيـج الأفـكـارا
طـال ليلي ولم يلح وجـه صبحي ... يـا ترى هـل أرى الظلام نـوارا
لـو يكـون الصبـاح حيـاً يـرجى ... لم تـرِ الزهـر في السماء حيـارى

وبقيت هذه الحالة حالتي وبيت قلبي منهدم الجوانب وينبوع آماله جاف منقطع إلى أن بنيت قصر رجائي وانبعث ميازيب أفراحي وأحييت مني القوى وأرجعت لي السكينة والهدوء وصرت على أمل قريب من السعادة والاقبال . فاسمح لي أن أراك عندي في قصري بضع ساعات لاتمتع من النظر إلى وجهك الكريم البهيج المشرق بأنواع الكمال واللطف ولأعرض عليك بعض قضايا هي وإن كانت باقية في حد التصور ولم تخرج إلى ربقة التصديق غير أن القياس علمنا أن نعرف كيف تكون النتيجة فأجب طلبي ولا تحرمني من لذة هذا الاجتماع ويمكنك أن تأتي قصري مطمئناً كالمرة الأولى دون أن تصادف مانعاً فإن كل من في القصر يعرف حبي لك وهم بأجمعهم يخلصون الخدمة لي

وفي نهاية الكتاب ما يأتي :

قم بنا فقد ساعدنا القدر وجاء طيب عيشنا على قدر
فكم علا أمر امرء وما قدر فارضع لبادر الهنا إن تلق در
فالشهم من حاز السرور إن قدر
وقد صفا الزمان والأمان وأسعد المكان والامكان
وانجد الأخوان والأعوان وقد وفت بعدها الأزمان
والدهر تاب من خطاه واعتذر
يا حامل الاثقال والأهوال ومتلف الأعداء والأموال
وصادق والوعود والأقوال أبديت في شدائد الأحوال
صبراً فكان الصبر عقباه الظفر
إنك باغي الجود فوق ما بغى وعجلت كفاك حتف من بغى
فقد سمرت في الندى وفي الوغى وعجلت كفاك حتف من طغى
أخذته أخذ عزيز مقتدر

فلم يقو الأمير حمزة على تتمة قراءة هذا الكتاب دون أن تنفطر مرارته وقد انقطع عن تلاوته مراراً يقصد تكفكف الدموع التي كانت تسكب منه عند وقوع لذيذ عباراتها في موقع قلبه فكأن نذير من فؤاده كان ينذر بأنها أشد حباً وأكثر ميلاً لأن قلبها رقيق جداً خلق للحب وحده لا لشيء آخر بخلاف قلبه الذي خلق قاسياً لاحتمال المكاره والمصاعب والتجلد عليها والميل إلى الانتقام من الأعداء وإراقة الدماء وبهذا يرى أن شعائر النساء أرق جداً من شعائر الرجال وقلوبهن أكثر تعلقاً وحفظاً للمودة منهم وعقولهن أقرب للتصديق والدليل أن الله قد خلق كل ما هو بهن لطيفاً ورقيقاً فإذا رغبت المرأة بالأمانة واعتمدت على الوفاء وأخلصت الحب قدرت تلك الأمانة حقها ووقت وفاء لا يوجد بواحد من الرجال مهما كان حفيظاً على الولاء وأحبت حباً صحيحاً ثابتاً تحمد وتشكر عليه مع أنها تصبح مالكة حباً ومملوكة أدباً وديناً إلا أن التفاوت العظيم الذي يقع بين الأشخاص من جراء المعاملات السيئة أو رداءة الأخلاق أو ما شابه ذلك لا يبنى عليه القياس العام . وهكذا كان يدرك الأمير حمزة خلوص مهرد كار العظيم وصدق حبها حتى أصبحت تخاطر بالنفيس والنفس من أجله وبعد الامعان والافتكار أخذ فكتب لها .

(من الأمير حمزة بن إبراهيم إلى مهرد كار سيدة اللطف والوقار) .

أخذت كتابك يا شمسي ويا قمري ووعيت إلى رقيق معانيك ودقيق ألفاظك فسكرت من نشوة ألطافك وصرفت هنيهة ويدي الواحدة على قلبي والثانية أغترف بها من

فيضان دمعي فكأني عرضة لتذكرت معاني كمالك وخلوصك . وإني الآن أشكر الله على عودي إليك سالماً اطمئناناً لقلبك وارتياحاً لخاطرك وأكدي أني لم أنسك طول مدة غيابي لا وقت السلم ولا عند اشتباك القتال .

ولقد ذكرتك والجماجم وقع تحت السنابك والأكف تطير
والهام في أفق العجاجة حوم فكأنها فوق النسور نسور
فاعتادني من طيب ذكرك نشوة وبدت على بشاشة وسرور
فظننت أني في مجالس لذتي والراح تجلى والكؤوس تدور

ولم أذكرك إلا وسرى إلى مسام جسدي مجار من العافية وشعرت بلذة عجيبة لا أعرف كيف أقدر أن أعبر عنها لكني أعرف أنك ركينها عند ذكرك إياي وبمجرد ذكرك هذا كانت في دواعي الحماسة فاندفع إلى الفوز تصوراً مني أنك ناظرة إلي ترقبين أعمالي وتنقدين قصوري لا ريب أن أباك لا يقدرني حق قدري ولا بد من أن يميل بكل رغبته وأمياله إلى أقوال وأعمال بختك فالتزم أن أسير إلى مصيبة أخرى في طريق جديد لا أعرف ما يكون وما وراءه إلا أني اعتباراً لك أعتبر أوامر أبيك وأرى نفسي مضطراً إلى إنفاذ غاياته وأتظاهر بصدق كلامه وأبين له اعتباري بخلوصه واعتقادي بصفاء باطنه ونيته غير أن لا بد لهذه البداية من نهاية مجهولة منا الآن إما لخيرنا وراحتنا وإما لتقرير عذابنا وحصر المصائب فينا فنموت دون بلوغ المراد فسامح الله الحب فهو وحده الذي أرغمني إلى الانقياد وجبرني على الطاعة وجعلني أن أصبر على مر الأعداء وكيدهم والحاصل فأنا ممن يتوكل على الله وعلى دوام حبك وثباتك في مضمار الغرام حتى تكوني علة لاحتمالي ما سيقع علي من العذاب والصبر الجميل وأعدك إذا اتخذت زوجة غيرك تكونين أنت الأولى بينهن والمقدمة عليهن وسيدة تباهين وتفتخرين ويكن لك كعبدات . وقد طلبت حضوري إليك فسوف أتسبب إلى ذلك فإذا كانت نية أبيك في هذه المرة طيبة وأجاب طلبي وزواجي بك أرى أن من الضرورة تأخير اجتماعنا إلى ذاك اليوم المنتظر وإذا كان الأمر بالعكس سعيت إليك ونظرت ماذا يكون وماذا يجب أن نعمل في أمر حياتنا فأقبلي مني ثمرة هدية الحب تبرهن لك عن خلوصي لدى الحياة ولك التحيات والإكرام ثم كتب بآخر الكتاب :

فضحت بدور التم إذ فقتها حسناً وأخجلتها إذ كنت من نورها أسنى
ولما رجونا من محاسنك الحسنى بعثت لنا من سحر مقلتك الوسنى
سهادا يزود النوم أن يألف الجفنا

وخلت بأني عن مغانيك راحل وربع ضميري من ودادك ما حل

فأسهر طرفي ناظر منك كاحل وأبصر جسمي أن خصرك ناحل
فحاكاه لكن زاد في دقة المعنى

حويت جمالا قد خلقت برسمه فخلناك بدر التم إذ كنت كاسمه
فمذ صار منك الحسن قسما كقسمه حكيت أخاك البدر في حال تمه
سنا وسناء إذ تشابهها سنا

سجنت فؤادي حين حرمت زروتي وأطلقت دمعي لوطفى حر زفرتي
فقلت وقد أبدى الغرام سريرتي أهيفاء أن أطلقت بالبعد عبرتي
فان لقلبي من تباريحه سجنا

حرمت الرضا إن لم أزرك على النوى وأحمل أثقال الصبابة والجوى
فليس لداء القلب غيرك من دوا فإن تحجبي بالبيض والسمر فالهوى
يهون عند العاشق الضرب والطعنا

سأثني حدود المشرفية والقنا وأسعى إلى مغناك إن شط أو دنا
وألقى المنايا كي أنال بها المنى وما الشرق إلا أن أزورك معلنا
ولو منعت أسد الشرى ذلك المعنى

أعيدوا لنا طيب الوصول الذي مضى فقد ضاق بي من بعد بعدكم الفضا
ولا تهجروا بالعمر قد فات وانقضى وما نلت مأمول وصلكم رضى
ولا ذقت من روعات هجركم أمنا

ثم أنه طوى الكتاب ودفعه إلى رسول ودفع إليه أوعية الطعام وأوصاه بأن يبلغ مولاته التحيات فأخذ الكتاب وسار فدفعه إلى مهردكار وكان عندها لذيذاً شهياً وتنهدت لا تعرف هل الزمان يطول على مثل هذه الحالة وينتهي إليهما مبعداً كل عذاب وعناد بالوفق والراحة أو يعود إلى إجرائه ويمشي على محوره وجعلت شغلها الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يقرب منها السعادة ويقربها من الأمير حمزة لتكون زوجة له وتسأله تعالى أن يميت بختك لتموت معه المصائب اللاحقة بها وبمن أحبته .

قال وبعد أن ذهب رسول مهرد كار من عند الأمير حمزة صرف ليلة بين نوم وهدس إلى أن أشرق الصباح ولاح بنوره وأخذت الأعين الراقدة في أن تستيقظ والعقول تدب في رؤوس أصحابها تخرج بهم وتدبرهم في دولاب مصالحهم فنهض من نومه ولبس أفخر ثيابه وخرج إلى جواده فركبه وتوجه إلى صيوان الملك النعمان فوجده على انتظاره فدخل عليه وأقام عنده وطلب منه أن يسير معه في ذاك النهار إلى ديوان كسرى ليسأله زواج بنته ويراه

في هذه المرة هل هو على الوفاء أو أنه اختلق بابا جديداً وفتح له طريقاً آخر . فقال النعمان على ما أظن أن كسرى باق على حاله ولا بد أن يكون قد اتفق مع بختك على حيلة ربما كانت أصعب جداً مما سبق وعلى هذه فإني أرى الأمور صعبة جداً أمامنا ولا بد من وقوع حروب بيننا وبين الفرس . قال إني أعرف ذلك ينبهني إليه قلبي غير أني جاهد بنفسي ما زلت مؤملاً بالزفاف أن لا أدع طريقاً من طرق السلامة إلا سلكته ولو تحملت أعظم الأثقال وأشد الأتعاب . وفي تلك الساعة حضر أصفران الدربندي واندهوق بن سعدون وباقي الأبطال والفرسان من سادات العرب فاذ ذاك ركب الجميع وساروا إلى جهة المدينة حتى وصلوا الإيوان فدخلوه ودخل الأمير حمزة بعد أن حيى مهردكار فلاقاه كسرى بالبشاشة وأجلسه في مكانه وأخذ كل من العرب مقامه وما استقر بهم الجلوس حتى دار بينهم الحديث والتهى كل واحد بالآخر وكسرى يقضي مصالح الدول والعمال مدة ساعات ولما فرغ من الشغل وراق للجلوس الوقت سأل الأمير حمزة بزرجمهر أن يطلب إلى كسرى الوفاء بزواج بنته إذ ما من وسيلة ولا عذر يؤخران ذلك إذا أحب أن يفي وكان يريد إتمام وعده : فبلغ بزرجمهر كسرى ذلك وقال له لما كانت أقوالكم أقوال حق وكلامكم كلام صدق تجاسر ولدكم حمزة أن يذكركم بالوعد الذي وعدته به وهو أن تزفوا كريمتكم مهرد كار عليه وتشملوه بأنظاركم وهو يقدم لكم عوضاً عن ذلك سيفه ونفسه فيخدم بلادكم وعظمتكم ولا خفي أن عدل الملوك بالصدق وأن الوفاء منهم يزين في شرفهم ويزيد في حسن ميل الرعايا إليهم ولا سيما من كان كعظمتكم جبلتم على الكرامة فتقدرون الرعايا حق قدرهم ويرفعون شأن المستحق منهم وتذكرون أن آباءكم وأصول هذه العائلة الكريمة كانت بالعدل قدوة للعالم فضرب بها الامثال وروى منها المؤرخون ما يكاد يذهل العقل ولا يصدقها لولا تأكيد صدقها وصحتها وإني أجسر الآن أن أعرض لديكم وجوب إجابة طلب حمزة إذا أنه يحق إذا تذكرتم ما كان منه وما أبداه من الخدمة في صالح بلاد الأعجام وإلا لولاه الآن لكانت البلاد في ضيق عظيم من خارتين ولربما كانت الحرب لا تزال قائمة بيننا وبينه ومن يعرف كيف كان المصير ولمن ينتهي النصر الأخير طردنا من المدائن وفي نيته أن يكون الملك على هذه البلاد وكان العود إليها قلما نفوز به ولم نعلق الأمل بالنجاح ولولا حمزة لما حفظت الكلمة الكسروية والراية الفارسية وقهر العدو به وقع الخوف في قلب كل عمالنا حتى من كان منهم عاصياً أو يفكر بالخروج رجع وأطاع وعليه فهو ينتظر الجواب بالإيجاب من عظمتكم فأراد كسرى أن يجيب عن ذلك ويوافق بزرجمهر على طلبه حالاً حيث وجد من الصواب الوفاء والصدق والأمانة فسبق بختك وقال . اعلم أيها الوزير العاقل الخبير والحكيم الفاضل الكريم أن سيدي الملك طالما أبان لي خلوصه من هذا الوجه حتى أنني في ليلة أمس كنت مجتمعاً معه فتكلمنا عن ذلك

وأتفقنا على مباشرة الأفراح وفكرنا أن يجعل للأمير حمزة ولمهردكار زفافاً لم يسبق أن وقع مثله لأبناء الملوك والأمراء تحدث به الناس جيلاً بعد جيل أولاً حبا بهما وثانياً افتخاراً لعظمة الملك لأن من الواجب على الملوك عند زواج أولادهم أن يجمعوا العمال ويبذلوا الأموال وينحروا النحور ويسكبوا الخمور ويعطوا ويهبوا ويجودوا ويزينوا البلاد وذلك يحتاج إلى وقت ومصاريف وقد سألني سيدي الملك أن أنظر في ذلك وأرى له باباً وأنظر في الخزائن وهل ما بها كاف للقيام بمثل هذا العمل وإذا كان غير كاف أسعى بجمعه فليكن الأمير حمزة براحة تامة ولا بد من زواجه بمهردكار كيف كان الحال ويستعد لقيام الأفراح والحمد لله قد انقضى الأمر ولم يعد ما يقف في طريقه أو يمنع سيدي الملك من إجابته .
فأعاد بزرجمهر ذلك على الأمير حمزة فلم يره صادراً عن خلوص لكنه صبر ليعلم إن كان هذا الكلام أكيداً أو غير أكيد وأظهر فرحه من كلام الوزير وطلب إلى بزرجمهر أن يشكره ويثني عليه وأما الملك فانه بقي صامتاً متعجباً من كلام الوزير وهو لا يعرف ما ينطوي تحته وما قصد بذلك مع علمه أنه يكره حمزة ويدافع في سبيل نجاحه ولا يقبل قط بزواج مهر دكار به .

وأقام العرب في ديوان كسرى إلى المساء وعند المساء خرجوا راجعين إلى اماكنهم قائلين سيكون للأمير زفافاً لم يسبق له نظير في العالم قاطبة إلا هو فانه كان غير متيقن في كلام بختك عندما سمعه يقول إن الملك عهد إليه تدبير هذا الأمر وأن ينظر في أمر قيام الافراح وفي ظنهم أن أمر الأمير قد انقضى وأن الزفاف سيكون بعد أيام قليلة فتقام الافراح ولوازمها ولما انفرد أخيه عمر قال له إن في الظاهر وبحسب ما نحن عليه الآن كل شيء قد انقضى غير أني لا أعرف ما في سر المسألة ماذا يدبر الوزير بختك وقد قيل إن حبك عدوك سيكون من جنون والرجل عاقل ما من أمر يدل على جنونه : قال كل آت قريب فإذا كانوا يقصدون لك ضراً أو يدبرون حيلة أخرى لا تلبث أن تظهر فترى في تدبير نفسك إذ ذاك وتعرف كيف تتصرف معهم وأني انصحك أن تسلك مع كسرى وبختك مسلك الكبر والعناد وترغم أنفهما بأخذ مهردكار رغماً وجبراً عنهما وعن عموم رجال الأعجام كبيرهم والصغير . قال اني لا اسير إلا على مسرى الاحوال فإن وجدت باباً للعناد والنزاع لا أتاخر بشرط أن أكون قد أحنثت بوعدي وسلكت بخلاف قصدي فأني أريد أن أطيل صبري إلى أن يفرغ ومع ذلك فقد يفعل الله ما يشاء : وإذ ذاك جاء خادم مهردكار بالطعام فأكل الأمير وعياره وبعد ذلك سأله الخادم عما كان من أمر الملك فأطلعه على ما جرى وقال له ان أباها قد وعد الاهتمام بالزفاف وما من مانع بظاهر الحال يحول دون تأخير الزفاف إلا أن يكون اضمر خلاف ما وعد فرجع الخادم إلى مولاته واطلعها على ما سمعه من الأمير وكيف ان اباها وعده بالزفاف بوقت قريب ففرحت فرحاً

لا يوصف وأملت نوال المراد نهاية عذاب من احببته وهو الأمير حمزة الذي وان كان يحبها حباً خارقاً للعادة ويتمنى زواجها ويحتمل كل عذاب لاجلها إلا أن حبه لم يكن يعادل جزءاً من حبها له فانها كانت مغرمة به غرام لم يسبق أن سمع به وسلمت بكل قلبها إلى أيدي هواه فلم تبق لها ولا درهماً واحداً تعيش به على الصبر والسلوى وهذا أمر بديهي فان المرأة ولا سيما من هي كمهردكار فانها خلقت للحب ولم يكن لها شاغل آخر يشغلها عنه فبعثت بكل أميالها وأفكارها إليه بخلاف الأمير فإنه كان قد أرسل بقسم من أمياله إلى التعليق بالحب وحفظ الباقي لملاقاة الأهوال والأخطار ومنازلة الابطال والفرسان والتدرج في سبل المعالي وما أشبه ذلك مما يحتاج الى أوقات واهتمام وتعقل ولهذا كل وقت فرح ومسرة لا يوصف وقد غمرت خادمها بالعطايا ووهبته الأموال الغزيرة واحضرت سفرة المدام وما تحتاج اليه من النقل والمشموم وصرفت ليلتها على الحظ والهناء تطرب وتشرب وتشخص بفكرها حالتها مع حبيبها وكيف ستكون عنده بعد أيام وما يكون لها منه وما يكون له منها وكيف أن الايام قربتها مما تريد ومع انها كانت من أعقل نساء عصرها لم تحسب لصروف الايام حساباً وفكرت أن أباها قد اجاب عن طيبة حيث وعده من قا وقرب منها عظيم هواها القاتل نيل المراد فأصبحت تلقاه بأميال خالصة من الارتياب حيث كانت تنتظره قبل ذلك على الابواب وتعد نفسها به في المساء والصباح واتجهت بكل افكارها إلى تدبير شأنها وما تحتاجه في هذا الزفاف وما يكون لها فيه وفي أي حلة تبرز يوم زفافها المجيد .

واما الملك كسرى فإنه اجتمع في ليل ذاك اليوم مع وزيره بختك وقال له على ماذا عولت وما الذي دبرت فقد سمعت منك اليوم مالم أصدقه قط فهل تكلمت عن يقين وقصدت وقوع زفاف مهردكار على حمزة أو فعلت ذلك وتكلمت خلاف ما أضمرت قال كيف أخون سيدي الملك والقي ببنته شمس الدنيا وزينة بلاد العجم إلى أيدي هذا البدوي الكافر بدين النار المتعود على الهمجية ومن الغريب أن تعيش الحضرية مع البدوي لاختلاف المشرب وفرق الطباع والعادة والاختلاف بين المدينة والجاهلية لكني نظرت موضع النظر حيث قد عرفت أن ليس من اللياقة ان نصد الأمير في الحال ونظهر له باباً آخر فيضجر وتقع بينه وبيننا الحروب وقد صار عنده جيش كاف لقتالنا وفرسان لا يوجد عندنا نظيرهم وقد دبرت أمر خيراً اظهره عند الاقتضاء فيصرف به الأمير ويسير عنا مع العرب ونرتاح من أمرهم . فأطرق الملك إلى الأرض ثم رفع رأسه وقال لوزيره لو فتشت قلبي لوجدتني أميل إلى حمزة عن صفاء واريد ان يكون زوجاً لبنتي لولم يكن من عبادته الله ومع كل ذلك فأني أرى من الضرورة التغلب على إرادتي وميلي حباً بصالح البلاد والمملكة وأجهد النفس في إبعاد العرب فنرتاح منهم وعليه فاريدك أن ترى في عين

المطلوب لا كما فعلت قبل الآن فانك قد دبرت في أمر تكثير العرب ونجاح أميرهم فاجتمع عنده هذا الجيش وهؤلاء الفرسان العظام مع أنه كان في الأصل وحيداً فريداً مع شرذمة من عرب البادية الضعفاء فعلام عولت قال فكرت أن اعرض لديك ذات يوم بحضور جماعة العرب أن الخزائن فارغة من المال وليس فيها ما يسد مسد العرس ويقوم بالمصاريف اللازمة في مثل هذا الفرح لأن العمال منذ سبع سنوات لم يبعثوا بالاخرجة المضروبة عليهم ولا سيما منذ اتيان خارتين إلى البلاد وتحركه إلى المسير لجمع الأخرجة والأموال المضروبة على العمال فيسيرون عنا وإذا أرادوا أن يطوفوا بلادنا فلا يرجعون منها بأقل من سبع سنوات فضلاً ان عمالنا تقف في وجوههم وتحاربهم فيفنون بالتدريج فئة بعد فئة أي إذا حاربتهم عساكر البلدان السائرين أي كل بلد أجروا فيها وقعة إلى ان يذلوها ويأخذوا منها الأخرجة لابد في تلك الواقعة ان يقتل منهم قسم فلا يبقى أحد : قال وماذا تقول عنا عمال البلاد مع أن لابارة الفرد لنا في ذمة واحد منهم وكل سنة يرسلون ما هو. عليهم من الأموال وغيرها : قال كن براحة من هذا القبيل إني دبرت هذا الشأن وهو أن أكتب بالكتب وأرسلها مع الرسل وأخبرهم بها عن واقعة الحال والمقصد الذي بعثنا به حمزة لاجله وإني سأبعث بكتاب الى القسطنطينية إلى الملك اسطفانوس صاحبها ان يحتال عليه فيميته مع قومه ومثل ذاك إلى قيصرية وأخبر صاحبها بقتاله وقتله ولابد أن الصدف تساعدنا في هذه المرة فنميته. فاستحسن كسرى هذا الرأي قال له يظهر لي فيه هذه المرة النجاح وعسى أن الدهر يحصل لنا بالمطلوب فننال المرغوب ويحصل لنا ما نريده .

قال وفي اليوم التالي جاءت العرب إلى الديوان ودخل حمزة على كسرى على حسب عادته فلاقاه بكل بشاشة وإكرام وأحسن ملتقاه وبش في وجهه حتى سر منه حمزة مزيد السرور وكذلك جماعة العرب إلا بزرجمهر فإنه أدرك معنى ذلك وعرف أن عمل كسرى تصنيع يقصد به اطمئنان الأمير وغشه وأصبح يتوقع ما يكون منه لا يقدر أن يأتي بحركة وهو عارف أن الزمان الموافق لاظهار نفسه في حب الأمير والمحاماة عنه لم يأت بعد : وصرف العرب باقي النهار ورجعوا في المساء وعند صباح اليوم التالي عادوا إلى الديوان وداموا على مثل ذلك حتى مضى عليهم مقدار شهر يذهبون في الصباح ويرجعون في المساء والأمير حمزة يشاهد حبيبته مهردكار في الذهاب وعند الإياب وكل يوم يظن ان الملك يظهر له اهتمامه بالزفاف فلم ير شيئاً من ذلك ولعب به الغضب والحنق وفي اليوم الأخير من الشهر بينما كان في الديوان وجماعته العرب حواليه وجماعة كسرى محتبكون في سلك الاجتماع وقف الأمير حمزة بين يدي كسرى وقال له إن صدق الوعد بالإنجاز وقد وعدتني أن تهتم بعمل الافراح وتقيم الزفاف بوقت قريب فصبرت حتى اليوم وأنا أترقب إتمام الوعد فلم ار أهتمامكم به ولا التمس من عظمتكم إلا ان تعينوا يوماً يكون الانجاز

وينتهي كل عمل وأزف على كريمتك التي خطبتها مني وصارت خصيصة بي على حسب وعدك .

قال إني اعرف ذلك وقد عهدت به إلى وزيري بختك والظاهر أن مانعاً عظيماً حال دون العجلة في هذا المعنى . فأكمل بختك الحديث وقال للأمير حمزة إننا لا نزال على الاهتمام غير أن مثل هذا الزفاف يحتاج إلى مصاريف باهظة وأموال غزيرة تصرف فيه ليكون من الواجب على ملك ملوك هذا الزمان سيدي كسرى أنوشروان أن يدعو إليه كل عماله وأمراء بلاده وملوكها وعظمائها وأعيانها من أقاصي البلاد إلى أدانيها وقد عرضت احتياجنا الأموال لحضرته فأمرني أن أكتب إلى العمال أطلب اليهم إرسال الأخرجة المضروبة عليهم حيث قد مضى أكثر من سبع سنوات وهم ممتنعون عن أداء المطلوب واقمنا على الانتظار فلم يأتنا جواب من أحد فكان اولئك الأمراء والعمال قد عملوا على الخروج ونزلت من قلوبهم هيبة ملكهم من يوم جاء خارتين وطرده من المدائن ويظهر أنهم طمعوا فيه وقد عرضت عليه أن يرسلك اليهم لتجبي منهم أموال السنين السبع ومن كان عاصياً نزعته أو أرغمته على الطاعة فلم يقبل مني هذا وأراد كتمه عنك ليرى وسيلة أخرى وعندي أنه إذا كان لا يستدرك الأمر ويرسلك خرجت البلاد من يده وربما اتفق عليه الجميع فتكون المصيبة الأخيرة أشر من الأولى والآن أطلب اليك أنا بلسان الملك وأقسم عليك بحياة مهردكار وحرمة البيت الحرام ان تحفظ مملكة عمك فلا تكون قد أخذت بنته وتخليت عنه فاجمع له الأموال واشفى غليله من كل عاص عات يكون لك رفيع مقام أكثر مما كنت .

فلما سمع الأمير حمزة هذا الكلام سقط على رأسه أثقل من الجبال وأطرق الى الأرض برهة ونار الغيظ تشعل فؤاده وكذلك سكت كل من كان في ذاك المجلس يتعجبون من احتيال بختك وينتظرون جواب الأمير وكان بعضهم كالوزير بزرجمهر والملك النعمان يظنون أنه لا يمتنع عما طلب بختك لعلمهم بحسن طويته وبعضهم كاصفران الدربندي ومعقل البهلوان يظنون أن الأمير يعمد إلى سيفه لعلمهم أنه يقدر على نوال مراده بقوة سيفه وتوهمهم أنه قد فقد صبره ويئست حياته من الحيل والخداع غير ان جميعهم كانوا يسألون الله أن يمتنع ويطلب أخذ خطيبته إما بالرضا وأما بالغصب شفقة منهم عليه حيث كان الجميع يعرفون شدة حبه وقوة غرامه بمهردكار إلا أنه نهض رأسه بعد برهة وقال ملتفتاً إلى جهة الملك اعلم يا سيدي أني خلقت لهذه الدولة وأرى نفسي مضطراً إلى السعي خلف ما تأمروني به وهذا أراه الآن علي أو بالحرى ارى نفسي ملزوماً به وعليه فاني نويت كل النية أن أقصد جميع البلاد من هنا إلى أقاصي حكمك وما جاوره فاجمع الأموال واجبي الأخرجة ومن عصاني أنزلت به العبر وبعد فراغي أعود اليك وإلا

إذا قضى علي أكون قد ذهبت بيومي فقط أريد منك أن تصحبني بأمر عام فأكون مفوضاً بكل ما أريده وأرغب أن أجريه ليكون لي الحق أن انوب بطلب الأخرجة من الدولة الكسروية وتكون هذه الكتابة موقعة بختمك الخصوصي وتذكر بها أنك اخترت صهرك لجبي الأموال فيعرف الناس مركزي عندك واعتبارك عندي وسوف ترى مني ما يسرك ويرضيك .

فلما سمع العرب كلام الأمير حمزة أيقنوا بسفر طويل وعذاب اطول وتأكدوا أنهم يطوفون الأرض شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً لان بلاد كسرى كثيرة واسعة تحتاج الى عدة سنوات إذا أرادوا الدوران فيها والطواف من مكان إلى مكان وأما كسرى وبختك فقد فرحا غاية الفرح وأيقنا ان مدة العرب قد انتهت وانقرضت وسوف يذهبون عن البلاد ولا يرجعون اليها مرة ثانية ولذلك أسرع بختك الى الجواب فأجاب إن سيدي الملك لا يبخل بأن يعطيك خطه وختمه ويفوضك بأمر بلاده وعماله فما أنت إلا كواحد من عائلته أو بالحرى كاحد اولاده ويعرف أكيداً أنك اميناً على البلاد فلا تجور ولا تظلم ولا تجمع غير المطلوب فقط على كل مدينة وبلد وإني بإذن سيدي الملك أكتب لك الآن ما أشرت اليه ثم أخذ بختك فكتب امراً عاماً إلى كل بلاد العجم وعمالها وملحقاتها أنه قد عهد من قبل الملك إلى الأمير حمزة التصرف بجمع الأخرجة والأموال المضروبة على كل بلد وناحية فتسلم اليه ليعود بها الى المدائن لانه صهر الملك كسرى وامينه ثم وقع الملك على الكتابة وختمها بختمه الخاص ودفعها إلى الأمير حمزة وقال له لم يهن علي قط أن أبعدك الآن عن المدائن وانقلك مثل هذه النقلة بعد أن كنت نويت على زفافك في هذه الأيام وكان ظني ان الأمر قد انقضى وأمرت بتهيئة أمر بنتي ولكن اعدك الآن بعد رجوعك ووصولك بالأموال سيكون لك به زفافاً عظيماً جداً فتعرف البلاد أن قدرك عظيم عندي ومقامك اعظم وما من مانع الآن إلا وجود أموال في الخزينة تكفي لمثل هذا الأمر وأزيدك وعداً بحضور هؤلاء السادات الموجودين الآن في ديواني ان بنتي هي لك مهما طال الزمان وحالت الموانع فلا مطمع لغيرك بها فنم أميناً وعد نفسك بأنك ستصبح بدرجة الملوك ذات يوم ولا يبقى في بلاد فارس من هو أعلى مقاماً عندي منك فأظهر حمزة شكره للملك كسرى وفي قلبه نار تلتهب منه لتأكده أن تلك حيلة قد عملت عليه وأن كلامه هو مكر وخداع يقصد به اطمئنانه ويريد ان لا يتكدر منه ويبقى على طاعته .

وبعد أن انتهى كل عمل الأمير حمزة ودع الملك كسرى وقال له اكد يا سيدي اني سأعود اليك بعد اشهر او سنين بأعظم مما ذهبت عنك الآن ويكون لي مقام بمساعدته تعالى لم يكن لغيري وذلك أنشئه بقوة زندي واتكالي على المولى وإلهي الذي اعبده وكما ان الاسفار التي اخترتها لي منذ الاول كانت بخلاف ما تقصدون وتضمرون لي حيث

جاءت نافعة لي مفيدة واصبحت كملك لدي من الفرسان العظام والابطال الاشداء ما يشتد به ساعدي وتقوى كرامتي وسوف تكشف لك الايام ويعلم اعدائي أي منقلب ينقلبون وبعد هذا خرج الامير وجماعته وعندما صار خارج الأبواب ركب جواده الأصفران ومال بانظاره إلى جهة مهردكار فوجدها بانتظار خروجه الدقيقة وراء الدقيقة فأشار اليها مودعاً دون أن يبدي إشارة تبسم وقرأت على وجهه أسطر الكآبة فتأكدت من وقوع حادث جديد مكدر وثبت لديها أن آمالها لا تنتهي بزواج الأمير وأرادت أن تعرف السبب ولما نظر اليها تلك النظرة وهو مغضب على خلاف ما كانت تنتظر ولم يخطر لها قط إلا ان غضبه من أبيها وانه قد وضع في طريقه مانعاً يمنعه من نوال مراده . وفي الحال دعت بخادمها وقالت له سر إلى الأمير واسأله عن حاله واطلب اليه أن يزروني في هذه اليلة بعد الساعة الرابعة من الليل بحيث أراه وأعرف ما هو السبب الذي وقع له فسار الخادم لاتمام امر مولاته وأما الامير فانه بقي سائراً دون ان يبدي كلمة الى ان وصل مع العرب الى صيوان الملك النعمان وهناك سأله جماعته عن إجابته وقال له النعمان لقد رميت بنفسك الى سفر طويل ولم تنظر ما فيه من الأهوال على أن كسرى لم يقصد لك الخير وما اختار لك هذا الأمر إلا ليبعدك عنه ويبعدنا نحن أيضاً عن بلاده ويهلكنا وإنني اعرف أكيداً أن لابارة له عند عماله إلا السنة الحالية التي لم تفرغ بعد ومن المقرر أن العمال عند رأس السنة يرسلون كل ما هو مطلوب منهم إلى المدائن والآن على ماذا عولت هل تبقى مصراً على السفر أو تسمح لنا وتدعنا ندخل المدينة جبراً ونأخذ مهردكار بالقوة ونشعل الحرب بيننا وبين الفرس ومهما قدره الله كان مفعولاً فقال لهم اعلموا يا سادات العرب أني نظرت موضع النظر وما فكرت إلا بصالحنا ونجاحنا ولا يخفاكم أن الأعجام كثيرون ودولة كسرى اعظم الدول مسموعة الكلمة فإذا فتحنا حرباً نحتاج الى معاناة أثقال وأهوال لأني لا ارغب في ان اغدر به بل أريد أن أحاربه قانونية وإني كنت اعرف ان فرساني أشداء وأننا نفوز على الفرس مهما كان عددهم غير أني أعرف أن هذا الفوز يكلفنا خسران بعض بعض رجال من رجالنا ونلتزم به إلى مصاريف وأموال باهظة ولا بارة بايدينا الآن ولهذا السبب خطر لي أن أجمع اموال كسرى التي أنا سائر بطلبها عن سبع سنين إن كان له أو لم لكن اليس بيدي خطه وختمه وبعد أن أجمع الاموال أبقيها في يدي فلا أدفعها له إلا إذ أجاب طلبي وزوجني بمهردكار وان امتنع حاربناه من ماله ورجاله ونكون أصبحنا أغنى منه بكثير فضلاً عن ان سائر الفرس من اعجام وغيرهم يعرفون مقدرتنا إذا أتينا بلادهم فلا يجسرون على الانضمام إلى كسرى لحربنا وغير ذلك فاني أيضاً أريد أن أشهر اعمال كسرى أنوشروان في كل بلاده وأميل الناس إلي وابعدهم عنه ولا يكون الاما يوافقنا إن شاء الله وما أنتم فمن شاء منكم أن يسير معي فأهلاً وإلا فليرجع إلى بلاد العرب حين

عودتي وكفاني أن اسير برجالي الأخصاء فقال له الجميع إننا لا نفارقك فاين سرت سرنا في ركابك وتحت امرك ونقاتل وأننا نعرف أن هذا الامر نافع غير ان خوفنا من التطويل لأن جباية الأموال من بلاد كبلاد كسرى تحتاج إلى سنين غير قليلة فتخرج مهردكار من يدك قال اني اصبر علي طويل المدة فألف سنة عند الله مثل يوم واحد قد عبر يفعل ما يشاء وأما فوات مهردكار من يدي نعم إنه يغيظني ويلقيني في اليأس غير أنه لا يبعدني عن رغبتي في نيل المعالي ومن المعلوم أني ما احببتها الا لكونها أحبتني وتستحق المحبة وكونها أيضاً تعبد الله وترغب في دينه والا كنت لا أريد أن أتزوج ببنت رجل كذاب عامل على الخداع والغش ولولا صدق مودتي وتأكدي انها ذات شعائر حميدة عربية لكانت أعمال ابيها قللت من حبي إياها فاتخذت غيرها زوجة إلا ان صفاتها الحسنة توعدني إلى ان أجهد النفس فانتشلها من بين الفرس لكونهم لا يستحقونها .

وبعد ذلك ذهب حمزة إلى صيوانه ومعه عمر العيار فلما وصل إليه وجد عنده خادم مهردكار فحياه وسأله عن مولاته فاخبره بحالها وقال له إنها تدعوك لتحضر عندها وتسألك عن السبب الذي أوجب كدرك وتراك وقد أعدت كل شيء لحضورك وصرفت الخدم من عندها فلم يبق إلا أنا والبواب وكلانا مخلص لمولاتنا ولك نرغب في خدمتك وخدمتها فخطر للأمير ان يذهب إلى مهردكار مرة ثانية ويصرف قسماً من الليل عندها حيث أن أمامه سفر طويل فيتودع منها وداعاً كافياً . ويجعلها تصبر على فراقه إلى حين رجوعه وعليه قال للخادم سر إلى مولاتك وأخبرها إني بعد الساعة الرابعة من هذا الليل أكون عندها فابقى إلى حين إقبال الفجرة فيرجع مسروراً بنجاح مأموريته. ولما وصل إلى قصر مهردكار وجدها بانتظاره لتعلم هل أن الامير يزروها أم لا فلما أخبرها باتيانه فرحت فرحاً لا يوصف ووعدت نفسها بالخير العظيم والراحة ساعات معه فنهضت ولبست أفخر ما عندها من الثياب وافرغت عليها حلاها وتكللت باكيل من الذهب الوهاج فوق رأسها المستدير اللطيف الحجم لكونها كانت سلطانة الجمال وكان من حقها ان تبرز على الدوام باكيل الظفر على ربات الخدور والفوز على كل ناظر ذكراً كان أو أنثى .

وبعد أن فرغت من تهيئة نفسها أمرت ان تمد سفرة الطعام وسفرة المدام كل واحدة في غرفة ويوضع كل ما هو شهي ولذيذ واهتمت بذلك بنفسها وتفكرت في كل ما هو عزيز عندها لتقدمه إلى حبيبها حين زيارته لها وعند حلول الوقت شعرت في داخلها بخفقان وارتعاش كانها عرفت بدخول الامير إلى المدينة وقربة من قصرها لانه كان لبس ثياباً عجيمية ونزل إلى المدينة متقلداً بسيفه ومعه أخوه عمر العيار فدخل من باب المدينة دون معترض ولا مانع وسار إلى جهة مهردكار فوجد البواب قائماً على انتظاره وحالما رآه قبل يديه وسار أمامه إلى أن صار في الداخل واذا بمهردكار قد لاقته الى نصف السلم

فترحبت به وسلمت عليه وأخذته من إبطه ومشيت به إلى قاعة الجلوس فدخل وجلس على كرسي من الذهب الوهاج اللامع مقعده من المخمل محشو بريش ناعم وبعد ان قدم له الشراب الممزوج بالسكر والماء زهر قالت له لقد حللت حلول البدر في الأفق فأنرت المكان وأحييت السكان أي شيء افضل عندي من ان اراك قريباً مني اشاهد جمالك وانظر اليك واسمع عذوبة الفاظك انت من الدنيا حبيبي وساعة من ساعات قربك تكفيني ان اقول اني سعيدة الزمان بطوله فقد حصلت أولاً وثانياً على ما أنا طالبته فانف عنك كل هم وكدر وانظر الي في أمري ودبرني بمعرفتك ولا تتهامل بأمر فيه الخير والنجاح لك ابي وعد أنه يزفك علي ويزفني عليك وكنت اراك على الدوام مسروراً إلى أن رأيتك في هذا اليوم مكدراً فخفق قلبي وتقطعت آمالي وأيقنت بحلول مصاب جديد يؤذن بفراقنا وعذابنا ويبعدنا عن بعضنا، بعد أن كنا على أمل التقرب قال ان اباك لا يصدق لي وعده ما زال عنده بختك الوزير فانه يتلاعب به فيغير أفكاره علي ويظن باني اهلك فيختلق لي المخاطر ويرمي بي إلى الهلاك فيراني قد عدت منتفعاً منها وفيها فائزاً على غاياته ومقاصده فله دره من مخادع مخاتل ونافع لي على غير إرادة منه لقد اختلق لي في هذه المرة سفراً طويلاً ظناً منه انه يكون علي والعرب شراً ووبالاً والحال انه سوف يكون وسيلة كبرى لنشر اخباري في بلاده جميعها وبه اقدر ان احصل عليك بأقرب وقت وهو أن يدعي بأن لا مال في خزينته لعمل افراح العرس ولذلك طلب إلي أن أجمع له الأخرجة من بلاده من المشرق الى المغرب ومن الشمال الى الجنوب زاعماً أن له نحو سبع سنوات لم ترد اليه الأخرجة والرسوم من العمال كأنهم عاصون عليه غير مطيعين لامره فهذا دليل كبير على كذبه وخداعه وأعدك إني سأجمع الأموال بسهولة من كل بلاده ولكن لا أدفعها له قط إلا إذا زفني عليك .

فلما سمعت مهردكار هذا الكلام نزل على رأسها نزول الصاعقة وكادت تقع إلى الأرض لو لم تتمسك بذراع الأمير وترمي بنفسها على عنقه وأذرفت دموعها فحن لها وقال لها لا تخافي وتصبري فما من وسيلة بعد للرجوع عن ذلك فكوني براحة ولا بد لي من أخذك والزواج بك لو كان ألف مانع يحول بيننا غير أن من تأنى نال ما تمنى فاصبري على أمرك . قالت إني أطلب إليك الآن بحرمة أبيك وبحياة حبك لي أن تأخذني في هذه الساعة معك وتذهب عن بلاد الفرس إلى بلاد العرب ودع أبي يفعل ما يشاء فكفاك أن تلاقي أهوالاً وشدائد بسببي فإذا كنت بيدك وسلمت أمري اليك خفت عنك كل هذه المصائب اذ ترى نفسك غير محتاج إلى احتمال مثل هذا العذاب قال لو كنت أرضى بذلك لفعلته منذ الأول لأني أريد أن أتزوج بك زواجاً شريفاً ويكون عرساً عظيماً لم يسبق أن سمع بمثله فأرغم بذلك أنوف أعدائي وأقهر أخصامي ولا يقال عني وأنا فارس برية

الحجاز وبهلوان تحت كسرى أنوشروان قد سبيت بنته واتخذتها زوجة بالرغم عنه وعنها ولا سيما ان الناس لا يعرفون ثقل ظلم أبيك فيظنون بك السوء ويتكلمون بحقك حيث قد تركت أباك وعلقت نفسك بي قالت إني أعرف ذلك حق المعرفة وإنما الحياة عزيزة فأخاف عليك جداً وأفضل أن يقال عني اني ارتكبت امراً عظيماً أو بالأحرى أفضل الموت من أن أسمع أنك عملت ثقيل بسببي أو لحق بك أذى الست أنت هو الرجل الوحيد الذي عليه متكلي واليه أسلم بكل امري فهل من أمل بالحياة لي اذا بلغني وقوع أمر مكدر عليك فارحمني وارجع عن سفرك وانظر في أمرك ودع عنك ما وعدت أبي به وارجع إلى إجباره على زفافي فمتى رآك مصراً على العناد وانك لا تقبل إلا بالزفاف أجاب في الحال وأنهى ما وعد به وخالف بختك دفعاً للشر بينك وبينه فهو يميل إليك ولولا وزيره الخبيث لأجابك منذ الأول ، قال لا أقدر على الرجوع عن وعد صدر مني ألا تعلمين أن العرب رجال وفاء وصدق وأمانة يخاطرون بالنفوس والنفائس من أجل حماية جار أو ثبات وعد أو انفاذ كلمة فكيف أكون الأمير حمزة وارجع عن كلامي على أني لو رجعت لأغاظك ذلك ونسبتي لي قلة الوفاء كما تنسبين إلى أبيك قالت إنه يسرني منك الصدق فهو مزية حسنة رئيسية بالانسان فمتى كملت صفاته كان صادقاً أميناً على وعده وعليه فإني أسلم بأمري وأمرك إليه تعالى فهو يدبرنا بعنايته كيف شاء ولا ريب أنه يقصد بذلك أمراً صعباً للوجود فالنصيب عنده محفوظ أما للخير واما للشر .

ثم انها طلبت إليه أن يذهب معها إلى غرفة الطعام حيث كانت بانتظاره ليتناولا معاً فأجابها وذهب إلى المائدة وجعل كل منهما يناول الآخر وهما على أهنأ ما يكون من حسن العيشة واللذة إلى أن فرغ الطعام فأخذته من يده إلى غرفة المدام وإذا بسفرة ممدودة وعليها القناني قد صفت بترتيب وإلى جانبها الأقداح الذهبية المرصعة وعلى دائرها صحون من الذهب المنقوش من عمل الاكاسرة فيها كلها البقولات اللذيذة الشهية والزهور الزكية العطرية فكان مجلساً أنيقاً أنيساً لسان حاله يقول :

عد إلى اللذات فالعمر قصير ... وحياة المرء في الدنيا غرور
أسرع الخطو فعندي شادن ... وفتاة وخمور وزهور
وسقاة وحداة وغنى ... وجنودك وطبول وزمور
كل ما درنا رأينا بيننا ... شادنا يشدو وكاسات تدور

وأيضاً :

أفديه ظبيا بالشراب مولعا ... وترشف الأقداح وهو الأكيس
فكأنه البدر المنير إذا بدا ... من نور طلعته أضاء المجلس

وعند المائدة كرسيان من العاج عليهما وشاحاً من الحرير الأحمر اللامع فجلس كل منهما على كرسي وحينئذ أخذت مهردكار كأساً ملأته خمراً وشربت منه قليلاً وسقته إلى الأمير حمزة من يدها فنزل على قلبه نزول العافية على جسم العليل المأيوس من الراحة فقصد أن يقابلها بالمثل فأخذ قدحاً وفعل مثلما فعلت وأنشدها :

قالت كحلت الجفون بالوسن قلت ارتقاباً لطيفك الحسن
قالت تسليت بعد فرقتنا فقلت عن مسكني وعن سكني
قالت تشاغلت عن محبتنا فقلت بفرط البكاء والحزن
قالت تناسيت قلت عافيتي قالت تناءيت قلت عني وطني
قالت تخليت قلت عن جلدي قالت تغير قلت في بدني
قالت تخصصت دون صحبتنا فقلت بالغبن فيك والغبن
قالت أذعت الأسرار قلت لها صير سري هواك كالعلن
قالت سررت الأعداء قلت لها ذلك شيء لو شئت لم يكن
قالت فماذا تروم قلت لها ساعة سعد بالوصل تسعدني
قالت فعين الرقيب تنظرنا قلت فإني للعين لم ابن
أنحلتني بالصدود منك فلو ترصدتني المنون لم ترني

وكان ينشد ذلك بصوت رقيق ناعم واط وكان صوته جميلاً فطربت مهردكار وسكرت من حسن إنشاده وملاحة صوته وطيب صفاته وقد غاب وعيها وضاع عقلها وملأت قدحاً آخر وشربته وسكبت آخر وسقته وأنشدته برخيم صوتها :

قد ذبت من ألم الجوى فاستبق بعضك يا فؤاد
واعلم بأنك لا ترد إذا فنيت ولا تعاد
بخلوا بطيف لو به سمحوا لما سمح السهاد
وممنع مما يتيـ ـه يكاد يغضبه الوداد
أقسمت لو سمع الجما د حديثه رقص الجماد
حبيه أنزل بي جنو ن الحب فارتحل الرشاد
مولاي برح بي الجفا والصد عني والبعاد
فالدمع وردي دائما والجمر لي أبدا مهاد
من لي بصبر والتصبـ ـر عنك ما لا يستفاد

وانصرفت بقية تلك الليلة على تلك الحالة وهما يتناشدان الأشعار ويتعاطيان الخمور ويتعانقان عناق العفاف والطهارة إلى أن أذن الوقت بالارتحال فنهض الأمير حمزة وطلب

الانصراف وقال لها قد آن أوان الوداع ولا بد بعنايته تعالى نلتقي في هذا القصر مرة ثانية فشعرت مهردكار بخوار قواها وانقضت عنها كل تلك المسرات التي لاقتها في تلك السهرة بدقيقة واحدة سمعت بها من الأمير كلمة الفراق ولم تقو على القيام فتمسكت به فرفعها وودعها وهو متأثر من حالتها وسار غنها مشتت الافكار يلعن أباها وبختك حيث أنهما كانا علة الفراق وسبب هذه الأحزان وبقيت مهردكار بعد ذلك ساعات لا تعي على أحد وقد حضرت قهرمانتها وخادمها فرفعا الموائد وغسلا الأرض وحملاها إلى سريرها على حالتها .

ولما وصل الأمير إلى صيوانه دخل إلى سريره فنام قليلاً إلى أن أشرقت شمس النهار جيداً فأيقظ عمر العيار وحينئذ خرج من سريره وتقلد بسلاحه وركب جواده الأصفران وسار إلى ضيوان الملك النعمان وسأله الرحيل والسفر عن تلك الأرض لإتمام ما وعد به فأجابه لأنه كان قد هيأ نفسه ودبر أمر عساكره وكذلك أندهوق بن سعدون ومعقل البهلوان وإذ ذاك أصدر الأمير حمزة أمره بالركوب فركب كل فارس وبطل وركب مع الأمير جماعته الثمانمائة الذين ولدوا يوم ولادته وانتقلوا عن تلك الأرض وأخلوها حتى بعد ساعات قليلة أصبحت خاوية خالية وكان كسرى يشاهد رحلهم وقد سره كثيراً فقال له بختك بشراك يا سيدي فإن العرب قد رحلت عنا وبعدت عن ديارنا ورحيلهم هذا سيكون إلى عدة سنوات هذا إذا لم ينقرضوا ويهلكوا وأريد منك الآن أن تأذن لي أن أبعث الرسل إلى كل العمال والملوك التابعين لمملكة الفرس والمحالفين لها أن يصرفوا الجهد إلى اهلاكهم وفنائهم ومن انقرضوا على يده كان له عندنا الخير العظيم والجزاء بالمعروف والمكافأة بتوسيع ملكه .

قال افعل ما تريد فإن ذلك عائد بالنفع لبلاد فارس فيتخلصون من العرب . وعلى ذلك كتب بختك الكتب وبعثها مع الرسل عن لسان الملك كسرى إلى كل من الولاة والأمراء والملوك يخبرهم بخبر الأمير حمزة وجماعته وما هو السبب الذي أوجبه لارساله إليهم ويسألهم أخيراً أن يسعوا في موته ومن فعل ذلك كافأه المكافأة الجزيلة وأقام بعد ذلك ينتظر ما يسمع من أخبارهم وفي ظنه أنه جنى ثمرة شره وخبثه وفعل أفعالاً عادت على بلاده بالخير واغتر بنفسه مفكراً أنه فاز على عدوه .

فهذا ما كان منه وأما ما كان من الأمير حمزة فإنه دام على مسيره وهو يخترق الفيافي والقفار بذلك الموكب العظيم الذي لا ينقص عن مائتي ألف فارس من فرسان العرب المشهورين إلى أن وصلوا إلى المدينة حلب وكان دليلهم عمر العيار حيث كان معه الذخيرة التي يهتدي بها إلى سائر الأماكن كما تقدم معنا ولما وصلوا عند ضواحي المدينة نزلوا هناك وأمروا أن تضرب الخيام وتسرح الخيول وترتاح الرجال مدة أيام وكان القائم على حلب

ملك اسمه نصير يعبد الله وهو عاقل يتبصر بأحوال مستقبل حياته ويعرف ما يكون منها وعندما وصلت إليه كتابة كسرى وعرف ما بها فكر في نفسه وقال لو لم يكن الأمير حمزة ممن يرهب جانبه لما خافه الملك الأكبر وأبعده عنه وقصد هلاكه بالحيلة على غير يده ولو لم يكن فيه الكفاءة بأن يزعزع ملكه لما تجاسر وطلب بنت كسرى زوجة له ولو لم يعلم أبوها أنه بطل شجاع لما أجابه ووعده أن يزوجه بها وأخذ يحتال عليه ويسلك الغش والخداع لينتقم منه فمن الواجب أن أشتري نفسي بالتي هي أحسن وأجعل بيني وبينه مودة وصداقة إلى أن أرى ما يكون من غيري من العمال وبهذا أدفع شره عن بلادي وأدعه يرحل إلى غيرها ولما وصل حمزة إلى تلك الأرض واستقر فيها كتب كتاباً إلى الأمير نصير المذكور يعرض عليه امر كسرى الذي بعثه لأجله ويطلب إليه دفع الاخرجة عن سبع سنوات ماضية فقرأ الكتاب وفي الحال جمع رجال دولته وأعيان بلاده وعرض عليهم كتابة كسرى وكتابة الأمير وأخبرهم ما جال بفكره فاستحسنوا رأيه وطلبوا أن يخرجوا إلى ملاقاة الأمير ويترحبوا به ويعرضوا عليه أمرهم ويخبروه بكتابة كسرى وأن لا بارة الفرد عليهم ومن ثم خرجوا إلى خارج المدينة وجاءوا المكان المقيم فيه حمزة مع جماعته ودخلوا عليه فلاقاهم وترحب بهم وسلم عليهم ولما استقر بهم الجلوس قال الأمير لصاحب المدينة اعلم أيها الأمير أن الملك كسرى قد بعثني لأجمع له الأموال المتأخرة على البلاد فإنه في حاجة لها ولذلك أريد منكم أن تجمعوا ما هو عليكم من سبع سنوات وتسلموني إياه حالاً فإني أريد الرحيل ولا أرضى أن أقيم اكثر من مدة أقدر بها أن أقبض الأخرجة المطلوبة فقال إننا كلنا نحن بين يديك وطوع أمرك وإننا نخالف كسرى من أجلك غير أن لا خفاك أنه أراد بذلك إبعادك وهلاكك لأن لا بارة واحدة في ذمتنا له فإذا أخذت منا شيئاً تكون قد ظلمتنا وحاشاك من ذلك قال إني أعرف أنه استوفى منكم مطلوبه غير أني جئت لهذه الغاية فلا أريد أن أرجع كي لا يبقي له حجة يحتج بها نعم إنه لا يمكنكم أن تدفعوا عن سبع سنين ماضية مرتين غير أني أريد تدفعوا لي عن سبع سنوات آتية سلفاً وأعطيكم بها وصلا موقعاً مني بحسب تفويضي من الملك كسرى ومنذ هذه السنة إلى مدة سبع سنوات أخرى لا تدفعون بارة إلى أحد غير ذلك لا يمكنني أن أقبل . فقال الأمير نصير إن كان لا بد من ذلك فاصبر على مقدار عشرين يوماً ريثما أقدر أن أجمع الأموال المطلوبة من النواحي والقرى . إني أجبتك إلى ذلك واكراماً لك أقسم على الانتظار وسوف تري ان شاء الله ما يسرك في ما يأتي من الزمان فتتخلص من دفع الأموال والاخرجة لعبدة النار والكفرة . وبعد أن صرف أهل المدينة قسماً من النهار عند الأمير حمزة ودعوه ونزلوا المدينة وأخذوا في جمع الأموال المطلوبة ،وقد عملوا للعرب وليمة عظيمة لها قدر وقيمة واختلطوا ببعضهم البعض وأصبحوا كلهم قبيلة واحدة وبقوا مدة عشرين يوماً وفي اليوم الحادي والعشرين خرج الأمير والأموال بين

يديه وقد سدت القضاء من كل محاصيل حلب وعدا عن الذهب والفضة فقدمها إلى حمزة وأخذ منه بها وصولات موقعة منه بعد أن قبض الأموال قال له إني أخبرك لاعدت تدفع منذ اليوم إلى كسرى ولا بارة الفرد واني أعفيك من هذا الخراج وإذا عاد فطلب منك أموالاً زعزعت الإيوان على رأسه وضربت بلاده لأني في هذه المرة سأعود إليه بصفة محارب لا مسالم وسوف تصل إليك الأخبار ثم إن الأمير نصير دفع إليه كتابة كسرى المرسلة إليه فأخذها منه وسلمها للملك النعمان وقال له احفظ هذه عندك إلى حين الحاجة وبعد ذلك ودع الأمير نصير ووعده بالعودة مرة ثانية في أثناء مروره من تلك الجهة . ومن ثم أمر رجاله ان تقلع عن تلك الأرض وتسير في طريق آخر إلى غير جهة فركب الجميع وسألوا عمر العيار إلى أين يريد أن يسير بهم فقال نسير من هنا على طريق ديار بكر وأورفه والموصل ومن ثم إلى القسطنطينية ومن بعد ان نفرغ من كل هذه البلاد نعود إلى حلب ونسير في طريق آخر .

ثم إنه سار أمامهم على الطريق الذي أشار اليه وسار الجميع في أثره وبقوا مدة أيام إلى أن وصلوا إلى ديار بكر فجمع المال من صاحبه دون أن يكون منه معارض أو ممانع وبعد أن قبض الأمير الخراج وأعطى به وصولاً عن سبع سنوات سلفاً رحل إلى أورفه ففعل كما فعل بغيرها وقبض الأموال وأعطى بها الوصولات وأخذ مكاتيب كسرى المرسلة إليهم بخصوص هلاكه ودام الأمير حمزة وجماعته العرب يسيرون من ولاية إلى ولاية ومن عاصمة إلى عاصمة يجمعون الخراج ويرفعون الأحمال على ظهور الجمال وكل واحد يقتدى بجاره فلا يمتنع ويعتذر عن الدفع بل كان الجميع يسرون من معاملة الأمير ويحبونه الحب العظيم ولا سيما عندما يثبت لهم أن هذا هو الخراج الذي يدفعونه وأن بعد ذلك لا يدفعون قط لأحد وكل منهم يكون حراً فقط يلتزم ان يبقى على صداقته ومودته فيساعده المساعدة الواجبة ويدافع عن بلاده .

ولا زال سائراً إلى أن أقرب من القسطنطينية وكان الحاكم عليها ملك على الشأن رفيع المقام كامل حكيم خبير بأحوال السياسة والفنون والمعارف والطب والهيئة اسمه اسطفانوس فلما سمع بوصول العرب إليه فرح جداً لأنه كان يعرف أن رجلاً من العرب يخرج على بلاد العجم فيقلب تخت كسرى ويضعف شوكة العجم ويذلهم إلى أن تهدم من بعده معابد النار بإذن العزيز الجبار ولذلك لبس أفخر ملابسه ووضع التاج على رأسه وخرج بموكب عظيم إلى ملاقاة حمزة والذين معه ولما وصل إلى معسكر العرب عرف بقدومه ملك النعمان فخرج إلى ملتقاه وسأل حمزة أن يخرج وقال له إن هذا الملك هو أفضل من كسرى شأناً وأدباً ولذلك من الواجب أن نسعى في خدمته ولما وصل إليهم ترجل وترجلوا وسلم كل منهم على الآخر وعادوا إلى صيوان الملك النعمان فدخلوه

وجلست أعيان القسطنطينية حول سيدهم وترحبوا بقدوم العرب إليهم وقال الملك اسطفانوس أعلموا أيها السادات الكرام اننا نعرف أن العرب قوم اعتادوا على المروءة والوفاء وحفظ الناموس ويبذلون نفوسهم في شرف ناموسهم وإن كانوا يسكنون البادية وهم على غير شيء من العلوم والمعارف ويعرفون الشعر فيتغزلون ويتحمسون دأبهم السلب والنهب والاغارات على بعضهم بعضاً لكن مزية تأمين الجار وإغاثة الملهوف لا تقاس بها فضيلة فهم على هذه أفضل من غيرهم بكثير يحق لهم أن يباهوا على الأكاسرة وكل طوائف الأرض ولذلك أخبركم الآن أنه وصلت إليّ كتابة كسرى مع رسوله وعرض علي عنادكم وأخبرني بكل ما كان من الأمير حمزة فعجبت منه ومن عمله وخداعه ونكثه للمعروف ونكرانه للجميل فكيف يسعى في هلاك فتى تربى على ماله وفي عهدته وأخيراً خلص له بلاده من عدوه خارتين وأرجعه إلى ملكه بعد أن كان قادراً أن يتولاها هو ويجعلها عاصمة الممالك العربية ويسود به العرب على كل قبائل الدنيا وعرفت من هنا أن كسرى ظالم مخاتل وأن حمزة مظلوم معه وقد فتشت في الكتب فوجدت أنه هو الذي دلت عليه الدلائل فيذل الاعجام ويثل عرش كسرى ويكون له شأن عظيم ويقع بينه وبين كسرى حروب هائلة عظيمة يحتاج بها إلى مسعفين ومساعدين فتاقت نفسي إلى مصاحبتكم لأكون معه وأخدمه على سعادته واقباله لأني عارف بمهنة الطب معرفة تكفل لكم شفاء كل جريح يصاب وقت الحرب نعم ان كسرى بعثكم إلي مع علمه لست من عماله لكن ترجاني أن أقتل الأمير حمزة وأحارب العرب ظاناً أني أوافقه على جهله وأجعل نفسي آلة بيده لانقاذ غاياته بل سوف يراني عدواً له ألد وذلك من أجلكم وحباً لكم فإن حمزتكم موفق وسوف تصل به السعادة إلى أعلى درجات المجد وينال ما لا يناله غيره لا من الأمراء ولا من الملوك والأبطال .

فلما سمع العرب كلامه مدحوه عليه وشكروه وتعجبوا من كرامته وقال له الملك النعمان لا ريب أن دين النصرانية هو الذي حملك على كرامة الاخلاق والتعقل والتبصر بعواقب الأمور قال نعم ان الدين بالله تعالى والتسليم بأقواله ومحبة انبيائه علة كبرى للتهذيب والاخلاق وتحسين المزايا في كل نفس بشرية غير ان للحق سلطاناً سائداً في الناس يعرفه كل فرد من افراد البشر فيدوسه صاحب الاخلاق السيئة مع اعترافه به في داخله ويكرمه سليم الطباع تأدباً منه وما أريده الآن هو حق وواجب فقال الأمير حمزة اننا في حاجة لمثلك في سفرنا هذا وفي كل حياتنا فأهلاً بك ومرحباً فستكون من كبار رجالنا وسادات قومنا غير أن تدفعها لي فأعطيك بها وصلاً وما ذلك إلا حفظاً للحساب كي لا أغلط مع كسرى إذا قبل وسلمني بنته زوجة عن طيب خاطر ورضا ولا يكون له على حجة فيقول لي ما تممت الوعد ولا جئت بالرسم المضروب على القسطنطينية وأن كانت

مستقلة لكن عاهدته أن أسير إليها وإلى كل البلاد التي أشار لي عنها بحوزته وأمتنعت عن دفع الجزية . قال فأقدم الجزية اكراماً لك لا له وأزيدك فوقها أني آخذ معي كل ما هو عزيز وثمين ليكون في خدمتك وتحت أمرك فلا تعود لكسرى من حجة عليك وبعد أن أقام الملك اسطفانوس نحو ثلاث ساعات عند العرب ودعهم ونزل إلى البلد وقد دعاهم في اليوم الثاني إلى وليمة ليكونوا كل مدة إقامتهم القليلة في ضيافته فأجابوه إلى ذلك وأقاموا بعد رحيله يتحدثون بشأنه وقد قال الملك النعمان إن السعادة ترافقنا أينما رحنا فإذا كان الملك اسطفانوس معنا انتفعنا به كثيراً لأنه رجل عاقل وطبيب ماهر خبير بأحوال البلدان وصفات أهلها وعوائدهم نير الفكرة متوقدها فلما يخطىء رأيه عن الإصابة فقال الأمير حمزة أن قلبي قد مال إليه كثيراً وأحببته حباً خارقاً للعادة ولم يمل قلبي لرجل قط مثله إلا لبزرجمهر الوزير وإني أشكر الله على هذا التوفيق لأننا بوقت قرب. وصلنا إلى هذه الجهات دون أن يشهر احد بوجهنا حساماً بخلاف المظنون وما من ملك أو عامل قصد عنادنا أو سعى في هلاكنا وإني أطلب منه تعالى أن تكون بقية اسفارنا في هذه المرة مثل ما مضى فقال اندهوق لا بد لنا في سفرنا هذا من ملاقاة أهوال وصعوبات كما نلاقي توفيقاً ونجاحاً فسبحان الحي القيوم الذي قدر علينا ما لا نعلمه .

قال وصرفوا باقي ذاك النهار وتلك الليلة في معسكر الأمير حمزة يتمنى أن يشرق فجر اليوم الثاني لينزل إلى المدينة ويشاهد اسطفانوس ويتفرج على ما حوته القسطنطينية من الزخارف والتحف وعند الصباح ركب النعمان وركب الأمير حمزة واندهوق ومعقل البهلوان وأصفران الدربندي والأمير عقيل وباقي الأمراء من العرب ومن جاراهم وكلهم بشوق زائد إلى الفرجة على تلك المدينة العظيمة وعندما قربوا من أبوابها وجدوا اسطفانوس قد جاء لملاقاتهم فترجلوا وتقدموا اليه وسلموا عليه ودخلوا المدينة ومشوا في أسواقها وتركوا خيولهم في الخارج لأن اسواق المدينة كانت مبلطة بالرخام الأبيض المشغول بالنقش الروماني بعروق سوداء مصنوعة على نسق جميل مما يدهش العقول وكذلك جدران الأسواق وأغطيتها كانت مغطاة بألواح من خشب الجوز المدهون وبين كل لوح ولوح خط أصفر ذهبي يلمع كالذهب فداوموا المسير وكلما مشوا في سوق يروا شيئاً جديداً إلى أن وصلوا إلى سراية الأحكام فوجدوا بابها من الرخام وأعلاه من النحاس الأصفر المنقوش وعليه رسوم وتماثيل عجيبة تأخذ الأبصار لم ير النعمان ولا غيره مثلها وعند جانبي الباب أسدان من النحاس الأصفر كل واحد منها بقدر الأسد الكبير وأعينهما متجهة على الدوام إلى كل من ينظر إليهما وبعد أن يدخلوا باب السراية نظروا هناك العجائب من كثرة التحف والتماثيل المصنوعة من عمل قدماء اليونان المجلوبة وبالاختصار بعد ان صرف العرب أكثر من نصف النهار بالفرجة على دار الحكومة عاد بهم اسطفانوس إلى قصره

الخاص المطل على البحر فدخله الأمير حمزة وجماعته وقد اندهشوا من حسن صناعته أكثر مما اندهشوا عن عجائب صناعة السراية وجلسوا على كراس من الذهب أعدت لهم وأحضرت مائدة الطعام فأكلوا من ذاك الطعام الشهي الذي لا يوجد ألذ منه ولا أتقن من صنعه . وبعد أن فرغوا من الطعام جاءهم بقناني المدام وطاسات الذهب على صوان من الذهب الخالص فوضعت بين أيديهم فشربوا من صافي المدام وأكلوا من نقل القسطنطينية وفاكهتها وصرفوا النهار إلى المساء وعند المساء عادوا إلى المعسكر وأهل المدينة رجالاً ونساء تزدحم حولهم يتفرجون على الأمير حمزة ويشاهدون معنى جماله وهل وهو كما شائع عنه فوجدوا عليه من الهيبة والوقار وَدلائل الاقدام والبسالة ما أعجبهم وذموا كسرى كيف امتنع عليه ولم يزوجه ببنته وما رأته بنت الا وتمنت أن تكون زوجة له ويكون بعلاً لها . ودام إلى أن دخل المعسكر وهو مسرور مما شاهد في نهاره .

ومما وقع له من الاعتبار والتعظيم في قلوب أهل القسطنطينية وأعظم سروره من أسطفانوس الملك ورقة معانيه وكرامة أخلاقه وكان يتمنى أن تكون مهرد كار معه وتقاسمه تلك التهاني والاحتفالات وتتفرج على بلد هي أعظم من بلاد أبيها بألوف مرات وقد وضعت تحت سلطنته وإرادته وعزم ملكها على تركها رغبة في خدمته وأن يكون بين يديه مدة حياته . كل ذلك مما يجعله أن يكون مفتخراً على الفرس وملكهم ونام تلك الليلة في سريره وهو على مثل هذه الأفكار والهواجس مسروراً في محبته إلى تلك النواحي ليلقى فيها محبته وتتعرف به أهلها ولما كان الصباح ركبوا أيضاً ونزلوا المدينة فصادفوا الأمير اسطفانوس بانتظارهم فأخذهم وأنزلهم في قوارب مختصة به من عمل اليونان وطاف بهم البحر وسواحل المدينة كلها وأنزلهم في شاطىء عند الجهة الشمالية كان قد أعد لهم الطعام به فأكلوا وأقاموا ساعات ثم عادوا إلى الطواف بالبحر ورجعوا بعد ذلك إلى الوراء وهم باندهال وحيرة وعندما صاروا على البر ودعهم الملك اسطفانوس وعول على الرجوع .

فقال له الأمير حمزة إعلم أيها الملك العظيم إني لا أحب أن أبقى في هذه المدينة أكثر من يوم واحد ومن ثم أريد المسير والعود إلى بلاد غير هذه وأريد منك أن تكون على أهبة السفر وتأمر بإحضار كل شيء وتأتي بالأموال المعينة لأضمها إلى الأموال التي جمعت من غير هذه المدينة . قال إنه كان أحب عندي أن تبقى كل عمرك في هذه المدينة فأخدمك أنا ورجالي ونقدم لك كل ما عز وهان غير أني لما كنت عالما أن لا بد من الرجوع إلى المدائن بعد تطوافك في البلاد كان لي أن أصغي إليك وإني سأكون بعد غد على حالة السفر فما من عاقة مني قط . فشكره حمزة على كلامه وعاد إلى المعسكر وفي اليوم الثالث جاء رسول اسطفانوس وطلب إلى الأمير حمزة أن يأذن لجميع رجال العرب كبيراً وصغيراً أن يدخلوا المدينة ويتفرجوا عليها إذ لم يكن باق لهم في تلك الأرض غير ذاك اليوم ويكونوا كل النهار بضيافة أهل المدينة

فأعجب هذا الأمر الأمير حمزة وشكر اسطفانوس وسمح لرجاله بأجمعهم أن يدخلوا المدينة ويتفرجوا عليها وأوصاهم بأن يحفظوا الآداب ويسلكوا مسلك الحشمة وعند المساء يعودون إلى مراكزهم فكادوا يطيرون من الفرح واندفعوا أفواجاً إلى أبواب المدينة . وكان الملك اسطفانوس قد حضر إلى باب المدينة ومعه جماعة من القواد والأعيان فقسم عليهم رجال العرب وأوصاهم أن يطوفوا بهم في أزقة المدينة ومنتزهاتها وأن يطعموهم ويضيفوهم ويجروا معهم كل إكرام وتبجيل ولا يقللوا عن ضيافتهم وأخذ هو الأمير حمزة وجماعته وذهب بهم إلى ضواحي المدينة وآكليها حيث كان قد أعد لهم وليمة هناك فخرجوا معه وطافوا في تلك النواحي وتوغل الأمير حمزة في البراري فاصطاد شيئاً كثيراً من الوحوش والأرانب وجاء بها للطعام وصرفوا ذاك النهار من أحسن الأيام التي مرت على الأمير حمزة والعرب وعند المساء عادوا إلى المعسكر فرأوا رجالهم لقد لفوا وعادوا من المدينة بعد أن لاقوا فيها ما أدهشهم وحيرهم ونام العرب في تلك الليلة وفي نية الأمير حمزة أنهم في اليوم التالي يستعدون للسفر ويقبضون الأموال من الملك اسطفانوس ملك البلد ويسيرون به إلى حيث يقصدون ولما كان الصباح نهض الأمير من فراشه وإذا به يرى الأحمال خارجة من أبواب المدينة على ظهور الرجال وقد أتوا بها إلى بين يديه وصرفوا قسماً كبيراً من النهار على مثل هذا العمل حتى انبهر من كثرة الأموال ومن عظم ما شاهد فكان اسطفانوس قد اختار أن يأخذ معه كل ما في المدينة من التحف والذخائر والذهب والجواهر ليجعلها في خدمة الأمير حمزة يستعين بها على حياته واحتياجه هذه فضلاً عن الأموال المضروبة عليه أي التي هي الأخرجة التي يجمعها عن سبع سنوات تحت اسم الملك كسرى .

وبعد أن فرغ اسطفانوس من ذلك أقام حاكماً على المدينة من قبله كان يعتقد به اللياقة والآداب وأوصاه أن يكون على العدل والحلم وأن لا يراعي جانب أحد بل يقصد مرضاة الله سبحانه وتعالى وحقوق الرعية وبالاختصار أنه خرج من المدينة وخرج لوداعه أهل مملكته برمتهم وهم يتأسفون على فراقه ويبكون لبعاده لأنه كان محبوباً منهم جداً من ثم أقلعت العرب عن تلك الأرض وانعكفت راجعة إلى الوراء وقد تبع اسطفانوس قوم كثير من رجاله وأعيانه وقسم كبير من عساكره حتى كاد يضيق بهم الفضاء وبقوا في مسيرهم مدة أيام حتى عادوا إلى حلب فتلقاهم الأمير نصير وأضافهم مدة ثلاثة أيام وقد تعجب من حسن حظ الأمير حمزة وسعادته من كثرة الأموال التي جاء بها . وبعد ذلك رحلت العرب من هناك طالبة بلاد اليونان لأنها من جملة البلدان التي عدها كسرى وكان له في المقدمة عمر العيار وهو سائر أمام الجميع يأخذ بهم أقرب الطرقات وما برحوا على مثل هذا السير حتى قاربوا بلاد اليونان وكان الحاكم على تلك البلاد ملك اسمه اسطون اليوناني فلما سمع بقدوم العرب إليه وكان قد وصلت إليه كتابة الملك كسرى وجرى على قلبه ما جرى على غيره من محبة الأمير

حمزة قبل أن يراه ولذلك بعث بوزيريه أن يلاقيا العرب على بعد من المدينة وأن يدعيا الأمير حمزة ورجاله الأخصاء إلى ضيافته داخل المدينة لأنه أفرغ القصور وأعدها لمنامتهم كل مدة قيامهم في تلك المدينة فسار الوزيران حتى أقبلا على الأمير حمزة وهو سائر في المقدمة خلف أخيه عمر فترجلا وحياه بأحسن التحية وبلغاه سلام الملك اسطون ودعوته وأنه أرسلهما إليه ليخدماه إلى حين دخوله المدينة فلما عرف أنهما وزيران عند الملك اليوناني وأنهما جاءا على ما تقدم وفي نية سيدهما أن يكون صديقاً له ولا يشهر سلاحاً في وجهه فرح غاية الفرح وسر مزيد السرور وأجاب دعوة الوزيرين وأمرهما بالركوب بعد أن أثنى عليهما مزيد الثناء ودام على سيره إلى أن بانت المدينة وظهرت لهم فأراد الأمير أن يأمر عساكره بالنزول وإذا بموكب قد خرج من أبواب البلد بالموسيقات والزين الفاخرة وعرف الأمير أنه هذا هو الملك اسطون قد جاء بملاقاته فتقدمَ إلى أن قرب منه وعرف كل واحد منهما الآخر حق المعرفة فترجلا وسلما على بعضهما سلام المودة ومن ثم سلم الملك اسطون على اسطفانوس والنعمان وأندهوق وباقي الأعيان .

وبعد الفراغ من السلام طالب اسطون إلى حمزة أن يزوره في المدينة ويقيم عنده في قصره وكذلك باقي السادات فيقيمون في ضيافته ليلاً ونهاراً مدة وجودهم عنده فسر الأمير من عمله وكان قلبه قد مال إليه كل الميل فعلم أنه حسن الطوية صادق القول فركن له كل الركون وسار إلى المدينة بعد أن أمر الأمير عقيل أن يبقى مع المعسكر ويرعاه ويلاحظ أحواله وبقي سائراً في الأول إلى أن وصل إلى باب المدينة فوجد نساء تزدحم عندهم أفواجاً أفواجاً وكلهم بالملابس الفاخرة على النسق اليوناني فوق رؤ وسهم قبعات من القش والمخمل وغيره على اختلاف المشارب ورأى النساء سافرات الوجوه مثل الرجال فعلم أن تلك عادة مألوفة لعدم وجود الغش والخداع بينهم وأن كل واحد منهم يركن للآخر حق الركون ويطلق لزوجته ونسائه الحرية ليقاسمنه في حقوق الراحة وأن المرأة الغير المستقيمة لا تستقيم إذا حجبت ومنعت عن مرأى الناس بل ربما تصورت أن مرأى الناس يبيح لها المنكرات فحجبت عنه وبالعكس المرأة المستقيمة لا تعهر إذا أسفرت غير أن الاختلاف في العوائد لا يحط من قدر أهلها عند ذوي العقول العاقلة ولذلك لم ير الأمير أن ذلك من قبيح العوائد بل صار مغضاً بطرفه عن النساء اللاتي هن أشبه بالبدور جمالاً وبهاء ولا زال إلى أن وصل إلى القصر الذي أعد لضيافته فدخل من خلفه الأمراء والأعيان من أهل المدينة ومن جماعة الأمير وأحضر لهم الشراب من أفخر ما يعمل بالسكر والليمون وماء الزهر وبعد ذلك قدم الطعام وصفت الصحون من سائر الألوان ودعى الأمير وجماعته للأكل فنهضوا وجاءوا المائدة وجلسوا وجلس الأمير ثم حضرت زوجة الملك أسطون وبنته وسلما على الأمير حمزة وجلسا على مائدة الطعام وصادف جلوس بنت أسطون تجاه الأمير حمزة فنظر إليها نظرة على غير

قصد فرآها من أجمل النساء وجهاً وأبهاهن منظراً معتدلة القامة مستديرة الوجه متلونة بلون البياض والاحمرار ناعمة الأطراف ورأى عليها من الجواهر ما يزيد في حسنها ورآها أيضاً تنظـر اليه باستمرار كأنها مغرمة به فأعرض عنها وفي قصده أن يشغل فكره فلا يعود إلى النظر مرة ثانية في وجهها خوفاً من أن تطمع بحبه واختشاء من أن تسلب لبه وقلبه لأن جمالها كاف لأن يأخذ بعقل أشد الناس ورعا وتقاوة ويلقي بأكبر الشيوخ في حجر الغرام فيتجدد به زمن الصبا غير أن عمل الأمير لم يكن كاف لأن ينسخ صورتها من ذهنه ويمسح ذاك الرسم الذي طبع من نظرة واحدة فعلق في ذهنه وخاطره كما يعلق رسم المصور بالفوتوغرافي ببرهة لا تزيد عن ثوان قليلة وفوق ذلك أن الرسم المذكور أخذ في أن يرسخ شيئاً فشيئاً على غير قصد من الأمير حمزة حتى أنه لولا تعقله وشدة صبره لصاح وخرج من تلك المائدة بعيداً عن ذاك القصر ليتخلص من نتيجة تلك النظرة ولم تخف حالته على بنت الملك أسطون فسرت بداخلها وتعجبت كيف أصابه الهيام الذي أصابها غير أنها كانت تنظر إليه بحرفة غير ملتفتة إلى من حواليه إذ أن لها الحق أن تكون قائدة لنفسها .

وبعد أن فرغا من الطعام وتقدمت بنت أسطون الملك من الأمير حمزة وسلمت عليه بلسان عربي فصيح مع تلعثم في لسانها اليوناني فزاد هيامه على رغم أنفه وتكدر من نفسه مزيد الكدر ولولا حياءه من أبيها لأعرض عنها لا كرها فيها بل تخلصاً من حبها لكونه كان قد سبق فربط قلبه بمحبة مهرد كار ووعدها أن تكون زوجة له وسيدة نفسه إلا أنه أجابها على كلامها بالاختصار وطلب من الملك أسطون أن يذهب به في أسواق المدينة ليتفرج عليها وقد قصد بذلك البعاد عنها عساه يضيع رسمها من ذهنه وهواها من قلبه العامل على الخفقان المستمر من حين نظره إليها فأجابه الملك أسطون إلى سؤاله ومشى أمامه إلى المدينة وأخذ يطوف به وبقومه في شوارعها ومناصفها ومرابضها ويخبره عن كل محل ومن أي زمن بني والأمير يسمع وهو مشغل الفكر ضائع العقل وصرف باقي النهار وفي المساء ذهب به الملك اسطوان إلى قصر ملاصق قصره الخاص فأدخله إليه وقال له هذا قصر منامتك ما زلت عندنا في بلادنا وأعد أيضاً لكل ملك وأمير من العربِ مكاناً لمنامته وتركهم تلك الليلة ينامون براحة لعلمه أنهم من جراء السفر في مشاق طويل ولما دخل الأمير حمزة واختلى بنفسه جعل يفكر فيما جرى له فكاد صوابه وقال في ذاته كيف يمكنني أن أسلم قلبي لفتاة ثانية غير مهرد كار فمن أين جاءت هذه الصبية ولم أحبها قلبي وشغل بها ضميري وأضحت موضوعاً للنظر عندي مع أني أكره وقوعي بحب غير من أحبها قلبي وشغل بها ضميري وأضحت موضوعاً للنظر عندي مع أني أكره وقوعي بحب غير من أحببتها لأكون أميناً على الوفاء معها نعم إني أعرف أنها هي تكون على الدوام في الدرجة الأولى عندي وإن أكن قد أحببت سواها لكن ما هو السبب الذي يضطرني إلى ركوب مثل هذا الأمر الغير محمود . وقصد الأمير حمزة مراراً

أن ينام فلم يقدر بل كان يقوى عليه هوى بنت الملك حتى رأى أن لا مندوحة له عن حبها ولا بد من أن تكون موضوعاً لأفكاره وأن هذا الحب هو وقع عليه بيد القضاء والقدر رغماً عنه وأن لله بذلك قصد لا بد من انفاذه فسلم أمره إلى الله تعالى وترك بأفكاره وأمياله إلى تلك الفتاة اليونانية فغاصت نفسه في معنى جمالها وتاقت إلى التقرب منها وزادت في عينه بهاء وحسناً وكبر حبه حتى ملأ قلبه ولبه ولذلك أنشد :

تراءت لعيني وهي بالشعر تحجب ... فخلت شعاع الشمس يعلوه غيهب
ولم تحتجب بعد الظهور وإنما ... بتنزيهها عن ذاك طرفي يكذب
وما هي إلا الشمس في الأفق أشرقت ... يدور سناها بعد ما كان يغلب
مهاة رعت حب القلوب فما لها ... تروع نفاراً وهي للأنس تنسب
وكلمت الأحشا بمرسى لحظها ... فأصبحت منها خائفاً أترقب
وعذب قلبي دلها بنعيمه ... ولم أدر أني بالنعيم أعذب
وأبدلت مزن الدمع في الخد جوهراً ... ألم تره بالهدب قد عاد يثقب
حكى حسنها بدر الدجى متكلفاً ... وراح بهاتيك الحكاية يعرب
وسل ثغرها المعسول عن لعس به ... وإلا عن الصهباء بالمسك يرسب
فوجنتها والثغر نار وكوكب ... وطلعتها والشعر صبح وغيهب
وقامتها والردف غصن وبانة ... ومقلتها والصدغ سيف وعقرب
حمتني اللمى فاعتضت عنه مدامة ... وخمر اللمى عندي ألذ وأعذب

فلنترك الأمير حمزة على فراشه يخبط بين ديجور أفكاره وغرامه وصبح جمال بنت أسطون حبيبته الجديدة التي أرغم إلى هواها على غير إرادة منه ويتمنى أن يتخلص منه إذا أمكن ولنرجع إلى بنت الملك وكان اسمها زهربان وقد أحبت الأمير وتعشقته تعشقاً عظيما قويا فلم تقدر على كتمان هواها بل تقدمت من أمها وقالت لها اعلمي يا أماه أن هذا الأمير ظريف الطلعة جميل الوجه محبوب جداً ولذلك تريني قد أحببته حباً خارقاً للعادة حتى لم أعد أقدر على فراقه ولا أعرف كيف السبيل للوصول اليه . فقالت لها أمها إني أعذرك يا بنتي على محبته فإني رأيته وعلمت أنه فوق ما تقولين ولو كان غريب الجنس وعربي الأصل نخاف أن لا يرضى مخالطة غير أبناء جنسه وإذا كان يرضى إلا أنه على ما عرفت مولع بحب بنت كسرى ملك الأعجام ولأجلها جاء إلى هذه الديار وطرق البلدان وهذا الذي يدعنا أن لا نعلق الأمل بزواجك به وإلا لو أنه مال إليك كما ملت اليه لكان تقرب منك وأظهر لك حبه وميله وسأل فيك أباك وبهذه الطريقة كنت أمينة على غايتك ومع كل ذلك فالأوفق أن تصبري إلى أن يتيسر لنا باباً نتوصل منه إلى مفاتحة الأمير بمثل هذا الشأن وأنا في مساء الغد سأفاتح أباك بهذا المعنى وأتساعد وإياه على نوال غايتك فارتاح فكر الفتاة من ذلك وذهبت إلى غرفتها

لتنام فلم يأخذها نوم ولعب برأسها الهوى وأشغلها الحب وذهب بها إلى أن باحت بما في ضميرها واصفة عشيقها بقصيدة غراء وهي :

يا بدر هندي لحظك الحد ... جاوز في الحد غاية الحد
وعنبر الخال صان حسناً ... بنرجس اللحظ بانة القد
وصارم اللحظ ظل يحمي ... بعقرب الصدغ وردة الخد
يا خد بدر وقد غصن ... وثغر در وجيد أعيد
قد طلق النوم فيك عيني ... فهي له بالسواد تعتد
يا لذوي الحسن هام قلبي ... بشادن لحظه تأسد
إذا تثني وبدا شهدنا ... هلال ثم يهز أملد
كليل جفن حديد طرف ... كحيل عين مورد الخد
شنيب ثغر شهي ريق ... رقيق خصر مهفهف القد
هاروت عينيه قام يدعو ... بسمر طرف له مهند
لما تجلى لعاشقيه ... خروا له ركعا وسجد
أرسل فرعا فلاح برق ... حسبته في الظلام فرقد
وصان ردفاً به ولم لا ... يحجب ما صان وهو أسود
مبلبل الصدغ كسروي الـ ... ـجفون قاني والجمال أوجد
مضفر الشعر طاهري الـ ... ـسنان عز البها مؤيد
روى لوردي وجنتيه ... حديث نبت العذار مسند
وثغره الجوهري، لما ... أنبأنا بالصحاح أسند
وقده المتعالي يروي ... عن كعب ثدي له تنهد
وحسنه السيوفي لما ... أطلق معنى الجمال قيد
مزرد العارضين أحوى ... يا من رأى الشاذن المزود
قد صار تفاح وجنتيه ... مخضبا بالدماء معهد
وعادل فيه لو رآه ... سلم طوعا وما تردد
وظل يدعو إلى هواه ... من لم يكن بالهوى تعود
يلومني في الغرام كفرا ... ولو بدا حسنه تشهد
ألم تر الخلق كيف ضلوا ... في حسن معنى به تفرد
ويدعى بالشبيه جهلا ... أما هداه الجمال الأوحد
من أين للبدر لين قد ... مهما ثناه يكاد يعقد
أو كيف للغصن ورد خد ... إذا جرى ماؤه توقد
أم أين للظبي وجه صبح ... وفرع ليل وفرق فرقد

يـفــتر عــن جــوهــر نــضــيــد ... مــا أحسن الجــوهــر المنضــد
مــن لي بــه جــوهــري ثــغــر ... قــد نضــد للــدر فوق عسجــد
تــوجــه الحــســن إذ كــســاه ... حــلــة نــور طرازهــا الــنــد
مــهــفــهــف قــلــت إذا تــثنى ... يــا جــامــع الحسن أنــت مفــرد
أن لــج فيــه الحســود حسبي ... أن جمــيــع المــلاح تحســد

وكانت تنشد وزفراتها تتصاعد كأنها قريحة من جراء العشق الذي فعل بقلبها منذ ساعات قليلة فعلاً لم يفعله بغيرها منذ أشهر وأعوام وبقيت تفكر في معنى حالتها وما أصابها وقد لاح في ذهنها كلام أمها من أنه ربما كان لا يرغب فيها ولا يرضاها مع أنها شاهدت ارتباكا وضياعا وحدثها قلبها أنه لا ريب هام بها ولهذا خطر لها أن تذهب إليه في نفس تلك الليلة وتعرض حالها عليه وتعرف منه هل يحبها ويرضاها أو يتركها ويعرض عنها وقالت في نفسها ماذا يا ترى يصير لي ويجري إذا ذهبت إليه ودخلت عليه وعرضت بذاتي بين يديه ألست جميلة وجمالي كاف لأن يرضيه أو ليس هو النوع الانساني الذي خلق طبعاً بأميال تمتاز عن سواه من الخليقة فيرغب في كل شيء حسن ويحب كل جميل نعم إنه دون شك يميل إلى ويرضى بالاقتران مني ولا ألام على ذلك فإني أسعى في صالح نفسي وأحك جسمي بظفري كيف أتأخر عن ذلك وهو مقيم في قصري وبالقرب مني وبيني وبينه أذرع قليلة فيا لسعادتي إذا وافق طلبي ووعدني بالحب وما رأيته منه في هذا النهار يجعلني أن أعد نفسي بالسعادة ولما استحسنت هذا الأمر ورأت أن لا بد من المسير إلى مكان الأمير والدخول عليه في غرفته نهضت إلى ثيابها فلبستها وتزينت بأحسن زينة وتطيبت بالطيوب الزكية وخرجت من غرفتها ومشت في سلم طويل انتهت منه إلى دهليز يتوصل منه إلى ساحة الدار المقيم فيها الأمير ولما انتهت إلى نصف الدار رأت شخصاً يتمشى فيها فارتاعت وأجفلت وعولت على الرجوع وقد خافت كل الخوف ولم تكن تعرف من ذاك الشخص وكان الأمير خوفاً من الغدر به ومن أن يكون له عدو يفاجئه على حين غفلة .

فلما رأى زهربان ولم يكن يعرفها ولا عرف من هي بل رآها آتية من الدهليز إلى جهة الدار صبر عليها ولم يبد حركة إلى أن صارت في ساحة القصر فجاء إلى جهتها ولما رآها قد خافت وارتعت وتأكد أنها امرأة قال لها من أنت وماذا تريدين فابدي لي غايتك ولا تخافي بؤسا فإن وحياة الأمير حمزة أساعدك عليها إذا كانت حميدة فقالت من أنت فأخبرني عن نفسك أولا فأخبرك بأمري قال لها أنا عمر العيار أخو الأمير حمزة وإني ساهر عليه الآن حتى لا يقدر أحد أن يدنو منه بغدر قالت معاذ الله فإني وقيعة بك أيها الأمير فأجبر كسري وسهل لي طريقاً لنجاتي من عذاب الهوى . فقال لها من تهوين ومن هو الذي أساعدك عليه

قالت رأيت أخاك حمزة فعشقته وهويته ولم يكن من سبيل للوصول إليه فخاطرت بنفسي ورماني حبي إلى التطرف بالأعمال فأتيت ألقي نفسي بين يديه وأسأله أن يرضاني خادمة له وقرينة فابقى كل العمر عندهوبين يديه ولحسن الحظ قد صادفتك الآن فأجب سؤالي وارحم ذلي .

قال لها أبشري بالخير فإن هذا أريده أنا ولا يمكن لاخي حمزة أن يخالفني به ثم أنه جاء إلى جهة غرفته وطرق الباب فصاح به وكان أو انئذ تقدم الكلام يتقلب على فرش الاوهام وأفكاره وقلبه يتلاعبان بين أيدي الغرام والهيام. وقال له عمر افتح فلدي بشارة أريد أن أبشرك بها فنهض إليه وفتح الباب وقال له ما هذه البشارة مثل هذا الوقت فقال له أن جميلة بديعة أعجبتني جداً تريد أن تدخل عليك وتعرض نفسها بين يديك وهي بنت الملك اسطون فشعر حمزة بخفقان في قلبه وارتعاش في جسمه وقال لعمر مالنا ولها فلا أريد أن اقابلها بمثل هذا الليل فإن ذلك معيب وعار علي قال ليس بذلك شيء من العار لانها تقصد أن تكلمك بعض كلام فقط ولا تقصد غير ذلك فضلاً عن أنه لا يعلم أحد أنها جاءت إلى هنا غير انا ولابد أنك تتزوج بها وتترك مهردكار قال ويلك اتظن أني إذا تزوجت بها أقلل من محبة مهردكار هذا لا يمكن أبداً ثم أنه أمره أن يدخلها عليه فدخلت زهربان تتجلى كانها الفردوس وقد عقت روائحها الزكية في أنف الأمير فانتعش بها صدره وطاب خاطره فنهض إليها ولاقاها ببشاشة وترحاب وأجلسها إلى جانبه فارتاح بالها نوعاً وسكن جأشها لانها كانت بارتياب من جهة مواجهته لا تعرف ما يكون من أمرها وأمره أنه هل يستحسن عملها أو يستقبحه وظنت مثل هذا الظن لعلمها أن العوائد العربية ترى أن من الواجب تأدب النساء في إجراءاتهن تأدباً كاملاً فلا يسعين خلف من احببنه ولو كان يونانياً لكانت مطمئنة الخاطر ناعمة البال تدخل عليه بجراءة وإقدام عالمة إنه لا يستقبح مثل هذا العمل وبعد أن حيته وسلمت عليه أخذت تحدق بوجهه ثم قالت له إني أحبك وحبي الذي حملني أن أزورك في مثل هذا الوقت لاعرض نفسي عليك أن أكون عندك وأرضى من نفسي كل الرضا أن اوافقك اينما سرت وفي أي مكان سكنت . قال اني عرفت بحبك منذ رأيتك في النهار وما لحق بك وقد حاولت أن أبعد عني أمر حبك لكوني مرتبط بالمودة مع سواك أي مع مهردكار بنت كسرى ولذلك أجهدت نفسي كثيراً لامنع حبك عني وابعد غرامك عن قلبي فلم أقدر وقبل أن وصلت إلي كنت مشتت الافكار ضائع العقل لا اعرف ماذا اعمل وإلى من أشكو هذا الاضطراب قالت أشكيه لي فإني اساعدك عليه وأرفع عنك أثقاله انت تحبني وأنا أحبك وهذه المحبة واقعة بالرغم عنا على غير قصد منا فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يكون ذلك لغاية حميدة يقصد بها زواجنا وإني أرى أن ما من مانع يحول بيننا فعند أول مرة لو طلبت إلي أن أبي أن يقرنك بي ويسمح بزواجي لأجاب في الحال وسعى بإتمام العمل وهذا

لا يكون من كسرى قط قال اني اعرف أن أباك أرق طبعاً من كسرى وأوسع عقلاً وحشمة غير اني سلمت قلبي إلى بنته طوعاً واختياراً هي دون شك تستحق أن تأخذ بقلبي وكل حواسي لأنها ودودة كريمة الصفات يندر وجود مثلها بين ربات الخدور وعليه فأني أسألك المعذرة عن ذلك فالحب لا يتغير وقد سبقتك وأخذت المقام الاول فاذا شئت أن تكوني عندي فسيكون لك من بعدها المقام الثاني وهذا الشرط الذي أشرطه عليك قالت إني راضية بكل ما تشرطه لعلمي أنك تعاملني برقة قلبك وطيب سريرتك فإذا كنت خادمة عندك كنت في مقام السيدة عند غيرك فأعجبه كلامها وقال لها ماذا تريدين الآن أفعل قالت أريدك في الغد ان تطلبني من أبي وتسأله يزفني عليك وهو لا ريب في انه يسألني فاخبره بحبي وحالاً نتقرب من بعضنا فوافق الأمير على كلامها وطيب بخاطرها ووعدها أنه في الصباح يخابر أباها بشأنها ويسأله من زواجها وبعد ذلك ودعته ورجعت إلى مكانها مسرورة الخاطر مطمئنة البال وقد ثبت عندها أنها في اليوم الآتي أو الذي بعده ستكون بجانب من أحبته ويكون لها راحة وهناء عظيمين ولهذا نامت غير قلقة وكذلك الأمير حمزة فإنه بعد ان كان مضطرب الخاطر يتقلب على سريره لا يزوره سلطان الكرى نام في الحال أميناً على نية منه أنه في الصباح يطلب إلى أبيها أن يزوجه بها وهو مؤكد انه يتمنى ذلك ولا يكرهه وعلماً أن من عوائد اليونان أن يعهد الأب إلى إرادة بنته فتختار من تريد ومن اختارته يزوجها به إذا كان يوافق شرفه شرفها وإلا فعليه أن ينصحها فقط ويبين لها غلطها فإذا امتنعت كان خيراً وإلا فلا يزيد في ذلها وقهرها بل يكون قد تخلص من ثقل عذابها والقاه على عاتقها .

ولما كان صباح اليوم الثاني نهض الأمير حمزة من فراشه وغسل وجهه ولبس ثيابه وعزم على الخروج وإذا بالملك أسطون قد جاءه ودخل عليه وقال له لقد جئت لخدمتك في أول النهار لأسير بك وبقومك الأعيان إلى جهات المدينة لتتفرج عليها وعلى ما أقيم بها من المصنوعات الغريبة من صنعة اليونان وفلاسفتها وترى المراصد والمراسح والمعامل التي فيها تشتغل كل انواع الأقمشة لا يوجد في بلاد الفرس ولا غيرها من البلاد فضلاً عن أنه يوجد عندنا ميدان ينصب لقتال الثيران على صفة غريبة لم يوجد عند غيرنا من الأمم .

قال إني احب ان اتفرج على كل ذلك غير ان لدي شيئاً عظيماً أكثر أهمية من كل الأشياء أريد أن اعرضه عليك وأسألك فيه . قال مر بكل ما تريد فأقضي لك مطلوبك وأسعى في انجاز أمرك . قال أنت تعلم أني أحببت بنت الملك كسرى ووعدني بزواجها وكان بنيته الوفاء غير ان عدواً لي حال بيني وبين غايتي فجعل يختلق لي الموانع ويبعدني خوفاً مني وأملاً بهلاكي وأنا صابر عليه حباً بأن أكون تزوجت بنته برضاه لا بالرغم عنه لئلا يقال بأني تزوجتها سبية عند من لا يعرف غدر أبيها وظلمه ولهذا السبب أتيت إلى هذه البلاد وغيرها . وأما الآن فاني قد رأيت بنتك زهربان ومال إليها قلبي ميلاً غريزياً مع أني كنت

أظن أن القلب مقيد بهوى مهردكار فقط واريد منك أن تسمح لي بها فأتخذها زوجة بسنة الله وتبقى عندي طول حياتها فلما سمع الملك اسطون ذلك أظهر سروره وقال له إن هذا مما أحسبه سعادة لبنتي ولي فأنت ممن تقدم له الأرواح ولا يبخل عليك بشيء إلا أني أرجوك ان تسمح لي أن أذهب إلى بنتي وأعرض عليها هذا الأمر لأن من العادة عندنا أن ترضى البنت وتقبل بالزوج المتقدم لها وأشرح لها عنك واذكر لها صفاتك وهي لا ريب تلاقي ذلك بالقبول والرغبة لأنها عاقلة مهذبة تعرف لغات العالم وتواريخها وأحوالها فقال له افعل ما يحلو لك وفي الحال ذهب الملك اسطوان إلى زوجته وأظهر لها فرحه وقال إني اعلمك ان الأمير حمزة طلب إلي أن أزفه على بنتي ولا أقدر ان اصف لك الفرح الذي لحق بي من جراء ذلك لأنه وحيد في زمانه ولا يوجد له ثان في كل بلاد اليونان ولا في غيرها حتى إن كسرى يخافه ويرهب سطوته وقد وعده بزواج بنته واريد منك أن تدخلي على بنتك وتعلميها بذلك وإذا امتنعت اقنعيها به وأخبريها ان ذلك من باب الفخر لنا ومن دواعي السعادة لها قالت له ألا تعلم أن القلب للقلب سبيل فكيف ان زهربان لا تقبل بزواجه وهي مغرمة به غراماً قتالاً حتى انها جاءتني في الأمس وشكت إلي حالها وانها علقت بمحبة الأمير ولم يعد لها صبر على فراقه فصبرتها على ذلك وسألتها أن تسكت عليه إلى ان اجتمع بك واخابرك في هذا المعنى ومن ثم تسعى في سبيل تقديمها له زوجة والحمد الله قد جرى ذلك منه بطريقة شريفة فارجع إليه واجبه بالايجاب وباشر بقيام الافراح وانا سأدخل على بنتي وابشرها بزواجها بالأمير واصلح شأنها وادبر امرها. ثم ان ام زهربان دخلت عليها وقالت بشراك يا بنتي فقد جاء الأمر على احب ما تشتهين فانهضي إلى الحمام واغتسلي وتهيئي وكوني على حذر لملاقاة الأمير فيعقد زواجك عليه منذ الغد وتقام الافراح في كل البلد وتكونين بالحقيقة سعيدة به فان كان بزواجك هذا تغيبين عنا وتبعدين إلى أقاصي الارض لكن نكون براحة بال عنك حيث تكونين زوجة لأمير هو عظيم من أكبر الملوك بكثير. ثم اخبرتها بما سمعت من أبيها وقالت لها لقد جاء الأمر على أحب ما تشتهين وتريدين فأظهرت فرحها وقالت لامها لا ريب أنه أحبني كما أحببته ووقع في قلبه ما وقع في قلبي فما ذلك إلا بعناية منه تعالى حيث يريد أن يجعلني سعيدة.

قال ورجع الملك اسطون إلى الأمير حمزة واخبره برضا بنته وقبولها برغبة وأخذ بتدبير امر الزفاف وإعداد مهام العرس من كثير وقليل وشاع عند أهل المدينة هذا الخبر ففرحوا فرحاً لا يوصف بقربهم من الأمير الذي كانوا يحبونه محبة عظيمة ولم يكن فرحهم هذا بأقل من فرح العرب جماعة الأمير حمزة فانهم تيقنوا ان زواجه هذا من باب الخير له وأنه لابد أن يضعف حبه لمهردكار فيقل اعتباره لابيها ولا يعود إلى إجابته مرة أخرى ويعرف أن غيره من الملوك يتمنى له الرضا وأن يقبل بنته زوجة له. وفي اليوم الثاني ابتدأ الملك اسطون بعمل

الولائم وقيام الدعوات فزين المدينة من أربع جهاتها واشعل بها المصابيح وذبح الذبائح مدة ايام حتى ابتهج كل من حضر ذلك الزفاف واخيراً جاءت القسوس والمطارنة فعقدت إكليل زهربان على الأمير وبارك له الجميع وفي آخر الليل دخل بها فوجدها كوكباً لامعاً يضيء بأنوار الكمال ورأت منه اسداً غضنفرا قوي العزيمة وصرفا وقت الهناء على احب ما يرام .
ومن زهربان هذه يلد ولد اسمه عمر اليوناني فارس صنديد وبطل مجيد ويكون له شأن في هذه القصة ويفرج الكربات عن العربان في المضيقات ولاسيما في يوم حصارهم داخل حلب حيث يكون الأمير حمزة مجروحاً كما سيأتي إن شاء الله . وبعد ان أكمل الأمير ايام الهناء وصرف مدة أيام مع عروسته طلب إلى الملك اسطون ان يسلمه الأموال التي سأله عنها ليضمها إلى الأموال التي معه حيث من قصده السفر والمسير الى غير بلدان يطلب الاخرجة فأجابه ودفع له الأموال التي كان جمعها وأخذ منه وصولات بها كما فعل مع غيره ثم رفع الأمير زوجته على هودج وركب على جواده الاصفران وامر جماعته بالركوب فركبوا جميعاً وودعوا الملك ورجال المدينة فخرجوا لوداعهم عدة ايام وعند رجوعهم أوصى الملك بينته وان لا يهينها ويتهامل عنها ويتركها بل يراعي جانبها ويتذكر انها غريبة محتاجة الى مساعدته فوعده بكل خير وان يكون لها اباً واماً وزوجاً حنوناً وأخذت العرب تسير في طريق مدينة قيصرية حسب ما هو مقرر لها في امر كسرى وعمر العيار حسب العادة يدلهم على الطريق الموصل إلى بلاد قيصر وقد تعجب جميع من كان مع الأمير حمزة من توفيقه ونجاحه مع أنهم كانوا قد ظنوا قبلاً أنه عند كل مدينة وبلد يحل بها ويطلب منها الرسوم والأخرجة يصادف ممانعة فيلتزم إلى إجبارها بقوة السلاح وهكذا يصرف كل مدة سفره بالحروب والوقائع والقتل والضرب غير أن السعادة خدمته وصادف مالم يصادف الملك كسرى نفسه لو كان جاء في مثل هذه الخطة وأما الأمير فإنه لم يكن مأخوذاً بأن هذا الانتصار لأجل السعادة والاقبال بل كان يرى من ذاته عدم توفيق ونجاح وكان قلبه مكموداً على الدوام ويرى من نفسه أنه قد ارتكب غلطاً بزواجه بزهربان لا لكونه لا يحبها وأن محبته قلت من جهتها مع أنه مغرم بها وغرامه كان يزيد يوماً بعد يوم بل إكراماً لخاطر مهردكار التي عندما يبلغها خبر زواجه بغيرها تتكدر مزيد الكدر ويثبت،عندها أنه صار لها فيه شريك فتلعب بها الغيرة مهما كانت ذات أطوار حميدة وفاضلة فإن للقلب في هذا المعنى شروط راهنة تحكم عليه وتجبره بالاحتدام والغيرة ممن يزاحمه بحبه ويشاركه في محبته ويتعجب من ذاته كيف أن الدهر أوجبه بإرادته تعالى أن يحب فتاة رآها بالصدفة وتعشقها عشقاً خارقاً للعادة عظيما عن غير قصد منه وقد رغب في منع هذا العشق فلم يقدر وأجهد ذاته في رفعه فلم يطيعه بل كان يظهر له أنه باحتياج إليه وهذا كان همه وشغله وهو يكتمه ولا يريد أن يظهره بل كانت افكاره تتلاعب به ولا زال العرب في مسيرهم إلى أن قربوا من بلاد الملك قيصر ملك الرومان وحاكم بلاد

غسان ونحوها وإذ ذاك قال الملك النعمان إني أسأل الله تعالى أن نصادف في بلاد قيصر ما صادفناه في غيرها من البلاد وإلا إذا امتنع علينا هذا الملك العظيم الشأن لاقينا في حربه الأهوال لأنه يقارب كسرى عظمة وفخاراً وكثرة أجناد ولابد أن تكون قد وصلت إليه كتابة كسرى فحشد الجيوش وجمع الجنود وقصد عنادنا هذا إذا كان راغباً فيه وإلا إذا عرف الحقيقة كغيره ووعى لنفسه وتأكد أن كسرى قد ظلم الأمير حمزة جارانا على مطلوبنا وانقاد إلينا وفعل كل ما نريده منه فرحلنا عنــه في الحــال. فقال الأمير حمزة لا أحد في الناس إلا ويعرف الحق ومع ذلك فإذا أراد قيصر أن يحاربنا حاربناه وعندي أننا نفوز عليه وننال منه مرادنا وننزع بلاده منه .

وقال وكان الملك كسرى قد بعث برسالته إلى الملك قيصر يعلمه بها بما كان من الأمير حمزة وإتيانه بجماعة العرب إلى بلاده وأن مراده أن يتزوج ببنته مهردكار فوعده انه لما رأى أن شريعة البلاد لا توافق على ذلك وقاعده الحضرية لا تسلم معه بتسليم بنته إلى بدوي امتنع وقصد إبعاد الأمير عنه فأرسله في عدة مهالك فعاد منها منصوراً واخيراً بعثه يجمع له المال من المدن والبلدان والملوك على أمل أن يصادف ويلاقي سفره هذا .

ولذلك أريد منك أيها الملك العظيم أن لا تتكدر إذا رأيت معه أمري بالمسير اليك وأخذ الأخرجة منك فاني لا اقدر أن أهلكه هنا خوفاً من الملامة والعتب فيقال إنه خلص بلاده من عدوه خارتين فأهلكه وهذا مما يوجب طعن الناس بي غير أنك أنت إذا أردت هلاكه لا تلام عليه حيث يكون جاء بلادك بقصد التعدي عليك وأخذ أموالك فجازيته وجازيت جماعته بما استحقوا وهذا افعله إكراماً لي فيكون لك علي به الخير والمعروف والجميل الذي لا أنكره إلى الأبد فلما قرأ قيصر كتابة كسرى أراد أن يعمل بحسب طلبه ويهلك حمزة والذين معه وأخذ في أن يقدح الفكرة في عمل يبيدهم دون أن يخسر من رجاله رجلاً واحداً وقد قال في نفسه إن أنا تركت العرب يأتون بلادي وما حاربتهم ولا وسيلة لهلاكهم إلا بالحيلة وإلا ربما خسرت معهم لأنهم أفرس الأبطال وقد ظهر لي من كتابة كسرى أن هذا الأمير هو فارس صنديد يخشى بأسه وترهب سطوته وعليه فإني أصبر عليهم إلى أن يأتوا هذه البلاد ويصلوا إلى المدينة وأسألهم وأعاملهم معاملة اللين والطاعة وأحتال على هلاك أمرائهم ومن ثم أوقع بعساكرهم .

ولما فكر بهذا الفكر وتسهل له طريق النجاح صبر إلى ان يرى أو يسمع ما يكون منهم وبقي صابراً إلى أن عرف بانتقالهم من بلاد اليونان ومسيرهم إلى بلاده فعرف أن الأمر أصبح قريباً ولذلك جاء إلى قرب نهر ماء جار في ضواحي المدينة أحال ماءه إلى جهة ثانية وأمر أن يبني هناك حمام على أسس من الملــح على طريقة لا تظهر لأحد وأمر البنائين أن لا

يعلموا أحداً بذلك وترك مجرى النهر بعيداً ليتمكن من إرجاعه على الحمام المذكور عند الحاجة .

وما برحت العرب سائرة حتى وصلت إلى تجاه المدينة فضربت الخيام هناك وسرحت الأغنام والجمال منه وأنزلت الأجمال عن ظهور البغال وعزم الأمير حمزة أن يكتب كتاباً إلى الملك قيصر وإذا به رآه خارجاً من المدينة بالملابس الفاخرة والزين . فقال الملك النعمان يظهر ان الملك قيصر لا يرغب في القتال وقد جاء مسالماً كغيره من الملوك فالحمد الله على ذلك . ومن الواجب ان نخرج نحن فنلاقيه إلى نصف الطريق فأجابه الجميع إلى ذلك وساروا معه إلا عمر العيار فإنه قال لأخيه إني أخاف يا أخي أن تكون نية الملك قيصر خبيثة من جهتنا فإن ضميري مرتاب من قبله . قال سوف نلاحظ عمله وكلامه فإذا كان يقصد لنا شراً باديناه بالشر وإلا فاننا نتخذه صديقاً كغيره من الملوك ولما وصل القومان إلى بعضهما البعض أبدى كل واحد للآخر تحياته وسلامه . وقال الملك قيصر للأمير حمزة إن رسالة كسرى قد جاءت إلي وأخبرني بأنك سوف تأتي بلادي وقد طلب مني أن أسعى بهلاكك بعد أن حكى لي كل ما كان من أمرك فعرفت يقيناً أنك مظلوم وانه يريد أن يخدعك ويغشك وكدرني منه عمله كيف يريد أن يبرأ نفسه من هذا ويلقي غيره به ولا سيما لا عداوة ولا سبب بيننا وبينكم فمراده أن يلقي الخصام والعداوة والحرب وهو بعيد عنا فتكون الخسارة علينا نحن وقد نظرت موضع النظر فوجدت أن من الاصابة الأتفاق معكم ومجاراتكم على ما تطلبون فقال له الأمير إننا نشكرك على هذا العمل والرأي وسوف نخدمك في ما يأتي من الأيام إن شاء الله غير أني وعدت الملك كسرى أني أجمع له الأموال وأعود إليه في الحال لأزف على بنته مهردكار التي خطبتها منه ونريد منك الآن أن تدفع لنا عشر محاصيل بلادك عن سبع سنوات سلفاً كما فعل غيرك فإذا فعلت ذلك نكون قد عرفنا يقيناً أنك مخلص الود معنا ونعطيك بذلك وصولات وتسلمنا أيضاً رسالة كسرى التي بعثها اليك . قال ان كل ما تطلبونه اقدمه لكم غير ان لا اخفاكم أن بلادي كبيرة وواسعة جداً وأحتاج الى وقت لجمع الأموال منها وأطلب اليكم تمهلوني الى اربعين يوماً فأسلمكم كل ما تطلبونه وان شئتم سرت معكم برجالي وعساكري كما أنا ولست بأفضل من الملك اسطفانوس ملك القسطنطينية الذي رافقكم واختاركم على بلاده وكان الملك قيصر يتكلم بهيئة جدية حتى ظهر للعرب أنه صافي السريرة حسن الطوية لا يقصد شراً بل يريد أن يدفع الأموال كغيره من الملوك ولا شك جاءوا به وبوزرائه وأعيانه الى صيوان الملك النعمان واحتفلوا به احتفالاً عظيماً وأكرموه غاية الإكرام وعند المساء نهض من عندهم وقصد الرجوع الى المدينة وقال للأمير حمزة ولباقي قومه ان بلادي مفتوحة لكم على الدوام والمدينة معدة لخدمتكم فأدخلوها في كل يوم واحضروا في ديواني لتتفرجوا عليها وعلى ما بها وعلى احكام الرومان إذا لا يخطر لكم أن

تعودوا الينا مرة ثانية إذا لم تدعوكم الضرورة الى ذلك فقال النعمان لا ريب اننا في كل يوم ندخل المدينة ونقدم فروض الشكر لك على ما أوليتنا من الجميل والاحسان . ثم انه ودعهم وذهب عنهم وفي قلبه الكيد والحقد وهو يتمنى أن يفوز بالمطلوب في عمله وينال النجاح التام .

ومن ذلك اليوم صارت العرب تدخل المدينة في كل يوم والملض قيصر يولم لهم الولائم ويعمل الدعوات ويسير بهم من مكان إلى مكان يفرجهم على أبنية بلاده وعمرانها والعجائب الموجودة بها إلى أن مضى عشرة أيام وهم مسرورون منه سرورا عظيماً وفرحون بأعماله إلا الأمير عمر فانه في كل يوم يقول للأمير إني لا أركن إلى الملك قيصر وقلبي ينبهني أنه يقصد لناضرامغ اني لا أرى منه إلا كل خير وأسأل الله أن يخلصنا من بلاده لنرحل عنها إلى غيرها وفي اليوم الحادي عشر خرج الأمير حمزة من عند زوجته زهربان وركب جواده حسب العادة وجاء إلى الملك النعمان فوجده بانتظاره مع باقي الجماعة فركبوا جميعاً وساروا إلى جهة المدينة وبقى الأمير عمر في الصيوان عند زهربان ولما دخلوا على الملك ترحب بهم كثيراً وقال لهم خطر في ذهني اليوم أن تذهبوا إلى الحمام وتغتسلوا من أوساخ السفر ومن غبار الطرقات وأقذارها لأن الحمام قد ابتنينه جديدا فهو نزهة للناظرين وقد عينت لكم عشرة أنفار من خدمي يخدمونكم ويغسلون لكم أجسادكم فرافقوه على ذلك وقال له النعمان نعم إن الحمام هو نعيم هذه الدنيا وأني كنت عندما آتى المدائن اغتسل بها فأسر مزيد السرور فأجاب حمزة ذلك واشتاق أن يغتسل بالحمام ليرى كيف يكون مع أنه يسمع أنه مكان لتنظيف الأبدان نافع للاجسام غير أنه لم يدخله قط بل كان يغتسل بالنهور بالماء البارد وإذ ذاك أمر قيصر بعض جماعته أن يسيروا بهم إلى الحمام المقيم عند النهر الذي بناه جديدا وأن يغسلوهم جيدا ويقوموا لهم كل حقوق المسرة ويكرموهم إكراماً زائداً فساروا بهم وادخلوهم الحمام وبعد ان نزعوا ليغتسلوا ومعهم خدام قيصر ودخلوا الحمام وهم آمنون من حوادث الأيام وطوارق الحدثان .

وبعد ذهابهم نهض الملك قيصر في الحال وعاد بقواد عساكره وقال لهم أريد منكم في الحال أن تجمعوا الرجال والعساكر وترموا بقسيكم ونبالكم على العرب فلا ترجعوا عنهم حتى تهلكوهم عن آخرهم ويكون هجومكم من أربع جهات كي لا يكون لهم مفر يفرون منه أو ينجو منهم أحد فأجابوه إلى طلبه وساروا في الحال إلى اتمام وعده وسار هو بنفسه وأخذ بعضهم الفالة إلى جهة النهر وقصد أن يجريه على الحمام فيذوب الملح ويسقط الحمام على من فيه فيموت الجميع ويتخلص من شرهم وقد ثبت لديه أنه نجح نجاحاً عظيماً وتيقن عنده الفوز بذلك عندما أطلق ماء النهر في مجاريه القديمه .

قال وكان للملك قيصر بنت بديعة الجمال كاملة الصفات حسنة الطوية لا ترغب في ضرر أحد من العباد تسعى في عمل الخير وتجتهد في مداراة الفقير ولذلك كانت على اختلاف مع أبيها أكثر الأحيان لأنه كان سيء الأخلاق لا يرضى بغير الأذى ـ والظلم وقلة الإنصاف عائش عيشة الخداع والخيانة ففي هذه المرة عرفت أن أباها قد نوى على الغدر بالعرب فتكدرت ولم يهن عليها ذلك لاسيما عندما عرفت قصة الأمير حمزة مع الملك كسرى وكيف ان سبب إرساله في جهات الممالك كان يستخلص منه ويمنع عنه بنته التي كان وعده بها فجاءت إليه وقالت له اعلم يا أبي ان العرب قوم اصفياء وأمناء ولولا خباثة الملك كسرى لما جاءوا بلادك وطلبوا منك الأموال وليس من العدل إلا إجابتهم الى طلبهم والمصافاة لهم فاتخذ حمزة لك صديقاً وفياً فهو ينفعك لدى الشدات ولابد من أنه يقلب تخت الملك المالك على الأعجام فيستفيد من ذلك إفادة عظيمة وتلاقي الخير الكثير وتتسع دوائر مملكتك وإلا فتندم فيها بعد غاية الندم فاراد خداع بنته فقال لها فاني نويت على ذلك والحق بيدك ولا ريب ان الحق على الملك كسرى لا على العرب وقد أصبت بقولك فسكتت عند كلامه وهي تعرف باطنه وتأكدت أنه ربما يكون قد اضمر خلاف ما أصدر وكان فكرها مرتبكاً على الدوام بالسبب الذي أوجبه إلى بناء الحمام جهة النهر من على أسس من الملح ودعمه من الخارج من الخشب وقطع مسيل النهرمن حوله وقالت لنفسها لابد لذلك من سبب أمر خطير نواه وبقيت صابرة إلى ان كان اليوم الذي عزم به العرب على الاغتسال بالحمام فأدركت النتيجة ولذلك اسرعت الى جهة الحمام وهي غضبى من عمل ابيها تذمه وتذم اعماله وتلعن الغدر ومرتكبيه إلى ان وصلت إلى خارج الحمام فأمرت خادمها ان يضع لها سلماً عليه بينما كان أبوها يشتغل بتتميم عمله وقد أمر باطلاق النهر على الحمام وأخذت الفعلة تشتغل بفتح أقنية بسرعة عجيبة قبل ان يخرج الأمير حمزة وجماعته منه وصعدت السلم ووقفت في نافذة صغيرة مطلة على فسحة الحمام الخارجية أملاً منها ان ترى احداً من سادات العرب فتطلعه على الدسيسة وبالقضاء والقدر كان الأمير حمزة قد ضاق صدره من الداخل فخرج يتنشق الهواء قليلاً وينشرح صدره فرأته وهو على تلك الحالة ليس عليه إلا المئزر في وسطه وهو كالبدر في تمامه فغرقت في بحر هواه من أول نظرة رأته ولم تكن تعرفه فصاحت به أن ينظر إليها وقالت له من أنت فاندهش من اعمالها ومن محاسنها وتعجب من وقوفها في تلك النافذة والتفرج عليه وهو عريان ويظن ان ذلك منها عن قلة تأدب فقال لها أنا حمزة بن إبراهيم أمير العرب فمن أنت وما تقصدينه في وقوفك على هذه النافذة فقالت له أنا مريم بنت الملك قيصر جئت لانقذك من خطر عظيم محيق بكم فأسرع الآن إلى خارج الحمام وإلا سقط عليكم وبعد نصف ساعة يتم ذلك لأن أبي أقام هذا الحمام على أسس من الملح لهذه الغاية ولأجل أن يوقع بكم فيه وقد أخذ يشتغل باطلاق النهر عليه ليسقط وانتم داخله

فاسرعوا حالاً واخرجوا وإلا هلكتم وإني أرجوك اخيـراً يا سيدي أن لا تنسى وتذكر عملي معك .

ثم أنها نزلت عن السلم وراحت إلى سبيلها فلما رأى الأمير حمزة ما رأى وما سمع طار صوابه فركض إلى داخل الحمام وصاح برجاله الآن فارجعوا وإلا هلكتم عن آخركم فإن دسيسة عملت علينا ثم انعكف راجعاً فركضوا وأخذ كل واحد ثيابه وأسرع إلى خارج الحمام وجعل يلبس وهو لا يعرف ما سبب تلك الدسيسة وما انتهوا من لبس ثيابهم حتى رأوا ماء النهر يتدفق إلى مجراه القديم إلى جهتهم فمالوا بالسرعة إلى غير جهة وللحال لطم الماء جدران الحمام واحتاط به واخذ يجري عليه وهم ينظرون إلى ذلك ويتعجبون من هذا العمل الخبيث وفيما هم على ذلك وإذا بهم يرون الحمام قد سقط دفعة واحدة وسمع لسقوطه صوت ودوي اضطربت منه المدينة فطار صواب الأمير وعظم عليه الحال وعرف أن لولا تلك الصبية لكان هلك مع جماعة العرب وملوكها فاغتاظ جداً وجرد سيفه ونوى على الهجوم على الملك قيصر وإذا به رآه مسرعاً إلى جهة الحمام ومعه الأعيان وفي كل نيته ان الحمام سقط على الأمير حمزة فأهلكه مع رجاله وهو فرحان غاية الفرح بنجاح عمله واضطرب لما رأى أن الأمير لا يزال سالماً خارج الحمام وظن أنه لم يعرف بدسيسته فأراد أن يتظاهر بالاعجاب ويسأل الأمير حمزة عما جرى فلم يمهله ولم يتركه بل انقض عليه والسيف بيده وصاح فيه قائلاً ويلك أيها الخادع الغاش هل تظن ان العرب لا يعرفون بغدرك وخيانتك وقد هيأت لنا هده الدسيسة لتهلكنا ألا تعلم أن الله معنا ولا يرضى بهلاكنا وقد جاء منه نذير وأخبرنا بكل شيء عن عملك فاستعد للممات ثم ضربه بالسيف على أم رأسه فشقه الى وسطه ووقع على الأرض قتيلاً ومال في قومه قائلاً ويلكم أوغاد غير أخيار لقد حل بكم الويل والبوار جزاء على فعل ملككم الخبيث وكذلك باقي العرب كأندهوق واصفران وغيرهما فانهم استلوا سيوفهم وهجموا هجمات الاسود ففر من أمامهم جماعة قيصر يختبئون وقد أيقنوا بالفناء وشرب كأس الحمام وبينما الأمير وقومه يطلبون اعيان قيصر إذ سمعوا الصياح والغوغاء من جهة معسكرهم فقال هلك والله المعسكر ولا ريب ان قيصر قد دبر عليهم أيضاً ونوى على هلاكنا وهلاكهم بوقت واحد ولذلك ركض إلى خارج المدينة والسيف بيده ومن خلفه أسود القتال يزأرون ويطلبون الوصول الى ساحة المجال للافراج عن قومهم ورجالهم لقد تقدم معنا أن قيصر كان قد أمر رجاله ان تغدر بعسكر العرب من أربع جهات بوقت واحد وذلك عندما يرون سقوط الحمام أي عند تأكيد هلاك الأمير حمزة فسار معسكر المدينة واحتاطوا بالعرب وهم آمنون طوارق الحدثان وفي كل نيتهم أن أمراءهم عند الملك قيصر على التعظيم والإكرام وان لا سبب شر يقصده لهم وكذلك كانوا على الدوام يسرحون ويمرحون ويلعبون وفيما هم على مثل ذلك غير حاسبين حساباً لصروف

الزمان وطوارق الحدثان وإذا بسهام الأعداء قد وقعت عليهم كوقوع المطر الغزير عند اشتداد الرياح فأصابت مقاتلهم فارتاعوا واضطربوا وأخذوا بنتة فلم يقدروا أن يعودوا على انفسهم وجعل كل واحد يركن إلى جهة وهم يقعون الى الأرض ويقومون ولا يرون سبيلاً للخلاص لأن كل الطرقات قد سدت .

وصوبت منها إلى نحوهم السهام فأيقنوا بالاعدام وشرب كأس الحمام وظن كل واحد منهم أن يومه الأخير قد جاء وان هلاكهم في تلك الساعة لا محالة وصار كل من يصادف الآخر يودعه ويصلي صلاة الممات وأكثرهم يصيبهم السهام وتلقيهم إلى الأرض إما قتلى وإما جرحى وفي تلك الساعة وصل السيد فارس ذاك الزمان وغوث كل خائف وولهان الأمير حمزة البهلوان وشاهد ما وقع على رجاله فطار صوابه وتدفقت الدموع من عينيه فصاح بمن معه أن ينقسموا إلى أربعة أقسام ويتفرقوا إلى أربع جهات فسارا اندهوق البطل المعروف إلى جهة ومعه بعض السادات وكذلك اصفران الدربندي إلى جهة اخرى والأمير عقيل والملك النعمان ومعهم بعض الأعيان في الجهة الرابعة وبقي الأمير حمزة وحده فصاح صياح الأسود وهجم هجمات الفهود وانحط على الرومان انحطاط الصواعق وجعل يضرب فيهم بسيفه البتار وينادي ويلكم ايها الأوغاد أخلوا عن العربان وانجو بأنفسكم بأمان فقد جاءكم الأمير حمزة البهلوان لينتقم منكم ويلبسكم أثواب الذل والهوان . قال وبينما كان الرومان قد تأملوا بالنجاح والظفر وقد تأكد عندهم أن العرب ينقرضون في تلك الواقعة حيث ان فرسانهم هلكت في الحمام خاب رجاءهم وتقطعت آمالهم عندما سمعوا اصوات الأمير حمزة وهو يصول ويجول ويلتهم الفرسان كأنه الغول ومثله يفعل اندهوق بن سعدون وقد طير الرؤوس وأخمد النفوس وفرقها في كل الجهات وبينما كانت عساكر العرب قد وقعت بالارتباك وأيقنت بالهلاك والمحاق إذ سمعت صوت الأمير حمزة وهو يتخلل كثافة ذاك الغبار ويعلو على الغوغاء ورأوا أن الاعداء قد تأخروا إلى الوراء فأيقنوا بالنجاح وثبت عندهم أن فرسانهم لا يزالون أحياء فاشتدت ظهورهم ورأوا باب الفرج قد جاء فأسرعوا انتقاماً لأنفسهم فتناول كل واحد ما وقع بيده من السلاح بعد قطع اليأس وهجم على أخصامه فكانت مصيبة كبيرة على الرومان وأيقنوا بالهلاك والقلعان ولم يروا وسيلة للفوز غير الهرب والفرار من وجوه العرب الأخيار فألوى كل واحد رأس جواده وطار في الآفاق وهو ينادي الأمان الأمان يا فارس الزمان يا حمزة البهلوان فإن لا ذنب علينا وكل الذنب على ملك الرومان هذا والعرب والأمير حمزة يضربون بأقفيتهم وقد أشفوا منهم الغليل وأرووا الكبود وفرقوهم كل مفرق ومزقوهم كل ممزق ونثروهم على بساط البسيطة نثر الورق وأخذ كل عاقل يرمي بسلاحه ويسلم بنفسه أسيراً لخاطر العرب فيعفون عن نفسه وما جاء المساء إلا والعرب قد فازوا الفوز العظيم ودخل الأمير حمزة بمعسكره المدينة ففرقهم فيها واستلمها لنفسه وأرهب كل من

كـان فيهـا وكـان صباح اليوم الثاني أمر أن تدفن جثث الموتى وتوارى التراب وتغسل المدينة من الدماء التي لطخت بها من جراء غدر ملكها ثم إنه بعد ذلك دعا اليه أعيان المدينة وامراءها فوقفوا بين يديه أذلاء فقال لهم أنتم تعلمون أن جل غايتي كانت أن أقبض الأموال التي أتيت لاجلها بطلب الملك كسرى ومن ثم أعود راجعاً من حيث أتيت وقد وعدني ملككم بدفع كل ما هو مطلوب وطيب خاطري قاصداً بذلك غشي وهلاكي وهلاك قومي غير أن الله سبحانه وتعالى محافظ على حياتي لا يريد بهلاكي فأرسل لي ملاكة بصفة إحدى بناتكم وأطلعني على دسيسة وأخرجني من الحمام حالاً مع قومي وكان لي الحق إذ ذاك أن أقتله وانتقم لنفسي منه فقتلته وبعد ذلك وجدت أنه قد بعث بعسكره إلى مفاجأة رجالي وقد داروا بهم وأخذوا في أن يفنوهم ويهلكوهم فخلصتهم ولم أبق على ظالم قط وعليه فقد أحضرتكم الآن لأخبركم اني ما كنت ظالماً عليكم ولا كنت اقصد شراً لأحد من مدينتكم وما فعلته كان من قبيل الأخذ بالثأر فاصغوا إليّ وأخلصوا الطاعة فابقى ملككم لكم وأرحل عنكم بعد أن أقر رحال البلاد وأقيم عليها ملكاً تختارونه أنتم إمامن سلالة ملككم المقتول وإما رجلاً آخر منكم يكون فيه اللياقة وتتفقون عليه جميعكم فقالوا له إننا نحن عبيد لكم طائعون وليس لنا دخل قط بعمل الملك ولا عرفنا ماذا يقصد فلأجل هذا نريد منك الآن أن تعفو عنا وتقبلنا وتدبر أمرنا بحسب اختيارك وإرادتك فطيب قلوبهم ووعدهم بكل جميل وخير وجعل يصلح شأن المدينة ويغير في حكامها وأعضاء محاكمها وقد أحبه الكبير والصغير وعرفوا أنه رجل عادل قد أعطى من الله معرفة وبسالة لم تعط قبل لغيره من أبناء الجبلة البشرية فسبحان من يختار من عباده من ينفذ غايته فهو الحكيم القدير .

قال لنرجع في حديثنا إلى مريم بنت الملك قيصر فانها بعد أن أخبرت الأمير حمزة وهو في الحمام بعمل أبيها كما تقدم معنا رجعت إلى قصرها وهي كاتمة عملها وقد رسخ في ذهنها رسم جماله وقامته وهيئته وأخذ بمجامع قلبها وعلقت أملاً كبيراً به وقالت في نفسها لابد له من أن ينظر إلي نظر الحب ويتخذني إليه زوجة وأبقى عنده حيث قد وعدني أنه لا ينساني وأنه ينظر إلي ولا ريب أنه يفتكرني ويتذكرني في كل دقيقة لأني كنت السبب في حياته ونجاته من الموت ولولاي لكان هلك وفيما هي جالسة في بيتها وصل إليها الخبر بأن الأمير حمزة قد قتل أباها وأقام القتل في المدينة فتمكنت منها مفاعيل الحزن فبكت وناحت وندبت أباها وعرفت أنها كانت السبب في موته وصرفت كل ذاك اليوم بالبكاء وقد حضر عندها النساء وعزينها بأبيها ومنهن من ظنت أنها هي التي أعلمت الأمير حمزة فخلص من الموت وقتل أباها . وكانت تارة تلوم نفسها على ما فعلت وطوراً تمدح ذاتها من عملها حيث انها خلصت الأمير من الموت وبسبب هذا الخلاص بنت لها برجاً متيناً في مستقبل حياتها إذ كانت قد ترجح عندها أنه يكافئها على ذلك بما تريده منه وهي زواجه وكان يثبت عندها ذلك

لاعتقادها انها يندر وجود من هي أجمل منها في عصرها وقد تربت على الترفه والدلال صارفة كل وقتها إلى درس العلوم واللغات جاعلة حياتها في الدرجة الاولى بين بنات مدينتها وماشاكلهم .

وأما تأسفها على أبيها فلم يطل كثيراً في قلبها أولاً لأنها تعلم أنه مات من جراء ظلمه وخداعه وإن جزاء الظلم والخداع الموت لا محالة فالله سبحانه لا يبقى على الظالمين طويلاً وثانياً لأن محبة الأمير كانت قد رسخت في قلبها فنفت الحزن حالاً وشغلتها عن التأثر من فراق أبيها وموته وبعد ثلاثة أيام لم يكن قد مات لها أب بل كان كل شاغل يشغلها ميلها إلى الغرام الجديد الذي كان قد استولى عليها وهي تبعث برسلها لتعرف ما يصنع الأمير فتخبر أنه يفعل كذا وكذا فتقول في نفسها أنه اليوم لا يزال بشغله في تدبير أحوال المدينة ولابد أنه في الغد يتذكرني ويرسل فيدعوني إليه وأنه يحضر عندي ويشكرني على ما فعلته معه وحينئذ أطلب منه ما أريده وهو أن يأخذني معه ويبقيني عنده . وطال عليها المطال على هذا المنوال عدة أيام إلى أن ثبت عندها أن الأمير فرغ من كل عمل ولم يحضر إليها وتأكدت أيضاً أنه نسيها والسبب كثرة اشغاله ومهامه قد أعطى الصفات الكاملة ونال الخصال الحميدة وصورت لها المحبة أنه أفضل رجل في الدنيا ولذلك عمدت أن تذهب إليه ثانية وتذكره بنفسها وتعرض عليه محبتها وتطلب منه المكافأة على خلاصه من الموت وصبرت على ذلك إلى أن كان مساء ذات يوم فلبست أفخر ما عندها من الثياب الحدادية ووضعت على رأسها نقابا من الحرير الأسود فأصبحت كأنها النجمة اللامعة في ليل حالك السواد ومشت تحت أستار الاعتكار إلى أن وصلت إلى القصر القائم فيه فدخلته وهي مظهرة على نفسها الذل والكآبة وعندما وصلت إلى نصف القصر اعترضها الأمير عمر العيار حيث كان قائماً على حراسة الأمير الليل بطوله خوفاً من أن يغدر به أحد فلما رآها صاح بها وقال لها من أنت وماذا تريدين فقالت له أخبرني أنت أولاً عن نفسك وأطلعني على أمرك حتى إذا رأيت فيك الامانة وعرفت من أنت أطلعتك على حقيقة أمري فقال لها أنا عمر العيار أخو حمزة ورفيقه في كل حياته أحرسه بالليل والنهار وأمنع عنه طوارق الأشرار .

فلما علمت أنه عيار حبيبها قدمت يدها إليه وقالت له أغثني أيها الأمير وأشفق لحالي أنا بنت قيصر الذي قتله أخوك والسبب قتله كنت أنا حيث أني عرفت أن مراده يسلك سبيل الخداع والاحتيال ويهلك ضيوفه الذين ركنوا إليه كل الركون فاتخذوه صديقاً وأمنوه على نفوسهم وقد نهيته عن ذلك وبينت له عاقبة الظلم فلم يرجع فأتيت الحمام وأخبرت أخاك بدسيسة أبي وأوصيته أن ينظر إلي ولا ينساني ومنذ ذلك الحين لم أعد اراه قط وقد نسيني كل النسيان لا لقلة امانة فيه أو لسبب آخر لكوني اعلم أن أشد العرب أمانة ووفاء يعرفون الجميلة ويوفون المودة حقها ولا يضيع عندهم معروف قال نعم لقد أصبت ولكن

سبب نسيانه كثرةِ اشغاله وربما كـان امتناعـه حياؤه منـك حيث قتل أبـاك وهذا لابـد أن يكون القاك بالكدر والبكاء لاجله. قالت أني بكيت عليه لكونه والدي وكوني أحبه الحب العظيم غير اني لا اتكدر حيث أنه ظالم وغادر ومخادع وجزاء من كان كذلك له الموت لكن أريد منك أن تذكرني عند أخيك الآن كي لا أكون قد فقدت الأب والنصير بـوقت واحد فأصادف منه أباً وأماً ولك مني كل ما تطلبه من الأموال فأدفعه لك لأن عندي من الذهب كثيراً فقال لها إكراماً لك سأفعل مـا يرضيـك فأبقي هنـا إلى أن أعود إليـك ثم أنه تـركها هناك ودخل على أخيه وايقظه من النوم وقال له لم هذا النوم الكثير أهل في نيتك ان تنسب إلى العرب قلة الامانة وضعف الولاء وأنت سيـد العرب وأميـرهم الا تعلم ما عليـك من الفـروض الواجبـة لمن بادروك بـالجميل وسعـوا في نجاتـك من الموت فـاستيقظ الأمير من كلامه مندهشاً وقال له ماذا تقصد في هذا وكيف تنسب لي قلة الامانة ومتى أنزلت من قدر العرب قال انك فعلت ذلك في هذا الأيام حيث قـد انكرت جميـل ومعروف من سعى في خلاصك ونجاتك من الموت وأنت في الحمام أتذكر أنك لو بقيت في الداخل مقدار نصف ساعة ولم تأت مريم بنت الملك قيصر لكان وقع الحمام عليـك وعلى من معـك . فأطـرق الأمير إلى الأرض برهة كانه انتبه إلى نفسـه ثم قال وأين تلك الصبيـة قال هي في الخـارج واقفة على انتظارك أن تأذن لها بالـدخول عليـك إذ قد قتلت لها أبـاها ولم يبق لها من ثم نصـير سواك ومن حـظك وتوفيقـك ببنات الملوك جعلهـا تأتي اليـك بنفسها وتـطلب منك زواجها وهي كالبدر إشراقاً ونوراً وبالحرى كمهـردكار جمـالاً وأدباً قـال أني أمتنع من هـذا لأن كل بلد دخلتها أتزوج بها فتمضي الأيام ولي كثير من الـزوجات. قـال وما المـانع من ذلك إذ حكمت عليك الأحوال فربما هذه هي أفضل النساء من سـواها ولا سيـما أنك إذا قدرتها حق قدرها اتخذتها مولاة لك لأنها اشترت حياتـك ونجاة العـرب أجمعين بـدم أبيها ورجاله وبلاده. قال نعم إنها قـد استحقت أكثر من ذلـك فادخلهـا الآن لأنظر في أمـرها وأرى ماذا تريد . فرجع وهو يتمتم في نفسه ويقول ما أكثر توفيقك بالغادات وأنت تمتنـع عنهن وتتعلق ببنت كسرى ولما وصل إليها قال لها إن أخي بانتظارك الآن فادخلي عليه وقد أخبرته بك وسألته أن يكون لك بعلاً ونصيراً فاجـاب فلا تنسي مـا وعدتني بـه من المال. قالت وإني أزيدك فوق ذلك جارية من خاص جواري اللاتي لا نظير لهن في جواري العالم فشكرها وأخذ يترقب الوفاء ودخلت مريم على الأمير فتلقاها بالترحاب والإكـرام ورق لها عندما رآها لابسة ثوب الحداد واندهش من بهاء طلعتها وجمال وجهها ورقة واعتدال قدها وقال لها لقد شرفتنا يا بنت الملك على غير انتظار فلم يكن لدي مـا يقوم بـواجب الزيـارة فـاعذريني الآن قـالت إني خادمتـك وما من حق الخـادم ان يعتب على سيـده والقصد من زيارتي الآن شيئاً واحـداً وهو أن أذكـرك بي لانك نسيتني عـلى حين انـك وعدتني بـأن لا

تنساني قال اني لم أنساك قط لكنني كنت أتردد في هل أن ذاك الذي ناداني من نافذة الحمام هو بشر بالحقيقة او ملاك أرسل من الله تجسم بهيئة بشرية لأن عقلي كان لا يصدق أن ذاك الجمال هو جمال فتاة فإن أنوار وجهك اللطيف المكلل بالهيبة والوقار انبعثت بأشعة عجيبة على حين غفلة مني فانبهر لها نظري ولم يغب ذاك الرسم عن ذهني قط غير أنه ثبت لدي الآن أنه وإن ملاكاً من الله غير انه بعث منذ القديم ليكون عندي أنك ملاك النور وآلهة الحسن وربة اللطف فاعذريني الآن وارضي عن قصوري لانك صاحبة المعروف السابق معي . قالت ما عملت إلا الواجب علي ولو كان أبي عادلاً وعاقلاً لما فعلت ذلك غير اني كنت كارهة الظلم والخداع وقد نصحته وبينت له العاقبة فلم يرجع عن غيه والآن حيث قتل أبي لم أر بداً من مبارحة هذه الديار حيث القي برجائي عليك واتخذك عوناً لي ونصيراً جئتك وقيعة لتقبلني عندك إما زوجة وإما خادمة قال لابد من أن اتخذك زوجة لانك أحق بي من غيرك لكون حياتي لك وعليك غير اني أريد أن اظهر لك أمراً واحداً به تعرفين إني خاطب مهردكار بنت الملك كسرى ملك العجم ومن أجلها تحملت اثقالاً كثيرة حتى توصلت اليكم فهي عندي بالدرجة الاولى حيث كانت السابقة عليكم ومن ثم اتخذت زوجة ثانية وهي زهربان بنت ملك اليونان حين كنت في بلادها وأنت الآن الثالثة فلا يغضبك ذلك فإنه كان في زمن سابق لهذا الزمان الذي ترومين فيه أنت زواجي قالت تأكد أن الغيرة لا محل لها عندي مطلقاً وأني بعيدة عنها وجل قصدي أن أكون لك لكون لا أحد في الدنيا يستحقني سواك فانظر إلي كمولي وكل امر تأمرني به فهو نافذ على رأسي وعيني نعم أني أعرف أن النصارى لا يتزوجون بأكثر من واحدة ولذلك يصعب على الرجل أو الزوجة أن يرى شريكاً آخر في من تزوج لكني لما كنت اعرف عوائد العرب وأتأكد أن الرجل يقدر ويسمح له أن يتزوج بأكثر من زوجة واحدة أي أن يكثر من الزوجات بقدر ما يشاء لا اتكدر إذا كان لك غيري لاسيما عندنا نحن النصارى وجوب طاعة الرجل لكونه المالك للزوجة وقد أوصانا المسيح ان تطيع الزوجة رجلها كما نطيع الكنيسة للمسيح رأسها ومن الواجب على كل فروع الجسد أن تنقاد للرأس كما ينقاد الجيش والرعية الى المترأس عليهما لاسيما وهي تابعة وعليها طاعة المتبوع فسر الأمير حمزة من فصاحة لسانها وحسن أسلوبها ومعرفتها في فن الدين والأدب وقال في نفسه بالحقيقة أن الزوجات المتهذبات المتعلمات هن علة راحة للرجل ووسيلة خير في حياته ان يعرفن المفروض عليهن ويحسن ادارة القيام بتدبير بيتهن وحياتهن على أتم ما يرام .

ثم أنه قال لها أخيراً اذهبي الآن إلى قصرك وابقي فيه إلى حين أرسل فادعوك إلى يوم

الزفاف وسأهتم بذلك في الغد وها قد عاهدتك على الحب والوفاء وصرت لي خطيبة وما من مانع الآن يمنع زواجنا إن كان الله يقصد زواجنا وقربنا من بعضنا ففرحت بكلامه هذا وكاد يطير فؤادها وقامت اليه فودعته بكل أدب وحشمة وخرجت من عنده وهي مسرورة سروراً عظيماً فالتقاها عمر العيار في الخارج وقال لها لا تنسي ما وعدتني به من المال قالت إني أعطيتك بقدر ما تطلب من الذهب فسار أمامها إلى أن وصلا إلى باب قصرها وعاد إلى أخيه فدخل عليه وهو لا يزال مستيقظاً وقال له على ماذا هولت قال انها صاحبة فضل علي فهي أحق أن تكون زوجة لي من غيرها وقد سعت في خلاصي ومع ذلك فهي كاملة الحسن والصفات عاقلة وقعت في قلبي موقعاً حسناً وراقت في عيني جداً قال ومتى وعدتها أن يكون الزفاف قال إني وعدتها أنه من الغد أباشر عمل الزفاف واقيم لها فرحاً عظيماً قال إن ذلك منوط بي لا بك نعم إنه لا بد لك من زواجها والاقتران بها لكن هذا يكون عندما ابديه أنا لك لأن هذه الأيام أيام شؤم ونحس ومن الصواب أن تصبر على ذلك عدة أيام أي إلى حين أجيء اليك وأخبرك بأن تباشر الزفاف قال وأي متى كنت تعرف بالطالع وتميز بين النحس والسعد فهل تعلمت هذا العلم من أحد قال إني عرفته من رجال الصومعة وما عليك أن تخالفني فاصبر إلى أن أقول لك . فقال له إكراماً لك لا اتزوج إلا اذا أخبرتني أن أتزوج وان كان غرضك الحصول على المال فاني أعطيك ما تطلب عوضاً عن مريم فهي لا مال عندها وان كان عندها مال فتحمله الينا . قال إن كل المال الذي عندك والذي جمعته في أسفارك لا يكفيني ولا بد ان تصبر .

قال وأقام الأمير حمزة صابراً وقد اشتد عليه هوى مريم وطلبت نفسه الحصول عليها وعمر معرض ينتظر الوفاء منها وهي غير عالمة بقصده بل ذهبت إلى قصرها واستعدت لنفسها وأقامت بكل عمل تحتاج إليه وفي ظنها أن الأمير يسرع إلى عمل الزفاف وينهيه بوقت قريب فمضت عليها الأيام دون أن ترى اهتماماً لذلك أو تسمع بأن في نية الأمير حمزة الزفاف بها فانفطرت مرارتها وضجرت ضجراً عظيماً وخافت أن يكون نسيها أو أعرض عنها ورجع وتكدرت جداً من عدم أمانته وبقيت صابرة على نفسها إلى أن فرغ صبرها وضجرت ضجراً عظيماً وأرادت أن تعرف السبب وقالت في نفسها من الواجب أن أسير في هذه الليلة إلى عمر وأسأله عن ذلك فهو يفيدني عنه ويهديني اليه ثم أنها بعد أن اعتمدت على ذلك صبرت إلى أن اشتد ظلام الليل فسرت تحت ظلامه وانسحبت إلى قصر الأمير حمزة وإذا بها قد نظرت عمر العيار عند فسحته ولما رآها عارضها ومنعها من الدخول فقالت له أهل نسيتني يا عمر وقد وعدتني أن تكون لي سنداً وتساعدني على غايتي فإن كان الأمير قد شغل عني ورجع عن وعده ولم يفكر بي إلا أنه كان من المقتضى أن تذكرني عنده فقال لها ان أخي

لم ينسك قط وكان في نيته أن يباشر زفافك ثاني يوم الذي كنت به عندنا غير أني منعته وراجعته عن ذلك قالت ولم أهل رجعت عن وعدك وندمت على الوفاء قال معاذ الله أن أقول ولا أفعل ولا خفاك أن الأمير لا يباشر عملاً إلا بمعرفتي ورضاي وأنت وعدتني أنك تعطيني كل ما أطلبه من الذهب وبعد أن قضيت مصلحتك واطمأن بالك رجعت عن وعدك .
قالت لم أرجع قط غير إني أردت أن أبقي ذلك إلى حينه أي إلى ما بعد الزفاف : قال إني لا أحب المطل وعندي خير البر عاجله فانقديني سلفاً تنالين مطلوبك . قالت وماذا تريد قال عندي جراب صغير أطلب إليك أن تمليه لي ذهباً وتعطيني الجارية التي وعدتني بها ليكون زفافي وزفاف أخي بيوم واحد قالت اتبعني ومعك الجراب لأملأه لك فإني مخطئة معك وكان من الواجب أن أعجل النقد فما صدق أن سمع هذه الكلمة حتى أجاب قولها وقال لها في الغد أكون عندك في قصرك ومعي الجراب وفي نفس الغد نباشر بعمل الزفاف لتزفين حالاً على أخي فسرت مريم وتأكدت أنها إن أرضت عمر نالت غايتها من الأمير وتزوجت به ولما صارت في بيتها أحضرت ما عندها من الذهب مما كانت تجمعه في زمن أبيها فإذا عندها ما يملأ صندوقاً فقالت إن جزءاً صغيراً منه يملأ الجراب والباقي يكون للأمير إعانة له في سفره وعلى جيوشه ودامت في قصرها إلى أن أشرقت شمس النهار وإذا بعمر قد حضر إليها وفي يده الجراب المذكور فقال لها أوفي لي بوعدك واجلي العطاء فتريني في هذا اليوم انجز وعدك فأخذته إلى الصندوق وفتحته فاندهش عمر وفتح باب الجراب حتى قبضت نحو مائة قبضة وهي ترى الجراب على حاله كأنه فارغ فتعجبت وانبهرت إلا انها صبرت عليه وداومت العمل حتى فرغ نصف الصندوق وهي تنظر إلى الجراب كأنه لم يكن به شيء فزاد عجبها وقالت لعمر ما هذا الجراب فإني أراه صغيراً جداً لا يسع أكثر من عشر قبضات فوضعت فيه مئات وهو لا يزال على حاله كأنه فارغ فأين الذهب الذي أضعه فيه قال هو داخله وإذا كنت لا تصدقي فانظري ثم أفرغ ما في الجراب إلى الصندوق فاعاده كما كان مملوءاً فجفلت وقالت له لا ريب أن به شيطان يضيع الذهب ويخفيه قال من أين يأتي الشيطان غير أن جوفه من الداخل كبيراً وإذا قد ندمت على الذهب فلا بأس فأنا أيضاً قد ندمت على الأمير ولا يمكن أن يتزوج بعد بمن تقول ولا تفي .

فقالت له إني غير نادمة على الذهب . ثم عادت إلى عملها الأول حتى فرغ الصندوق والجراب فارغ فكاد يذهب عقلها وصاحت مرتاعة . . شيطان . . شيطان . . وعمر يضحك من ذلك ثم دعت بخادم لها وقالت له اذهب إلى الأمير حمزة واسأله أن يأتي إلي حالاً لأمر مهم فذهب الخادم وجاء بالأمير حمزة فوجدها على تلك الحالة فترحبت به وسألها عن

نفسها فقالت له أن عقلي ضاع من عمل هذا الجراب ثم حكت له قصتها من الأول إلى الآخر . ففطن الأمير أن هذا الجراب هو جراب إسماعيل الذي أخذه من رجال الصومعة وقال لها لا تخافي فهذا أخذه من رجال الصومعة وقال لها لا تخافي فهذا أخذه من رجال الله وهو لو وضعت به المدينة بأسرها لما بانت فيه وقد أخطأت بوعدك له أن تمليه له ثم قال لعمر كفاك أن تقاسمها على النصف فأجاب وأفرغ لها النصف وأبقى النصف ثم قال لها وأما الجارية فاصلحي شأنها ودبري أمرها ليكون زفافي في الغد مع أخي فوعدته وإذا ذاك قال للأمير أريد منك يا أخي أن تتم قولي وتزف على زوجتك هذه فانها كريمة فاضلة وتقيمها ملكة على البلاد وأيضاً ارجع زهربان إلى بلد أبيها فإن في بقائها معنا صعوبة كثيرة وحيث مرادنا نسير من هنا إلى شواطىء بحر المحيط فندخل سورية ونمر على طرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ولا بد لنا من مقاساة حروب في تلك البلاد لوجود الطغاة والبواسل فيها ومن ثم نسير إلى مصر وإلى غيرها من البلدان ولا يناسب أن يكون معنا نساء بل كل زوجة تزوجت بها أبقها في بلادها إلى حين فراغنا من المصاعب والمشاق .

قال لقد أصبت في ذلك وسوف أرجع زهربان إلى بلاد اليونان .

قال ومنذ ذاك الحين أذاع الأمير حمزة خبر زفافه بالست مريم بنت الملك قيصر مجابرة لها وأنها ستكون حاكمة والمالكة على البلاد من قبله وأخذ في تدبير مهام العرس وجمع كل الكبراء والأعيان وعرض عليهم غايته فما فيهم إلا من فرح وسر مزيد السرور وشكر من الأمير التفاته إلى مريم لاعتقادهم أنها ذات أطوار حميدة محبة للعدل والحق قد تربت على محبة الجنس البشري من قبيل الشفقة على مستحقيها . وزينت المدينة زينة كاملة واجتمع لديها الخاص والعام من العواصم والبلدان والقرى للفرجة على زفاف بنت ملكهم .

وأما الأمير عمر العيارين وسار إلى أكمة عالية خارج المدينة وقال لهم إن في هذه الأيام زفاف الأمير حمزة ولا بد أنكم في احتياج إلى الدراهم وقد سعيت إلى أن جمعت لكم جانباً عظيماً فهلموا إليها والتقطوها لأرى من منكم يحصل على الكثير منها . ثم صعد على ظهر الأكمة ووضع المال الذي أخذه من مريم بين يديه وجعل يقبض منه قبضة وينثرها على رؤوس رجاله وهم يتسارعون إلى التقاطها فيتزاحمون ويتضاربون عليها وكل منهم يطلب لنفسه أخذ الزيادة والأمير في مكانه يضحك منهم ومن عملهم وهو مسرور جداً ولا زال في مسرته حتى فرغ المال من يده وإذ ذاك قلبت المسرة إلى كدر وغضب من فراغ الدراهم وتمنى أنها كانت ما فرغت على الدوام ومن ثم عاد بجماعته وهم فرحون بما وصل إليهم وهو حزين إلى أن دخلوا المدينة هذا والزفاف قائم على محوره البهيج إلى أن كان اليوم الذي أعد له فلبست مريم أفخر ملابسها وتزينت بأبهى زينتها وأفرغت عليها حلاها وجواهرها حتى

أضحت تضيء كالكوكب اللامع في ديجور الليل الحالك واحتفت بالزهور الزكية والروائح على رأسها وتطيبت بالأطياب من اعلاها إلى قدمها وجلست في دست قصرها واجتمع حواليها النساء من الأعيان والأمراء وكلهن يسبحن الله سبحانه وتعالى على ما أعطيت مريم من الجمال الباهر الكامل الذي يندر في غيرها من بنات ذاك الزمان وكان أكثر البنات يحسدنها على ما أعطيت من السعادة وعلى ما هي عليه من اللطف والدلال كما أن الأمراء وكل أعيان المدينة كانت تحسد الأمير على حصوله على هذه الفتاة التي كانوا يعتبرونها بالمقام الأول في حديثهم وما من شاب إلا وكان يطلب في نفسه الحصول عليها إلى أن جاءها من يستحقها ليتنعم بجمالها ووصالها والحاصل أن ذاك النهار كان نهاراً أنيساً قامت به الأفراح بكل النواحي إلى أن قرب المساء وجاء الليل فحضر البطاركة والأساقفة الذين كانوا قد تجمعوا إلى المدينة لإجراء احتفال الزواج على الطرق الدينية على المذهب المسيحي فتمموا الواجبات وعقد للأمير على مريم ومن ثم أخذها من يدها ودخل بها إلى قصره الخصوصي وتفرق كل المدعوين وصرف ليلته معها على أتم ما يرام من الهناء والإقبال والتنعم والمسرة كما يقال :

ما زلت أطوي الحي أسمع حسهم ... حتى وقفت على ربيعة هودج
فوضعت كفي عند مقطع خصرها ... فتنفست صعداء أولم تهتج
وتناولت رأسي لتعلم مسه ... بمخصب الأطراف غير مشنج
قالت وعيش أبي وحرمة والدي ... لأنبهن الحي إن لم تخرج
فخرجت خيفة أهلها فتبسمت ... فعلمت أن يمينها لم تخرج

وصرف كل ليلته على الهناء إلى أن كان الصباح فخرج من غرفة نومه وجاء إليه الأمراء والأعيان يهنئونه ويباركون له بعروسه وما لاقى معها من الهناء وأن مريم هذه تأتي من الأمير حمزة بولد ذكر يدعى رستم يخرج صنديداً وجباراً عنيد ويكون له أمر عظيم في هذه القصة فيساعد أباه ويكشف الكروب عن العرب كما يأتي في محله إن شاء الله .

وفي نفس تلك الليلة التي زف فيها الأمير على مريم دخل الأمير عمر على الجارية التي وعدته بها كما تقدم معنا وقتاً بالهناء والراحة معها يلاقي خير عيشه وكذلك الأمير صرف أياماً مع مريم بين الخمرة والكاس .

وفي نفس ذاك الأسبوع دعا الأمير حمزة أخاه عمر وقال له حيث لم يبق لنا غنى عن المسير من هذه المدينة في طريقنا إلى جهة سوريا ومصر وما بعدها أريد منك أن تختار من جماعتك عشرة من العيارين ليسيروا مع زهربان إلى بلاد أبيها فتبقى هناك إلى حين رجوعنا

إلى بلاد العجم فنستدعيها إلينا بحيث يكون الزمان قد طاب وتمكنا من أن نعيش معها بهناء ثم أحضرها وإليه عرض عليها ذلك فلم تسعها المخالفة فودعها وودعته وأعطاها عضاة من الجواهر مكتوباً عليها اسمه تذكاراً لتبقى معها وقال لها احفظي هذه عندك إلى حين الحاجة فهي منقوش عليها اسمي . ثم إن زهربان بكت البكاء الكثير على فراق الأمير وطلبت إليه أن لا ينساها فوعدها بكل جميل والتفات وذهبت إلى بيت أبيها وأقام الأمير بالانتظار إلى حين عودة العيارين وهو مع زوجته الجديدة في عيش وهناء وبعد ذلك عزم على مبارحة المدينة فجمع الأعيان والوزراء من رجال قيصر وأقام عليهم مريم ملكة وقال لهم هذه بنت ملككم فاقبلوها عليكم فهي تحكم باسمها واسمي وبعث بالكتب إلى سائر العمال فورد الأعيان إليها وأظهروا لها طاعتهم وفرحوا بها وهنوها بذلك وصرف نحو شهر بعد ذلك في المدينة حتى فرغ من كل شيء ورجع عياروه وحينئذ جمع إليه الفرسان من العرب وقال لهم لقد طال قيامنا في هذه المدينة وأريد منكم أن تستعدوا للمسير فقالوا إننا بانتظار أمرك فأمرهم أن يكونوا في صباح الغد على ظهور خيولهم ولما كان الصباح نهض من فراشه فودع زوجته ودفع لها عضاة كالعضاة التي دفعها إلى زهربان وأوصاها أن تحكم بالعدل والإنصاف إلى حين إرسال رسوله إليها بعد عودته إلى بلاده وخرج إلى قومه فركب وركبوا وساروا عن المدينة ولما صاروا في الطريق قال الأمير لعمر أي بلاد أمامنا الآن قال مقاطعة بيروت على البحر المالح قال من على تلك البلاد قال عليها الملك كسروان وهو بطل من أبطال هذا الزمان نادر المثال بين الرجال ولا بد أن نلاقي في حربه صعوبة إذا لم يكن مثل غيره راغباً في مسالمتنا وصحبتنا . قال إننا موفقون منه تعالى فلا نخاف أحداً فسيوفنا حداد وأبطالنا شداد والسعادة لنا بالمرصاد .

ولا زالوا سائرين في تلك الطريق عدة أيام وليالي إلى أن وصلوا إلى مدينة طرابلس فخرج أهلها إليهم ولاقوهم بالترحيب والاكرام وسألهم الأمير عن ملكهم كسروان فقالوا له إنه يقيم في هذه الأيام في مدينة بيروت وبعض الأحيان في لبنان غير أنه الآن في بيروت مع ولديه بشير ومباشر . ونزل رجال الأمير إلى المدينة فابتاعوا كل ما يحتاجونه منها وارتاحوا هناك نحو يومين ومن ثم ركبوا وجاءوا نحو مدينة بيروت وقد مروا في طريقهم على مكان يدعى نقار المعاملتين فرأوا أن الطريق من هناك ضيق ولا يمكن السلوك منه إلا بصعوبة فدخلوا فيه وفيما هم يقطعونه انحطت عليهم رجال الملك كسروان من أعالي المكان وفي مقدمتهم ولداه بشير ومباشر وهجموا على العرب وأقاموا ضرب السيف فيهم وهم على حين غفلة وقد أهلكوا منهم أكثر من ألف فارس ولما رأى الأمير هذا العمل تكدر جداً وأمر رجاله أن ترجع إلى الوراء إلى مكان متسع وإلا إذا بقوا يقطعون هذا الطريق يهلكون عن آخرهم فرجعوا القهقرى حتى أمنوا على أنفسهم وأظهر الأمير كدره وغيظه ودعا إليه عمر العيار

وعنفه على تقصيره وقال له كان من اللازم أن تسير أنت على الدوام في مقدمة الفرسان تكشف لنا الطرقات وإلا هلكنا في بلاد لا نعرفها . فقال له إني أريد أن لا أفارقك على الدوام ولم يخطر في ذهني أن الملك كسروان سيأخذنا غدراً . قال أريدُ منك أن تنظر لنا في طريق نسير به إلى بيروت إذ ما من وسيلة لمرور عساكرنا في هذا الطريق إذا بقي عليه جماعة كسروان قال إني أظن أنهم يرجعون في هذه الليلة إلى بيروت ولا يقيمون هنا وما جاءوا إلا ليدهمونا مرة واحدة على حين بغتة ولحسن حظنا لم يتمكنوا منا كما كانوا يرغبون ولا بد أن الملك كسروان يكون على استعداد ينتظرنا للحرب وهو يتكل على نفسه كغيره من الأبطال الشداد . قال إذا فعل ذلك يكون قد أخطأ لأنه إذا أراد الايقاع بنا يمكنه أن يقيم على هذا المضيق فلا يدعنا نمر منه أبداً . قال إذا بقي هو هنا سرنا في غير طريق وإن كان يبعد عدة أيام . ومن ثم أقام الأمير مع قومه وهم متكدرون مما لحق بهم في ذاك اليوم متأسفون على من فقد لهم من رجال فيه . ولما كان صباح اليوم التالي نهض الأمير عمر العيار وأخذ بعضاً من جماعته العيارين وأوصاهم أن يتسلقوا القمم وينظروا في مكان رجال بيروت وصعد هو إلى أعلى القمة فلم يروا أحداً فتأكدوا أن بشيراً ومباشراً قد رجعا بقومهما فعاد العيارون جميعاً وأخبر عمر أخاه أن القوم قد رجعوا إلى المدينة فأمر رجاله أن تسير في ذاك المضيق خلف عمر العيار فقطعوا المضيق دون أن يصادفوا أحداً وساروا من هناك إلى أن تبينوا مدينة بيروت وهي زاهية زاهرة .

قال وكان الملك كسروان هذا الحاكم على بيروت وما يليها هو من عظماء الملوك وفطاحل الأبطال وله ولدان وهما بشير ومباشر من الفرسان الشداد وقد وصلت إليه كتابة الملك كسرى كغيره من العمال فقرأها وعرف فحواها وعمد على هلاك الأمير حمزة وجماعته وجعل يترقب قدومهم إلى أن مضت الشهور والأيام وهو عارف أنهم لا بد من أن يأتوا إلى جهته لجمع الأخرجة بعد فراغهم من بلاد الرومان واليونان وغيرهما ولا زال بالانتظار إلى أن وصلت اليه الأخبار بأنهم وصلوا إلى قرب مدينة طرابلس فدعا بولديه وقال لهما خذا معكما عشرة آلاف من العساكر واكمنوا عند نقار المعاملتين ومتى رأيتم العرب وقد اجتازوا منه فانحطوا عليهم وارموهم بالويل والحرب ولا بد أن تهلكوا منهم قسماً كبيراً ومن ثم عودوا إلي فإذا نجا الأمير حمزة لا بد أن يسير في أخذ ثأر من فقد له فيطلب قتالنا فأقتله وأبدد الباقي ونكون قد عملنا غاية كسرى وما طلبه منا ونلنا منه المكافأة مع المدح والثناء فأجاب ولداه أمره وسارا بالعساكر وأكمنا عند نقار المعاملتين إلى أن أخذ العرب بالمرور عنه فجرى ما جرى وبعد ذلك تركا ذاك المكان ورجعا إلى الوراء نحو المدينة حسب أمر أبيهما ولما انهيا اليه أخبراه بما كان وقالا له أن العرب قوم بواسل فلم نتمكن منهم كما نقصد وفيهم فرسان أبطال يحمون العساكر كما تحمي اللبوة أشبالها قال لا بد لي من هلاكهم مهما كانوا أو كثروا وأقام

ينتظر وصولهم إلى أن رآهم وقد ضربوا خيامهم نحو المدينة وسرحوا بأغنامهم في تلك الضواحي وهي بعدد رمل البحار فأمر رجاله وعساكره أن تخرج أيضاً إلى الخارج وسار هو في الأول وضرب خيامه تجاه العرب على أمل أن في الصباح يباكرهم بالحرب والقتال وكان عدد عساكره يبلغ الخمسين ألف فارس : ولما رأى الأمير حمزة خروج الملك كسروان سر سروراً عظيماً وقال ان القتال في مثل هذا المكان خير من حصار المدينة والتطويل في ذلك ولم يخطر لي قط أن كسروان يقاتلنا وجهاً لوجه ثم أنه أخذ طرساً وكتب كتاباً قال له فيه . (من الأمير حمزة فارس برية الحجاز وبهلوان تخت فارس ومبيد الأبطال في ساحة المجال إلى الملك كسروان حاكم مدينة بيروت) .

لا خفاك أيها الملك أني خرجت من بلاد كسرى لأجل جمع الأخرجة والمسير من سائر البلدان لأدفعها إلى الملك الأكبر كسرى أنو شروان وأتزوج ببنته مهرد كار وقد أتيت البلدان العظيمة والعواصم الكبيرة كالقسطنطينية وبلاد اليونان وقيصرية وجبيت منها الأموال ولاقيت من ملوكها الإكرام والتبجيل وكان بعهدي أن تكون أنت حكيماً فتسلك مسلك غيرك من الملوك الذين عرفوا باطن كسرى وقصده من جباية الأموال واشتروا دفع الشر بدفع الأموال واكتسبوا صداقتي ودخلوا في طاعتي وتحت حوزتي إلى أن رأيت منك أنك تقصد القتال والنزاع وتطلب الشر والعناد وقد بعثت بولديك ليغدروا بنا وجرى منهما ما جرى الآن أنذكر أن كيدك سيقطع في نحرك وستلاقي من العرب رجالاً بواسل تخدمهم السعادة ويعطيهم النصر ويذل لديهم كل جبار عنيد وفارس شديد فإذا بقيت مصراً على العناد قدت بلادك إلى الخراب وأوقعت برجالك في حفرة الدمار فأنصح لك أن تدفع الأخرجة المضروبة عليك عن سبع سنوات سلفاً ولا تعد فيها بعد تدفع له مطلقاً وأخلع عنك طاعة كسرى وكن منذ الآن حراً وإياك من المخالفة وإني أسامحك على ما وقع ومن ولديك والسلام .

ثم سلم الكتاب إلى عمر العيار وأوصاه أن يأتيه بالجواب حالا فأخذه إلى الملك كسروان فدفعه اليه ففضه وقرأه وكان شديد المكابرة يفتخر بنفسه كثيراً ويظن أنه يقهر عشرين بطلاً كالأمير حمزة ولذلك لعب به الغضب جداً وتكدر الكدر الزائد ولعن العرب وأراءهم وقال أكان من قدر بدوي لا قدرَ له ولا مقام أن يتطاول على ملوك الزمان ويتهددها ويتوعدها وقد ظن أني كغيري من الذين رآهم ومر عليهم ألا يعلم أني لو حملت على جيوشه لطحنتهم وتركتهم أدق من الدقيق . قال لعمر قل لحمزة أن لا جواب عندي سوى المباكرة إلى ساحة النزال ليعرف الشجاع من الجبان فعاد الأمير إلى أخيه وأخبره بما كان من الملك كسروان ومكابرته فاغتاظ منه وحقد عليه وعزم أن يقتله إذا التقى به وقت القتال أو بارزه في الميدان وصبرت العرب إلى أن كان صباح اليوم التالي فخرجت من مراقدها إلى خيولها فاعتلتها وانتظرت أمره وإذا به قد خرج راكباً فوق جواده الأصفران مدجج بالسلاح إلى

حد الأسنان وعليه من المهابة والإجلال ما لا يوجد في غيره من الفرسان والأبطال ولما وصل إلى جماعته سار أمامهم يطلب القتال وكان الملك كسروان قد ركب بجماعته البيروتيين وعددهم نحو الخمسين ألفاً وولديه بشير ومباشر ولما صار في الميدان ووقعت العين على العين حمل كل من الطائفتين طالباً الإيقاع بخصمه وإعدام اسمه وبوقت قريب راج سوق الحرب واشتد الطعن والضرب . ولعبت السيوف الصقال والرماخ الطوال في مقاتل الرجال فوقعت إلى بساط الرمال معانقة بأيد فرغ الآجال . أجسام البلاء والوبال ولله در العرب فانها قتلت وما قصرت وفعل الأمير حمزة أفعالاً لا تقصر عنها مردة الجان وعفاريت السيد سليمان وكذلك أندهوق بن مسعود ومعقل البهلوان والأمير عقيل والأصفران فقد أجهدوا النفوس وقطعوا من الفرسان . الرؤوس وحموا رجالهم بكل جهدهم ولم يكن عمل الملك كسروان أقل شأنا من هؤلاء الفرسان فإنه فعل في جيش العربان كما تفعل بالقش اليابس ألسنة النيران وقد قتل فيها قتلاً ذريعاً وفعل فعلاً شنيعاً وترك رجالها تئن من فعاله وهي ما بين طريح وجريح إلى أن كان المساء فضربت طبول الانفصال ورجع الفريقان عن القتال لاشتداد ظلام الزوال وقد تكون تكدر الأمير حمزة لما رأى أن قسماً غير قليل قد قتل من جماعته وقال لم يكن بعهدي أن يقع برجالي ما وقع إننا لم نقصر في هذا اليوم وكذلك كسروان فإن رجاله قد قلوا لكثرة ما قتل منهم العربان فزاد به الحنق وتمنى أن يأتي اليوم الثاني ليرجع إلى القتال وقال لولديه وقواد عساكره لا بأس أن فقد كل رجالي فإني وحدي أقدر أن أفني العرب عن آخرهم ولم أقصر في هذا اليوم ، وفي الغد أرحلهم عن هذا الديار وأشتتهم في البراري والقفار .

وبات القومان يتحادثان إلى أن أشرقت شمس اليوم التابع فهبت الفرسان ساعية إلى ساحة الميدان وتقدمت من كل جهة ومكان إلى قبض نفوس بعضها البعض وأخذ الثأر عما سلف منها من الابرام والنقض وكان يفكر الأمير حمزة أن يبارز الملك كسروان ويقصف عمره وينهي أمره غير أنه قبل أن يصل إلى وسط الميدان كان الملك كسروان قد أمر رجاله أن تحمل على العرب دفعة واحدة فحملت وهو في مقدمتها وإذ ذاك اشتدت نار القتال وزاد لهيبها بالاشتعال فأحرقت أفئدة الرجال وذهبت بأرواحها إلى عالم الخيال . وكان ذاك اليوم شديداً لم يسبق أن سمع بأعظم منه منذ أجيال . وما عول النهار على الارتحال إلا بعد أن وقع بالعرب الضعف والاخلال كما وقع بالبيروتيين الفناء والانحلال وقد افترق القومان وهما لا يصدقان بالوصول سالمين إلى الخيام . قال وكانت تلك الليلة على الأمير حمزة من أشد الليالي لما رأى أن الوقت لم يمكنه أن يلتقي بالملك كسروان حتى فعل ما فعله برجاله ولذلك دعا بأخيه عمر وقال له أريد منك أن تنهض قبل أن تشرق شمس اليوم القادم فتسرج لي الأصفران قبل أن يصل الملك كسروان وأن تمنع العرب من القتال فإني كلما حاولت أن ألتقي

به وقت القتال غاب عن نظري بين جموعنا لأنه فارس شديد وشيطان مريد ينتقل من مكان إلى مكان كأنه البرق في اللمعان ولذلك لا تثبت عساكرنا أمامه بل تتفرق من حواليه فقال له إني أعرف وجوده على الدوام فإذا لم يكن في الغد براز أوصلتك إليه في الحال لأن ليس من الصواب أن تتركه على غيره يهلك من قومنا ويقتل فيهم القتل الذريع هو وولده . قال وبات الأمير تلك الليلة وفي فجر اليوم التالي أيقظه عمر من رقاده فنهض إلى جواده فركبه وتقلد بسلاحه وتقدم وسط الميدان قبل إتيان الفريقان وكانت العرب قد عرفت بما فعل أميرها فأسرعت إلى الساحة واصطفت وهي تضرب بطبولها وتعزف بزهورها وعلى هذا نهض الملك كسروان قبل الأوان وتقدم بعساكره إلى ساحة الميدان فوجد الأمير حمزة في الوسط وهو يصول ويجول ويطلب مبارزة الأبطال والفرسان ففرح في نفسه وقال لا بد لي في هذا اليوم من براز العرب وإهلاك قسم من فرسانهم الأشداء ثم أطلق لجواده العنان حتى التقى بالأمير حمزة فحمل عليه حملة جبار عنيد فالتقاه بقلب أشد من الحديد واختلف بينهما الطعن والضرب ووقعا بالعناء والكرب . ولا زال في أشد قتال وأعظم نزال وهما تارة يفترقان وتارة يجتمعان كأنهما أسدان ضرغامان أو جبلان عظيمان وقد حجبهما الغبار عن العيان ولم يكن يسمع إلا همهمة وبربرة ودمدمة حتى كان العصر فرأى الأمير حمزة شدة الملك كسروان فتعجب منه وعلم أنه من الفرسان العظام .

وكذلك الملك فانه رأى من الأمير فوق ما كان يظن وخاف أن يمضي النهار ولا ينال منه المرام ولذلك صاحبه وانحذف عليه وبادره بضربة كان يظن أنها تكون القاضية عليه فضيعها الأمير بمعرفته وأرسل اليه ضربة منه أشد من ضربته وقد أخذ به الحنق كل مأخذ فوقعت الضربة على طارقة الملك كسروان وانقشعت عنها بشدة أرياح قوته فوقعت على رقبة الجواد فقطعتها ولما شعر كسروان بموت جواده قفز بأسرع من لمح البصر عنه إلى الأرض ليدافع عن نفسه وقد صمم أن لا يسلم ذاته وهو في قيد الحياة فأراد الأمير أن ينحط عليه ليأخذه أسيرا وإذا بولديه بشير ومباشر قد هجما على الأمير وحملت من خلفهما العساكر فاتبعتها العرب وكانت موقعة عظيمة إلى أن كان المساء فرجع القومان عن القتال . والأمير يتحرق من فوات كسروان ونجاته من يده في ذاك النهار ويطلب أن يأتي الغد ليقتله ويرتاح من شره ومن ثم لا يعود مانع يمنعه عن الاستيلاء على بيروت ونهاية الحرب فيها . وأما كسروان فانه بقي في غيظ وكدر إلى أن دخل صيوانه فاجتمع إليه الرجال من أعيان المدينة وقالوا له إن القتال مبارزة مما يطيل علينا المطال وكنا نريد منك أن لا تبارز إلا بعد أن تفنى رجالهم لأن في مدة الأيام الماضية كان الفوز لنا بخلاف هذا اليوم فقال لهم إني اعرف ذلك وكيف كانت الحال لا بد من قتل هذا الأمير وإني أقر وأعترف أنه بطل من أبطال هذا الزمان يندر وجوده مثله في بيروت ولبنان وفي كل مكان غير أني أريد منكم أن تبكروا إلى الحرب في

الغد كلكم لنفني قبلاً جماعة الأمير لأني أعرف بالامتحان أن خمسين ألف من رجالي اللبنانيين يقاتلون ألف ألف من أبطال العرب وغيرهم إذا كنت أنا بينهم أحميهم .

وبات الفريقان ينتظران الصباح إلى أن أتى بوجهه الوضاح فنهضت الفرسان تطلب الحرب والكفاح وكان يظن الأمير أن الملك كسروان يطلب لنفسه الثأر في ذاك النهار ويأتي لبرازه غير أن الأمر جاء بالعكس لأنه عندما التقى الفريقان في ساحة الميدان واصطف الصفان أمر كسروان رجاله أن تحمل من كل مكان فحملت كأنها أسود خفان وكان قد أوصى ولديه بشير ومباشر أن يأخذا نصف العساكر ويتوغلا في الشعاب ويأتيا من خلف الأعداء وهم مشغلون بالقتال فيوقعون بهم الخيال والنكال فادرك الأمير حمزة لما رأي عساكر بيروت قليلة أن القصد مفاجأتهم بغتة وهم مشغلون القتال بالحاضرين ولذلك قال لأندهوق أريد منك ومن معقل البهلوان أن تتأخرا عن القتال وتراقبا التلال والجبال فإذا رأيتما الفرسان خرجت منها فالتقياها واجمعاها إلى بعضها فلا بد في هذا النهار من نهاية الحال فأجابا طلبه وأقاما مع نصف العساكر بالمرصاد .

وأما الأمير فانه التقى العساكر كالليث الكاسر وانتشب القتال وانتشاب الشظايا وقدمت النفوس لمذابح الفناء ضحايا وتقدمت الشجعان بقلوب قوية لا تخاف المنايا وفرت الجبناء تطلب لنفسها الاستتار في الخبايا وأما الأمير حمزة فانه قال لأخيه عمر سر أمامي إلى الجهة التي يقاتل فيها كسروان فإني لا أرغب أن أدعه يتمكن من رجالنا فينزل بهم الويل والعبرة وإني أعرف متى قتلته تفرقت رجاله فأجاب طلبه وأخذ يخترق به الصفوف ويطعن في صدر المئات والألوف والرجال تنفر من بين ايديهما كما تنفر الاحجال من البواشق وفيما هم على مثل ذلك إذا بالأميرين بشير ومباشر ظهرا من خلف الجبال وحملا على العرب وفي ظنهما أنهما ينالان المقصود وإذا بالأمير اندهوق بن سعدون ومعقل البهلوان التقيا بهما واشتعلت نار القتال بين الفريقين وقام سوق الحرب والطعان في كل ناحية ومكان وتدفقت الدماء كالغدران وفارقت الرؤوس الأبدان وداست الخيل في أقحاف الفرسان فاتخذتها نعالاً وأغمدت السيوف في صدور الاقران فقطعت منها الآمَال . وكان ذاك اليوم كثير الأهوال عظيم الأخطار شديد المصائب ولا زال الأمير حمزة على ما تقدم يقاتل ويناضل إلى أن التقى بالملك كسروان وهو يلتهم الأبطال وينزل البلاء والنكال فصاح به وانحط عليه وهو لا يصدق أن يراه فالتقاه كسروان وأخذ معه في الحروب والطعان مقدار ساعتين من الزمان إلى أن اختلف بينهما ضربتان قاضيتان كانت ضربة الأمير حمزة أرشق وإلى قبض الأرواح أعجل وأسبق فوقعت في صدر الملك كسروان ألقته قتيلاً وفي دماء جديلاً وعرف قومه ما حل به وانتشر خبر موته في كل مكان حتى وقع الرعب في قلوب الجميع فتأخروا إلى الوراء وعند

الظلام رجع الأمير حمزة منصوراً ظافراً إلى الخيام ومن حواليه أخوه عمر والثمانمائة فارس الذين ولدوا معه وتربوا وإياه في زمن واحد يحتاطون به كالهالة فوجد أن الأمير أندهوق قد أنهى الأمر وفض المشكل وبدد شمل رجال بشير ومباشر وهنأوا بعضهم البعض واجتمعوا إلى صيوان الملك النعمان يتشاورون في هذا الشأن فقال لهم الأمير حمزة أن الأمر قد انقضى وعندي أن الأمير بشير ومباشر لا يطلبان بعد أبيهما القتال ولا يرغبان في عنادنا بعد أن شاهدا ما حل بأبيهما فقال أندهوق لا ريب أنهما يدخلان المدينة ويقصدان الحصار فيها فنلتزم إلى التطويل والعاقة أجاب هذا لا يهمنا أبداً ولا بد لنا من الإيقاع بكل من يعاندنا كما أننا نساعد ونغيث كل من يطلب مصاحبتنا وفي الصباح سأبعث بأخي عمر إلى بشير ومباشر وأطلب إليهما التسليم فإذا أجابا كان ذلك لخيرهما وإذا امتنعا ألحقهما بأبيهما . فهذا ما كان من العرب وأميرهم وأما ما كان من بشير ومباشر فإنهما تقهقرا إلى الوراء ولاقيا الخيبة والفشل وحزنا على موت أبيهما كل الحزن فدخلا المدينة بمن تبقى من الرجال وقفلا الأبواب من كل الجهات وجمعا مجلساً من أعيان البلاد وفرسانها فاجتمع عندهما الخاص والعام فقال مباشر أني دعوتكم الآن لأعرف ماذا تعتمدون في تدبير أمور المدينة والقتال فقالوا اننا نعرف أن مدينتنا منيعة الأسوار صعبة المأخذ لا تؤخذ بعام ولا بعامين غير أننا لا نرغب في قتال العرب وعنادهم وقد أخطأ أبوك في ذلك إذا أن القصد دفع الجزية لكسرى وقد عرض الأمير علينا ذلك ووعدنا بالخلاص من نير كسرى وثقل أخطاره وضرائبه وقصد كسرى هلاك الأمير حمزة فإذا كان هو ملك ملوك هذا الزمان يعجز عن هلاكه وقصد إبعاده فماذا نفعل أمامه وعندنا أن نصالح الأمير ونعرض حالنا عليه ونفعل كما فعل غيرنا من الملوك الكبار فقال لهم إني عولت على مثل ذلك في صباح الغد سأخرج طائعاً إلى حضرته وأسأله العفو عنا وعما سلف منا وما كان ذلك إلا من أبي وفوق كل ذلك فإني سأدخل في خدمته وأسافر معه أينما سافر وأقاتل بين يديه وتحت أمره وأقتدي بغيري من الملوك والأمراء فقال أخوه وأنا أفعل كذلك فإن في صحبة الأمير الغاية وقد وقع له من قلبنا موقعاً عظيماً فاتفق الجميع على مثل ما تقدم وانتظر الجميع اتيان الصباح إلى أن جاء مقبلاً بصبوحه وإذ ذاك نهض مباشر وبشير فلبسا ملابس السلاح وأخذا معهما مشايخ المدينة وأعيانها وخرجوا جميعاً من المدينة إلا أنهم ما بعدوا من أبوابها حتى لاقوا الأمير عمر سائراً إليهم بأمر أخيه ليعرض عليهم التسليم ففرحوا به وساروا معه إلى أن وصلوا إلى أمام الأمير فلاقاهم وترحب بهم مزيد الترحاب وأكرمهم غاية الاكرام وقال لهم أنه يصعب علي أن أكون قاتل الملك كسروان غير أنه هو الذي تعدى علي وقصد هلاكي وهلاك قومي ومن كان مثله يفدى بالأرواح غير أن عمره قد فرغ وانقضى فأعزيكم به وأطلب إليكم أن تختاروا غيره من ولديه بشير ومباشر فقال له بشير ومباشر إن أبانا قد قتل بالحرب أي في سبيل العداوة ومن يقتل في مثل هذا المركز لا يلام

قاتله مع أننا نعلم أنه هو المعتدي ولم ينظر في صالح نفسه ولا وعى إلى ذاته بل قصد إنفاذ غاية كسرى فلاقى ما لاقى والآن قد جئنا نحن إليك طائعين راغبين في خدمتك كل العمر فاختر للمدينة حاكماً غيرنا فإننا نحن مع ثلاثين ألفاً من قومنا نكون في ركابك على الدوام نعيش ونموت بين يديك . ففرح الأمير حمزة بهذا الكلام وكاد يطير شعاعاً لأنه كان يحب أن يكون بين رجاله جماعة من أهل تلك البلاد لأنهم فرسان بواسل كبار الأجسام شداد القلوب صبورين على الشدائد واحتمال الأهوال . ولذلك قال لهما على الرحب والسعة فانكما تكونان مفضلين في قومي ويكون لكما المقام الأول كسادات العرب غير أني أريد منكما أن تجمعا الأخرجة عن سبع سنوات لأضمها إلى الأخرجة التي جمعتها من البلدان ومن ثم نسير عن هذه البلاد إلى غيرها فأجاب الجميع طلبه ووعدوه أنهم يجمعون الأموال بأكثر من المطلوب ويدفعوه إليه بأقرب وقت .

وبعد أن صرفوا باقي النهار في صيوان الملك النعمان بين يدي الأمير حمزة ركبوا عائدين إلى المدينة وقد سألوه أن يقبل ضيافتهم مدة ثلاثة أيام مع قومه الأعيان فأجاب دعوتهم ووعدهم أنه في الغد يسير إليهم وينزل ضيفاً عليهم حبا بهم ففرحوا لذلك وودعوه وعادوا مسرورين بمصاحبة الأمير فرحين بما لاقوا منه وما منهم إلا من يطير قلبه شعاعاً حبا ورغبة في صحبته لأنهم وجدوه أنه على أعلى جانب من اللطف والبشر والإنس رقيق الحاشية لطيف الجانب وحال وصولهم إلى المدينة أخذ بشير ومباشر في تدبير أمر الولائم بعد أن بعثا بالرسل إلى سائر الملحقات أن تبعث بالأموال عن مدة سبع سنين سلفاً وأن تستدين من الرعايا فجرى ذلك بأقرب وقت وفي صباح اليوم الثاني نزل الأمير حمزة إلى المدينة مع قومه ودخلوا إلى سرايا الحكومة وتفرجوا على البلد وتحصيناتها وأسواقها ومدارسها العامرة الزاهرة وبعد ذلك دخلوا دار الضيافة وأكلوا من الولائم التي أعدها بشير ومباشر ووقعت الالفة بين العرب وأهل المدينة وصرفوا مدة أيام على الهناء والراحة والسعة يسرحون ويمرحون ويلعبون إلى أن وردت الأموال المطلوبة للأمير فدفعت إليه على التمام فضمها إلى غيرها من الأموال ومن ثم أخذ أهل المدينة يدبرون أمر سفر عساكرهم وما يحتاجون إليه في رحلتهم مع الأمير من المؤ ن والعلوفات وصرفوا وقتاً على أتم ما يرام وأخيراً أمر الأمير عساكره أن تركب وتسير في طريق صيدا وقد سأل من هو الملك على تلك المدينة فقيل له إن عليها ملك عظيم الشأن اسمه الدعاس فقال وأي إله يعبد فقيل له يعبد الله سبحانه وتعالى ويكرم أنبيائه فقال لا بد أن نصادف في هذه المدينة نجاحاً فلا نتأخر فيها لأن الملك الدعاس يكون قد بلغه ما حل بالملك كسروان فيختار السلام والأمان على حسران رجاله ونفسه .

وفي صباح ذات يوم نهض الأمير إلى جواده فركبه وسار بين يديه أخوه عمر العيار بجماعته العيارين وركب إلى جانبه الملك النعمان ملك العربان واندهوق بن سعدون

صاحب سرنديب الهند وأصفران الدربندي ومعقل البهلوان صاحب حصن تيزان والأمير عقيل أمير الثمانمائة فارس ومباشر وبشير وسار الجميع يتقدمون من بيروت في طريق صيدا وكان عددهم فوق ٢٢٠٠٠٠ الفاً تحت الراية العربية وقد أقام حاكماً على المدينة من أهلها وأوصاه أن يبقى سبع سنوات لا يجمع أموالاً وأعشاراً من الأهالي وبعد السنين المذكورة يرسل بالأموال التي يجمعها إلى مكة المطهرة إلى أبيه إبراهيم وما ساروا إلا ساعات قليلة عن بيروت حتى لاحت لهم أسوار صيدا وتبينوها تماما فأمر الأمير أن تضرب عساكره الخيام على بعد ساعة من المدينة وكان بظنه أن الملك الدعاس يخرج لملاقاته فلم ير أحداً بل رأى أبواب المدينة مقفلة وما من رجل حولها قط فتعجب وقال لا بد من أن هذا الملك يقصد الحصار على أن لا عساكر على الأسوار فقال له الأمير عمر اكتب كتاباً لآخذه إلى هذا الملك وأنظر ما السبب الموجب لقيامه داخل البلد فأخذ حمزة قلماً وقرطاساً وكتب كتاباً يقول فيه :

(من الأمير حمزة بن إبراهيم فارس العرب ومبيد أهل الكفر إلى الملك الدعاس صاحب قطيعة صيدا) .

« خرجت من بلاد كسرى لأجمع الأخرجة عن سبع سنين فأتيت حلب ولاقيت من صاحبها كل أنس فقبضت منه ما طلبت إليه دفعه وخرج عن طاعة كسرى ودخل في طاعتي وسرت إلى بلاد اليونان والرومان وأنطاكية وديار بكر وكل تلك المقاطعات فصادفت خيراً ونجاحاً وجمعت الأموال عن سبع سنين سلفاً وأدخلت البلاد في حوزتي ثم أتيت سوريا ونزلت على الملك كسروان وسألته الطاعة فأبى فكان ذلك شراً ووبالا عليه فخسر نفسه وقتل ولا بد أن تكون بلغتك أخبارنا والآن أتينا مدينتك لنقبض منك الأموال عن سبع سنين وهذا لا بد منه ولا خلاص لك إلا بإجابة طلبنا وقبض المطلوب منك فتكون قد جاريت غيرك من الملوك ونظرت موضع النظر وإلا فاخرج لقتالنا ولا تختبيء داخل المدينة فإن مرادنا سرعة الرحيل عن هذه البلاد إما لنا وإما علينا ولما انتهى من كتابة هذا الكتاب سلمه إلى أخيه عمر وقال له خذه إلى المدينة وارجع حالاً بالجواب فأطلق ساقيه للهواء وبوقت قريب صار عند أبواب المدينة فطرق الباب وسأل البواب أن يفتح له ليوصل التحرير إلى سيدهم فلما رآه البواب وحده وشاهد ضعف جسمه فتح له الباب وبعد أن دخل قفل من خلفه فسار إلى أن وقف أمام الدعاس فدفع كتاب أخيه إليه ولما قرأه . قال له ارجع إلى الأمير حمزة وأخبره أن لست بطائع ولا عاص لا أدفع له الأموال ولا أجمع له الأخرجة ولا أخرج لقتاله ولا أجمع عساكري لنزاله وحربه بل قفلت أبواب المدينة وأقمت داخلها لا أفعل أمراً إلى أن أرى من نفسي ما ينبغي أن أعمل وغير ذلك لا أجيب فارجع في الحال . فرجع عمر إلى أخيه حمزة وأخبره بجواب الدعاس فتكدر وقال هل هذا الرجل مختل الشعور فإنني لا أرى إنساناً في الدنيا مثله لا يكون عدوا ولا صديقاً ونحن نطلب إليه إما يقاتلنا وأما يدفع لنا

الرسوم ويتركنا نبعد عنه فقال له مباشر إذا شئت مرنا أن نحتاط بالمدينة فنفتحها رغماً عنه لأنه كما قال لا يريد أن يدفع عنها ولا يشهر سلاحاً . أجاب ليس من العدل أن نقاتل من لا يرغب في قتالنا وأني أصبر عليه إلى سبعة أيام فاذا أجاب كان خيراً وإلا فعلنا ما أشرت إليه ونكون قد صبرنا عليه كفاية ورأينا أن الضرورة أحوجتنا إلى ذلك . فاستحسن الجميع رأيه وأقاموا خارج المدينة كل النهار إلى المساء وفيه تفرق القوم إلى الخيام وأقام الخفراء يحرسون المعسكر إلى أن كانت الساعة الرابعة من الليل وبينما كان الأمير في صيوانه ولم ينم بعد وإذا به سمع الصياح والصراخ قد قام في معسكره من كل جهة وناحية فخرج مندهشاً وقد أفرغ عليه سلاحه وركب جواده وتقدم إلى جهة الصياح فرأى أن العساكر واقفة بالارتباك وهي تركض من جهة إلى أخرى فسأل عن السبب فقيل له أن فارساً واحداً انحط على المعسكر من جهة آخرة فشطره ولا زال يقتل من يقف في وجهه ولا أحد قدر أن يمنع شره فسار الأمير حمزة على أمل أن يلتقي به فلم يتيسر له ذلك لأنه سار بأسرع من البرق فاختطف الأرواح واخترق المعسكر وغاب عنهم ولم يعد أحد يرى له أثراً فتكدر الأمير من ذلك وعند الصباح وجدوا أنه قتل نحو مائة وخمسين فارساً فزاد به غيظ الأمير وقال لا بد أن يكون هذا الفارس من فرسان هذا الزمان العظام وإلا لما كان تجاسر أن يفعل معنا مثل هذه الأفعال غير حاسب لأحد منا حساباً غير أنه لم يقم طويلاً في قتالنا بل فعل هذه الفعال بوقت قريب وسارعنا ولا نعلم إلى أين مسيره ولا أعلم إن كنت أصادفه مرة ثانية لآخذ منه بالثأر وأريه كيف يكون الغدر والأخذ بالغفلة . وأقام جماعة العرب بحيرة عظيمة كل ذلك النهار وقد دخل في عقولهم أن الفارس المذكور لا يعود ثانية إليهم بعد أن رأى كثرة جموعهم وتيقظهم غير أنه ما أقبل الوقت المعين حتى انحذف عليهم انحذاف الصواعق وأوقع فيهم ضرب السيف وهو يخترق الخيام ويمدد الفرسان على الأرض قتلى وقد ارتجت من فعله تلك السهول وارتفع الصياح من كل ناح فأسرع الأمير إلى جواده فركبه وأسرع إلى ملاقاته وبين يديه أخوه عمر فوجده قد ملأ الأرض من رجاله وهو يميل تارة إلى اليمين وطوراً إلى الشمال وسار في أثره حتى وجده قد خرج من طرف المعسكر وسار في البر الاقفر مطلقاً لجواده العنان فتتبع الأمير أثره تحت ظلام الاعتكار حتى بعد عن تلك الناحية نحواً من ساعتين وهناك غاب الفارس عن نظر الأمير حمزة ولم يعد يرى له أثراً وإذ ذاك قال لأخيه عمر قد ثبت أن طريقه من هذا المكان ولا بد له من العودة والمرور في هذا الطريق ومن الصواب أن نقيم هنا بانتظاره إلى أن يعود إلينا ولا ندعه يذهب إلى المعسكر فارجع حالاً وآتنا بصيوان فننصبه في هذا المكان إلى أن يكون مساء الغد فألتقي به وأذيقه شر عمله فاستحسن الأمير عمر هذا الرأي ورجع في الحال إلى معسكرهم وجاء بصيوان وسرير أخيه وبعض الأطعمة ما يكفيهما إلى مدة أيام وأوصى الفرسان أن تستكن في أماكنها إلى أن يعود إليهم أخوه وأخبرهم أن مراده يربط

الطريق على الفارس الذي يأتيهم في المساء ولا يدعه أن يصل إليهم وأقام حمزة وعمر باقي تلك الليلة في ذاك المكان وعند الصباح خرج من الصيوان ونظر إلى فسيح ذاك البر من الجهة التي غاب فيها الفارس وإذا به قد أقبل فوق جواده كأنه الأسد الكاسر وهو يتقلب على عرش التفاخر والمباهاة معتزاً بنفسه يلاعب حصانه على أربعة أركان ذاك السهل فسر الأمير عندما رآه وأسرع في الحال إلى سلاحه فأفرغه عليه واعتلى على ظهر جواده الأصفران كأنه قطعة من أعالي جبال لبنان تنجلي للناظر من كل مكان وهي ثابتة لا تتحرك قط ولا تزعزعها الصواعق ولا الزوابع ومن خلفه عمر وقد التصق بجواده ينطلق كانطلاقه ويسير كسيره .

ولم يكن إلا قليل من الوقت حتى وصل ذاك الفرس إلى أمام حمزة فتبينه وإذا به مربوع التقاطيع عريض الأكتاف واسع الصدر ضارب على وجهه اللثام لا يظهر منه سوى عينيه وهو غاطس في بحر من السلاح غريق به إلى ما فوق رأسه ولما قرب منه قال له أهلاً وسهلاً بالأمير حمزة فارس برية الحجاز ومجبي الأموال من البلدان لقد وصلت إلى محط رحالك وانتهيت إلى منتهى آجالك فاليوم تعرف مقدرة الفرسان وتفاوتها عن بعضها البعض وتعرف قدرك بين الفرسان وقد وقعت في يدي ونويت أن لا أدعك تنجو إلا إذا كنت تقدر علي وتقتلني أو تأسرني فقال له الأمير حمزة سوف يظهر لك الحق من البطلان وتعرف أن الأمير حمزة ليس كغيره من الذين لاقيت من الفرسان فأخبرني أولاً عن نفسك ومن تكون من الرجال والأبطال فأجابه أن المعتدي صاحب الغارات المشهورة والأفعال المذكورة والمحامد المأثورة من ذل لقائم سيفي كل جبار عنيد وبطل صنديد وذل بين يدي آساد الغاب حتى أصبحت عندي كالكلاب إذا سمعت ذكر اسمي ارتجفت أو رأت شخصي خافت وارتعدت . فقال له لو كنت كما تقول لما سلكت سبيل الغدر وأتيت معسكرنا على حين غفلة ونحن نيام بل كنت أتيت في وسط النهار وأظهرت شجاعتك على مرأى من الكبار والصغار . قال لم يكن قصدي الافتخار ولا أريد أن أقاتلك أمام الجميع بل على انفراد وكان قصدي أن أجرك من وسط قومك إلى قتالي .

ثم إن المعتدي أشهر في يده الحسام وانحط على الأمير حمزة انحطاط آساد الآجام فالتقاه بقلب أشد من الحديد وأقوى من صلابة الجلاميد واضطرمت أفئدتهما غيظاً وحنقاً . وتسارعا إلى الفور جرياً وسبقاً وتضاربا بالسيوف وتطاعنا بالرماح وتصادما مصادمة آساد البطاح . وهما تارة يفترقان وطوراً يجتمعان حتى حجبهما الغبار عن الأبصار وأخفاهما في ظله ليقيهما من حرارة شمس النهار فلم يكن يرى إلا لمعان سيوف تظهر من خلال ذاك الغبار وتطاير شرار كالشهب في ظلام الاعتكار ولم يكن يسمع إلا تنهدات وتنفسات وتصعدات وهمهمة ودمدمة وبربرة وترترة . وبالحقيقة أنهما كانا بطلى ذاك الزمان وميزان عزه الزائد الرجحان لا يوجد شبيهاً لهما بين الإنس ولا بين الجان . فلله در

المعتدي وما أبدى في قتال حمزة من الاجتهاد وما أظهر من فنون الحرب والطراد فإنه لما رآه من الأبطال الشداد . وأن بيته في عالم القتال عالي العماد بذل المجهود وقاتل قتال الأسود .

وكذلك الأمير حمزة فإنه أظهر لخصمه شدة بأسه وقوة مراسه وأما الأميرعمر فإنه لما رأى شدة فيضان حرب المعتدي خاف على أخيه من سطوته أو أن يصاب بنكبة من بسالته فأخذ يدور من حواليه كالولب ويضيع اكثر ضربات المعتدي بمروره من بين الجوادين وانخطافه كالبرق من بين الاثنين ليشغل بذلك فكره ويضيع ذهنه به ويلتهي عن أخيه غير أنه كان ثابت العزم قوي الجأش يقدر على قتال كثير من الأبطال في وقت واحد فلا يشغله شاغل وما برح الاثنان في ضراب وطعان وهما بلمعان سيوفهما يستضيئان وبأنوار الشرار يستنيران إلى أن غابت شمس النهار وأقبل الليل بالاعتكار فصاح بهما الأمير عمر دعا الحرب واستئنفاه للغد فكفا كما جرى في هذا اليوم وللحال رجعا عن الحرب فسار المعتدي في طريقه وعاد الأمير حمزة إلى الصيوان وما صدق أن وصل إليه حتى نزل عن الجواد ونزع سلاحه وألقى بنفسه على سريره ليرتاح من شدة التعب فقال الأمير عمر بالحقيقة إني اختبرت قتال خصمك وإذا به بحر ماله قرار وميزان لا ينتهي بعيار ولذلك خفت عليك منه ولولا أن يقال أنه أخذ بالغدر لغدرت به وخلصتك من شره فأجابه دعك منه فإني أتكدر منك إذا فعلت ذلك وخير عندي أن أموت وأدفن تحت التراب من أن أغدر بخصمي وأتقاعد عن إنصافه ولا سيما مثل هذا الفارس المجيد وإني أقر وأعترف أنه أشد مني بأساً وأثبت في ميدان الطراد وقد صدق من قال ما دامت النساء تحبل وتلد ما على وجه الأرض مقدام واني أسأل الله تعالى والخضر عليه السلام أن يعيناني على قتال هذا الليث الدرغام ثم إن عمر جاء إلى أخيه بالماء فاغتسل وجاءه بالطعام فأكل ونام وأقام هو على حراسته كل تلك الليلة إلى كان الصباح فنهض مسرعاً إلى ساحة القتال فوجد المعتدي قد جاء وهو كأنه الغول يصول ويجول لا يحسب حساب أشد الفحول فصاح بهم وهجم عليه فالتقاه بقلب أشد من الصوان ودار بينهما دولاب الطعان وكل منهم يتمنى أن ينال في ذلك النهار مناه ويحصل من خصمه مشتهاه أي أنه يريد أن يقتله ويعدمه الحياة ليتخلص من ثقل جريه ومن أذاه .

هذا والمعتدي يفيض في حربه كما يفيض البحر عند اشتداد الأرياح ويزأر كما تزأر اسود البطاح والأمير حمزة يظهر في حربه جهده ويبدي كل ما عنده وهو يتعجب من غزارة معرفته بفن الصدام وبما أعطاه الله من البسالة والاقدام وأما عمر العيار فإنه كان يدور كعادته من حولهما ويراقب احوال أخيه ويستعد لمنع كل ضربة قاطعة تقطع من المعتدي فكان يحسب له حساباً ويشغل فكره به ويظن أنه لولاه لنال من الأمير مراده وما جاء آخر

ذاك النهار وفيهما رمق فافترقا بسلام ورجع الأمير حمزة إلى صيوانه وسار المعتدي إلى مكانه فتأثر عمر العيار وأشار إلى أخيه أن يبقى لوحده إلى حين عودته ولا زال سائراً حتى بعد نحو ساعة من ذاك المكان فوصل إلى قصر في ناحية عن الطريق ولما نزل عن جواده خرجت من الباب فتاة كأنها القمر في تجليه وهي تتمايل كالرمح في اعتداله وقالت له هل لم تقتل حمزة في هذا النهار ويظهر لي أنك عجزت عنه وضعفت شوكتك أمامه فقال لها لا والله يا سلوى فإني كنت قادراً على ذلك في كل ساعة لولا أخيه عمر العيار فهو الذي كان علة خلاصه مني لأنه ثعلب وأحيل من ثعلب وكلما لاحت لي فرصة وأردت أن اغتنمها بأن أسرع إلى حمزة بضربة يضيع لي تلك الفرصة ويسد ذاك الباب بوثباته ودوراته فقبحه الله من حية رقطاء فقالت له إني في الغد لا أدعك تبرز إلى قتاله ولا تلتقيه في مجاله بل مرادي أنا أن أبرز إليه وأنهي لك أمره وأقصف عمره فقال لها لا تصل المسألة إلى هذا الحد يا أختاه وسوف ترين مني ما أفعله في الغد إن شاء الله ثم دخلا وراقب عمر أي مكان يدخلان فدخلا الى غرفة وجلسا بها يأكلان فنظر إلى نافذة في أعلى تلك الغرفة وتجاهها نافذة ثانية مطلة عليها فوثب اليها وأقام بها يراقب عملهما ويسمع كلامهما وهما يتحدثان بأمر الأمير حمزة وقد قال المعتدي لأخته إني أقول لك الحق إنه فارس صنديد وبطل مجيد لا يوجد مثله بين أبطال هذا الزمان شديد الحيل والقوى وخبير بفن القتال وهو موفق بالعيار الذي معه ولا ريب أنه من طوائف الجان لم أر كشكله من بي الانسان فهو أصلع الجبهة أسمر الوجه مدور العينين كبير الوسط صغير القوائم رفيعها سريع الجري خفيف الوثبات فقالت له كن صبوراً فلا بد من أن أكفيك شره وأما فوزك على الأمير فلا بد منه في الغد وسآتيك الآن بما يقويك عليه ويزيد أملك بالحصول على مرادك منه فأثبت هنا إلى أن أعود إليك فاحتار عمر العيار في أمرها وتعجب في شأنها وأراد أن يعرف ماذا تريد أن تعطيه ليفوز على أخيه ولما خرجت من الغرفة دخلت في باب آخر وجاءت بسلم فأسندته إلى الحائط بتأن ودون أن يسمع له صوت أو حركة وقربت من المكان المقيم به عمر وهو على حين غفلة ينظر إلى المعتدي وصابر إلى حين عودتها ليرى بما تأتيه فلم يشعر إلا وقد قبضت عليه من أكتافه وقالت له ويلك أيها الشيطان أتريد أن تدخل قصرنا وتغافلنا وتفعل بنا غايتك بالحيلة بعد أن رأيت عجز أخيك بالقتال فأراد عمر أن يتخلص منها فلم يقدر لأنها كانت ذات حيل وقوى عظيمين ثم رفعته بين يديها ونزلت به السلم وجاءت إلى أخيها وقالت له هاك عمر العيار وقد وقع في يديها وصار في حوزتنا فأتني بحبل لأربطه وصرت في الغد تقدر أن تأتي بالأمير حمزة أو تقتله .

ففرح المعتدي لذلك غاية الفرح وأسرع إلى حبل فجاء به وربط عمر وشد وثاقه وهو فرح جداً بما حصل وقال لأخته من أين لك أن عرفتي بوجوده قالت إني كنت أترقب

إتيانه إلى هذا القصر لعلمي أن العيارين لا يسكنون عن التسلسل والخداع والاحتيال ولا بد له بعد أن يرى عجز أخيه أن يأتي ليأخذك بالحيلة وفيما أنا أكلمك خطر لي هذا الخاطر وبالصدفة نظرت زجاج نافذة هذه الغرفة من الجهة الثانية فوجت ظله به فتأكدت ذلك وأتيت به دون أن أدعه يشعر أني رأيته وكانت تتكلم وعمر يتحرق وهو صابر على أمره ويعرف أنه لا بد أن يتخلص عند اغتنام الفرصة . ثم إن المعتدي قال لأخته أبقيه في مكان منفرد إلى الغد فأجيء بالأمير حمزة أو أقتله ومن ثم نذبح عمر فسارت به إلى مطبخ القصر ووضعته به وأقفلت الباب وكان لا نافذة به ولا ثقب فتكدر مزيد الكدر وتعجب من عمل سلوى وقال في نفسه إنها أحيل مني وأكثر خداعاً مع ما هي عليه من البسالة والإقدام والجمال والحسن النادر في غيرها من ربات الخدور وجعل ينظر في أمره كيف يقدر أن يتخلص وينجو من ذاك المكان فلم ير وسيلة لأن كما تقدم كان المطبخ مسدوداً من كل جهة يصعب الخروج منه فصرف الفكرة والدقة والبحث في ذلك إلى أن لاح له وجه الأمل وخطر له أن المعتدي لا بد من أن يذهب في الغد إلى قتال الأمير حمزة وأن سلوى لا بد لها من أن تأتي المطبخ لمساواة الطعام وتدنو من الموقدة لاشعار النار فإذا وضع لها البنج في الموقدة تقع منه في حال اشتعال النار ولما خطر له هذا الخاطر استنار وجهه فرحاً وأملاً وفي الحال أدار يده وأسلتها من الحبال فخرجت بسهولة عظيمة لأنه كان لين الأيدي والأرجل كالعجين يديرها كيف شاء ودنا من الموقدة ورمى البنج بها وعاد إلى مكانه فارجع يده في الوثاق وأقام مظهراً حزنه على نفسه وغيظه من عمل سلوى .

قال وأما المعتدي فإنه نام مع أخته تلك الليلة وهو ببحر عظيم من السرور وترجح عنده أنه في الصباح يقدر على الفوز على حمزة وما صدق أن أشرق فجر اليوم التالي حتى نهض من منامه واعتد بعدته وودع أخته وخرج وهو يوعدها أنه في المساء أو في النهار يعود إليها وقد أنهى عمله ونال مراده من خصمه ولا زال سائراً حتى وصل إلى ساحة القتال فوجد الأمير حمزة قد سبقه إلى الميدان وكان كل تلك الليلة لم ينم منتظراً عودة أخيه ولما لم يحضر تكدر كدراً عظيماً وخاف أن يكون قد لحق به أذى أو ناله أمراً آخر ولذلك يئس من الحياة وتمنى في ذاك النهار إما يقتل المعتدي وإما يقتل هو ولا يبرح أحدهما إلا بعد الانفصال التام ولما وصل المعتدي إليه قال له هذا اليوم الأخير ولا بد من هلاكك به لأن أخاك عمر وقع أسيراً بيدنا ولا بد من قتله وموته بعد قتلك وموتك فتكدر الأمير عند سماعه هذا الكلام وزاد غيظه من جراء غياب أخيه وأراد أن ينتقم من خصمه ليسعى في خلاص عمر وإذ ذاك صاح به وحمل عليه فالتقاه كما تلتقي الأرض الجافة وابل المطر وأخذ في الكر والفر والقرب والبعد والكد والجد والضرب والطعن والاستواء والتقلف الى أن مضى قسم من النهار والأمير حمزة بانشغال أفكاره وارتباك من جهة أخيه عمر العيار وهو

يتمنى ان يفوز على خصمه ليسعى في خلاصة غير أن الأمر كان على غير ما قصد لأن المعتدي كان ثابت العزم متين الحيل لا تزيحه ألوف من الرجال ولا تروعه اسود الدحال ولذلك تعب في قتاله الأمير وانحلت مفاصله وأيقن أنه لا ينال منه المقصود وربما تغلب عليه أيضاً .

وفيما هو على مثل ذلك وقد مضى وقت ليس بقليل من النهار لاح من الأمير حمزة التفاتة لجهة البر فوجد أخاه عمر يعدو كأنه ريح الشمال وهو يتقدم لنحوهما بكل سرعة وينادي لقد خابت آمالك يا معتدي وسوف تلاقي ما وقع منك من الجور والتعدي ووقع صوته في أذن المعتدي فاضطرب في داخله ولاح له أنه ما تخلص إلا بعد أن أصاب سلوى أمر من الأمور وبهذا السبب وقع الحزن بغتة في قلبه وضعفت قواه وأراد أن يلتفت جهة الأمير عمر فلحظ حمزة منه فصاح به وفاجأه مفاجأة الاسود وقد اشتد حيله عندما رأى علائم الفوز فقبض على طوق خصمه وانتشله عن جواده فدافع عن نفسه بكل قواه فوقع الإثنان إلى الأرض وكان المعتدي من تحت الأمير فأصاب جسمه الأرض وصاح الأمان يا سيد فرسان هذا الزمان فإني دخيل عليك ووقيع فقد هد حيلي وغاب وعيي وكان الأمير عمر قد أقبل ورأى ما رأى فصاح بأخيه أن يتركه فلا يستحق القتل بعد الاستئمان فنهض عنه وقال له انهض الى جوادك فلك الحرية أن تفعل مهما أردت قال اني أسيرك الآن ولا يحق لي أن أنقل سلاحاً وأركب جواداً إلا بإذنك فهاك سيفي بين يديك وأني أعترف أنك سيدي ومالك أمري حيث قدرت وعفوت فمثلك تكون الفرسان وإلا فلا فقال حمزة معاذ الله أن أقبل منك ذلك وإني أعرف أكيداً أنك أبسل مني وأشجع وقد لاقيت منك ما أعجزني ولولا لقليل لكنت وقعت بيدك فالحق يقال إنك نادر المثال وإني لست مثلك إذا اشتد القتال فأنت أخي على كل حال قال أني سأبقى بين يديك وفي خدمتك طول عمري ولا أفارقك دقيقة واحدة إنما أريد أن أعرف ماذا حل بأختي سلوى فقد ضعف لأجلها حيلي وأخاف أن يكون عمر العيار قد قتلها أو فعل بها أمراً منكراً ثم سأل عمر عنها فقال له إنك لما أسرتني ووضعتني في المطبخ صرفت العناية إلى التخلص من الكتاف الى ان تسهل لي مطلوبي وبعد ذلك أتيت الموقدة لعلمي أن أختك لا بد أن تأتي في الغد لمساواة الطعام وطبخه ووضعت فيها قليلاً من البنج وارجعت يدي إلى الوثاق وأقمت على ما أنا عليه إلى ان كان الصباح جاءتني ووبختني كثيراً وأنا صابر عليها لا أبدي كلمة قط حتى مضى ساعتان تقريباً فأتت وأشعلت النار في الموقدة وأنا بعيد إلى زاوية المطبخ أراقب ما يكون من أمرها وقد ترجح لدي الفوز وقد ثبت مؤملي حيث ما اشعلت النار الا وقعت سلوى الى الأرض فسارعت حالاً ووضعت في أنفي ضد البنج وأتيت إليها فرفعتها إلى خارج المطبخ وأوثقتها وحملتها في جرابي وجئت على عجل خوفاً من أن يقع على الأمير

منك مكدر لانشغال باله علي فتعجب المعتدي من حيله ومكره وقال والآن أختي معك قال نعم هي معي موثوقة فقال وأين وضعتها قال في هذا الجراب ثم أخرج جراب اسمعيل من وسطه وفك بابه ومديده وأخرج سلوى ووضعها أمام أخيها فزاد تعجبه وكاد يضيع عقله وكيف هذا الجراب الصغير يسع اختي هذا يسع الدنيا بأسرها ولا تبان فيه .

ثم تقدم من سلوى وفك وثاقها ولما وعت على نفسها تقدمت من أخيها فسلمت عليه فقال لها قربي من الأمير حمزة وسلمي عليه فهو أصبح منذ الآن مولانا وقد أسرني ودخلت في يده وحكى لها كل ما كان من أمره كل هذا والأمير حمزة ينظر إليها وهو باهت من حسنها واعتدال قوامها وقد وقعت من قلبه موقعاً عظيماً وحدثته نفسه أن يتزوج بها وكذلك سلوى فإنها عندما رأته وقع من نفسها ورأت على وجهه علائم الحب والهيام من جراء نظره إليها ففهمت المقصود ودنت منه وقالت له اني سررت جداً يا سيدي بأن نكون في خدمة شريف وبطل مجيد مثلك قد طار صيته في الآفاق وخدمته الملوك الكبار وتمنت بناتهم أن تكون تحت أجنحته وفي حماه فقال لها اني أفتخر بمصالحة من هو كأخيك لأنه والحق يقال أقدر مني في مواقف القتال وما أسرته إلا وقد ساعدتني عليه العناية وخانته ظروف الأحوال ولا سيما أنت فأني أرغب أن تكوني معي في سفرتي . فقال عمر أني أسألك يا أخي أن تعتمد على الأميرة سلوى فهي وحيدة بين النساء فخذها لك زوجة فهي لا تليق لغيرك أجاب إني على هذا اعتمدت ونويت ثم اتفق كل من الأمير والمعتدي وأخته على أن تكون سلوى زوجة للأمير غير انها طلبت منه أن تبقى في خدمته وتكون رفيقته وأن لا يتزوج بها إلا في المدائن عند زواجه بمهردكار بنت كسرى فأجاب عليها ووعدها بأن تكون معه على الدوام وتحضر القتال والنزال لأنها كانت تقاتل بكل أنواع السلاح وتطارد كأشد الأبطال وبعد ذلك قال الأميران مرادنا الرجوع إلى المعسكر لأن قومي بانتظاري ولا بد أن يكون قد شغلوا بسببي وفي الحال ركب الأمير والمعتدي وأخته وهم فرحون بهذا التصادف والموافاة والنسابة وانطلق بين أيديهم الأمير عمر العيار كأنه السهم إذا طار وبوقت قليل غاب عنهم ووصل إلى الخيام ونادى باتيان أخيه وأنه أسر المعتدي ثم اتفق معه وجاء الاثنان معاً على الحب والولاء وبلغ الخبر الملك النعمان ففرح مزيد الفرح وخرج لملتقى فارسهم مع باقي الفرسان من الكبير إلى الصغير وما ساروا إلا القليل حتى التقوا به عائداً مع رفيقه وعروسته فسلموا عليهم وهنأوهم بالسلامة ورجع الجميع إلى الخيام ونزلوا في صيوان الملك النعمان فقام لهم بالإكرام والانعام نحو ساعتين من الزمان . وبعد ذلك قال الأمير حمزة لقد انتهينا الآن من أمر المعتدي وصار من الواجب أن نفكر بأمر الملك الدعاس فإنه محاصر الآن داخل المدينة ومرادي الآن اكتب له كتاباً أطلب إليه التسليم ثانية وأخبره بما كان من المعتدي . فقال المعتدي إني أذهب إليه

وادعه يأتي إلى خدمتكم لأنه منذ الأول كان لا يرغب في القتال ولا يرضى معاندتكم غير أني منعته من التسليم وأخذت على نفسي قتالكم وخرجت بأختي إلى القيام في البر عند قدومكم لأن كتابة كسرى كانت قد وصلتنا منذ زمان طويل والحمد لله الذي لم يقع بيننا مكدر ولا تركنا لعباد النار ينفذون مآربهم بنا ويحملوننا على أن يهلك بعضنا بعضاً وصرفوا باقي ذاك النهار وتلك الليلة فرحين بالمعتدي وأخته وهم يقدمون لهما كل إكرام إلى أن كان صباح اليوم التالي ركب المعتدي ودخل إلى المدينة على الملك الدعاس وأطلعه على تصاحبه للأمير حمزة العرب وقال له يجب أن تخرج الآن مع قومك إلى أمام الأمير وتعرض عليه طاعتك وحبك وتعلمه بأن ما كان امتناعك إلا مني فهو حليم رقيق يعفو عنك ويصفح عن عصيانك ولا ريب أنه يرحل عن المدينة بعدما يأخذ منها الأموال المطلوبة وتبقى أنت عليها حاكماً كغيرك من الملوك ففرح الدعاس بذلك وجمع إليه سادات قومه واطلعهم على ما كان من الأمير والمعتدي وأمرهم أن يركبوا جميعاً إلى العرب ففعلوا وخرجوا من المدينة وساروا عنها وأمامهم المعتدي إلى أن وصلوا إلى صيوان الملك النعمان فدخلوه ودنوا من الأمير حمزة وسلموا عليه فأكرمهم وترحب بهم وكذلك باقي سادات العرب ومن ثم أظهر الدعاس طاعته وأنه لم يقصد عناداً وإنما خوفه كان من المعتدي حيث أمره أن يقفل أبواب المدينة ويقيم داخلها إلى أن ينهي الأمر وحده ولما اطلعه على دخوله في رجال الأمير رغب هو أيضاً في الطاعة والتسليم فقال له حمزة اعلم أننا لا نقصد لأحد ضراً وجل غايتنا أن نجمع الأموال عن سبع سنوات ونسير وهذا لا بد منه كيف كان الحال وحيث قد صار الأمر علي فاسألك الآن أن تسرع في جمع الأخرجة عن السنين الماضية وأعطيك وصلاً بذلك وسلم إلى كتاب الملك كسرى لأضمه إليّ غيره من الكتب وأوصيك من بعد ذلك لاعدت تدفع للأعجام عبادين النار بارة واحدة بل أدفع ما يطلب إلى الأمير ابراهيم والدي صاحب مكة المطهرة فوعده الدعاس بكل ما أمره به ودعاه أن ينزل معه إلى المدينة ليحضر وليمته ويقيم في ضيافته مع سادات العرب فأجاب طلبه وساروا إلى أن دخلوا المدينة وأقام الأمير فيها نحواً من ثلاثة أيام وهو على إكرام واعتبار وبعد ذلك أخذ الأموال فأضافها إلى التي معه من ذهب وفضة وخيول وأغنام ونوق ونحو ذلك وأخيراً أخذ كتاب كسرى واعطاه إلى الملك النعمان وقال له ابق هذا مع غيره إلى حين الحاجة وامر أخاه عمر أن يدور بين العساكر يأمرها بالركوب والمسير عن صيدا فركب الجميع وركب الأمير أمامه وإلى جانبه الفرسان من الأبطال المشهورين الذين تقدم ذكرهم وركبت الأميرة سلوى وقد أفرغت عليها ملابس الرجال وتقلدت بالأسلحة وهي سائرة إلى جانب الأمير لا ترفع نظرها عن وجهه مسرورة به وبما اعطيت من القرب منه وحسبت نفسها من أسعد النساء لأنها سترافقه وتمتلىء من النظر إليه واخيراً عند عودته إلى الديار يتزوج بها وتحظى

بالسعادة التامة من بقائها في يده .

قال ولما تحركت ركاب العرب عن صيدا إلى جهة صور سأل الأمير أخاه عمر عن حاكم مدينة صور وماذا يعبد من الأديان . فقال له حاكم مدينة صور هو رجل كافر بدين الله يعبد الأوثان ويكرم التماثيل ويعظم قدرها واسمه الملك العابد أي عابد الأحجار فقال المعتدي لا ريب أننا سنلاقي من هذا الملك عناداً لأنه يفخر بمناعة مدينته حيث أن أسوارها منيعة صعبة الدخول لا يمكن الدخول منها ولا خرقها فقال حمزة إن الله تعالى الذي أعاننا على غيرها يعيننا عليها فما من صعوبة لدينا . ولا زالوا سائرين إلى أن قرب المساء فوصلوا إلى ضواحي صور وضربوا خيامهم في تلك الأرض ومن ثم أخذ الأمير حمزة فكتب إلى العابد كتاباً يأمره به أن يخرج ويسلم أمره إليه ويدفع ما هو مطلوب منه من الأموال إلى سبع سنوات وإلا يلاقي الشر والوبال ويترك عبادة الأوثان والأحجار ويعبد الله سبحانه وتعالى فينال السعادة منه والاقبال ولما وصل عمر إليه بالكتاب خرج في الحال إلى أمام الامير حمزة وأبدى له الطاعة وقال له إني سأجمع الأموال وأقدمها إليك بأقرب وقت ولا أعصي لك أمراً ولا أخالف قولاً وأريد منك أن تقبل ضيافتي في الغد وتدخل المدينة . فقال الأمير عمر لا يمكن أن نقبل ضيافتك ما زلت على دين الكفر فاترك ما أنت عليه واعبد الله سبحانه وتعالى واكسر الاصنام والحجارة وادع من كان من قومك على عبادتها أن يتركها ويتمسك بحباله تعالى . فقال العابد إني سأفعل كل ما تأمرونني به وتطلبونه إلي وسأذهب الآن إلى قومي وأجبرهم إلى طاعة الأمير وعبادة الله فمن أطاع كان خيراً ومن عصاني كان جزاؤه الموت والاعدام . ثم ودع سادات العرب ورجع إلى قومه فدعاهم وقال لهم اعلموا أن الملك كسرى قد بعث إلينا بكتابه يوصينا بهلاك العرب والأمير حمزة وإني لا أريد أن أخالف كسرى وقد فعلت ما عجز عن فعله غيري من الملوك الكبار والفرسان العظام قالوا وكيف فكرت أن تفعل أجاب لاخفاكم أن المدينة حصينة جداً ولا خوف عليها من العرب ولا من غيرهم من سكان الدنيا ورأيت من أصوب الأمور أصبر على العرب أن يناموا ويأمنوا غوائل الأيام فأكبسهم بعساكري أقتل منهم مقتلة عظيمة ومن ثم أعود إلى المدينة وأقفل أبوابها إذا بقي فيهم بقية رمق وأدعهم يفعلون ما يريدون وكلما لاحت لي الفرصة انحط عليهم واربح ذلك الفوز والنجاح فقالوا له افعل ما بدا لك فنحن مطيعين لك عاملين على كل ما تأمرنا به . فأخذ في أن يجمع العساكر ويعددها ويرتبها إلى أن كان الليل وكان عددها نحو عشرين ألفاً وعند منتصف الليل خرج بهم رويداً دون أن يشعر أحد بهم وأخذ في أن يفرقهم من اليمين والشمال وأوصاهم أن يهجموا على العربان هجمة واحدة ولم يكن عند الأمير حمزة وجماعته علم بمثل هذا الأمر بل كانوا مطمئنين البال والخاطر مركنين لقول الملك العابد لا

يخطر لهم قط غدره فما شعروا إلا والصياح قد ارتفع من كل ناحية وعمل السيف القرضاب في محكم الصدور والرقاب وارتبك معسكر العرب أي ارتباك ظنوا أن رجال العالم قد حملت عليهم واضطربوا اضطراباً عظيماً وأينما مالوا كانوا يرون رجال المدينة وهم يقتلون ويفتكون وأيقنوا بالهلاك والوبال وفروغ الآجال إذ لم يدركهم الأمير حمزة بهمته ويفاجيء الأعداء بالفرسان من جماعته وكان نائماً لا علم له حتى دخل عليه أخوه عمر وقال له انهض فقد هلك رجالك وساءت أحوالك وإذا بقيت نائماً لحق بك الدور فقتلت وأنت على سريرك فنهض مندهشاً ولعن العابد وقومه وقال الآن يصادف شر عمله ثم أسرع إلى الأصفران فركبه وصاح فيه فخرج كالنجم الثاقب وجعل يقتل كل من يصادفه من رجال المدينة وكذلك المعتدي فإنه أسرع إلى المحاماة عن العرب واندهوق وبشير ومباشر وباقي السادات ودار دولاب القتال كل باقي تلك الليلة حتى تدفقت الأدمية كالميازيب وتجولت في أفنية الأرض كالنهور وداست الخيول في بطون القتلى وقتل من العرب مقتلة ليست بقليلة وكذلك من أهالي صور وقبل أن ينبشق فجر اليوم القادم رجع رجال الملك العابد وهم بحالة يرثى لها لأنهم كانوا قلائل فلم يقدروا أن يفوزوا بالمطلوب ودخلوا المدينة مع ملكهم وأقفلوا الأبواب وأمر الملك أن لا أحد يدخل ولا أحد يخرج وقد خاف من العرب كل الخوف لما رأى نفسه مغلوباً معهم ويقدر على محاربتهم ورأى ان لا شيء ينجيه منهم إلا الحصار والقيام داخل المدينة إلى أن تضجر العرب وترحل عن تلك الناحية إذا ما من وسيلة لها بفتح المدينة والتغلب على خرق تلك الأسوار والحصون المنيعة المحكمة .

وأما الأمير حمزة فإنه بعد إشراق النهار نظر إلى المفقودين من رجاله فوجد ما ينوف عن خمسة آلاف فارس فتكدر مزيد الكدر وعظم عليه الأمر ولم يعد يرى ما بين يديه وقال كان من الواجب ان لا نأمن لرجل لا يعبد الله سبحانه وتعالى ولو كان على دين الحق لكان يسهل عليه جداً أن يفي بوعده ويستقبح الغدر والخيانة وعلى كل فمن الواجب التحفظ والتحرس على رجالنا خوفاً من أن يعود هذا الغادر إلى مفاجأتنا مرة ثانية ثم أمر أن تدفن جثث القتلى من رجاله ورجال صور فحفرت الحفر وسترت تلك الاجسام بالتراب لترجع إلى أصلها الترابي وانقضى ذاك النهار وفي المساء جاء الأمير حمزة إلى صيوان الملك النعمان وفرق العيارين في كل تلك الجهات وأوصى أخاه عمر أن لا ينام ولا يتقاعد عن مراقبة الأعداء فأجاب أمره وصرف تلك الليلة ينخطف كالبرق اللامع من جهة إلى ثانية خوفاً من أن يأتي معسكر غريب أو يسمع صوت آت وحركة المعسكر ومضى الليل ولم يأت أحد ولما كان الصباح نهض الجميع على حسب عادتهم دون أن يروا مقاتلاً أو مناضلاً فأمرهم الأمير أن يزحفوا على أسوار المدينة فزحفوا ولعلو ارتفاعها لم يتمكنوا من الصعود عليها والتغلب

ورجعوا عند المساء دون الحصول على نتيجة وفي اليوم الذي بعده كذلك حتى مضى نحو خمسة ايام ولهذا السبب ضاقت نفس الأمير وضجر الضجر العظيم ودعا إليه كل الأمراء والاعيان وقال لهم لاخفاكم أن البلد منيعة إذا صرفنا العمر حولها لا تفتح إلا إذا احتاج سكانها إلى الطعام وهـذا لا يمكن لأن الطعام يأتيهم بالبحر على الدوام فانظروا لنا في طريقة تقرب علينا افتتاح البلد وأخذ الأخرجة منها والبعد عنها فجعل كل منهم يفكر ماذا يكون التدبير ولم يتوصلوا إلى المطلوب واخيراً قال لهم الأمير عمر اصبروا علي إلى مدة ثلاثة ايام عسنى. ان التقادير تسهل لنا طريقة للوصول الى فتح البلد وسوف اتجسس المعابر وانظر في الحصون فلابد من وجود مدخل نصل منه الى الداخل فاستصوب الجميع رأيه وباتوا يؤملون نجاحاً على يد عمر وتفرق كل واحد الى صيوانه ولما دخل حمزة إلى الصيوان وكل عمر احد العيارين بحراسته وسار من المعسكر يقصد الاسوار ليطوف حولها وفي نيته ان لابد ان كلباً خارجاً من المدينة او هراً وغير ذلك فيتوصل الى نافذة أو دهليز وفيماهو على مثل ذلك ينساب تحت ظلام الاعتكار كأنه الافعى وإذا به سمع حركة فأعار اذنه فسمع كلام اثنين يتكلمان وهما سائران إلى جهة معسكر العرب فدنا منهما بكل خفة وسمع ما دار بينهما من الكلام وعرف ان احدهما امرأة والثاني رجل وثبت عنده انهما يقصدان اخاه حيث سمعهما يذكرانه فسار في اثرهما الى ان دخلا بين المعسكر فاعترضهما وقال لهما من انتما ومن تقصدان فقد يظهر لي انكما من اهل هذه المدينة فقالا له إننا نقصد أمير العرب وسيدهم وهو حمزة بن إبراهيم ومرادنا ان نعرض عليه امراً به الخير والنجاح له فقال سيرا أمامي فأنا عياره عمر فسارا إلى أن وصل بهما إلى أمـام الصيوان فأبقاهما في الخارج ودخل فأيقظه وقال له أن رجلاً وامرأة من أهالي المدينة يقصدانك وقالا أن الخير بهما فأمرهما أن يدخلا عليه فدخلا وبعد أن جلسا قال الأمير من أنتما وما مرادكما فقالت الأمرأة اعلم ياسيدي أننا اتينا إليك لأجل أمر به الخير لك والفلاح لنا فعدنا بأنك تجرنا وتغيثنا إذا فتحنا لك المدينة وأدخلناك مع قومك في هذه الليلة قال لا ريب إني أكافئكما بكل جميل وأجري لكما كل ما تريدان فاعرضا علي أمركما فقال الرجل أعلم يا سيدي أني أنا وزير الملك العابد وهذه زوجته ولكن كنا عـلى دين غير دينه كان يكرهنا ويتمنى لنا الهلاك حتى أنه أخيراً اتهم زوجته بحبي وأراد منها الإنتقام فعذبها العذاب الشديد إلى ان افضى به الأمر ان طردني من الوزارة وأقام غيري من عبدة الأصنام وضيق على زوجته كل الضيق فالتزمت أن أصبر على أمري انتظر الفرج منه تعالى لعلمي أن الله لا يترك عبدته في الضيق ولما كانت هذه الليلة قام إلى زوجته فضربها الضرب الأليم وعذبها العذاب الشديد وقال لها ان العرب هم من دينك يعبدون ما لا يعرفون ولابد من أن تكوني قد بعثت إليهم أن يعينوك فدعيهم يأتون الآن ودعي إلهك ان يخلصك من هذا العذاب فلم تبد جواباً بل بقيت صابرة إلى أن نام فنهضت وسارت إلي فأخبرتني بكل ما

جرى وطلبت مني ان اسير وإياها إليك لحمايتها منه فقلت وكيف يمكن لنا الخروج من المدينة قالت لي أن مفاتيح الباب التي الى جهة البحر هي عند العابد فأتيت بها معي فيمكن ان نخرج من هناك ونركب زورقاً ونسير إلى البر ومن ثم نتقدم إلى جهة معسكر العرب وهكذا فعلت وأننا أتينا إليكم الآن نبقى عندكم إما أن نموت وإما أن نعيش وإذا وجدتم أنه يمكنكم ان تدخلوا المدينة من جهة البحر فتحنا لكم الأبواب وسرت أنا معك إلى الباب البري فتقتلون الحراس وتدخل المعسكر منه في هذه الليلة فسر الأمير سروراً لا مزيد عليه وقال لأخيه عمر سر في الحال وادع إلى المعتدي واندهوق وأصفران وباقي الفرسان مع الملك النعمان ويكون ذلك بأعجل آن فأجاب عمر أمره وأحضر له كل ما طلب ولما ساروا عنده قال للملك النعمان أريد منك أن تيقظ العساكر وتسير إلى جهة باب البلد ويكون ذلك بأقل من ساعة ونصف وأنا مرادي أن آخذ المعتدي وأندهوق والاصفران وننزل بالزورق وندخل من باب البحر .

ثم إن الأمير حمزة أخذ مفاتيح الباب من الوزير وأخذ معه الفرسان الذين ذكرناهم وسار إلى جهة البحر يدله الوزير على مكان الزورق حتى وصل إلى البحر فركبه الجميع وساروا إلى أن وصلوا إلى الباب ففتحه الأمير ودخل مع باقي الفرسان وأمر الوزير أن يبق في الزورق وكان ذلك بطلب عمر العيار خوفاً من أن يكون قد نصب لهم مكيدة ساقهم بها إلى داخل المدينة وقفل الباب من الداخل وساروا جميعاً وراء عمر لأنه كان يعرف باب البلد من أي جهة حيث قد جاء المدينة أولاً عند إتيانه بكتاب أخيه ولا زالوا حتى وصلوا الى الباب وإذ ذاك هجم المعتدي على الحراس فقتلهم وأخذ منهم المفاتيح وفتح الباب بأعجل من لمح البصر وإذ ذاك الملك النعمان قد دخل ومن خلفه عساكر العرب وانقضوا على المدينة من كل ناحية وأشغلوا ضرب السيف بالأهالي فأبلوهم بالذل والويل وقتلوا فيهم مقتلة عظيمة واضطربت وقامت بها القيامة من كل ناحية حتى استيقظ العابد مرعوباً ومندهشاً وسأل ما الخبر فقالوا له ان العرب قد دخلوا إلى المدينة فارتاع وارتجف وايقن انه هالك لا محالة وان الأمير حمزة لا يبقى عليه ولابد من أن يجازيه على غدره ولذلك اعتد بلامته وقصد الخروج وكان الوقت قارب الصباح لأن الأمير حمزة لا زال يقتل ويأسر ويمدد الرجال على الطرقات وفي الأسواق وأخوه عمر يسير بين يديه ليدله على قصر العابد حتى وصل إليه في الحال فترجل عن جواده وفرق العساكر المتجمعه من حواليه بضربات سيفه الباتر وهو يصيح فيهم ويلكم أيها الأقران ابعدوا عن هذا المكان وتخلوا عن ملككم الخادع القرنان فقد جاءكم حمزة البهلوان ابن الأمير ابراهيم على القدر والشأن وكان أخوه عمر يسير بين يديه وهو يخترق الصدور بضربات خنجره ويختطف النفوس باسرع من شدة سيره حتى التقى الأمير بالعابد فضربه بسيفه الباتر فازاح رأسه عن جسده ورماه الى الأرض قتيلاً وباختصار أنه قتل من

سكان المدينة عدد ليس بقليل وبعد ذلك أمر الأمير حمزة ان تكف الأيدي عن الرعية وأخبرهم بقتل ملكهم وهلاكه ودخل الى دار الأحكام وأرسل خلف الوزير فحضر الى بين يديه فقال له الآن قد انقضى الأمر ولم يبق من سبب للخوف عليك وقد قتل عدوك وعدو الله ولاقى حتفه وقد نويت أن أزفك على زوجته واقيمك ملكاً على هذه المدينة وتكون تحت أمري وطاعتي منذ الآن قال اني عبدك ولا اعصي أمراً وأنا لا استحق هذه المكافأة وهذا الالتفات .

وبعد ذلك دعا الأمير رجال المدينة وأمنهم على أنفسهم وقال لهم إني أقمت عليكم هذا الوزير ملكاً وأريد منكم ان تطيعوه وتفعلوا كل ما يأمركم به وتتركوا عبادة الأوثان وتعبدوا الله العزيز الجبار فهو وحده قادر أن يحييكم ويميتكم فقالوا له اننا نرغب في ذلك وإننا نشكرك حيث قد خلصتنا من علم الملك العابد ومن شره فهو كافر عودنا على ما لا نريد ونحن عبيد للعرب نفعل كل ما يريدون فشكرهم وزوج الوزير بزوجة العابد وخطب له على المدينة وطلب إليه ان يجمع له الاخرجة عن سبع سنوات فاجاب طلبه وما مضى إلا أيام قلائل حتى استوفى كل المطلوب ومن ثم جمع جماعته وعرض عليهم غرضه بالرحيل فاجابوا طلبه وركبوا وساروا عن صور ولما صاروا في الخارج سأل الأمير اي مدينة يقصدون فقال له عمر اننا نقصد عكاء وهي مدينة حصينة ذات أسوار منيعة قال ومن عليها اجاب عليها ملك من عظام الملوك اسمه قاهر الخيل وهو من الفرسان الصناديد والابطال الاماجيد قال وأي إله يعبد اجاب هو على الدين القويم يعبد الله سبحانه وتعالى ولا زالوا في مسيرهم حتى قاربوا مدينة عكاء واكتشفوا اسوارها عن بعد ورأوا حولها العساكر والابطال مثل قطع الغمام فعرفوا أن قاهر الخيل قد جمع الفرسان والابطال وفي نيته القتال وعدم التسليم ولما صاروا مقابل المدينة امر الامير ان تنزل الفرسان وتنصب خيامها في المكان ففعلت وانتشر العرب في تلك الضواحي وسرحوا باغنامهم وجمالهم وخيولهم حتى انسد الفضاء من الشرق الى الغرب وارتاحوا ذاك اليوم وفي اليوم التالي كتب الأمير حمزة كتاباً الى قاهر الخيل يقول له فيه .

(من الأمير حمزة بن ابراهيم فارس برية الحجاز الى قاهر الخيل صاحب مدينة عكاء ونواحيها) .

ما اتيت هذه البلاد لأخربها ولا لأقتلك ولكن القصد جمع الأخرجة عن سبع سنوات الى الملك كسرى ولابد أن يكون قد كتب اليك كما كتب لغيرك لتسعى في هلاكنا وهذا بعيد منك فقد لاقى غيرك عندما قصد لنا الأذى فارجع عن غيك ان كنت تقصد لنا شراً ولا تظن انك تفوز بالمطلوب بل تقود بنفسك الى حفرة الهلاك الويل فانظر موضع النظر واحضر الي

وعدني بجمع الاموال فاقبضها وأسير في طريقي ولا تدع كسرى عابد النار والكافر بدين الله ان يفسد بالمؤمنين وينفذ فيهم غايته لينقضوا امر إلههم وإني ناصح لك والسلام .

ولما انتهى حمزة من كتابة التحرير بعث به مع أخيه الى قاهر الخيل فأخذه ولاِ زال سائراً حتى دخل عليه فسلمه إياه فقرأه وقال لعمر لابد من الحرب فيما بيننا وبين العرب واذا كان كلا العسكرين يعبدون الله فإني أبارزكم بنفسي فإذا فزتم علي كان لا ذنب على قومي وإذا فزت على فرسانكم وقهرت ابطالكم عفوت عن العساكر وأرجعتهم الى بلادهم واكون قد نلت المطلوب واجريت امر كسرى صاحب الجند والعلم وسلطان العرب والعجم ومالك رقاب الأمم فبلغ حمزة ذلك فقال وليدع فرسانه وهو يبارزوني منذ الغد .

فعاد عمر إلى العرب واخبرهم بما سمع من قاهر الخيل فقال الأمير لقد أنصف وان الرجل معتز بنفسه ويظن انه يقدر على كبحنا ولابد من أن نريه قيمة نفسه وإذ ذاك تقدم الأصفران وقال أريد منك يا سيدي أن تسمح لي مقابلة قاهر الخيل في الغد قال اليك ما طلبت واحذر لنفسك منه فقد يظهر انه فارس صنديد وبطل مجيد غير اني اسمح لمن اراد قتاله في الغد فقط وأما بعد فلا وصرفوا باقي ذاك اليوم وتلك الليلة إلى أن كان الصباح اليوم التالي نهض الأمير من فراشه وأمر بضرب طبول الحرب فضربت ونشرت الرايات العربية فوق رأس الملك النعمان وتقدم في وسط الرجال وفعلت كذلك عساكر عكاء واصطف الصفان وترتب الفريقان وكل منهم ينتظر أمر قائده وسيده وفي الحال برز قاهر الخيل إلى ساحة المجال كانه فيل من الأفيال كبير الجثة عريض الاكتاف فصال وجال في الميدان على الاربعة أطراف ثم توسط الساحة وصاح طالباً براز الابطال وقال من عرفني فكفأه ومن لم يعرفني فلا خفاه أنا الحية الرقطاء مسقى الاعداء كاسات الرداء قاهر الخيل صاحب عكا فما أتم كلامه حتى صار الأصفران امامه وأخذ معه في الصدام والقتال والطعان والضراب وهما تارة يفترقان وتارة يجتمعان ولا يأخذهما فتور ولا يقع منهم قصور مدة ثلاث ساعات من النهار حتى وقع الضعف في مناكب الاصفران ورأى نفسه عاجزاً عن قتال قاهر الخيل غير أنه صبر على نفسه واختار المنية على الفرار امام خصمه واظهر العجز وطلب الإقالة فرأى منه قاهر الخيل ذلك فضايقه كل المضايقة ولاصقه كل الملاصقة وقبض عليه من جلبات درعه واخرجه من بحر سرجه وعاد به إلى قومه فدفعه للوثاق وعاد مفتخراً بذاته يلاعب جواده في الهواء وطلب ان تأتي اليه الفرسان مثات مثات وما انتهى من كلامه حتى صار الأمير مباشر أمامه .

وقال له أني ناصح لك يا قاهر الخيل ان تخلع عن القتال وتسرع الى خدمة الأمير حمزة فهو حليم يقبلك وترى منه ما يسرك ولا تفتخر بنفسك وتظن انك تفوز بالغاية فقد امتنع ابي

في الاول فاصابه الموت من يديه وانت تعلم انه كان نادر المثال في زمانه وكذلك المعتدي حامي السواحل فانه وقع في يديه فأسره ثم اطلقه وجاء به يسير في جملة رجاله ويسعى في إنفاذ مطالبه فقال له إني لا أسلم الا بعد ان أرى في عساكر العرب من يقدر على أسري وإذلالي لأني لا أريد أن أغش ذاتي وأبقى متحسراً فيما بعد ومهما جرى يجري وأعرف مقدرة نفسي وارجح أني اقدر على الأمير وسوف تراه أسيراً بين يدي ذليلاً حقيراً .

ثم هجم الاثنان على بعضهما البعض كانهما جبلان رسيا في تلك الأرض وأرسلت ضربات السيوف فاصابت الطوارق . واندفعت أصوات الاثنين فقلدت الصواعق واشتعلت نار الحرب بينهما إلى ما بعد الظهر بساعتين وإذ ذاك هجم قاهر الخيل هجوم ويلات الليل وأخذ مباشراً أسيراً وسلمه إلى قومه وعاد يطلب البراز وما وصل إلى المكان المعهود حتى رأى بشيراً قد أقبل يطلب خلاص أخيه من يد قانصه وحالما وصلا إلى بعضهما تسارعا إلى المضاربة والمطاعنة وتركا المعاتبة والمداهنة وصرفا باقي النهار على قتال أحر من لهيب النار . وعند الزوال أخذ قاهر الخيل بشيراً اسيراً وعاد إلى قومه وضربت طبول الانفصال ورجعت العرب حزينة على فرسانها واجتمع الجميع في صيوان الملك النعمان وأبدى الأمير غيظه من أسر رجاله فقال له الأمير معقل في الغد أبرز اليه أنا وآتي به اسيراً وافدي به رجالنا. فقال إن ذلك لا يمكن لأني لا أرغب في التطويل وفي هذا سأذيقه مرارة قتالي وانهي الأمر معه فقد غاظني منه ما فعل في هذا النهار . فلم يمكن لأحد ان يخالفه ومن ثم تفرق الجميع للمنام وكل ذهب إلى صيوانه بانتظار الصباح إلى أن اقبل بوجهه البسام وصافح وجه الأرض مصافحة ملسوع الوجد والهيام عند اجتماعه بمحبوبته بعد مبارحته السنين والأعوام وحينئذ خرج حمزة تلك الايام من صيوانه وركب جواده وتقدم. تقدم المشتاق الولهان إلى ان توسط الميدان فصال وجال ولعب على الاربعة أركان ثم عاد إلى الوسط وطلب قاهر الخيل أن يبرز اليه فما فرغ من كلامه حتى صار أمامه وقال له من أنت من فرسان العرب وسادتها . أجاب أنا سيد العرب وحاميها ومذل الجبابرة ومفنيها انا حمزتهم العادل وسندهم الكامل. وقد جئت لأنهي الأمر معك وأخذه من وجه الاختصار خوفاً من التطويل . ومن ثم التقيا في تلك الساحة ودار بينهما الأخذ والرد وعملا على القرب والبعد وأبديا من فنون الحرب العجائب . ومن شدة البأس الغرائب حتى تسارعت لنحوهما الأبصار وتسابقت للحكم بينهما الأفكار. وكان كل من القومين يطلب الفوز إلى فارسه ويتمنى له النجاح والتوفيق ، والخلاص من شر ذاك البلاء والضيق وهما على ما هما عليه من قتال شديد وطعان يفك الزرد النضيد. وزئير يضيع عنده زئير الأسود. وهمهمة لا تسمع من تحتها أصــوات أقـوى الرعود والسيوف ترسل بلمعانها من خلال ظلام ذاك الغبار كأن الأفق ويتمخض لإيلاد بواعث الأمطار هذا وعمر العيار بالقرب من أخيه حمزة قائماً على

الانتظار. كأنه العفريت الطيار ودام الأمر على هذا الشأن إلى أن كادت تسود فحمة الليل فخاف الأمير حمزة من ان يقضي عليه الظلام بترك خصمه ولذلك صاح بصوت ارتجت منه أسوار عكاء واهتزت أركان لبنان وانقض على قاهر الخيل والزبد يعلو على شدقيه كانه من فحول الجمال فوجده قد القى بالسيف إلى الأرض وسلمه نفسه وقال له مهلاً يا فارس فرسان الزمان وسيد أبطالها والاعيان فاعف عني فاني اسيرك وقتل الاسير حرام فاقتلعه من بحر سرجه وسلمه إلى أخيه عمر وقال له اوثقه إلى ان نعود إلى الخيام ونرى ماذا فعل بفرسانه .

وبعد ذلك عاد إلى معسكره فالتقاه جماعته بكل اعتبار واحترام وساروا أمامه الى صيوان الملك النعمان وجلس كل في كرسيه بعد ذلك أمر بأن يؤدي بقاهر الخيل فأحضر وهو موثوق فقال له كيف رأيت نفسك ومكابرتك اتظن أن الأمير حمزة كمن لاقيت من الفرسان فاقلع عن عزمك وعدني الوعد الصادق أنك تكون لي وفياً وتجمع لي الأخرجة المطلوبة فأعف عنك وارد اليك حريتك والافاني قادر على الانتقام منك وتعذيبك أشد العذاب فأجاب اني اعرف ذلك وكنت أردت أن ينحصر القتال بيني وبينك فقط لاجرب ذاتي معك والآن لم يعد لي غنى عن ملازمة خدمتك والمسير بين يديك إينما ذهبت وكيفما توجهت فالالتصاق بك خير من عكاء ومن ألوف من المدن والعواصم فاقبلني كما قبلت غيري واشهد على هؤلاء السادات إني أكون أميناً وفياً لاأخون قولاً ولا أخالف أمراً .

فلما سمع الأمير حمزة كلامه تحركت له عواطفه لانه كان يعرف أنه يعبد الله سبحانه وتعالى ولا يهون عليه بأن يرى فارساً ذليلاً كقاهر الخيل وفي الحال دنا منه وفك وثاقه وقال له أريد منك أن تذهب الآن إلى المدينة وتطلق لي رجالي الأصفران ومباشر وبشير قال اني اخطأت بحقهما وبالحقيقة انك أرق رجل في الدنيا مع ما أنت عليه من البسالة والإقدام وإني منذ الساعة سأسير إلى المدينة واطلق الاساري وابعث بجميع الاخرجة لكن اطلب اليك يا سيدي ان تشرفني في الغد الى المدينة وتصرف الوقت في ضيافتي ليعرف اهل المدينة اني صرت من رجالك وتحت طاعتك ولابد أن يسير كثير منهم في رفقتي رغبة بخدمتك فوعده الأمير بكل جميل ورد اليه سيفه واخبره أنه في الصباح يأتي البلد .

ومن ثم سار قاهر الخيل حتى جاء المدينة تحت ظلام الاعتكار . فوجد الابواب مقفلة والعساكر عاملة على الحصار لأنهم لما شاهدوا ما حل بملكهم عادوا القهقرى ورجعوا إلى الوراء ودخلوا الابواب وقفلوها وعملوا على الحصار وفكروا أنهم يقيمون على العناد إلى حين يعلمون ما جرى على ملكهم وداموا على مثل ذلك إلى أن سمعوا صوت قاهر الخيل تحت الاسوار يناديهم أن يفتحوا له فأسرعوا وفتحوا الباب وفرحوا بعودته وسلامته وسألوه عن

سبب إطلاق سبيله فقال لهم اعلموا أني صرت حمزياً وسوف أبارح هذه المدينة وأسير في خدمته كل العمر ومدى الأيام أقاتل بين يديه وذلك من أسباب الفخر لي والمجد الذي سبقني إليه غيري من الفرسان العظام والملوك الكبار أصحاب المجد والفخار كملك القسطنطينية والمعتدي حامي السواحل وغيرهما .

ثم دخل السرايا وأحضر الاصفران ومباشر وبشير وأطلقهم من الوثاق وقال لهم أريد منكم أن تعذروني لأني قد اعتديت عليكم ولم أعرف مقدار قدر أميركم سيد العرب حتى وقعت في يده أسيراً فوجدته فارساً صنديداً وبطلاً مجيداً ورجلاً كريماً ومولى عظيماً عاملني بالرقة واللطف فقال له الاصفران لا ألوم عليك لأنك أسرتنا في ساحة القتال ولم تغدر بنا بل أسرتنا بما أعطيت من البسالة والاقدام ثم إنهم ودعوه وخرجوا من المدينة حتى جاءوا صيوان الملك النعمان وكانت العرب بانتظارهم ففرحوا بهم وسلموا عليهم وبعد ذلك تفرق كل إلى صيوانه وناموا ودخل حمزة إلى صيوانه ووضع رأسه على وسادته وأخذت الأفكار في أن تتردد إلى فكره من حين إنشائه إلى أن جاء بلاد كسرى ورأى مهردكار وهي بذاك الجمال الباهر فكاد يغيب عن وعيه ويضيق صدره كيف يكون الأمير حمزة موفق الاعمال طويل الباع كريم الطباع ولا يقدر أن يصل إلى فتاة أحبها وأحبته وصار الوقت بينهما صاف وأخذت من ثم تمر إلى ذهنه أعمال مهردكار ووفاؤها له وانها أشد منه خلوصاً وظهر له غلطه بزواجه بزهربان ومريم بنت قيصر قبل أن يزف عليها بحيث هي الفتاة الأولى التي أحبها وسلمها قلبه وقال في ذاته لا ريب أنها تحسبني قليل المودة إلى حد ان اخترت عليها غيرها وفضلت الوصول إلى من كان من اللازم أن تكون في خدمتها ولما كان شخص مهردكار يلوح إليه ويظهر أمام عينيه وفي ذهنه كأنه يلومه ويعنفه على ما فعل وعلى رضائه بطول البعاد مع أنه كان قادر أن يختار القرب على البعد فيتفق وأبوها على ترك المدائن فيأخذها ويسير إلى بلاد العرب ويقيم في مكة مرتاحاً معها ويدع كسرى وشأنه واذا تبعه الى هناك اذاقه الويل والهلاك وأخذ في أن يعتذر اليها ويطلب منها السماح ويرجو منها أن تنتظره إلى أن يعود وأن لا تعامله كما عاملها أي لا تختار غيره زوجاً وإلا اذا فعلت ذلك فيكون حق وعدل ولم يبعد هذا الفكر عنه في أكثر ساعات تلك الليلة وهو يتقلب كالأفعى على سريره من جهة إلى ثانية يلوم الزمان ويذم الدهر الذي ترك بينه وبين من أحبها قلبه ألوف من الأميال ومئات من البلدان والمدن والجبال العالية الشاهقة مع أنه ملتزم أن يبعد أبعد من ذلك وأن أمامه بلدان وعواصم يرى نفسه مضطراً إلى المسير إليها وأخيراً وجد سلوى لنفسه بأنه فكر أن لا بد لكل بداية نهاية وان الله إذا كان قسم له الوصول إلى مهردكار لا بد من اتمام تلك القسمة مهما طالت الأيام وبعد عن الديار وفكر أخيراً أن ما وقع له من زواجه بزهربان ومريم ربما كان

بسماح من الله تعالى لمقاصد يجهلها وهذا لا بد أن يكون عذراً كافياً لحبيبته الجميلة اللطيفة والظريفة وفي النهاية لاح له أن ينشد فراقها وما لقي من بعدها فأنشد :

جوانحه جمر ومدمعه سكب ... ومطلبه صعب وأيامه حرب
ولا دهره يرثي ولا الفه يفي ... ولا دمعه يرقي ولا ناره تخبو
فمن لعليل جسمه وفؤاده ... بحكم التجني للضنى والأسى نهب
ومستعجم الألفاظ من خمرة اللما ... على أنها من دونها اللؤلؤ الرطب
أغن إذا أملى الحديث ترى الذي ... يحادثه من سكر الفاظه يكبو
له سيف طرفه سحر ألحاظه له ... فرند تكل المرهفات ولا ينبو
إذا عطفته رحمة لمحبة ... ثنت قلبه عنه الملالة والعجب
يقول وقد أفنى دمي بعد عبرتي ... بكاي فلا شيء يجود به القرب
أمالك قلب يا فتى فتذيبه ... وتسفحه دمعا ليرضى به الحب
فليس بدين الحب أن يصحب الذي ... تصاحبه الأشواق قلب ولالب
وما الحب إلا أن تسيل مدامع ... تفيض دماً صرفا فتفتضح السحب
فقلت له تفديك نفسي من الردى ... وليس من الانصاف أن يقتل الصب
لقد طالما إذ ريت دمعي وطالما ... بكيت دما حتى ارتوى من دمعي الترب
ولو كان قلبي باقياً لأذبته ... ولكنه أودى به الشوق والكرب
فمن لي بقلب يشتفي بعذابه ... معذبه منه وان لم يكن ذنب
تداويت مما بي بكل مجرب ... صحيح افادته الأطباء والكتب
فما ازددت إلا علة وصبابة ... ولم تنقض البلوى ولا نفع الطب
فأيقنت ان الحب ليس له دوا ... على أنه قد ينفع المدنف القرب

فإذا كانت هذه حالة الأمير حمزة وهو ينتقل من بلد إلى بلد يشتغل بالحروب وبملاقاته الأبطال وما شاكل ذلك ولا سيما أنه تزوج بفتاتين مال قلبه إلى كل منهما دعاه أن يرضى بقربهما وتكونا خصيصتين به وتحت ظله والثالثة ترافقه وتصرف وقتها على مؤانسته وتسليته فكيف بالحرى تكون حالة تلك المسكينة مهردكار التي لم يكن لها شغل يشغلها عن حبه ولا تجد سلوى من باب ولا تريد هي نفسها أن تلتهي أو تفكر بغير حبه إذا لا تجد لذة إلا عندما تفكر بأن الأمير حمزة هو حبيبها وأنه سيكون زوجها وتكون امرأته وأنه يقاسي عذاب الحروب والأهوال من أجل غاية واحدة وهي رضا أبيها والحصول عليها وفوق كل ذلك فإنها كانت حزينة على الدوام متكدرة الخاطر منفطرة الفؤاد لسبب غياب الأمير وانقطاع أخباره لأنها كانت لا تعرف ما صار عليه وماذا جرى له في أسفاره هل هو بخير موفق الأعمال ناجح المسعى وأنه يعود إليها أو أنه أسير يلاقي عذاب الأسر والوثاق

أو أنه جريح يئن من ألم جرحه أو هل هو قتيل قد انقضى عمره ومضى حيث لا يعود وهذا الذي كان يجعلها على الدوام تذرف دمعاً مدراراً وتطلب الخلوات والانفراد حتى عرف الكبير والصغير بما هي عليه وشاع صيتها بين نساء العجم ورجالهم وأصبح حديثها في المحافل والسهرات وهي لم تريد من ذلك وتظن بنفسها أن لا أحد يعرف أمرها حيث لا ترى خلفها ولا أمامها إلا الحب والغرام فلا تريد أن ترى أحداً ولا أن يراها أحد اختشاء من أن تضيع وقتاً عن التفكير بأمير العرب ومن ترداد اسمه حتى أن في نفس تلك الليلة التي كان الأمير موجهاً بأفكاره إليها وينظم بأشعاره يشتكي من شدة البعد ومن ألم الحب كانت هي ملقاة على سريرها تنوح نوح الثكلى وتندب حظها وما لقيت في تلك المدة وقد حدثت نفسها قائلة إلى متى يا ترى يكون غياب حبيبي ومنتهى أملي لقد مضت على الأيام والشهور وستمضي السنون والأمير لا يرجع من سفره سيدور الدنيا بأسرها وتبقى أفكاري وقلبي وكلي في أسره ومن لي بأن يخبرني عن حاله الآن وما هو عليه ويأخذ مني كل ما في يدي ماذا كان يضر على الله تعالى لو كان قبل سفر حبيبي بأيام أنزل بغضبه على رأس الوزير بختك فأماته وبقيت أنا وصاحبي على الهناء والراحة والحب والشكوى نجني ثمار الهوى ونقطف عن يانعه ناضج نتاجه واحسرتاه من أين أرى ذلك والموانع عظيمة ولا بد أن يكون بيني الآن وبين حمزة جبال ووديان لا يعلم مقدار بعدها الشاسع إلا الله سبحانه وتعالى وماذا ترى كان يضر على الزمان لو أنه أوجدني بنتاً لأحد عوام الناس وبقي محافظاً على الحب بيننا لكان سهل عليه الحصول علي والوصول إلي وكنت الآن على خدمته مخففة عنه كل تلك الاثقال فماذا يا ترى يمكن الآن أن أعمل وماذا أقدر أن أفعل لأكون مرتاحة لا شيء إلا قرب الحبيب والحبيب بعيد جداً فإذا لا راحة ولا هناء فالعذاب العذاب مستمر لي أنا المسكينة ثم زادت في نوحها وبكت وأنشدت :

تباعدت عن إلفي فيا حر أشجاني ... وأفردت عن صحبي فيا طول أحزاني
ألفت البكاء والحزن بعد فراقه ... فلو مر بي ذكر السرور لأبكاني
يعز على قلبي فراقك سيدي ... فإنك روحي وارتياحي وريحاني
يعز على نفسي فراق حياتها ... فإن فراق الإلف والموت سيان
عجبت وقد فارقته كيف لم أمت ... لما بي من الأشواق من منذ أزمان
ويا رب ليل زار فيه مسهدا ... يراقب وسنانا بأجفان سهران
يرى عجباً نوم المحبين في الهوى ... كأن لم يمر الغمض يوماً بأجفان
أبى جفنة الهويم يوما كأنه ... لقاء لئيم أو عطية منان
ودارت كؤوس العتب بيني وبينه ... فقلت ألا ترثي لميت هجران
مضى عنفوان العمر في القرب والنو ... ى فلا القرب أبراني ولا البعد أسلاني

تضاعف أشجاني إذا الصبح لاح لي — وتشتد آلامي إذا الليل أضواني
براني الضنى حتى خفيت عن الردى — وعني وما أبلي صباي الجديدان
وغبت عن الأبصار حتى كأنني — تردد رأى جال في وهم حيران
فانهلني كأس اعتذار عن الجفا — فدبت دبيب الروح في بيت جثماني
تنصل عن ذنب الصدود بمنطق — ألذ وأشهى من سلاف ومن حان
وساقط دراً من برود معطر — به الشهد والراح الرحيق مشوبان
وعانقت منه لين العطف مثلما — تعانق في مر النسائم خوطان
وأبصرته عطلاً مفضض جيده — فحليته من دمع عيني بعقيان
وظل يناجيني بأجفان ساحر — حرى بتنبيه الصبابة وسنان
إذا شاء هل الروح مني بوحيها — فأقضي ولا أدري وإن شاء أحياني
وبات الهوى والشوق يغري بلثمة — وحكم التقي والصون عن ذاك ينهاني
ولم يزل الواشون في الحب يأثموا — ضلالاً ويرموني بزور وبهتان
إلى أن أشاعوا أنني قد سلوته — اذا البعد من أشراكه فيه سلوان
فلولم أخف شرع الهوى حين أغرقوا — لأعرقتهم من فيض دمعي بطوفان
أرقت لبرق بات يشئم تارة — ويعرق أخرى لا كليل ولا واني
تضيء له الأفلاك حتى كأنها — ضمير أخي شرك به بعض ايمان
فلو كشفوا عني الرداء لأبصروا — صفير رياح في عظام فتى فاني

ومع أن هذه الأبيات تشفي قلب الصخر اذا كان يتعذب على جمرات من الهيام إلا أنها زادت قلب مهردكار حرقة وشدة هيام ووجدا وغيبتها عن هداها وذهب بها ضعف القوى إلى ثبات نوم طويل أدركها بالرغم عنها ليحتفظ بها لهبة الحياة الى بعض نوره الأمير حمزة قال ولنرجع في كلامنا إلى معسكر العرب فإنهم بعد ان صرفوا مدة أيام عند قاهر الخيل في مدينة عكا وهم بين المسرة والبسط حتى اجتمع عنده كل المال المطلوب فدفعه إلى الأمير حمزة ودفع إليه كتاب الملك كسرى الذي جاءه هلاكه وعند ذلك ركب قاهر الخيل في خدمة الأمير وركب معه نحو ثلاثين الفاً من رجاله وعساكر مدينته وحمل كل ما يلزمه من المؤن والذخائر وركب معه الأمير حمزة وسادات العرب وعساكرهم ورحلوا عن تلك الأرض وخرج إلى وداعهم حاكم المدينة الذي أقامه حمزة عليها وأوصاه أن يكون منذ تلك الساعة في حكم مكة المطهرة وأن يرسل الأخرجة من بعد سبع سنوات إلى أبيه إبراهيم ولما بعدوا عن تلك الديار سأل الأمير أخاه عمر أي البلاد نقصد قال له إننا قد انتهينا من عواصم سوريا وسندخل على مصر وثاني عاصمتها وعليها ملكان عظيمان وهما أخان أحدهما سكاما والآخر ورقا وفي مصر عساكر كثيرة وأبطال عظيمة وهي مع أنها حارة

وهواؤ ها جيد للصحة . قال وأي إله يعبدون . قال هم مختلفو المذاهب فبعضهم يعبدون الأصنام وبعضهم النار والبعض الآخر العجل إلى مثل ذلك ويوجد بينهم أفراد يعبدون الله ويكرمون أنبيائه غير أنهم لا يقدرون على التظاهر لقلتهم . قال لا بد ان أجعل هذه البلاد كغيرها من البلاد التي أتيتها فأدخلها في طاعتي وأجعل أهلها على دينه تعالى واسأله ان يسهل الأمر هناك حتى انتهى من بلاد مصر حالاً وأرى إلى ما يكون بعدها .

ثم إنهم بقوا سائرين على طريق مصر ويقطعون البراري والسهول والأوعار ويمرون في طريقهم على المدن الصغيرة والقرى ولا يضرون منها ولا واحدة بل يصرفون من أموالهم حتى خرجوا من الأراضي المقدسة دخلوا في حدود مصر فجفلت منهم سكان تلك الأراضي من كل الجهات فالبعض استقر في مكانه والبعض رحل يطلب القاهرة عاصمة البلاد لينضم الى سكاما وورقا حاكمي مصر ودامت العرب في مسيرها مسرعة في الجري تحت راية الأمير حمزة العرب حتى اكتشفوا القاهرة وبانت لهم وهي مزدحمة البنيان عامرة الأسوار مشيدتها من كل مكان وحينئذ أمر الأمير رجاله أن تنصب الخيام في مكان مقابل للمدينة وأن تترك الخيول والأغنام والجمال خلفها في مراعي مصر على شطوط النيل ويقام عليها الحراس من كل الجهات خوفاً من ضياعها في تلك السهول الواسعة وبعد ذلك اخذ الأمير قلماً وقرطاساً وكتب إلى سكاما وورقا كتاباً يقول فيه :

(من فارس برية الحجاز ومبلي الأعداء بالويل والهلاك حمزة العرب وحاميهم الى سكاما وورقا ملكي مصر) :

« لقد بنيت لي في ذروة المجد مكاناً وجعلت مقامي فوق كل مقام وساعدتني العناية الإلهية حتى أصبحت نافذ الكلمة معزوز المكان ولدي من الأبطال والفرسان ما يعز عن قتالهم أبطال الإنس ومردة الجان وسار في خدمتي كثير من ملوك هذا الزمان وساداتها الاعيان . حتى وصلت الى هذه البلاد ولا بد أن تكون قد وصلت إليكما كتابة كسرى وشرح لكما ما شرحه لغيركما من الملوك الذين عرفوا الحق فاتبعوه ورأوا الباطل فخالفوه ولأجله إني أطلب منكما الآن أن تأتيا إلي صاغرين وتظهرا الى أنكما على طاعتي ومخالفة الملك فتنالان بذلك خيراً وترفعان عن بلادكما شر الحروب وثقلها فتدفعان لي الأموال المطلوبة عن سبع سنوات ومن ثم لا تعود إن الى دفع بارة واحدة لكسرى وهذا ما أخبركما به والسلام » .

وبعد أن كتب هذا الكتاب سلمه إلى أخيه عمر العياروأوصاه بأن يأتي بالجواب من عند سكاما وورقا ويعرف هل هما عاصيان أو على الطاعة والتسليم فسار إلى أن دخل أبواب المدينة فاستدل على دار الأحكام فأخذ اليها وكان سكاما وورقا بانتظار كتاب من

الأمير حمزة لأنهما عرفا من حين دخوله بأراضي مصر باتيانه مع أن كتابة كسرى كانت قد سبقت فتحذرا وأقاما على ما يحتاجونه ودبرا ذلك . ولما اطلعا على كتابة الأمير قال لعمر معاذ الله اننا نخالف العرب أو نفعل غير ما يرضي أميرهم حمزة ونحن لا نقبل قط ان نحاربه أو نخالفه بل نريد أن نخلص من شره وندفع له الأموال والاخرجة فسر إليه الآن واخبره اننا عن قريب نكون عنده مع السادات والاعيان فعاد عمر إلى أن وقف في صيوان الملك النعمان وأعاد على العرب ما سمعه من سكاما وورقا وقال إن ظاهرهما يدل على حسن طوية وصفاء باطن غير أن ما أظنه أنهما يكنان خلاف ما يظهران وما لبث نحو ساعة من الزمان حتى جاء سكاما وورقا وسادات مصر فدخلوا جميعاً على صيوان الملك النعمان وسلموا على العرب وترحبوا بهم غاية الترحيب وأظهروا انهم يريدون مصاحبتهم والوقوف معهم ولا يريدون المخالفة قط فطمنهم الأمير ووعدهم بكل خير ونجاح وأن سيرفع عنهم كل ثقلة ومن ثم أقاموا هناك مدة من النهار وبعد ذلك قصدوا الرجوع إلى البلد فطلبوا من الأمير أن ينزل في الغد اليهم مع سادات قومه حيث انهم قد أعلوا لهم مأدبة فاخرة ولا بد من نزول الأعيان الى المدينة لأجل الفرجة عليها وعلى كل جهاتها حيث أن فيها من التحف ما لا يوجد عند الملوك الكبار اصحاب العواصم المشهورة والممالك العظيمة فوعدهم الأمير حمزة بذلك وصبر إلى اليوم الثاني وفي الصباح طلب من الامراء أن ينزلوا معه إلى المدينة فقالوا إننا لا نقدر على رفقتك فقد حذرنا عمر من ذلك ورأينا تحذيره بمكانه إذ أننا نخاف أن يكون قصد سكاما وورقا الغدر بنا. قال لا أظن ولا يقدران عليه وإذا كانا يقصدان لنا شراً فإن الله سبحانه وتعالى يقينا منهم فنهلكهما ونبيدهما قالوا لا يمكننا ان ندخل المدينة إلا بعد الاستيلاء عليها . قال لا بد لنا من الدخول لأننا وعدناهما وعداً صادقاً بقبول ضيافتهما وليس من شيمة العرب الرجوع عن وعدهم كيف كان الحال قالوا إنك تطلب ما لا يمكن وقوعه منا فاذهب أنت ونبقى نحن هنا إلى حين عودتك وإلا فليس من العدل أن نترك الجيش عرضة للمصائب والأهوال وما من موجب لذهابنا نحن فنلتمس اليك ان تسمح لنا بالبقاء هنا والقيام على المراقبة لنرى ما يكون لنا ولسكاما وورقا فقال لكم الخيار وأما أنا فإني لا بد من أن أذهب إلى ضيافة سكاما وورقا لأنهما دعياني فقبلت ووعدت بالمسير اليهما ثم إنه أمر أخاه عمر أن يأتي إليه بالجواد فجاءه به فركبه وسأله أن يسير معه فقال له إني أشارطك مراهناً أن أسير معك وأعود حالما تدخل السرايا وعندما أعرف أن الوقت قد حان لرجوعك أعود بالجواد لآتي بك ولا أسلم نفسي إلى أيادي سكاما وورقا لأني أنا الذي حذرت امراء العرب منهم فكيف أرمي بنفسي في حفرة أبعدت غيري عنها . قال أفعل ما بدا لك وإذ ذاك تقدم معقل البهلوان وقال للأمير حمزة إني أسير معك ولا أفارقك ومهما جرى عليك يجري علي . وركبا في الحال وسارا

وبين أيديهما عمر العيار حتى دخلوا من أبواب المدينة وجاءوا قصر الأحكام فنزل الأمير عن الجواد ومعقل ورجع عمر بالجوادين إلى معسكر العرب .

فلما دخل حمزة على سكاما وورقا ترحبا به غاية الترحاب وسألاه عن باقي فرسانه فقال لهما إنهم في المعسكر ولا يقدرون على رجالهم ومحافظة الجيش ولا سيما فهم يرغبون في دفع الثقلة عنكم فقالوا ما من ثقلة في ذلك وقد أعددنا وليمة كافية لكل العرب ولا بد من حضورهم وإننا سنذهب إليهم ثانية وندعوهم للحضور في وليمتنا ولا بد من ذلك قال لا يمكن حضورهم ويأتون قط . فسكت الاثنان وفي قلبيهما نار الاحتراق كيف أن الفرسان لم تأت مع الأمير لتنفيذ غاياتهم في الجميع . وأقدما على خدمة الامير ومعقل البهلوان ولم يظهرا على ذاتهما إلا الحب والمودة واللطف كل ذاك اليوم وفي المساء إلى اليوم الثاني وفيه تقدم سكاما وقال لحمزة حيث قد جئت إلى بلادنا فإني أطلب إليك إذا شئت ان تأتي القصور والقلاع ومحلات النزهة لتراها وتتفرج عليها وتنظر هل ما رأيته في غير بلادنا يذكر بشيء بالنسبة إلى بلادنا . أجاب أحسنت فإني أرغب في الفرجة والنظر في عجائب مصر وآثارها ومتانة الأبنية فيها ونهض في الحال ونهض معه معقل البهلوان وسار معهما سكاما وورقا فذهبوا أولاً إلى جهة النيل فطافوا في أكثر أنحائه ودخلوا الحياض والرياض المحيطة به والتي تسقي منه ثم جاءوا القصور واحداً بعد واحد والأمير حمزة يتعجب مما رأى ويشاهد من متانة تلك العواميد الرخامية وطولها وضخامتها وهي مع كبرها العجيب قطعة واحدة ومن النقش والحفر والنتو وكل صنعة عجيبة حتى كاد يؤخذ عقله وأخيراً جاءوا قلعة في جهة أواخر المدينة وهي من الحجر الأحمر الناعم وبابها من الحديد السميك المصقول فدخل الامير وجعل يتفرج على جدرانها ولم يكن بها قط نافذة إلا في أعاليها على بعد نحو عشرين ذراعاً من الأرض من جهة الداخل فرأى الأمير حمزة في تلك القلعة من الاتساع وكثرة الغرف والدهاليز حير فكره وانشغل بالفرجة حتى اغتنم سكاما وورقا تلك الفرصة فجاءا إلى جهة الباب وأسرعا في الخروج وأقفلاه فسمع لصوت اقفاله فرقعة عظيمة إنتبه اليها الأمير والتفت إلى سكاما وورقا فلم يرهما فقال لمعقل البهلوان حيلة عظيمة ومصيبة كبيرة فأسرع بنا في الخائنين ثم أثر ركضا إلى جهة الباب فوجداه مقفلاً وسمعا صوتهما في الخارج فصاح بهما الأمير حمزة وقال ماذا تقصدان بهذا العمل وما من داع للغدر بنا بعد وقوع الحب والولاء فقالا له لا سبيل بعد لخروجكما من هذا المكان فموتا كمداً لا يعلم بوجودكما أحد قال ستندمان فيها بعد حيث لا ينفع الندم لأن فرسان العرب متى علمت بغدركما لا تترككما بل تزحف على المدينة وتأخذ لنا بالثأر منكما . قال سوف ترى ما يحل بقومكما. ثم أعرضا عنهما وذهبا في طريقهما وبقي الأمير والبهلوان يتحرقان ويتأسفان على ما وقع منهما ويتندمان على تسليمهما للاعداء عن

جهل وأعظم شيء كانا يتكدران لاجله هو أن لا خبز ولا ماء عندهما للأكل والشرب ليبقيا على الحياة ويصيرا الى حين يسمح الله بخلاصهما ولذلك كان يرجح لهما الهلاك والموت جوعاً وعطشاً وهذه شر ميتة وأكبر عذاب . وكانا يتمنيان الخروج ولا يقدران ولا يجدان من مخلص لهما وقد طافا في كل الدهاليز والمخاريق ليريا نافذة يتمكنا من الخروج منها فلم يريا لأن نوافذ القلعة كانت عالية جداً لا يمكن الوصول اليها ولا التسلق على الحيطان لنعومتها ومع كل هذا فإن الأمير كان ينظر إلى نفسه نظر الصابر ويظهر له أن الله لا يتركه ولا بد من أن يسهل له طريق الخلاص وبقي مع معقل البهلوان على مثل ذلك إلى أن أخذ نور النهار يتناقش وينسحب شيئاً فشيئاً من القلعة لتسود جدرانها ويظلم خلاؤ ها وكلما غاب النور عن اعين الأمير زاد غيظاً وكدراً من عمل سكاما وورقا وزاد على معقل البهلوان الهم والويل وقطع الرجاء .

قال وأما سكاماً وورقا فانهما بعداً عن القلعة وهما بفرح عطيم من جراء نجاحهما وقد قال الأول للثاني قد انقضى أمر الأمير وفزنا بالنجاح التام من جهته ولم يعد له وسيلة للرجوع إلى هذه الدنيا حيث يموت مع رفيقه جوعاً في هذه القلعة وبعد مدة ترسل فنخرج جثتيهما ونرميهما للكلاب ويا حبذا لو تمت حيلتنا على العرب بأجمعهم ولكن أن ضميري يقول لي إن الذي حذرهم هو ذاك الرجل الشيطان الرفيع الأيدي والأرجل الذي لم أر مثله بين الناس فانه كان ينظر الينا نظر العدو كانه مطلع على ما في سرائرنا . قال ورقا الآن قد انتهينا من أمر الأمير ولم يبق من وسيلة لعمل حيلة على فرسان العرب وصار من اللازم مبادرتهم بالحرب والقتال قال اننا بانتظار الأمير غيتشم الفارس الضيغم حاكم دمياط وقد بعثت اليه بالرسالة اطلب منه السرعة بالحضور فهو فيه الكفاءة لفناء كل فرسان العرب والآن أيضاً سأبعث إليه برسول آخر اعجل حضوره بأقرب آن ولما وصل إلى الديوان بعث برسول الى دمياط حضور الأمير غيتشم وهو يظن أن بواسطته يهلك العرب ويبددهم عن آخرهم ثم بعد ذلك دعا جماعة من عساكر مصر وقال لهم أريد منكم أن تقفوا عند ابواب المدينة فإذا رأيتم احداً دخل من عساكر العرب أو فرسانهم فاقبضوا عليه وأحضروه حالاً لنذبحه ولاسيما ذاك العبد الأسود أو بالحري العفريت الشيطان النجس . فأجابوا قوله واقاموا على الأبواب وهم بالأسلحة والعدد ونام سكاماً وورقاً تلك الليلة براحة بال وفي ظنهما قضيت الأشغال وارتاحا من الأمير ونفذت غاية كسرى ولابد من أن يكافئهم على ذلك .

وفي الصباح نهضت جماعة العرب من مراقدها واجتمعت إلى صيوان الملك النعمان وحضر بينهم عمر العيار وقال لهم إني أذهب الآن إلى المدينة لأرى ماذا جرى على أخي ومعقل فإذا كانا بخير عدت وإياهما وإلا فأجس الاخبار وأعود في الحال ثم إنه أخذ معه

بعض العيارين لسوق الجوادين إلى أن وصل إلى باب البلد فقال للعيار ابق هنا بالجوادين إلى أن أعود اليك ثم دخل من الباب ومشى قليلاً في السوق فرآه العساكر القائمة على الباب وصاحوا به وانحدروا عليه وطلبوا مسكه من كل جهة وداروا من حواليه وكان يبلغ عددهم نحو الألف فارس وعندما تأكد عمر وقوعه في المدينة ثبت أن المصريين غدروا بالامير حمزة وأنهم يقصدون مسكه وفي الحال استل سيفه ذا الشطلين وانحذف على المصريين وجعل يضربهم ضرب أبطال الرجال وهو ينادي بهم ويلكم أيها الأوباش أتقصدون الوقوع مع عزرائيل قابض الارواح فلابد من هلاككم وإبعاثكم إلى الآخرة وهو يمددكم على بساط البسيطة وكلما قربوا منه قفز من بينهم كالغزال وحلقهم إلى جهة ثانية وسيفه يعمل فيهم وارتفع الصياح في المدينة وانتشر الخبر من مكان إلى مكان حتى بلغ الخبر سكاما وورقا فأرسلوا العساكر لتقبض عليه ولذلك صارت الرجال تتكاثر على عمر وهو يتخلص منها بخفة عجيبة إلى ان ازدادوا عليه فوق الحد فقصد الاسوار وهم يصيحون أين تنجو يالئيم فلابد من القبض عليك وشدك بالوثاق وضمك إلي فارسكم حمزة وكانوا يظنون ان لا خلاص له من المدينة لان ابوابها حديدية مقفلة وأسوارها عالية غير ان عمر لما سمع ان أخاه قبض وأسر قفز عن الأرض الى أعلى الباب ومن هناك إلى سطح قلعة داخلية وارتفع عن العساكر وبعد عنهم وقفز من هناك إلى أعلى السور. ثم قلب من ذاك المكان المرتفع إلى الخارج حتى أخذ بالعقول وأبهر النواظر وتعجب منه كل من في المدينة وأما هو فانه لما صار في الخارج أسرع إلى أن وقف في صيوان الملك النعمان فأخبره بكلما جرى عليه وما سمعه من عساكر مصر عن أخيه حمزة فتكدر النعمان وباقي الفرسان كدراً عظيماً وقالوا الحمد الله الذي لم نوافقه وننزل معه فاننا لو وافقناه لكنا الآن بالاسر ومن بعدنا تتشتت رجال العرب أما الآن فاننا نقدر على حماية انفسنا إلى حين خلاصه وفينا الكفاية للقيام مكانه وعند وقوع القتال نأسر سكاما وورقا فنفديها بالأمير حمزة ومعقل البهلوان ومن ثم أخذت العرب تستعد للقتال والحرب والنزال وهي حزينة على ما حل بفارسها وأميرها ومتكدرة من عمل الملوك كيف أنها تعمل على الغدر والخيانة وأما سكاما وورقا فلما بلغهما ان عمراً نجا بنفسه وتخلص من المدينة زاد غيظهما منه وكدرهما وقالا هو بالحقيقة كما قلنا ليس من الإنس بل من الجان وإلا كيف كان يقدر على أن يقفز السور الذي ارتفاعه أكثر من خمسين ذراعاً فما هو إلا من عجائب الزمان ووقوعه في يدنا من المستحيل إلا إذا كان بالحيلة او بطريق آخر .

وكان لسكاما بنت بديعة الحسن مجملة بالجمال مشهورة بالمدينة بين نسائها كانت تذهب في أكثر أوقاتها للنزهة في ضواحي النيل وفي غير منتزهات وهي مطلقة الحرية من أبيها بالذهاب والإياب. وكانت ما تذهب إلى النيل تركب مركباً وتسير فيه ساعات ثم تعود وكان على النيل وكيل من قبل سكاما وورقا اسمه اسمندار فلكثرة ترددها عليه ومرورها من

تلك الجهة وقع بحبها وعشقها عشقاً عظيما غير أنه كان لا يقدر ان يفاتحها بشيء من حبه خوفاً منها ومن أبيها لكونه في الأصل نوتياً ثم أقيم وكيلاً على مراكب النيل وعرف نفسه أنه إذا باح بذلك قتل لا محالة فبقي صابراً على هواه وهو يشتد يوماً فيوماً حتى اصبح من العشاق الكبار وكادت تعتريه الأمراض والاسقام ويقع بالويل والعذاب وهي تلحظ منه ذلك وتعرف محبته لها إلا أنها كانت تعرض عنه لعلمها أنه خادم لها ولا يليق بها إن تتخذه حبيباً ولاسيما وإن قلبها لم يمل إليه كما مال قلبه إليها واتخذت ذلك على سبيل العادة أن قلب كل رجل يميل إلى أي فتاة كانت بشرط ان تكون جميلة ولو رآها اقل خدمها أو خدمة أبيها لأحبها ومال إليها غير أنه لا يمكن ان يكون حبيباً لها .

وفي تلك الأيام لما عرفت بقدوم العرب مالت نفسها للنظر إلى فرسانهم لتعرف هل فيهم من الرجال من هو بحسب مشتهاها وطلبها حيث كل رجال مصر كانت غير راضية منهم وما فيهم من هو بحسب مشتهاها وطلبها . وعندما جاء الأمير حمزة ومعقل البهلوان اقامت في مكان يمران فيه ونظرت إليهما فأعجبت من حسنهما وجمالهما وعظم هيئتهما ووقع من قلبها معقل البهلوان ومالت اليه كل الميل وقالت أني أكون سعيدة إذا حصلت على مثل هذا الأمير وصار لي زوجاً وصرت له امرأة ولكن من اين يتم لي ذلك وهو لا يعرفني ولا يعلم بي ولا اطلع على حبي وميلي ولا ريب أنه إذا عرف ذلك ورآني ما أنا عليه من الحسن مال إلي ووافقني على غايتي ولذلك صار من الواجب علي ان اسعى في أمر خلاصي من هذا الحب بوقت قريب اي أني أجهد النفس في إيجاد وسيلة توصلني إليه فاجتمع به واعرض عليه حالي وأسأله ان يطلبني من أبي زوجة له وبقيت مصرة على ذلك تنتظر الفرصة المناسبة إلى اليوم الثاني وهي تترقب الاخبار وتلاحظ وجودهم وتطلب ان ينتهي ابوها من ضيافته حتى تسير إليه فعرفت بمسيرها في النيل إلى الجهة الثانية فسارت هي كعادتها واخذت مركباً وسارت عليه للنزهة مع قهرمانتها وصرفت وقتاً هناك إلى ان رأت أباها وقد عاد لوحده فتكدرت كدراً عظيما وكان في كل نيتها ان ترى معقل البهلوان عائداً مع أبيها فتحتال إلى ان تراه ويراها ولو لحظة وتقدمت من أبيها وسلمت عليه وقبلت يديه وجعلت نفسها كانها تجهل مكان مسيره فقالت له أين كنت يا أبي من هذه الجهة وكان بعلمي انك في القصر وقد اضفت العرب واكرمتهم وأراك الآن وحدك ومن كان مثلنا لا يكرم من هو مثل هؤلاء الاجلاف . قال اني ما اضفتهم واكرمتهم واظهرت محبتي لهم إلا وفي نبتي عملاً قد عملته وانتهيت منه وحصلت على غايتي من اقرب الطريق فأظهرت على نفسها الفرح وقالت ماذا عملت اهل ابعدت العرب أجاب كلا بل احتلت على الأمير حمزة ورفيقه فأدخلتهما قلعة النيل واقفلت عليهما ولابد ان يموتا جوعاً فيها ويدفنان تحت اسوارها إلى يوم القيامة وهكذا قطعنا رأس الحية ولم يبق علينا إلا ذنبها وسوف تأتي إلينا الفرسان من كل مكان فنبيد العرب

الباقين ونرتاح منهم فشكرته على عمله وسارت في طريقها مع خدمها وقهرمانتها وسار هو مع أخيه ورقا في غير طريق ولا زالت سائرة حتى دخلت قصرها وهي غائبة عن الصواب فاقدة الحواس متكدرة من غدر ابيها وخيانته خائفة على موت الأمير في تلك القلعة ثم انفردت في إحدى الغرف وجعلت تبكي بكاء نحو ساعة وأخيراً نهضت واقفة وقالت ماذا يا ترى يفيدني البكاء إذا لم أكن صبورة واغتنم الفرصة واسلك مسلك الابطال وأتوصل الى خلاصهما وأنا قادرة عليه إذا استعملت الهمة والفكرة وأرىٰ من الواجب قبل كل شيء أن اسعى في أخذ الطعام والماء إليهما ليقدروا على الصبر الى حين خلاصهما وإني أعمل معهما جميلاً فأطمنهما بالخلاص وبعد اقداح الفكرة عرفت أن لا احد يقدر أن يعينها على ذلك إلا إسمندار وكيل النيل فانجلى لها وجه الأمل فدعت قهرمانتها وكانت مخلصة لها كاتمة لأسرارها فقالت لها أريد منك أن تحضري طعاماً فاخراً وتضعيه وفي أوعية من النحاس وتقفلي عليه وتأتيني بها مع وعاء من الماء وعدة ارغفة قالت ولمن ذلك اجابت تسيرين معي وتعلمين لمن فقط أريد أن تكتمي ذلك وفي الليل نسير معاً . فأجابت القهرمانة طلبها وأعدت ما أمرتها به إلى ان كان الليل فجاءتها بالطعام وما طلبت فنهضت ولبست أخف ثيابها وأمرت القهرمانة ان تسير أمامها وتحمل الأوعية وسارت وهي خلفها لا يعلم احد اين تسيران إلى أن وصلتا إلى شاطىء النهر بالقرب من مكان إسمندار فقالت للخادمة إبقي أنت هنا بالطعام إلى أن أعود اليك ثم دخلت المكان ودعت بالوكيل إليها فطار عقله وغاب وعيه وهو لا يصدق بذلك وترحب بها مزيد الترحيب وقال لها ما السبب الموجب لحضورك يا سيدتي عندي في مثل هذه الساعة ولو لم يكن من غرض مهم لما خاطرت وخرجت تحت الظلام فمريني بكل ما تريدين فاسعى في خدمتك ولو كان بذلك هلاك روحي وضياع حياتي . قالت نعم إني أقصد لك امراً فيه الخير والنجاح وهو إني منذ زمان وأنا واقعة في حبك وأكتم ذلك خوفاً من أبي لأنه إذا علم به يميتك لا محالة ويقصد هلاكك فالتزم أنا أن أموت وبقيت صابرة علىٰ ذلك إلى هذه الأيام حتى لاح لي وجه الخلاص ورأيت من الواجب ان أحضر أليك وأطلب منك المساعدة على قضاء مصلحتنا وقد قلت في نفسي أنك إذا وافقتني على هذا الحب أي ان تكون زوجاً واكون لك أمرأة سعيت في إتمام ذلك وإلا فإذا امتنعت ولم تجب طلبي رميت بنفسي في النيل وذهبت طعاماً للسمك . فلما سمع منها هذا الكلام طار قلبه شعاعاً وقال هل عن صحيح تتكلمين يا سيدتي أنك تحبينني وتقبلين أن أكون لك خادماً قالت وما السبب لإتياني في مثل هذه الساعة أليس عن حب قاتل ناضج فرمى نفسه على أقدامها يقبلها فرفعته وقالت له ليس الآن وقت شكري بل وقت تدبير ونظر الأمور قال إني مائت على الحصول عليك ونفسي تطلب الموت على الدوام والخلاص من هذه الحياة وكنت مؤكد أني لا أحصل عليك ولا أقدر أن أفوه بكلمة من حبك وأعرف أني إذا ذكرت ذلك أموت قتيلاً من أبيك حتى

يسمح لي الزمان أن أراك عندي وبك مثلما بي فانظري ماذا تريدين فاني اقدر أن اخاطر بنفسي في سبيل قولك والطاعة لأمرك قالت أعلم أني صرفت الوقت في التفكير والتدبير طول هذه الأيام الى ان بعث الله من ينتشلني مما أنا به ولاج لي وجه أمل قوي فأردت ان لا اضيع هذه الفرصة فجئت اليك لتساعدني فيها وأنا كافلة لك إتمام العمل أجاب إذا شئت سرت وإياك إلى غير هذه البلاد واختبئنا من وجه ابيك قالت ماذا يفيد ذلك فإنه قادر على القبض علنا في كل ساعة ودقيقة وفي تلك مخاطرة وطريق النجاة ضعيف جداً ولكن حيث ان العرب قد جاءوا بلادنا ولا بد لهم من الاستيلاء عليها والتملك على كل انحائها وفيهم فرسان لم يخلق الزمان مثلهم ولا سيما أميرهم حمزة الذي خافه كسرى أنو شروان وسائر الملوك العظام وقد عمل عليه أبي حيلة وأقفل عليه في قلعة النيل ولهذا أردت الآن أن اوصل اليه الطعام على امل ان اسعى في خلاصه ومتى اطلق وعرف جميلي معه كافأني بكل خير وعندي أنه بعد الاستيلاء على البلاد يسلمها إلينا فنكون قد اجتمعنا ببعضنا وبقي الملك بيدنا. أجاب لقد اصبت في ذلك وما من وسيلة اسهل من هذه والآن مريني ماذا تريدين فافعل وإن سألتني الموت لمت في هذه الدقيقة قالت سر بنا إلى امام القلعة واحضر لي سلماً يصل إلى شباك فيها اقدر ان ادلي الطعام منه أجاب كل ما تأمريني به فهو حاضر ولا اخالف لك قولاً ثم أحضر القارب فقطع النهر وإياها وأبقت القهرمانة هناك وأخذت السلم والطعام وسارت وبين يديها إسمندار الوكيل يحملها حتى جاءت القلعة فوضعت السلم وصعدت عليه حتى صارت على اعلاه وطلت من الشباك وصاحت الى الأمير حمزة تقدم الى هذه الجهة أيها الأمير فارتاع الأمير عند سماعه كلام فتاة وقال من أنت وماذا تريدين وفي أي جهة . قالت أني واقفة في الشباك الذي فوق الباب وقد اتيت بالطعام لكما والماء فاقرب من الباب وخذه فسأدليه من هنا وأما انا فاسمي درة الصدف بنت الملك سكاما ولا بد لي من السعي في خلاصك وخلاص رفيقك بأقرب وقت فكونا براحة. قال جزاك الله عنا خيراً ولابد لنا ان نكافئك بكل ما تطلبين وتريدين اجابت لا أريد الا امراً واحداً وهو أن اعرف اسم رفيقك ومن هو فقد رأيته في النهار ولم اعرف وتكدرت جداً من عمل ابي قال هو معقل البهلوان احد سادات العرب وأخي ورفيقي ولابد ان تسري منه ولا يضيع لك تعب وعرف الأمير حمزة ان درة قد وقعت بمحبة معقل فأراد ان يطمنها به ثم تقدم الى جهة الباب فوجد انهاأدلت الطعام والماء فتناوله وهو لا يصدق بأنه يحصل عليه وقال لها نريد منك أيتها السيدة الكريمة ان تأتينا في الغد بالنور مع الطعام لبينما يسهل لك الله سبحانه وتعالى خلاصنا ونخرج من هذا الحبس المظلم ولو عرفنا انه يغدر بنا لما قدر أن يتوصل الينا ولو جمع رجال الارض بأجمعها وطوائف الجان برمتها قالت اني اعرف ذلك وسأفادي بنفسي من اجلكما وحيث أن مفتاح هذه القلعة مع أبي سأترقب الفرص للحصول عليه وفي الغد آتيكا بالنور مع الطعام .

ثم ودعتها ونزلت من اعالي السلم فوجدت اسمندار لها با بالانتظار فقالت له لقد فزنا ببعض المطلوب ولابد بمساعدتك أن نفوز بالمطلوب كله فنخلص الأمير حمزة ونتكل عليه حتى أذا ملك البلد كافأنا على جميلنا بما نريده منه فهو رجل رقيق حليم كامل لا يترك لنا هذا المعروف ولو كلفه خراب البلد وهلاك العباد اجاب عفاك الله لقد نظرت موضع النظر وستجدني على الدوام بخدمتك وتحت امرك وسارت وإياه حتى جاء النهر وقطعاه على القارب ووصلا إلى بيته فاخذت القهرمانة وسارت من هناك بعد ان وعدته أنها في اليوم التالي تأتي اليه فاطمأن باله وهدأ روعه وقال لها لقد علقت بك بحب عظيم وكنت خائب الأمل حتى ثبت عندي أنك ستكونين لي فأرجوك أن لا تنقطعي عني فأموت قالت معاذ الله فإن ما بي من هواك هو مما لا أظنه بك لأني حملت اثقال التعب ومشاق المسير تحت ظلام الليل وعرضت بنفسي للخطر ومخالفة أبي أملاً بنوال مأربي وأما أنت فلم تسلك هذا السبيل ولا سعيت وراءه أجابها إني كنت قبلاً لا أجسر لعلمي أني أطمع بما ينال وأما الآن فحيث عرفت حبك فأركض أكثر من جهدي إلى كل مكان يفيدنا وسارت عنه وتركته معلق القلب والأمل وهي مسرورة بنجاحها وتوفيقها في مهمتها وتتأمل ان تتوصل إلى إخراج حبيبها والأمير من القلعة فتفوز بالغاية والمراد وبقيت سائرة إلى أن وصلت إلى قصرها فدخلته والقت نفسها على سريرها وهي مؤملة بأنها في ليل الغد ستعود إلى حبيبها بالطعام وأخذت تفكر فيه وترى من نفسها لذة لم تكن تعرفها من قبل ذلك لأنها قدرت أن تخدم من أحبت وعرف أنها سلكت طرق المخاطر تحت ظلام الليل من اجله فسيرى عملها هذا حميداً ويحله من قلبه محل الاعتبار ومن المؤكد أن المحب يشتاق على الدوام ان يقدم ما في وسعه لمن أحبه ويلذه جداً ان يكون قادراً على انقاذ مآربه بتقديم الشيء الذي يحبه ولا سيما إذا كان مقبولاً يرضيه ويسر منه فيحسب ذلك فضيلة له ويعتبره وينظر إليه بعين الحب وبالعكس إذا كان المحب مغرماً ويسأله شيئاً أو يحتاج إلى شيء وهو غير قادر على تقديم ذاك الشيء إليه وتنفطر مرارته ويرى الموت أسهل جداً من عدم اقتداره على إكرامه ومساعدته أو تقديم ما يحتاجه ويضطر إليه فقدر الله كل محبوب على مرضاة من احب كما قدرت درة الصدف على إحياء حبيبها وتقديم الطعام إليه وهو بحالة يأس وقطع رجاء ينتظر الموت دقيقة فدقيقة ولم يكن يخطر له ولا الأمير حمزة من ان يأتي أحد لمساعدتهما من داخل المدينة وان هذه الفتاة التي هي بنت العدو الأكبر لهما الذي سعى في هلاكهما ومحو أثارهما تكون المساعدة لهما والمحبة لأحدهما فتخاطر بنفسها وتأتي بالطعام الفاخر والماء المحي .

قال وكانت حالة الاسيرة سلوى حالة هم وغم وكدر وهي لا تقدر ان تنفع الأمير بأمر من الأمور وقلبها عنده كل دقيقة وكان خوفها من ان يقضى عليه أو يصاب بمكدر ولذلك كان حظها غير حظ درة الصدف مع انها اشد منها بأساً واقدر على النفع إذا ساعدتها

الصدف وسمحت لها الأيام وخدمتها الأوقات لكنها خالفتها وابعدت عنها طريق الوصول الى معرفة مكان الأمير حبيبها وحالت دونها ودونه اسوار وحصون وجيوش الأعداء ونحو ذلك مما لا يمكنها من نفعه ولم يكن من شيء يلذها ويخفف ما بها إلا قولها تلوم نفسها على عجزها .

قد نمت عن أشواقه ... واطلت شد وثاقه
ونسيت عهد متيم ... باق على ميثاقه
هجر الرفاق وكان قبـ ... ـل أخا وداد رفاقه
طبع العذول على إطا ... لة لومه وشقاقه
اجرعي كأس النوى ... والموت دون مذاقه
لا تنز عنه فإنني ... أقضي بدون دهاقه
يا ويح قلب لج حر ... البين في احراقه
ومهفهف يحكيه بد ... رالتم في إشراقه
السقم دون دنوه ... والموت دون عناقه
عف اللحاظ عن القلو ... ب يطيل في إحراقه
لما تبسم من بكا ... ى الح في إبرقه
فاهتاج إذ عاد الرقيـ ... ـب ولج في إغراقه
عجباً لبردك يا نسيم ... وأنت من عشاقه
ومن العجائب أنني ... قد عشت بعد فراقه

ولنترك الأميرة سلوى بشوق زائد إلى الأمير حمزة ونذهب الى باقي الفرسان والابطال من العرب فانهم على ما تقدم معنا من القلق والارتباك وهم يتمنون خلاص الامير ولا يعرفون طريقه الا محاربة سكان المدينة وأهلها وجيوشها والتسلط عليها او أن يأسروا ساداتها فيخلصوا بهم الأمير ومعقل البهلوان ولما كان بعد أيام قليلة اصبحوا حسب عادتهم واذا بهم يرون البر امتلأ بالعساكر ونصبت الخيام حول مصر من كل جهة وناحية فاجتمعوا إلى صيوان الملك النعمان واخذوا يستعدوا للحرب ويرتبوا حالهم من يكون الأمير والسيد عليهم فيما هم على ذلك وإذا بالأمير عمر دخل وقال لهم لاخفاكم أن هذا الجيش هو جيش غيتشم صاحب دمياط وملكها وقد وصل في هذا الليل فاطلعت عليه وتجسست حاله وعرفته أولاً وآخراً وخرجت بعض جيوش المدينة وحيث عرفت مؤكداً أن هذا الملك عظيم البطش فارس صنديد وبطل مجيد نادر المثال بين الرجال أريد أن تثبتوا امامه فاقيموا عليكم عوض أخي الأمير حمزة اندهوق بن سعدون لانه ملك عظيم وفارس جسيم وقد اعتاد تدبير العساكر والجنود ولكن كل واحد منكم في جهة إلى حين يفتح الله لنا أبواب الفرج ونخلص

اميرنا وسيدنا فقالوا له جميعاً لقد أصبت يا عمر ونحن على مثل هذه النية ثم قال لهم واكدوا انني لا افارقكم وسأخدمكم إلى ان تفوزوا بالنصر ولا أدع شراً يصل إلى احد منكم او اتحمل الاثقال العظيمة وإلا تشتتنا وكانت مصر مدافن للعرب ومنتهى حياتهم فيها فالموت لا يصعب علينا إذا كان مشفوعاً بالمجد والشرف واعتمدوا عِلى ذلك ورتبوا انفسهم اعظم ترتيب ودبروا أحوالهم احسن تدبير في غياب الأمير إلا أن جاء كتاب غيتشم .

هذا وقد سبق معنى الكلام ان سكاما وورقا كانا بانتظار غيتشم صاحب دمياط حيث كان كل اتكالهم ورجائهم عليه لعلمهم انه وحده يقدر على لقاء العرب وإبادتهم وداموا على الانتظار إلى ان جاءهم الخبر بوصوله ومعه مائة ألف من عساكر دمياط ففرحوا الفرح الزائد وقالوا لابد لنا من الفوز على هؤلاء العرب وإدباتهم ونكون بذلك قد فعلنا إرادة كسرى وأنهينا أمر الاعداء ولما وصل غيتشم ونصب خيامه في ضواحي القاهرة تحت الليل خرجا إليه بجماعته من جيوش مصر وسلما عليه وترحبا به غاية الترحاب وشكيا اليه ما كان من أمر العرب وتهكمهم على البلاد حتى التزموا الى الالتجاء الى الحيلة والخداع فاسروا الامير حمزة ومعقل البهلوان واما باقي الفرسان فتحذروا لانفسهم ولم يأتوا الوليمة فشكرهم على عملهم وقال لهم أتيت لخدمتكم ولابد من ان تروا حال هؤلاء العرب وفي الغد أرسل لهم كتاباً وأطلب منهم التسليم فإذا أجابوا خلصوا من الحرب وإلا اوقعت بهم الذل والشنار وأنزلت على رؤوسهم الويل والدمار ونثرتهم في ضواحي مصر نثر الغبار ولما كان اليوم الثاني كتب إلى الملك النعمان يقول :

من الملك غيتشم صاحب دمياط وحاميها الى ملك العرب والنعمان بن المنذر بن ماء السماء أنت تعلم وغيرك من سكان الدنيا من الملوك والعظماء والفرسان وغيرهم أن مصر منيعة حصينة يصعب على أعظم ملوك هذا العصر ان يطمع فيها او يفكر بالاستيلاء عليها ولا سيما ان فيها فرسان وأبطال يندر وجود مثلهم في كل الاجيال وإني اعجب كيف أنت ورجالك العرب ومن جاء معكم تحدثكم أنفسكم بالعناد وتعملون على الحرب ويخال لكم أنكم تفوزون بنجاح عندنا والحاصل أنكم لما أتيتم هذه البلاد ولم يكن بعد سكاما وورقا وحاكمي مصر قد أرسلا إلى ملوكها خبراً التزما أن يحتالا على فارسكم ومن تعتمدون عليه فأسروه وهو الآن يقاسي الويل والعذاب ولا يلبث أن يموت من الجوع والعطش بعد يوم أو يومين فاقطعوا منه الرجاء واعتمدوا على ما أنصحكم به وهو ان تختاروا السلام على القتال فتسلموا الينا جميع الأموال التي جمعتموها من حد بلاد كسرى إلى هذه الجهات من ذهب وفضة ونوق وجمال وأغنام وترجعوا من حيث أتيتم لأن لا غاية لنا بكم وجل غايتنا وغاية كسرى الملك الأكبر هو القبض على الأمير حمزة ومحو آثاره وهذا قد انتهى وصار وما من مرجع فيه ولا من مطمع لكم بعد الآن بمشاهدة أميركم فارضوا بأخف الويلين واحسبوا أن

حمزة العرب ما كان وإلا فاني أفنيكم عن آخركم وأجعلكم عبرة لغيركم من الأمم ولا يعود ينفعكم فيها بعد الندم .

وبعد ان انتهى من كتابة الكتاب ارسله مع رسول من قومه الى العرب فسار به الى الملك النعمان وهو في الصيوان وعنده الابطال والفرسان فقرأه علنا وعند ذلك أضطربت فرسان العرب منه وما منهم إلا من حركته الحمية العربية وتاقت نفسه الى الحرب والقتال ومبارزة غيتشم وقتله . ولاسيما المعتدي حامي السواحل فانه ارغى وأزبد وقام وقعد وقال لو لم يكن قتل الرسول حرام عند عباد الله لقتلت هذا الرسول قهراً لسيده لكن لا جواب عندنا إلا السيف القرضاب المعد لقطع الرقاب وإن كان يظن أن أميرنا حمزة فقد فتحن نثق ان الله يرده فلو مات ودفن سنخرجه من مدفنه حياً على أن ملوك مصر سيلاقون منافي كل رجل حمزة فإذا أصاب سيدنا مصاب ففينا الكفاية للقيام بمقامه والقتال عند غيابه وغير ذلك لا كلام ولا مقال ومثل ذلك تكلم أندهوق وقاهر الخيل وبشير ومباشر واصفران الدربندي والأميرة سلوى والأمير عقيل وباقي الفرسان والابطال الذين عليهم المعول فرجع الرسول مأيوساً خائفاً مما شاهد إلى أن وصل الى مولاه وأخبره بما سمع وأن العرب معتمدة على القتال والنزال وأن لا جواب ولا كلام عندهم إلا السيف اليمان والحسام الهندوان وسوف ترى منهم الذل والهوان فاضطرب غيتشم وأسودت الدنيا في عينيه وقال سوف يرون مني ما يظهر لهم الحقيقة ويرفع الطمع من رؤوسهم اني أقسم بالعجل الكبير وبالضم الهبيل اني لا أرجع عن العرب حتى أبيدهم ولا أترك منهم أثراً يذكر بعد الآن . وصرف النهار مع سكاما وورقا وفي نيتهم ان في صباح اليوم الذي بعده يباكرون الى الحرب كما كانت افكار العرب أيضاً إذ ما من وسيلة لرجوع الأمير والسلام . وكان اشد العرب كدراً عمر العيار على غياب أخيه وكان يخطر في ذهنه أن ينزل المدينة ويخلص أخاه غير أنه كان يخاف أن يقع على العرب في غيابه أمر من الأمور فاعتمد على ان يسعى قليلاً وينظر ما يكون من غيتشم فيتسبب بالقبض عليه.وعلى سكاما وورقا وحينئذ يهون عليه جداً إما افتداؤه واما خلاصه وبات يدبر في طرق النجاح .

(قال الراوي) وبات الفريقان يتحارسان إلى أن كان صباح اليوم التالي فدقت طبول العرب تعلن الحرب والقتال وتسأل رجالها أن تنهض في الحال وفعلت كذلك طبول المصريين وكان غيتشم وسكاما وورقا يظنون أن العرب لا يثبتون أكثر من ذاك النهار أمامهم فيفرقون وينقرصون أما جيوشهم ولا سيما أن مثل غيتشم لا يثبت في وجه أحد من الأبطال . ثم تقدمت الأبطال إلى ساحة القتال واصطف الصفان وترتب الفريقان فوقف الأندهوق في الوسط وفي الرأي الأيمن المعتدي حامي السواحل وأخته الأميرة سلوى في الرأس الأيسر وقاهر الخيل ومباشر وبشير وأصفران الدربندي وما انهى انتظام الجيوش

حتى صاح أندهوق صياح الأبطال وانحذف على جيوش المصريين كأنه قضاء الله المتعال فأجابه المعتدي حامي السواحل بصوت يقطع السلاسل ويلقي الخوف على قلوب الأبطال الفطاحل وارتمى على المصريين ارتماء الصواعق عند أشد الأرياح . وأخذ معهم في المحاربة والكفاح . ومثل ذلك فعل قاهر الخيل الفارس النطاح . وليث البطاح وبدقائق قليلة اختلط القومان وقام سوق الحرب والطعان وكثر الجور وقل الأمان . ووقع الخوف وارتفع الاطمئنان وساد على المتقاتلين البلاء والهوان فسالت الأدمية كالغدران واندفقت تجري في أقنية الصحصحان كمجاري النهور عند الطوفان ولم يكن يرى تحت ذاك الغبار الكثيف إلا سيوف كثيرة اللمعان وأسنة تضيء وتختفي في ديجور ظلمات الغبار المرتفع إلى العنان . ولا يسمع إلا أنين ملسوع بأنياب الثعبان . وصياح المأخوذ بنشوة النصر والثملان . وصريخ المجروح والمفارق الأهل والخلان القاطع الرجاء من الحياة ومن الرجوع إلى هذا الكون الفان . وكان كلما اشتدت تلك النيران واضطرمت بلهيب زائد الشعلان . وتكاثف فوق وقود ضرامها الدخان . كلما اقتحمتها أولئك الشجعان من المصريين والعربان الذين لم يكن بينهم قط جبان . فلله در الأندهوق بن سعدون عروس الميدان وتاج رؤوس الأعيان . فانه كر على الأبطال والفرسان . كما يكر باثر بعضهما الجديدان . وبيض بأفعاله الحسان ثناء عساكر النعمان . كما يبيض وجه الأرض بنورهما النيران وفعل أكثر من ذلك المعتدي رفيع القدر والشأن صاحب البسالة فارس فرسان ذاك الزمان فانه اخترق صفوف المصريين بعد دقائق وثوان وشردهم عن قومه بين الروابي والكثبان . وأذاقهم من حرارة حربه ولسع ضربه ما ألقاهم بالخذلان . وتمنوا بالاختفاء عن العيان ليتخلصوا من حربه الزائد الرجحان الذي لا عيار له ولا قبان ولا يقدر أن يزنه عقل عاقل بميزان حيث كان يهيج كالفصلان . ويزأر كما يزأر أسود خفان اليوم من أيام حمزة الهلوان . فسوف تذوقون من سيوف رجاله خمرة الأحزان . وتقعون من شر أعمالكم بجهنم النيران لتعلموا أن ما كل من نقل عود الزان يفتخر في ساحة الجولان . وتنقاد إليه الملوك والأعيان وتفديه الأصحاب والخلان ودام على ذلك الهيجان يقلب الظهور على البطون والخواصر على كل الأعكان ويبعث بالرجال إلى مدرج الأكفان لتبقى هناك إلى أن يأتي الأوان ويدعوها للحساب العادل الديان صاحب الملك والسلطان . وقد بخس من أعماله دم الإنسان بعد أن كان ما كان عليه من غالي الأثمان وأصبح يتمنى كل رجل أن يكون من أصغر الديدان أو من فصيلة بني وردان وأما الأمير غيتشم عابد الأوثان ومكرم العجلان فإنه انحط على العرب بقلب أشد من الصوان وفعل أفعال عنترة الفرسان حتى شهد بفعله كل قاص ودان فقد قطع بضرباته الرؤوس واليدان وصمت بصرخاته الآذان وعميت لحملاته الأعيان .

قال ودام الحال على مثل هذا المنوال إلى أن أقبل الظلام فدقت طبول الانفصال ورجع القومان في الحال بعد أن امتلأت السهول من القتلى وتغطى وجه الأرض من الأدمية وامتزج التراب بالأجساد وجعل دقيقه بالدماء وعاد غيتشم وهو يهدر كما تهدر فحول الجمال واجتمع إلى سكاما وورقا وقال لهما أريد أن أعرف كم فارس فقد منا اليوم لأني فعلت بالأعداء أفعالاً لا ينسوها إلى يوم الحشر فقالوا إننا نحمدك على فعلك فقد شاهدناك وأنت تطعن في الصدور وتخترق الأعداء فتنفر من بين يديك كأنك الأسد الكاسر غير أن في الأعداء أبطال كثيرة فقد فعلت في رجالنا كفعلك وفيما هم على مثل ذلك إذ جاءهم أحد القواد وأخبرهم أن عدد المقتولين ٤٥ ألفاً فتكدر غيتشم الكدر الزائد وقال لم يكن بظني أن بالعرب من يقدر على قتل فارس من فرساننا ولا سيما إنني أحميهم وحيث الحال كذلك فسوف في الغد أهجم على الأبطال المشهورين فأميتهم شر ميتة وأذلهم وبعد ذلك أهلك الباقين . وأما العرب فانهم اجتمعوا في صيوان الملك النعمان وهم عالمون بأنهم انتصروا بعض النصر غير أنهم تكدروا عندما رأوا أنه قتل من عسكرهم ما يقرب العشرة آلاف فارس وقالوا إن الأمير حمزة إذا قدر الله له العود إلينا سالماً لا بد أن يلومنا على ذلك وما فعل هذا الفعل وقتل أكثر المقتولين إلا غيتشم فقال أندهوق إني في الغد ألاقيه وأوصي كل واحد من الأبطال أن يترقبه فمن وقع به يقتله وسأجعل القتال في اليوم الثاني بخلاف نسق اليوم فيجب أن يقوم على كل فرقة من العساكر فارس من الفرسان ليدافع عنها ويحميها فاتفقوا على مثل هذا وتفرقوا إلى خيامهم ليناموا براحة إلى اليوم التالي وأما الأمير عمر فانه كان في ذاك النهار حاول كل المحاولة أن يلتقي بغيتشم فلم يتسهل له وكان جال غايته أن يرى سكاما وورقا في الميدان فيأسرهما أو يأسر أحدهما فلم يشأ الله له ذلك لأنهما لم يباشرا حرباً فصبر لإجراء ما في نفسه .

وبات الفريقان يتحارسان إلى صباح اليوم الثاني فاصطف الصفان وترتب الفريقان ولما وقعت العين على العين صاح كلا العسكرين وناديا وتقدما وحملا وهجما وبربرا ودمدما واضطربا واصطدما وكان لهما يوم كثير الهول أشد من اليوم الأول هولاً وأكثره جرحاً وقتلا وما جاء مساؤه حتى زهقت نفوس الأبطال وتمنت الرجوع والانفصال وتأخرت عساكر المصريين إلى الوراء وقد لحق بها التعب والعناء ووقع بها النقص والفناء فزاد كدر سكاما وورقا وملك دمياط وقال الأخير إني وحق أبيس العجل الكبير إذا تقاعدت عن مبارزة فرسان العرب ثلاثة أيام أخر هلك كل ما معنا من العسكر ومن الصواب أن أتنازل في الغد إلى المبارزة فأصطاد كل من تحدثه نفسه بالنزال إلي وفي الأخير أهجم على ما بقي منهم فأبددهم وبذلك نكون قد أحسنا التدبير وفعلنا فعل الرجل الخبير فقالا له إذا ما فعلت ذلك فبعد الغد ندخل المدينة ونقفل الأبواب ونحاصر داخلها فقال كونا براحة

فسوف ترون من قتالي العجائب وما تأخرت عن البراز إلا احتقاراً بالعرب وأنتم تعلمون ما أعطيت من البسالة والاقدام فاطمأن بال ورقا وسكاما عند سماعهما كلامه وأملا بالغد أن ينالا الفوز والظفر ويأسر غيتشم فرسان العرب ولذلك باتا باطمئنان إلى أن كان صباح اليوم الثالث ضربت طبول الحرب والكفاح وتقدمت أبطال الطعان والنطاح فاصطف الصفان ووقف من الجانبين الفريقان ينتظران الأمر بالحملة على بعضهم لبعض وقبل أن يتم ذلك سقط غيتشم إلى وسط الميدان وهو فوق عال واسع الصدر عريض الكفل صبوح الوجه قوي القوائم أدهم اللون كأنه النجمة في الليلة المظلمة وعليه من الحديد درع متين لا تخرقه الرماح ولا السيوف ولا تبليه الأجيال وألوف الأجيال وزردية ضيقة العيون محبوكة بترتيب وانتظام إلى غير ذلك من السلاح الذي لا يحمله إلا كل بطل صنديد وفارس مجيد وقرم عنيد . وبعد أن صار في الوسط صال وجاب في ساحة المجال حتى حير عقول الرجال . ووقف في الوسط ونادى يطلب براز الأبطال ونزال الفرسان من عشرة وعشرين وما أتم كلامه حتى صار أصفران الدربندي أمامه وتجاول وإياه أعظم محاولة وتطاولا أشد مطاولة وتضاربا أقوى مضاربة وهما بين اجتماع وافتراق واختلاف واتفاق تارة يتضاربان بالبيض الرقاق وطوراً يتطاعنان بالسمر الرشاق إلى ما بعد الظهر فتكدر غيتشم من ثبات خصمه بين يديه فصاح به وانحط عليه وضايقه كل المضايقة واختطفه من بحر سرجه وأخذه أسيراً وقاده إلى قومه ذليلاً حقيراً ثم عاد إلى وسط الميدان وإذا بالأمير بشير قد فاجأه وصاح به وحمل عليه واقتتل وإياه عدة ساعات ثم أخذه أسيراً وشده إلى رفيقه وعاد إلى مكانه يريد البراز فصدمه مباشر أخو الأمير بشير ودار بينهما دولاب القتال إلى الزوال فأخذه أسيراً ورجع إلى قومه وهو بمزيد الفرح ورجع العرب بهم زائد مما لحق بفرسانهم في ذاك النهار وما منهم الا من يتمنى أن يأتي اليوم القادم ليبرز إلى غيتشم ويقصف عمره وينهي أمره ولا سيما أندهوق بن سعدون والمعتدي حامي السواحل وقد ظن كل واحد منهما أنه في الغديبرز إليه ويأخذمنه بالثأر ويمحو العار .

قال ولما كان صباح اليوم التالي نهض العرب والمصريون وتقدموا إلى ساحة القتال واصطفوا حسب العادة فبرز غيتشم صاحب دمياط وصال في الوسط وقبل أن يتم كلامه برز اليه الأمير عقيل فارس العرب وتقاتل وإياه مدة من النهار وقبل أن صار الظهر أخذه أسيراً وقاده حقيراً وفي الحال صارت تبرز اليه الرجال من سادات العرب أصحاب حمزة الأخصاء أي الثمانمائة الذين تربوا معه وكان كل واحد يعد بألف فارس غير أن غيتشم طال عليهم واستطال وما جاء الزوال حتى أسر نحو عشرة رجال ورجع كأنه الأسد الرئبال وقد ظن أن لا أحد من عساكر العرب عاد يقدر عليه أو يثبت أمامه واجتمع بسكاما وورقا وقال لهما قد هان علينا الأمر وأسرنا كل فرسان العرب ولم يبق علينا إلا القليل

وسوف نفوز ونهلك الأعداء بوقت قريب فقالوا له إن الذين أسرتهم هم من فرسان الزمان ومشاهيرهم إلا أنه باق من هو أشد منهم بأساً وأقوى مراساً باق الأندهوق صاحب سرنديب الهند وهو مشهور بين أبطال الزمان والمعتدي حامي السواحل الذي أرجف لذكره الأطفال في المهود وقاهر الخيل صاحب عكاء وهذا تعرف أنت بسالته وشجاعته فإذا أسرتهؤلاء الثلاثة نلت كل مشتهاك وترجح النصر والفوز لنا وظفرنا بالعرب وإلا فلا أمل بالنجاح قال إني في الغد سأطلب قاهر الخيل ورفيقيه ولا أجعل مساء الغد يأتي إلا وأكون نلت المراد وجعلتكم بأمان واطمئنان وكان بظني أن أقتل الأسارى في هذه الليلة إلا أني سأبقيهم إلى أن أشد رفاقهم إليهم قال سكاما إني أخاف أن يأتي بلوة الإنس والجان عمر العيار فيأخذ الأسارى على حين غفلة منا قال يجب أن تسلموهم إلى عيار من عياركم وتحذروه منه وأن يسهر عليهم الليل والنهار وأن يكون معه من يساعده من العيارين فدعيا بكبير عياري مصر واسمه الساري فأوصياه بالمحافظة على الأسارى ووكلوا معه بعضا من جماعته وارتاح بالهم من جهتهم وترجح لهم نيل المراد من أسر الباقين . وأما العرب فإنهم رجعوا في المساء إلى الخيام واجتمع الأمراء إلى صيوان الملك النعمان وأخذوا يتشاورون فيما يفعلون فقال النعمان من الصواب أن نمنع الفرسان البراز ونأخذ نحن العهدة على قتال غيتشم وأسره وإلا اصطاد واحداً بعد واحد وربما قتلهم وأماتهم فقال قاهر الخيل إني سأبرز اليه في الغد وعندي أني سأفوز عليه فاذا أسرني أو قتلني فليبرز إليه إما اندهوق وإما المعتدي ويمتنع غيرنا عن قتاله فاتفقوا على مثل ذلك وباتوا إلى الصباح وعنده برز غيتشم فصال وجال ولعب على أربعة أركان المجال ثم وقف في الوسط وقال من عرفني فقد كفى ومن لم يعرفني ما في خفي أنا غيتشم منزل بالأعداء الويل والعدم فليبرز إلي منكم الفرسان والأبطال عشرة وعشرين وإذا شئتم فاحملوا بأجمعكم فإني لا أحسب لكم حساب وقد أطلب براز قاهر الخيل ملك عكاء الذي فات بلاده ومملكته وتبع العرب وفضل قتال المصريين جيرانه حباً بالأمير حمزة .

وما أتم غيتشم كلامه حتى صار قاهر الخيل أمامه وصدمه صدمة الجبابرة العظام وأخذ معه في العراك والصدام والافتراق والالتحام والضرب بالصارم الصمصام والطعن بالرمح الهندام حتى ارتفع فوقهم الغبار كالغمام . وصاح فوق رؤوسهما طير الحمام ونشر عليهما الموت الزؤام . وقد أحدقت إليهما الفرسان من كل ناحية ومكان تنتظر ما يكون بينهما من القتال وما تنتهي اليه الحال وهما بضرب أحر من لهيب النار وطعن يسبق الأقدار . كل ذاك النهار إلى أن مالت الشمس إلى الاصفرار . وطلبت الاختفاء عن العيون والاستتار . وهما لا ينفكان ولا يطلبان الرجوع إلا بعد الفوز والانتصار وأخيراً وقع من الاثنان ضربتان فاصلتان وقعت ضربة قاهر الخيل على طارقة غيتشم فضيعها

بمعرفته وأبطلها بخبرته ووقعت ضربة غيتشم على طارقة الخيل وسقطت على رقبة الجواد فمال وسقط وقبل وصوله إلى الأرض هجم غيتشم وتناوله وسار به إلى ناحية المصريين وهو يهدر كما تهدر فحول مسروراً بما نال من الظفر على عدوه وفي الحال شد وثاقه وسلمه إلى العيار ساري وأوصاه أن يقرنه إلى جماعته وأوصاه بالاحتراس عليهم وقال في الغد لا بد من الاتيان بالباقين فقددنا أجل العرب وفرغت أيامهم ولم تعد تقوم لهم قائمة . فأثنى عليه سكاما وورقا وشكروه كل الشكر وهم فرحون وتأملوا كل خير . وأما اندهوق وباقي الفرسان فانهم رجعوا إلى صيوان النعمان متكدرون مما جرى على قاهر الخيل والمعتدي يعض شفتيه تحرقاً كيف أنه لم يتمكن من براز غيتشم وكيف أن النهار لم يساعده ليخلص قاهر الخيل ويأسر آسره ولما اجتمعوا في الديوان قال الملك النعمان لقد ظهر أن غيتشم فارس صنديد وكان من الواجب أن يبرز اليه أحد كما منذ الأول لكان عاد به أسيراً أو قتيلاً وهكذا كان يفعل الأمير حمزة في أكثر الأحيان فإنه يمنع غيره من المبارزة ويبرز هو أملاً بحسم المسألة وتقصير الوقت واختشاء من تضييع بعض الفرسان . وقال إن الذي مضى قد مضى ولا بد لي في الغد من قتاله وأخذه أسيراً وخلاص رجالنا وإذ ذاك تقدم عمر وقال إني أشرط عليكم شرطا فإذا وافقتموني عليه خلت الأسارى في هذه الليلة . قالوا ماذا تريد قال إني أريد أن أبارز غيتشم وأريه فعله وأني أعدكم بأسره بدون شك وفوق كل ذلك فإني أعود اليكم بكل الفرسان الذين في قبضة سكاما وورقا فقال له أندهوق إذا خلصت الأسارى تركنا لك قتاله ولا نخاف عليك منه لأنك تقاتل وأنت على الأرض فإذا وجدت نفسك مغلوباً حاولته بالجري فلا يقدر أن يتأثرك لسرعة جريك :

قال وبعد أن اتفقوا على ذلك ذهب عمر إلى صيوان أخيه حمزة وانفرد بنفسه وأخذ المكحلة التي أخذها من رجال الصومعة وتكحل بها بقصد أن يصير مصرياً فصار في الحال وجعل نفسه كأنه أعمى وأخذ جرابه تحت إبطه وسار من عساكر العرب وجاء عساكر المصريين وجعل يسأل الإحسان ويسأل عن صيوان ملك دمّياط وما برح على مثل هذه الحالة ينتقل من مكان إلى آخر ومن جهة إلى ثانية حتى وصل إلى صيوان الملك المذكور فاستأذن بالدخول عليه فمنعه الحراس فقال لهم بصوت عال ولهجة مصرية دعوني أصل إلى أبي الفقراء وصاحب الإحسان فاننا نحن الشحاذون في مصر بانتظاره ولا يسمح لنا الزمان أن يزورنا في كل يوم فاليوم عندنا يوم الغنائم فلا تمنعونا من نوالها فسمع الملك المذكور كلامه فطلب أن يدخل عليه ولا يعارضه أحد . ولما صار بين يديه قدم واجب الخدمة والإكرام وقال له إني خرجت من المدينة يا سيدي وفي كل نيتي أني سأقبل الأرض بين يديك وأقبل على إنعامك وأنال غايتي منك وأحظى بالسعادة الكبرى وأني أشكر العرب حيث كانوا وسيلة لاتيانك إلينا لتتبرك هذه الأرض بجلوسك وقد سر جماعتي

كلهم طمعاً برغدك وكرمك ثم أنشده :

إلا يا فتى العليا الهمام المفضل	ويا شائد الحسن الأغر المكمل
ويا أيها المولى الذي اكتمل العلى	به وسواء بالعلى يتكمل
ويا ملجأ للقاصدين ومنهلا	عليه الورى من كل قطر تعول
إذا ما جنى منك المرجى بناصر	فبشرى المرجي إنه ليس يخذل
مديحك عندي يا أخا الجود واجب	ومدح بني العليا سواك تنفل
حويت فخارا لم ينله مشمر	بسحب هبات غيثها يتسلسل
وما أنت إلا الشمس لكنني أرى	من الحزم أني عنك لا أتحول

فلما سمع غيتشم كلامه سر سروراً عظيماً وأعجبه جداً وقال له لا ريب أنك نابغة في مصر وبين العميان ولا بد من إكرامك والالتفات إليك فابق عندنا مدة أيام وسوف أجعلك أغنى الناس أي إني سأعطيك من مالي وأزيدك أيضاً شيئاً كثيراً من مال العرب وعما قليل نحصل عليه كله وهو جمع من نصف الدنيا تقريباً . فلما سمع عمر كلامه شكره وأثنى عليه جداً وقال له باركت بك الأصنام وجعلتك بأعلى مقام فانك تحسن إلى الفقير وترحم الأيتام ثم أمر أن يبقى في أحد الصواوين بين الحجاب والقواد وأن يقدم اليه كل ما يريد ويطلب فشكره وخرج ولم يعترضه أحد وقد عرف الجميع أن غيتشم أحبه ووعده بالخير والاحسان . وأما هو فانه سار إلى جهة الخيمة التي فيها الأسارى وقد أشعل غليونه في اليد الواحدة وأخذ عصاه في الثانية ولما وصل إليها قال دلوني على العيار ساري فإن الملك غيتشم وعدني الوعد الصادق أن يعطيني قسم من مال العرب وأنا أريد أن أسأله عنهم فدلوه عليه فسلم عليه وقال له عندك كثير من أسارى العرب قال عندنا ١٢ أميراً قال إني أسأل أبيس أن يساعد ملكنا على مسك الباقين لننال الأموال الغزيرة والثروة العظيمة حيث وعدنا أنه يقسم الغنائم بين الجميع بالاستواء وينالني نصيب من ذلك فقال له ساري إن الأمر ينقضي بعد أيام قليلة ولكن أريد منك أن تعطيني قليلا من هذا الدخان الذي تدخن به لأن رائحته زكية ولم أر ولا سمعت بمثله قال لا أبخل عليك بذلك ثم أعطاه قليلاً فملأ به الغليون وأشغله بقليل من البنج وسد أنفه وأشعل الدخان فتصاعد وفاحت منه رائحة زكية جداً فتنشق منها ساري وباقي العيارين الذين معه وما لبثوا أن لعب البنج برؤ وسهم فمالوا إلى الأرض نياماً وفي الحال نهض وأسرع إلى الداخل وأخرج من جيبه المبرد وجعل يقطع القيود فتعجبوا منه وقالوا له جزاك الله عنا خيراً فقال لهم لا تخافوا لقد جئت لخلاصكم فعرفوه لما سمعوا صوته ولهجته العربية وفرحوا بالخلاص ولم يكن إلا القليل حتى انطلق الجميع فأخذ لهم ثياب العيارين جماعة ساري وألبسهم إياها وقال لهم اجعلوا أنفسكم كأنكم مصريون وسار أمامهم وهم من خلفه حتى

قطعوا معسكر المصريين ودخلوا بين قومهم فانجلت الهموم عنهم وتأكدوا خلاصهم وما منهم إلا من كان شكر من عمر ومن عمله ومدحوه المدح الزائد وتقدم عمر أمامهم إلى صيوان الملك النعمان حيث كان الأمراء عنده وهم بانتظار عودته فدخل والفرسان من خلفه بصفة مصريين وكلم النعمان بلغة مصر وقال له إن سيدنا بعثنا بهذه الساعة اليكم وهولـم يرض أن يصبر إلى الغد عنكم ليعرف علكم تكونوا قد نظرتم في الحق وعرفتم ما حل بقومكم فتسلموا اليه الأموال وترجعوا لأن الأسارى قد ذبحهم والخير لكم في التسليم وإلا في الغد يباكركم ويأخذ الباقين منكم فما أتم كلامه هذا حتى لعب الغضب برأس أندهوق بن سعدون وهاج كما تهيج فحول الجمال وصاح على غير وعي وامتشق الحسام وفي نيته أن يبطش بالذين أمامه فأجاب عمر بصوته المعتاد هدىء روعك وسكن غضبك فعرفه وضحك الملك النعمان والمعتدي من عمله وقال له لم هذا العمل قال لأعرف هل تعرفوني وأنتم قومي وها كم قاهر الخيل وباقي الأسارى وقد خلصتهم وجئتكم بوقت قريب ففرحوا فرحاً لا يوصف وتقدموا من بعضهم البعض وسلموا عليهم وهنأوهم بالخلاص وقد تأمل العرب بالفرج وتفرق كل واحد إلى صيوانه ليرتاحوا باقي تلك الليلة لعلمهم أن في الصباح لا بد من البراز ليرجع الأسارى .

وفي صباح اليوم الذي بعده نهض غيتشم وفي كل نيته أن يأتي بالأسارى إلى ساحة الميدان ويـرمي رقابهم على مرأى من جماعتهم ولذلك بعث بعض خدمه ليأتي بهم وكان قد حضر عنده سكاما وورقا فعاد إليه الخادم وقال له لا أسارى يا سيدي بالصيوان بل وجدت القيود مكسرة والعيارين نياما بالبنج وما ذلك إلا من جراء حيل قد وقعت عليهم فأمر أن ينبهوا ويؤتى بهم في الحال فجاءوا بين يديه وحكوا له ما كان من أمر الأعمى الذي كان عنده وقالوا ما ظننا يكون عدواً ورأيناك وسمعنا أنك أكرمته ووعدته بكل جميل فقال سكاما إن صدقني حذري يكون هذا عمر العيار لأنه شيطان مريد وخبيث محتال ينزع الكحل من العين ويسلب النوم من المقل فقال غيتشم لا بد إذا وقع بيدي هذا المحتال أن أعدمه الحياة وأميته شر ميتة لأريه كيف يتجاسر على دوس بساط الملوك والاحتيال عليهم والاحتقار بهم وأما الأسارى فلا بد من عودهم إلى الوثاق والهلاك ولا يفوتني أحد منهم ثم إنه أمر أن يقدم اليه جواده فركبه وتقدم إلى ساحة الميدان وركبت كل تلك العساكر من عربي ومصري وغيرهم وفي الحال تقدم غيتشم إلى الأمام وهو يعض الآرام ويتحرق من أعمال عمر العيار ويتمنى أن يصل اليه ليفرق بين لحمه وعظمه ولما صار في الوسط طلب مبارزة الأبطال فأراد أندهوق أن يبرز اليه فاعترضه عمر العيار وقال له إن هذا اليوم لي فقال افعل ما بدا لك فإني قيم بوعدي ثم إن عمر لبس عليه ثوباً من الجلد المصقول اللامع وعلق به كثيراً من الأجراس الصغيرة ووضع فوق رأسه قبعة طويلة

علق بها الأجراس وأخذ بيده دبوساً من الحديد وتقدم بتأن إلى جهة غيتشم ولما صار أمامه قال له إني لا أنكر أني بالأمس كنت ضيفك وقد أكرمتني وعملت على الاعتناء بي ووعدتني بأنك لا تنساني فتقسم لي نصيبي من الأموال التي مع العرب ومن كان مثلك لا يعد ويخلف جئت الآن لأذكرك بهذا الوعد فلما سمع كلامه اشتعلت نار الغضب في قلبه وكاد ينشق من الغيظ وقال له لا بد لي من أن أميتك شر ميتة لأعرفك كيف تصل إلى الملوك وتلعب بهم وهجم عليه وفي نيته أن يطعنه طعنة واحدة فيلقيه ممداً على الأرض فصبر عليه إلى أن كاد يقترب منه وانتفض كله انتفاضاً سريعاً وهز برأسه هزاً قوياً وذلك بغتة فدقت الأجراس بصوت عظيم جداً ووقعوا بقوة في آذان الجواد فجفل وجن وقلب إلى الأرض فوقع غيتشم وهو خائر الفؤاد متكدر من عمله ورمى بكل سلاحه عنه وأسرع ركضاً إلى جهة معسكره فجعل عمر يضحك عليه والتهى عنه بالجواد فرفعه بتأن وساسه ودعا بأحد عياريه أن يسرع فيأخذه وأخذ هو الرمح والسيف .

وفي تلك الساعة صاحت فرسان العرب وهجمت وهي تضحك من أعمال عمر ومن خدعته وابغات غيتشم بإجفال جواده حتى وقع إلى الأرض فالتقاهم معسكر مصر وقام سوق الحرب على ساق وقدم واختلط الأمم بالأمم وبيعت النفوس بيع البخس إلى سلطان العدم . فهمهم الشجاع وتقدم وولى الجبان وانهزم وقد جاد فرسان العرب جود الكرماء وطافوا على الأعداء كما تطوف بمياهها السماء واتسع سوق المجال على الفرسان والأبطال فأبدوا العجائب والأهوال . وما عول النهار على الارتحال إلا بعد أن أشفوا كبودهم من المصريين وأنزلوا عليهم قضاء الله المبين وإذ ذاك ضربت طبول الانفصال فتركوا الحرب والقتال وعادت كل فرقة إلى حيامها وغيتشم بكدر عظيم وغيظ لا يحد وقد قال لسكاما وورقا أني كنت لا أظن أن هذا الشيطان المريد يقصد إجفال جوادي بغتة بضرب ألوف من الأجراس دفعة واحدة فقبح من خبيث محتال وأني لا أريد شيئاً من عساكر العرب إلا أن أقتله وأعدمه الحياة وأشفي غليل قلبي منه فقالا له إننا حذرناك منه قبلا لأنه ليس من الإنس بل هو من طوائف الجان وأعماله هذه لا يمكن لابن آدم أن يفعلها وأن الذي يراه لا يظن إلا أنه من فصيلة القرود لأن وجهه أجاب إني أسأل المعبودات أن لا تحرمني من هلاكه وأن تخولني تقطيعه إرباً إرباً :

وأما العرب فإنهم عادوا إلى مضاربهم فرحون بالنصر الذي وصلوا إليه وتأكدوا أن القتال لا يكون بينهم ولا يطول أكثر من يوم الغد فقال اندهوق أنه لولا غيتشم لتفرقت جيوش الأعداء في هذا اليوم ولا عادت إلى حربنا مرة ثانية ولكن لا بد لي في الغد من البراز إليه لأقتله وأعدمه الحياة ونرتاح من أمره وكل فكرنا عند الأمير حمزة وصار من اللازم الاستيلاء على المدينة لننظر في مكانه وأين هو أجاب عمر إني متى قتلتم غيتشم

وترجح استيلاؤ نا على المدينة سرت أنا إلى خلاص أخي لأني عرفت ونظرت في المرآة فإذا هو في القلعة مسجوناً عند النيل في داخل المدينة عند طرفها الأخير وهو معقل البهلوان بخير وراحة غير أنه لا بد من أن يكون مضطرب الأفكار من أجلنا ومفتاح هذه القلعة هو مع ورقا اليوم ومحافظ عليه في جيبه وقد أخذه من أخيه سكاما وفي ظن المصريين أن الأمير حمزة هلك ومات جوعاً مع معقل البهلوان ولكن لا بد من خلاصهما بعد قليل فمدحوه على كلامه ثم إنه قال لهم أنتم تعلمون أني أخذت جواد غيتشم وسلاحه وهي لا تنفعني شيئاً وأريد أن أبيعها فمن منكم يشتري ذلك فقال الأندهوق إني أشتري منك الجواد بمائتي ذهب عينا قال لا يخلصني أن أبيعه بهذا السعر فإنه بخس جداً فقال له وهل اشتريته أنت بمال أجاب حصلت عليه بما هو أغلى من المال وأثمن لأن لو قتلني غيتشم لما كان ينفعني أحد منكم فقال له إذا أخذ لك ثلثمائة ذهب ثمنه . أجابه خذه فهو مبارك عليك وقبض المبلغ ثم باع الرمح لقاهر الخيل والسيف للمعتدي وأخذ منهما تتمة الألف ذهب وخرج إلى جماعته العيارين وقال لا بد أن تكونوا متكدرين حيث مضى زمان ولم أنثر الذهب على رؤوسكم فاتبعوني الآن فقد جئت ببعض الذهب وذهب بهم إلى الخلاء وأخذ ينثر الذهب وهم يلتقطونه حتى فرغ فعاد بهم حزيناً وفرقهم على الحراسة الى صباح اليوم الثاني .

ولما كان الصباح ضربت طبول الحرب والكفاح وتقدمت الأبطال والفرسان من كل ناحية ومكان وفي نية جماعة العربان أن ذاك اليوم يكون اليوم الأخير بين المتقاتلين وما انتهى الفريقان من الترتيب والانتظام حتى كان غيتشم قد صار في وسط ساحة الصدام حسب عادته وهو متكل على كل قوته وما جال إلا القليل حتى صار الاندهوق أمامه وصدمه صدمة جبابرة الزمان وقد تقدم معنا في غير هذا الكتاب أن أندهوق كان من أبطال ذاك الزمان لا نظير له في كل بلاد الهند وغيرها وما أسره حمزة إلا بعد محاربة ثلاثين يوماً ومن ثم أخذا في العراك والصدام والافتراق والالتجام ومعاناة الشدائد والاهوال . والدخول في أصعب ابواب الحرب والقتال وقد تزعزع من قوة صراخهما أمتن الجبال واهتز من صول وجول جواديهما تلك المدائن والأطلال وارتفع فوقهما الغبار حتى حجب الشمس ذات الأنوار وأحدقت بهما عيون أولئك النظار تنظر النهاينة عن حالهما والاستفسار وكان أندهوق متكدر الخاطر من عمل غيتشم ومما سبق من أفعاله ولذلك لم يقصد التطويل ولا التحويل والتهويل بل كان جل قصده سرعة القتال ، فصاح في خصمه من قلب محروق وفاجأه كل المفاجئة وضيق عليه كل المضايقة وأراه ضرباً ما رآها عمره بطوله حتى ألقى الرعب في قلبه وأظهر له عجزه أمام عينيه ثم ضربه بسيفه البتار فوقع على محكم رقبته ألقاه إلى الأرض قتيلاً وفي دماء جديلاً ومن ثم هجم على معسكر المصريين

وأشار إلى العرب بالهجوم فهجموا هجمة واحدة وقوموا الأسنة وأطلقوا الأعنة وقام سوق الحرب والقتال من كل جهة وازدحمت الفرسان بالفرسان والأبطال وتدفقت الأدمية من أنابيب المحاجر كالعارض الهطال وكان يوماً عظيم الأهوال وقع فيه على المصريين التأخير وسوء الحال ودارت عليهم الدوائر من كل ميل واكتالتهم مكاييل المنايا أي كيل فتفرقوا ذات اليمين وذات الشمال وانتشروا انتشار الغيوم وتفرقوا بأمر الحي القيوم والعرب تضرب وتشفي غلائلها من قتلهم وذبحهم وما جاء آخر النهار إلا وكان سكاما وورقا قد دخلا المدينة بجماعتهما الباقين وأقفلا من خلفهم وفي نيتهما ان يعملا على الحصار وينتظرا ما يكون من أمرهما ولم يخطر لهما قط الإذعان والتسليم لعلمهما أن العرب لا تبقى عليهما بعد أن أهلكا الأمير وفي كل ظنهما أنه مات جوعاً في القلعة مع معقل البهلوان ولم يخطر لهما قط أن الله سبحانه وتعالى حرك درة الصدف على بغض أبيها وقومها ليحفظ حياتهما .

وبعد أن رجعت العرب إلى الخيام اجتمعت في صيوان الملك النعمان على أتم ما يكون من الفرح الزائد وقد قال أندهوق انتصرنا انتصاراً كاملاً ونلنا من الأعداء الغنائم التي لا تحصى ولم يبقى علينا إلا شيء واحد وهو خلاص الأمير حمزة وامتلاك المدينة وعندي أن الله الذي ساعدنا على هلاك غيتشم وتبديد شمله لا يبعد عنا الوصول إلى غاية نريدها ونحن عبيده الأمناء فقال له عمر العيار أني سأسير في هذه الليلة إلى خلاص أخي وأني أثق بنفسي الوصول إليه وانتشاله من المكان الذي فيه ولم يعد من خوف عليكم قط وقد تفرجت الجيوش وهلك اكثرها فقالوا له اسرع في ذلك فإننا لا نقوى على الصبر أكثر مما صبرنا وصار من الأمور اللازمة السعي في خلاصه وإلا فبدونه مالنا ولا عيشة هنية فودعهم بعد أن وعدهم وسار لاجراء مهمته وقضاء مصلحته .

ولنرجع إلى داخل القلعة حيث كنا تركنا صاحب هذه القصة وبطلها العظيم حمزة العرب مع رفيقه معقل البهلوان يقاسيان الوحدة وآلام السجن ولا يعرفان في أي يوم يكون خلاصهما ومن أي باب يتسهل لهما الخروج وهل يحصل لهما ذلك أو يتركان ويهملان فيما بعد وكان أملهما متجهاً لجهة درة الصدف حيث وعدتهما بالخلاص ولكن لم تنجز وعدها في الحال فذات يوم قال الأمير لرفيقه أني أرى مقصورة في أحد زوايا القلعة مرتفعة على علو أربعة أذرع وبابها من الداخل ضيقاً إلا أنه يمكن مرور الرجل فيه وعليه فإني أريد أن يصعد أحدنا إليه وننظر فيها ربما يكون فيها منفذ نمر منه إلى الخارج أجاب اليك ما طلبت غير أني أرى أننا لا نقدر الوصول الى تلك الحجرة الصغيرة قال يمكن بحيث أن أرفعك على أكتافي وأوصلك إليها أجاب لا يمكن بل أني أرفعك أنت فتنظر ماذا عسى أن يكون هناك وإذا وجدت منفذاً تعلقت بك وارتفعت الى فوق ثم أن معقلاً تقدم إلى جهة الزاوية المذكورة وصعد على أكتافه الأمير حمزة حتى وصل إلى باب الحجرة الصغيرة

المذكورة فدخل فيها فوجدها مظلمة قليلاً غير أنه وجد وهجاً في سقفها يضيء أشبه بالنجمة في الليلة المظلمة فتقدم من ذاك النور ومد يده إليه فوجد سيفاً معلقة فتناوله بفرح ولما لم ير وسيلة لوجود مخرج عاد فنزل إلى الأسفل على أكتاف معقل كما صعد وعندما صار في أسفل القلعة نظر إلى السيف فوجد قبضته مرصعة مرصعة بالجواهر الكريمة مما لا يوجد في خزائن ملوك ذاك الزمان كل واحدة بقدر البيضة وغمده من الذهب الوهاج على أحكم صنعة وأتقن نقش ومكتوب بالحروف الناتئة على صفحات ذاك الذهب هنئت يا من أعطيت هذا السيف فهو سيف الضحاك الناجي لا يوجد نظيره لا عند الأنس ولا عند الجان » فلما قرأ ذلك معقل البهلوان والأمير حمزة فرحاً غاية الفرح وأخرجه الأمير من غمده فرآه كجوهرة مع مرور الزمان عليه كأنه أخرج من يد شاغله في ذاك اليوم ورأى عرضه ورقة فرنده فأكد أنه لو وقع على صخرة صماء لقطعها في الحال كما يقطع في اللين ولذلك قال لمعقل البهلوان إن كان الله يسهل لنا الخلاص أكون قد غنمت غنيمة لا يصل أحد إلى مثلها في هذا الزمان ويكون الله قد تخلى عنا في هذا المكان لتصل أيدينا إلى هذا السيف الذي ينفع لدى الشدات والضيقات قال لا بد لنا في هذه الليلة من أن نطلب الإسراع إلى خلاصنا لأنها في الأمس أخبرتنا بنجاح قومنا وصار في المقتضى أن نخرج فإذا لم يكن عن يدها ولم تقدر أن تأتي بمفتاح القلعة فيمكنها أن تخبر عمر العيار والمذكور يسرع الينا وينتشلنا منها ولا سيما إذا ملك قومنا المدينة فما من حاجة لمساعدة درة الصدف فيسرعون إلينا فهي مطلعة على أمرنا فتخبرهم بنا ولذلك علقا أملاً كبيراً بالخلاص قريباً وانتظرا مجيء درة الصدف في ذلك الليل ليفهما منها ماذا صار من قومهما وماذا حصل في ذلك النهار وما برحا على الانتظار إلى أن كان المساء وجاء الوقت المعين لاتيان درة الصدف ومضى الوقت ولمن تأت فشغل بالهما وتكدرا وصبرا أملاً أن يكون حدث لها ما يعيقها عن العادة في تلك الليلة وكان الطعام والماء قد فرغ من عندهما حيث كانت تأتيهما به كفاة وليومهما وكلماتقدم الوقت دقيقة كانت عليهما أصعب من شهر وويلات ومصائب وأطول من سنة انتظار وفروغ صبر حتى مضى نصف الليل ولم تحضر فقطعا الرجاء وقال الأمير لمعقل لا ريب أن درة الصدف قد منعت عن المجيء لأمر فوق طاقتها ولا بد أن يكون اطلع أحد على عملها فأخبر أباها به فقبض عليها ومنعت عن الإتيان بالطعام إلينا حيث تعرف أننا باحتياج إليه وإلى الماء وإلا متنا من الجوع والعطش وكان معقل البهلوان يميل طبعاً إلى درة الصدف ويهواها مع أنه لم يكن قد رآها عن قريب ولا شاهد شيئاً من جمالها الفتان غير أنه كان يراها في أعلى الشباك كظل يمر ثم ينقضي ولكن الذي دعاه إلى ذلك هو مخاطرتها بنفسها من أجله وإتيانها تحت ظلام الاعتكار أملاً باخراجه من بين الأموات إلى عالم الأحياء وتخصيصها نفسها له ولذلك أصبحت بعين الواقع صاحبة الفضل

والمعروف عليهما والجميل وقد اشترت حياتهما بحكمتها ودرايتها وحسن مساعيها فلما سمع بأنها ربما تكون غرقت في النيل أو أصيبت بمصيبة منعتها عن الاتيان ضاق صدره وشعر بانقباض في داخله وهان عليه الموت وفقد الحياة إذا كانت أصيبت بمثل ما تقدم ولم يبد أقل كلمة بل كان مطرقاً حزيناً والامير قاطعاً الرجاء واقعاً باليأس كئيباً يجهل أمر غياب درة الصدف ويحاكي نفسه بنفسه وفيما هما على مثل ذلك وإذا بهما سمعا صوت صرير المفتاح وهو يدخل بالقفل وتاقت نفساهما إلى معرفة القادم عليهما وطارت قلوبهما فرحاً حيث تأملا فتح الباب فإن كان صديقاً فيتخلصان وان كان عدواً فيمكنهما قتله والخروج بالرغم عنه قبل أن يتمكن من قفل ذاك الباب الحديدي الضخم وتقدما من الباب وحالما سمع بارتفاع الأقفال سحبا الباب إلى الداخل وبان من ورائه درة الصدف وهي تحمل إليهما الطعام وأسرعت إلى الداخل وقالت كلا الآن وسد رمقكما ومن ثم أسرعا بنا إلى الرجوع من حيث أتينا فإني أخبركم اليوم ان قومكم قتلوا غيتشم وفرقوا الجيوش شرقاً وغرباً فدخل قومنا إلى المدينة فحاصروا بها . فقال لها الأمير وما كان سبب عاقتك عنا فاعدت عليه قصتها بأسرع آن بينما كان مع الأمير معقل يأكلان من الطعام الذي جادت به .

وكان السبب في تأخيرها ومجيئها في ذاك الوقت هو أنها حتمت على نفسها أن تسعى بخلاص الأمير في تلك الليلة لما رأت انتصار العرب وشاهدت دخول أبيها وعمها المدينة وافتكرت في نفسها إذا ملكت العرب المدينة سعيت إلى خلاص الأمير حمزة وحبيبي فأي فضل يكون لي إذ ذاك بل أكون قد خسرت ما أنا عازمة عليه وأضعت تعبي بالباطل وكانت تعرف جيداً أن مفتاح القلعة في تلك الأيام هو مع عمها ورقا ولذلك هان عليها الحصول عليه لعلمها أن عمها يحبها جداً وكان يريد الحصول عليها وأنها امتنعت عليه لكبر سنه مع أن أباها كان يريد ذلك إذ ما من شريعة تمنعه عن تقديم بنته لأخيه وقد أثبت التاريخ عن كثير من الملوك ممن تزوج بأخته ولا سيما ملوك مصر الفراعنة قبل تلك الأيام . واستناداً على ذلك نهضت عند المساء وذهبت إلى سراية عمها بعد أن تزينت بأفخر زينة وعند وصولها إلى الباب طلبت من الخادم أن يوصل خبرها إلى عمها فسار إليه وبلغه ذلك فكاد يطير عقله مع ما هو عليه من الحزن والكآبة على خسارة الجيوش ومحاصرة المدينة وأمره بأن يسرع بإدخالها عليه وتقدم لملاقاتها وترحب بها عند مشاهدتها وهو يتعجب من مجيئها إليه في مثل تلك الساعة ثم دخل وإياها إلى غرفة منفردة وقال لها إني أعجب من مجيئك إلي في مثل هذه الساعة فألف أهلاً ومرحباً أجابت لا تعجب من ذلك ألست أنت عمي ومن الأمر الطبيعي البديهي أن الذي يكدرك يكدرني والذي يغيظك يغيظني وعرفت من ذاتي أنك لا بد أن تكون في كدر من جراء الأحوال الحاضرة

وعليه فقد دعاني حبي أن أجيء إليك في هذه الساعة عساي أقدر أن أريح عنك الهم وأجلي الكدر. فطار عقله من كلامها فأجابها لقد أحسنت فإني كنت بهم وكدر فوجودك عندي مما يزيل كل شائبة ويزيح كل غم وهم فأهلاً بك ومرحباً ومن بعد قيامك عندي هذه الليلة لا أعود أسأل عن مصر ولا من فيها . قالت أهل تريد أن تشرب قليلاً من الخمر أجاب إليك ما طلبت ثم أمر أن تحضر إليه بواطي المدام والنقل والرياحين فأحضر بين يديه كل شيء . ثم إن درة الصدف قربت منه وزادت في بسطه وسكبت له الخمر وسقته وقبلته في لحيته حتى سكر من غير مدام وعاد لا يرى ما بين يديه وهي تسكب في كل دقيقة كاساً مملوءة إلى أعلاها وتسقيه وهو تائه غائض في بحار من الهيمان وما برحت تسقيه الخمر حتى غاب عن الهدى فزادته وهو لا يسع مخالفتها فوقع إلى الأرض كالمائت من شدة الشمول فاغتنمت هذه الفرصة وفتشت في جيبه فلم تر إلا مفتاح فأخذته وفتحت الصندوق وفتشت فيه فعثرت على المفاتيح فتناولتها وهي مسرورة فرحة وأسرعت عائدة إلى قصرها ودعت بقهرمانتها أن تتأثرها بالطعام على حسب العادة فسارت في أثرها ومشتا حتى النهر وكان اسمندار على مقالي النار لا يعرف السبب الموجب إلى تأخيرها عن الوقت وقد ضاع عقله وشغل باله وخاف من أن تكون أصيبت بمصيبة وهو مسرور من مجيئها في كل ليلة إليه فتصرف وإياه وقت الذهاب والإياب وهو يعد نفسه بقرب وصولها إليه حيث كان ترجح له أن المدينة ستأخذها العرب بأقرب وقت ويتخلص الأمير حمزة فيزفه عليها وما برحت هذه الحالة حالته وكلما سمع حركة من جراء خرير الماء أو هبوب الريح ظن وصولها إليه إلى أن أقبلت فعلاً فتأكدها وأسرع إليها هالعاً وسألها عن سبب غيابها فقالت له ليس الآن وقت شرح الحال فسر أمامي آلى القلعة فلا بد أن يكون الأمير ورفيقه في حاجة إلى الطعام وقد وقعا باليأس من جراء طول غيابي فسار بين يديها وأبقت القهرمانة في مكانه ولا زالت سائرة حتى وصلت إلى القلعة المذكورة فدخلت بين الأشجار المظللة للباب ودنت منه ووضعت له المفتاح في القفل وفتحه كما تقدم ودنت من الأمير وسلمت عليه ودفعت له الطعام وفيما هي تخبره عن سبب غيابها وتعتذر إليه وإذا بباب القلعة قد أغلق بسرعة قوية وتساقطت أقفاله بالمفاتيح التي كانت باقية في الباب ومن جرى هذا العمل صاحت درة الصدف من الخوف ووقعت إلى الأرض حزينة لا تعرف من عمل هذا وقد ظنت إما أن يكون أحد من قومها يراقب عملها فأجرى ذلك وإما أن يكون اسمندار الذي تركته في الخارج قصد غشها فيغتنم الحصول عليها بواسطة أبيها من هذا العمل ومثل ذلك وقع على معقل البهلوان من الهم والغم والخوف على الحياة وأما الأمير حمزة فقد لاح له من خلال ذلك الظلام أن هذا العمل هو عمل عمر العيار ولذلك صاح به افتح يا وجه القرد ولا تلقى الرعب في قلوبنا فقد عرفناك ورآك عقلي قبل أن يراك بصري . فقال

له لا افتح إلا بعد أن تعترف درة الصدف أن الفضل لي بخلاصكم أكثر منها وان الفضل لها بحياتكم فقط وأتيناكم بالطعام فقال له اننا نعرف ذلك ونعترف انك على الدوام صاحب الجميل والمعروف فلا تقصر في نفع قومك قال أريد أن تقول لي ذلك درة الصدف . ولما رأت درة الصدف أن هذا هو عمر العيار هدأ بالها وسكن جأشها وسمعت كلامه فقالت ليس فقط لك الفضل بخلاص الأمير وخلاصنا بل باحيائي لأني كنت لو لم أتأكدك مت لا محالة من الخوف والوهم فافتح ولك كل ما تريد وحينئذ تقدم من الباب ففتحه وقال لهم اخرجوا إلى الخارج فخرجوا جميعاً ونظروا إلى السماء وهي مدبجة بالنجوم مطرزة بطراز أنوارها فشكروا الله شكراً جزيلاً وحمدوه حمداً طويلاً .

وكان السبب في وصول عمر تلك الساعة هو أنه كما تقدم أنه وعد اندهوق بخلاص أخيه ومعقل البهلوان في تلك الليلة حيث كان يعلم بمكانهما فسار إلى أن وصل إلى الأسوار فتسلقها وقلب إلى الداخل دون أن يراه أحد ولم يكن معه مفتاح للباب ولكنه عزم في الأول أن يسير إلى القلعة ويشاهد منافذها وبابها عله يتوصل إلى الداخل فيخلصهما وإلا اذا تعذر عليه ذلك عاد إلى التفتيش وسرقة مفتاحها ولا زال حتى وصل إلى باب القلعة فرأى في خارجها اسمندار واقفاً فشغل باله وانسل إلى وجهة الباب فسمع كلام أخيه ودرة الصدف بتمامه فتأكد أنها جاءت إلى خلاصه ولذلك شكرها لكنه تكدر من قصورها ودخولها إلى الداخل وبقائهم جميعاً يتكلمون والمفتاح في الباب وفي الخارج رجل آخر وكان من الواجب أن يخرجوا في الحال ويقصوا القصص هناك فأراد تجربتهم ففعل ما فعل ولما صاروا في الخارج قال لهم كان من الواجب أن تسرعوا خوفاً من أن يكون احد يترقبكم ويلاحظكم وقد رأيت شبحاً واقفاً في هذه الجهة فلم ادعه يراني وله أعرف من هو فقالت درة الصدف هذا وكيل النيل وكان يساعدني في كل ليلة على المجيء اليكم فيمر بي النهر ولولاه لتصعب الوصول اليكم وقد طلب إلي أن يتزوج بي فوعدته لإتمام غايتي وأما الآن فأريد منكم مكافأته على ذلك بغير شيء حيث ما من وسيلة لاتمام وعدي له إذ أني صرت لغيره فقال الأمير إني سأقيمه ملكاً على هذه المدينة وأجعله حاكماً مثلنا وهذه أعظم مكافأة ثم إنه دعاه فحضر إليه فشكره على جميله ومعروفه واطمأن باله من أجل غايته قال ثم إن حمزة قال لعمر سر أنت من هنا وارجع إلى العرب وأخبرهم بخلاصي وقل لأندهوق أن يأتي مع باقي الفرسان عند انبثاق نور الصباح فيجد باب المدينة مفتوحاً فإني حالما أشعر به أهجم على الحراس فأقتلهم وأفتح الباب فيدخلون ونستلم المدينة بأقرب آن وأما أنا فإني سأذهب واصرف باقي هذه الليلة في بيت درة الصدف فاستحسن كلامه وودعه وسار إلى الأسوار فتسلقها وقلب إلى الخارج وسار إلى أن وصل إلى العرب وكانوا إذا ذاك نياماً فأيقظهم وأمر أن يجتمعوا إلى صيوان الملك النعمان

فجاءوا جميعاً وقالوا أخبر يا عمر فما وراءك من أخبار أميرنا وسيدنا فقال إن الأمير قد تخلص من القلعة وملك حريته تماماً وهو ينتظركم في الصباح عند باب المدينة فيقتل الحراس ويفتحه لكم فتدخلون وتمتلكون المدينة ثم إنه أعاد عليهم كل ما سمع وفعل في غيابه ففرحت العرب جميعاً بذلك ولا سيما اندهوق فإنه نهض من تلك الساعة وقال لا يجب أن نضيع الوقت بالباطل فإن الصباح قريباً وليذهب كل واحد منكم إلى جيشه فيعدده ويأتي به إلى عند الأسوار ونقف ونحن في المقدمة لنكون أول الداخلين فإننا بشوق زائد إلى مرأى الأمير فأجابوا قوله وأطاعوا أمره وقامت العساكر من مراقدها وهي لا تبدي حركة ولا تظهر أصواتاً خوفاً من انتباه سكان المدينة اليهم وتقدموا إلى جهة الباب ووقف عند الباب أندهوق والمعتدي وقاهر الخيل وبشير ومباشر وسلوى وأصفران الدربندي والأمير عقيل وفي الأول عمر العيار وانتظروا فتح الباب .

وكان الأمير حمزة بعد أن سار عمر عنه جاء مع درة الصدف إلى ضفة النيل وهناك تقدم اسمندار بنفسه وأحضر الزورق فقطعوا النهر عليه وصاروا في الجهة الثانية وإذ ذاك قال الأمير لاسمندر أترك هذا المكان واتبعنا فأنت في الغد تكون ملكاً على هذه المدينة وحاكماً عليها ففرح لكلامه وسار معهم حتى جاءوا إلى قصر درة الصدف فدخلوه ومعهم القهرمانة فأسرعت إلى خدمتهم وأحضرت لهم الشراب وكل ما هو لائق بإكرام الأمير وصرفوا باقي تلك الليلة إلى أن تبينوا نجمة الصباح فنهض الأمير ومعقل البهلوان وسار أمامهما اسمندار وأتوا إلى جهة باب المدينة وهم بالأسلحة الكاملة وكل واحد منهم يتمنى أن يجرد سيفه لهلاك أعدائه الذين فعلوا على هلاكهما وعندما وصلوا من الباب هجم حمزة على الحرس وصاح فيهم ويلكم يا أوغاد غير أمجاد قد حل بكم الويل والبلاء وجاءكم الأمير حمزة فلما سمعوا ذلك ركنوا إلى الفرار فلم يمكنهم بل أسرع إليهم مع معقل البهلوان وأعدماهم الحياة وأخذا مفاتيح الباب ففتحاه ورأى الأمير في الأول أندهوق فرمى بنفسه عليه وسلم على باقي الفرسان وأمرهم بالهجوم على المدينة فانطبقوا عليها واندفقوا كالبحور الزواخر بأيديهم السيوف البواتر وغاصوا في جنبات المدينة شرقاً وغرباً وأشبعوا أهلها طعناً وضرباً وعلا صياحهم وصراخهم فاهتزت أركان البلد ومالت أسوارها وبسبب ذلك استيقظ ورقا وكان قد صحى من سكرته فارتعب وارتجف وفتش على درة الصدف فلم يرها فارتاح باله وسأل عن سبب ذاك الصراخ فقيل له إن الأعداء قد دخلوا المدينة وأخذوا في أن يذبحوا من أهلها بلا شفقة ولا رحمة وفي مقدمتهم الامير حمزة العرب وإذ ذاك افتقد مفتاح صندوقه فلم يره في جيبه فأسرع إلى الصندوق فوجده مفتوحاً ومفاتيح القلعة مأخوذة منه فوعى إلى حيلة درة الصدف وكاد ينشق من عملها وفيما هو على مثل ذلك وإذا بأخيه سكاما قد دخل عليه وقال له ثبت عندنا أن سكان المدينة أصبحوا في يد

الأعداء وإذا بقينا نحن هنا ساعة أخرى وصلوا إلينا وانتقموا منا ولذلك أريد منك أن تسرع فتتبعني لنخرج من باب آخر نهرب من المدينة ونقصد بلاد العجم أي بلاد كسرى أنوشروان . فأجابه إلى طلبه وأسرع إلى ما يحتاج إليه من المتاع والدينار فأخذه وسار مع أخيه هاربين إلى باب مؤد إلى خارج البلد فخرجا منه وأمنا على أنفسهم وسارا من هناك يقصدان المدائن ليطلعا كسرى أنوشروان على ما فعلت العرب من الأفعال ومن قتلت ومن أسرت .

وأما أمراء العرب فإنهم ما برحوا يقتلون ويأسرون وعساكرهم متفرقة في كل ناحية حتى وصل حمزة إلى قصر سكاما فدخله وفتش عليه فلم يره فسار إلى قصر ورقا وفتش فيه فعلم أنهما هربا ولذلك عاد إلى المدينة وطاف في الأسواق وهو يسمع صراخ المصريين وعويلهم وما برح أن سمعهم يطلبون الأمان ويبدون الطاعة وعليه فقد أمر أخاه عمر أن ينطلق في الأسواق وينادي بأمره بالكف عن أهل المدينة والرجوع عن القتل والنهب ومن ثم أخذ العرب في أن يرجعوا وهم منصورين ظافرين يصفقون ويغنون وأما الأمير فإنه سار إلى قصر الأحكام فدخله وجلس على عرش سكاما وورقا ومعه معقل البهلوان حيث كان لا يفارقه قط وبعد ذلك أخذت أمراء العربان تتوارد إلى ذلك المكان وجاء الملك النعمان وجلس في مكانه المرتفع الممتاز ولما راق الحال وهدأ البال تقدم كل واحد من الجماعة إلى أميرهم وسلم عليه وهنأه بالخلاص وجاءت كبراء المدينة وسلموا عليه وهم يظهرون الطاعة والرضوخ لاوامره وقالوا له لا ذنب علينا وأن الذنب كله على سكاما وورقا وأما الرعية فهي على الدوام تتبع ملكها وحيث قد غاب عنا ملكانا وخلص زمن تملكهما فصار من الواجب أن تكون أنت المولى علينا والمعهد اليك بتدبير مهام بلادنا فشكرهم وطمنهم على أموالهم ونفوسهم وقال لا تخشوا بأساً فإننا ما جئنا هذه البلاد إلا لقصد قبض الأموال المضروبة عليها عن سبع سنوات كغيرها من العواصم التي مررنا بها وجئنا اليها فامتنع حكامكم فصادفوا شر هذا الامتناع وأما أنا فإني سأقيم عليكم حاكماً منكم قد اخترته وهو الذي أخلص وده لي وسيكون تحت أمري وطاعة العرب وهو اسمندار وكيل النيل فقالوا له إليك ما شئت فافعل فأنت الملك ونحن العبيد وفي الحال دعا إليه باسمندار ولما وقف بين يديه قال له أنت تعرف الآن اننا قد ملكنا البلاد وصارت في أيدينا ووعدناك أن نكافئك على جميلك معنا ومعروفك ولكن هذه المكافأة غير ما تطلب لأن نفسك تميل إلى درة الصدف وهي قد غشتك وما كان بقصدها أن تتزوج بك بل فعلت ما فعلت إكراماً لي وميلاً إلى معقل البهلوان ولذلك أريد أن لا تطمع نفسك بها وتتركها لصاحبها وأنا أعهد إليك بحكومة مصر والتملك عليها فتختار لنفسك فتاة منها وهذا أفضل لك من كل شيء . فلما سمع اسمندار ذلك وتأكد أنه الحاكم على مصر

غاب صوابه واندهش وقال للأمير من الآن لا أخالف أمرك إذا وليتني من الجميل ما لا يقدر فقد رفعتني من حضيض الانحطاط إلى أوج المجد والسعادة وقدمتني في عالم الحياة التملك على بلاد كمصر بعد أن كنت نوتياً من عالم الخدمة والعبيد . فمدحه حمزة على قوله ومن ذلك الوقت قرب منه رجال مصر ورفعه ملكاً عليهم وأمر أن ينادي في كل المدينة بأن الملك عليهم اسمندار وكتب إلى سائر النواحي والأقضية أن تأتوا لخدمته ويعرفوه منذ ذلك الحين الحاكم عليهم فتقاطرت القضاة والعمال وراق الحال في بلاد مصر كان لم يكن وقع بها شيء ثم أمر حمزة اسمندار ان يسعى في جمع الأموال والاخرجة المطلوبة منها عن سبع سنوات فأجاب طلبه وكتب إلى كامل الجهات يجيب طلب الأمير .

قال وأقام العرب في بلاد مصر إلى أن كان ذات يوم وهم جالسون في صيوان الملك النعمان خارج المدينة وإذا برسول دخل على الأمير حمزة وقبل الأرض بين يديه وقال له اعلم يا سيدي إني من مدينة حلب من خدام نصير صاحبها وقد جئت منه إليك لأخبرك بأن كسرى منذ وصول خبر أعمالكم في عواصمه وإخراج بعض البلاد عليه سعى بجمع الجيوش ليبادركم بالقتال حين رجوعكم حتى امتلأت المدائن وكل سهولها ووعورها فلا يعرف عدد العساكر ولذلك أراد أن يوصل هذا الخبر إليك لتكون على بصيرة ولا تؤخذ بغتة وتعرف أن كسرى عدوك وأنه لم يعد في نيته ولا ذرة من السلام والأمان . فلما سمع حمزة هذا الكلام اسودت الدنيا في عينيه وقال هذا الذي أريده وأطلبه وسوف يعلم من منا يكون الرابح ومن الخاسر وإني واثق بالله أن يساعدني عليه وعلى وزيره بختك ولو جمع ألوفاً وألوف وألوف ومئات ألوف من الأبطال . ثم التفت إلى الملك النعمان وقال له أسألك يا سيدي أن تأمر العرب بالرحيل على أعقابها من حيث أتت فقد كفى ما جمعنا من الأموال لنرى ما يكون من أمر الأعجام ولا بد لي من أن أنل هذا العرش وأهدم ذاك الإيوان وأجعل بلاد الفرس قاعا صفصفاً . فأجابه إلى طلبه وأوصى بين طوائف العرب أن مرادهم الرجوع إلى المدائن فليستعد كل واحد للرحيل بعد أيام قليلة ثم أن اسمندار قدم إلى الأمير حمزة ما طلبه منه وكان ما يسد به السهول والوعور فقبض الكل وضمه إلى ما معه من الأموال وأعلن غايته الركوب في صباح اليوم التالي فتهيأت الأبطال والرجال ورفعت الأحمال على ظهور البغال وما مضى إلا القليل من الوقت حتى أقفرت تلك الأرض من العرب ومن خالطهم وساروا عائدين على طريق قويم يقصدون المدائن وهكذا قد انتهت سياحة الأمير حمزة وجباية الأخرجة وقد جمع إليه من الذهب والفضة والنوق والجمال والأحمال الثقال ما لا يضبطه قلم كاتب ولا يحصيه فكر حاسب .

وما برح في طريقه مدة شهور وأيام حتى وصل إلى مدينة حلب وعرف بقدومه الملك

نصير الحلبي فخرج إلى ملتقاه وعندما اجتمع به سلم عليه وترحب به مزيد الترحاب ونزل العرب في ضواحي المدينة وضربت خيامهم وسرحت أنعامهم وفي نيتهم أن يقيموا عدة أيام في تلك الجهة لبينما يرتاحون ويكتشفون أخبار كسرى أنو شروان ولما استقر بهم المقام سألوا الملك نصير عما بلغه من أحوال كسرى واستعادوا منه الخبر فقال لهم جل ما أعرفه أن كسرى بعث بالكتب إلى كل النواحي ويطلب إرسال العساكر والمدد فبعض العمال أجاب وبعضهم امتنع وكل الذين مررت بهم خالفوا ومن جملتهم أنا فإني رددت رسول بالخيبة وأخبرته أني صرت من أتباع الأمير حمزة فتهددني ولذلك بعثت إليك أطلعك على هذا الخبر خفية منه . قال لابد لي من أن أريه أعمال العرب وقوة بطشهم وقد ظن في نفسه أني أموت وأهلك فأرسلني في عدة مهالك فكانت خيراً ونجاحاً لي .

ثم أن الأمير حمزة دعا عمر وقال له أريد منك أن تذهب إلى المدائن وتجس لي أحوال العجم وتسبر أعماق أعمالهم وتأتيني عنهم بالخبر اليقين وتعرف مقدار العساكر التي تجمعت هناك وما في نية كسرى أن يفعل أهل يصر على الحرب أو يمتنع وأنظر من تجمع عنده من الفرسان الذين عليهم الاعتماد فأجاب عمر طلبه وتزيا بزي حجاب العجم وأخذ ما يحتاج إليه وانطلق من حلب بخفة الرياح عدة أيام وليال حتى جاء إلى مدينة كسرى فوجد الجيوش قد غطت السهول والوعور وملأت الأرض بالطول والعرض فدخل فيما بينهم وانتشارهم وجاء أبواب المدينة فدخلها وقرب من ديوان كسرى ووقف بين يدي الملك دون أن يعرفه أحد منهم واختبر كل من هناك ولا زال صابراً حتى انفك الديوان ومضى كل واحد إلى حاله فتأثر الوزير بزرجمهر حتى دخل قصره فدخل خلفه وقبل يديه وسلم عليه وعرفه بنفسه وقال له إني جئت إليك من قبل أخي الأمير حمزة لأستفسر منك عن أفكار كسرى وماذا جرى من بعد سفره . قال وأين أخوك . أجاب في مدينة حلب وقد عاد منصوراً غانماً كاسباً ومعه أموال غزيرة جداً ولا يزال بانتظار عودتي لأطلعه على حقيقة أحوال كسرى وعساكره فقال له اعلم أن بعض أخبار أخيك وصلت إلى الملك كسرى وأغاظت بختك الوزير العدو الأكبر للعرب فأدخل في عقله أن العرب بعد عودتهم لا بد أن ينزعوه ويطردوه من البلاد والدليل أنهم أخرجوا عليه عماله وكل بلاد دخلوها في طاعتهم واتفقا على جمع الجيوش وتجميع الجموع حتى صار ١٧ كرة من العساكر حول المدينة وهذا العدد غزير جداً قال إني أريد أن أسألك عن رجل رأيته جالساً في المكان الذي كان يجلس به الأمير حمزة ووجدت أنه له من الاعتبار والإكرام ما كان لأخي عند صفاء باطن كسرى ومحبته أجاب اعلم أن هذا يقال له زوبين الغدار صاحب بلاد زوال وكموال وهو من فرسان هذا الزمان الصناديد فكتب إليه كسرى وأقامه بهلوان تحت بلاده ووعده بزواج بنته مهرد كار بشرط أن يقتل الأمير حمزة ويخلص الفرس من شره وهو على الدوام يناديه بصهره وعرف الأعجام بأجمعهم أنه سيتزوج

بمهردكار قال لا بد من أن يرى طالعها مشؤوماً فيلحقه أخي حمزة بالذين عاندوه وذاقوا حتفهم قال إني أنصحكم أن لا تباشروا حرباً في هذه الأيام بل أخبر حمزة أن يبقى في حلب إلى أن تمضي أيام النحوس حيث قد تبين لي أنها ستكون عليه وبالاً فقبل عمر يديه وخرج من عنده يقصد حلب الشهباء حتى وصل إليها ووقف أمام أخيه وهو في الصيوان وأعاد عليه كل ما سمعه من بزرجمهر الوزير وما شاهده من كثرة الجموع التي رآها فاضطرب عند سماعه هذا الكلام وكاد يطير صوابه من الغيظ وقال سوف يعلم زوبين الغدار هذا شر عمله إلى أين يوصله ويتأكد أن كل من تعرض لمهردكار كان دواءه السيف الصقيل البتار . ولم يعتن بكلام الوزير بزرجمهر ونصحه لهم أن لا يباشروا حروباً في تلك الأيام بل أمر في الحال أن تستعد العساكر للمسير إلى المدائن وهو يتمنى أن يكون له جناح للطيران ليصل بأقرب آن إلى تلك الجهة ويبطش بجيوش أعدائه اللئام . ومن ثم أخذ العربان بالاستعداد والتهيؤ يقصدون الرحيل عن تلك الأرض والمسير إلى ساحة القتال وفي صباح اليوم التالي انتقلوا من هناك وساروا في طريق المدائن حتى اقتربوا من البلاد المذكورة وبانت لهم جيوش الأعجام منتشرة إنتشار الغيوم في ضواحي المدينة وإذ ذاك أمر الأمير حمزة أن تضرب الخيام على مقربة من الأعداء وتسرح الأنعام والأغنام خلف منها فنزلت العرب في تلك الأرض ونصبوا خيامهم وترتبوا على حسب ما أمرهم الأمير وبعد ذلك كتب حمزة كتاباً إلى كسرى أنوشروان وأعطاه إلى أخيه لكي يوصله وطلب منه أن يأتيه بالجواب حالاً فسار إلى أن دخل الديوان وشاهد من فيه ولم يبد كلاماً ولا خطابا بل دفع الكتاب إلى كسرى وسأله الجواب فناوله إلى الوزير بزرجمهر وسأله أن يتلوه علنا فشقه وإذا به .

(من الأمير حمزة البهلوان فارس فرسان هذا الزمان ومذل الجبابرة والشجعان إلى الملك كسرى أنو شروان صاحب التخت والإيوان) .

اعلم أيها الملك الكبير إني كنت في الأصل قد أخلصت لك الود وخدمتك خدمة صادقة أمينة رجاء أن تسمح لي ببنتك مهردكار وأنت تقابل حسناتي بالقبح وتنقاد إلى وزيرك بختك الخبيث الذي يعمل على خراب مملكتك حتى أنك أخيراً بعثتني إلى جمع الأخرجة وزعمت أن لك في ذمة العمال سبع سنوات وكان من أمرك أنك بعثت إلى تلك البلاد برسلك ورسائلك تطلب إليهم الانتقام من العرب وانقراضهم وقتل أمرائهم غير أن الأمر جاء بخلاف مقصدك لأن الله الذي نعبده هو يحرسنا ويسهل لنا طريق النجاح أين ذهبنا وفي أي طريق سرنا فجمعنا المطلوب عن سبع سنين سلفاً بعد أن قهرنا كل فارس وبطل وأطاعت لنا البلاد وخدمتنا العباد ونحن من حمده تعالى على غاية السعادة والتوفيق وقد جئنا إلى هذه النواحي ومعنا من الفرسان كل جبار عنيد مثل مباشر وبشير والمعتدي حامي السواحل وقاهر الخيل وغيرهم من الذين فضلوا السعي بين يدي من البقاء في بلادهم ولا

خفاك أن الذهب الذي جمعته يبلغ مقداره حمل أربعمائة جمل وأضعاف أضعاف ذلك من الفضة وأما عدد الأغنام والنوق والفصلان فلا يقدر أن يضبط عددها إلا الله . وأنا أسمح عن كل ما أوصلته إلي وأسلم إليك بكل هذه الأموال إذا أجبت سؤالي وأرسلت لي مهردكار لآخذها وأسير بها إلى مكة المطهرة ويكون الأمر بيننا باق على حاله وإلا إذا امتنعت فإني لا أسلم الأموال بل أعمل على الحرب والقتال وأنت تعرف أعمالي وأعمال أبطالي فلا تغتر بأقوال بختك وأعماله وتظن من نفسك أن هذه العساكر التي تجمعت تقدر أن تحمي المدائن من غضبي وتصونها من بطشي وقوة فرساني وهاك آخر ما أريده والسلام) .

وما انتهى الوزير بزرجمهر من قراءة هذا الكتاب حتى نهض بختك وهو يضطرب ويرجف وقال أني من مثل هذه الوقاحة كنت أخاف لأن العرب قوم أجلاف لا يكرمون وإذا أكرموا شمخوا وهاك أيها الملك العظيم البرهان الأكبر على صدق قولي فقد جمع الأموال وطمع بها وأراد أن يتهددك أنه لا يسلمها إلا إذا سلمناه مهرد كار كان مهردكار آلة تنتقل وثوب ليأخذها ويسير ولا زال بختك على مثل هذا الكلام حتى أوغر صدر كسرى حنقاً وقال لعمر إذهب إلى أخيك وقل له أن لا بنات عندنا له فإذا شاء سلمنا الأموال ورحل عنا إلا بلاده عفوت عنه وتركت تأديبه وإلا فإن أبي ربطته بالحبال وجازيته أقبح مجازاة وجعلته عبرة لغيره من أمثاله . فسار عمر إلى أن دخل على الأمير حمزة وهو في صيوان الملك النعمان وعنده سائر الأبطال والفرسان فبلغه كلام كسرى وأنه مصر على العناد ومنقاد إلى أقوال بختك ابن الأوغاد . فقال سوف يعرف إلى أين يوصله عناده ولا بد من خراب هذه الدولة وانقراضها . ثم أمر قومه أن يستعد كل واحد منهم إلى مباكرة الحرب ومفاجأة الأعداء بأقرب آن وبلغ مهردكار وصول الأمير حمزة بقومه سالما ففرحت الفرح الذي لا يوصف وسقط هم كبير عن قلبها غير أنها كانت حزينة من عمل أبيها وعناده واصراره على حرب حبيبها وكانت تتمنى من كل قلبها أن يتسهل لها طريق الخلاص من المدينة ومن الوصول إلى يد الأمير بأي طريقة كانت لتأمن على نفسها وتؤكد أنها صارت خصيصة به فإن عاش عاشت وإن مات ماتت معه وقاسمته الشقاء والهناء ولا سيما وقد عرفت أن أباها قد وعد زوبين الغدار صاحب بلاد زوال وكموال بها وأنه وعده بقتل حمزة حبيبها . وقد رأت زوبين الغدار من شباك قصرها فوجدته شنيع الخلقة كبير الرأس قصير القامة ضخم الساقين كبير الأنف أحول العينين فضحكت من خلقته وشناعة منظره وقالت في نفسها الموت خير من ترك الأمير حمزة . وأقامت مرة في حزن ومرة في أوهام واخرى في آمال ورجاء تنتظر ما يكون في النهاية من أبيها وحبيبها إلى أن كان ثاني يوم من مجيء العرب نهض الأمير حمزة من رقاده وأمر أن يقدم اليه جواده الأصفران فركبه واعتلى على ظهره كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل وركب من حواليه جماعته وركب اندهوق بن سعدون وقاهر الخيل وبشير ومباشر

وأصفران الدربندي والأمير عقيل وكل فارس وبطل وضربت طبول الحرب من ناحية العرب حتى ارتجت منها السهول والوديان وركب الملك النعمان ونشرت فوق رأسه راية النسر والعقاب وقد تألف من العرب جيش عظيم عرمرم يبلغ مقداره ثلثمائة ألف مقاتل كلها أسود كواسر ينتظرون إشارة الأمير للهجوم وخوض تلك المعامع ولما سمع العجم أصوات طبول العرب ضربت طبولهم بأمر الملك كسرى فهاجوا وماجوا واضطربوا وتراكضوا إلى الخيول وركب زوبين في المقدمة وفي كل نيته أنه ينال المقصود ذلك اليوم لأنه شاهد قلة العرب وكثرة عساكره ومثل ذلك كان ظن كسرى أنو شروان لأن بختك كان يقول له إن كثرة عدد عساكرنا تخولنا النصر والظفر على الأعداء لأن الكثرة تغلب الشجاعة لا سيما وعندنا صهرك زوبين الذي وحده يقدر على تفريق هذه الجيوش وهلاك فرسانها وأبطالها وموت حمزة العرب وسوف ترى ذلك بأقرب آن .

قال ولما اصطف الصفان وترتب الفريقان . وآن أوان الحرب والطعان ، صاح الأمير حمزة صياح الأبطال . وهجم هجوم أسود الدحال وفعل كفعله أندهوق وهو فوق فيله كالأسد الرئبال وكذلك المعتدي حامي السواحل وباقي الرجال فما منهم إلا من طال واستطال . وغاص في عباب ذاك القتال وهو يود هلاك الأخصام وإحراقهم بنيران الانتقام . وحملت العرب على العجم والعجم على العرب وهاج بحر المنايا واضطرب وتحدد مخلابه وانتشب ورفعت على عواتقه أحمال التعب والنصب وكان يوما كثير المصائب . عظيم المصاعب . شديد الأهوال قوي الأخطار على الأبطال . وفرسان ذاك المجال فيه تغطت الأرض بالدماء وتدفقت ميازيب المصائب كأبابيب السماء ودارت على الأبطال كؤوس الفناء وذاقوا مرارة العناة وما انقضى ذاك النهار إلا وقد أشفى الأمير حمزة غليله وترك القتلى تلالا وآكاما وأوقع بجيش الأعجام وأذاقهم كاسات الحمام وعاد عند المساء يزأر كالأسد الكاسر ورجعت الجيوش المتقاتلة كل جيش إلى مقامه وهو لا يصدق الخلاص من هول ذاك النهار وبات الفريقان يتحارسان طول ذاك الليل إلى أن جاء اليوم الثاني فأسرعت فرسان العرب إلى القتال وتقدم الأعجام إلى ملاقاتهم وهم يبربرون بلغاتهم ويطلبون الانتقام من العرب وأميرهم على ما فعلوه معهم في اليوم الماضي وما وقعت العين على العين وانتظم ترتيب الفريقين حتى رن صوت الأمير حمزة بكل أذن وهو يتهدد العجم ويتوعدهم وانحذف عليهم كقضاء الله المنزل فاندفعت من خلفه بحور العربان فتلقاه رجال كسرى أنو شروان والتطم البحران فاضطربا وهاجا واختبطا وماجا وراج سوق ذاك اليوم أكثر من اليوم الأول واشتعلت ناره تلتهم طوال الأجل . فتقصف الأعمال وتذهب بها إلى عالم البوار وقد اسودت الشمس أي اسوداد وأكمد الأفق اكمداد وانتشر الغبار كالعلم فوق رؤوس تلك الأمم حتى زهقت نفوسها وكرهت في الحياة وتمنت سرعة الخلاص من هذه الدنيا إذ كان ثم

لا نجاة . وكل أمير من أمراء العرب أخذ على نفسه ناحية ففرق رجالها وأهلك أبطالها وألقى في قلوبهم الخوف والرعب وكان كسرى يشاهد وهو تحت العلم عن بعد أفعال فرسان العرب وهي تقاتل وتقتحم المنايا كالبزاة إذا طاردت أضعف العصافير فقال لوزيره بختك وهو إلى جانبه . أي وزيري إني لست راضياً من هذه الحالة فأنت الذي كنت السبب في إلقاء العداوة بيني وبين العرب مع أنهم كانوا طائعين لنا وتحت أمرنا فحرمت روح أبوك من الاحراق بالنار ورميت الثلج والزمهرير إذا تشتت فرساني وهلك رجالي فقال له مهلاً يا سيدي فإن الحرب لا تزال تحت الرجحان ومن المؤكد أن الفوز لنا فأنظر إلى صهرك زوبين كيف يقتحم الأهوال كأنه الأسد الرئبال والفرسان تقر بين يديه كما تفر من كبار البواشق صغار الحجال قال إن ما يفعله زوبين وهو واحد من جيوشنا يفعل أضعافه جيوش العرب وفرسانهم ويظهر لي أن كلهم زوبينات وحمزات . قال اصبر إلى الأخير فترى النصر لمن يكون وما برحت الحرب قائمة على ساق وقدم ونفوس الرجال تتقدم ضحية إلى سلطان العدم . حتى ولى النهار وانهزم . وتقدم الليل بسواده وهجم . وحينئذ ضربت طبول الانفصال ورجعت الفرسان والأبطال وعاد الأمير حمزة وهو كشقائق الأرجوان مغموس بأدمية الفرسان ومثله المعتدي حامي السواحي وأندهوق بن سعدون وباقي رجال العربان وقد فازوا بعض الفوز في ذاك اليوم : وأما الأعجام فقد عادوا مقهورين متأخرين ولما وصل زوبين الغدار أمام كسرى أنوشروان وهو بلون أحمرمن الدماء قال بختك لكسرى أنظر صهرك يا سيدي فقد تغيرت ألوانه وصبغ بدماء الأعداء ولا بد له من أن يبيد هذه الطائفة العربية ويؤدبها أي تأديب : فقال زوبين سوف يُظهر لك المستقبل ما يكون من أمري وأمر العرب حتى إني بأيام قليلة أفنيهم عن آخرهم وإني أعدك على مسمع من الحضور في هذه الأيام أن لا بد لي من قتل الأمير حمزة وهلاكه ومتى قتل ضعفت شوكة الباقين وسلمونا أنفسهم نفعل بهم ما نريد ونختار :

قال وفي اليوم الثالث عاد المتقاتلان إلى الحرب والطعان كاليومين الماضيين إلى حين الزوال في المساء عادوا إلى الخيام وهكذا اتصل القتال بين العربان والأعجام إلى مدة خمسة عشر يوماً حتى تبين النقص في رجال كسرى وظهر ضعفهم للعيان وأصبحوا بخوف وقلة أمان . وثبت عند كسرى أن الحرب إذا بقيت على هذا المنوال عدة أيام أخرجلت به العبر ولذلك دعا ببختك وقال له لا برحت روح أبيك في مغائر الثلج وغضبت عليها النار لأنك غششتني وحملتني على عداوة العرب ولم أعد قادراً على مصالحتهم فانظر في أمر يخلصنا منهم ويحفظ لنا شرفنا وناموسنا ويخولنا النصر عليهم ويعيدهم إلى طاعتنا دون أن يحرقوا حرمتنا . فقال له أما الصلح بيننا وبين العرب فهو مستحيل وقد أصروا على قلب كرسيك والانتقام منك وافتضاح عرضك وسبي بنتك وأما الفوز على العرب فله عندي تدبير عظيم وسوف

ترى في الغد الأمير حمزة مائتاً مقتولاً من سيف زوبين وإذا لم يتم ذلك بردت الثلوج أرواح آبائي وأجدادي وحرمت من القيام في النار ذات الشرار . فشكره كسرى وقال له سوف نرى في الغد ما تزعم الآن ثم إن بختك ذهب من عند كسرى إلى زوبين ودعاه إليه وقال له اتبعني فأخذه ونزل المدينة وذهب إلى قصره فدخله وجاء إلى غرفة قديمة العهد ففتحها وتقدم من صندوق حديدي فيها ففتحه وأخرج منه سيفاً لامعاً ساطعاً فأخرجه من قرابه وأراه لزوبين وقال له اعلم أن هذا نادر المثال لا نظير له في الدنيا فهو مسقى بسم الأفاعي ومطفى ببول الحمير إذ لحق جسم الإنسان لا يمكن شفاؤه قط وإذا ضرب الحديد به براه كما يبري الكاتب القلم وأريد أن أدفعه إليك فإذا كنت تقدر أن تصل إلى الأمير حمزة وتمكنت من ضربه ولو بأي جهة من جسمه سرى السم إلى كل بدنه وبمدة ساعات قليلة مات وفارق الحياة قال إني فكرت بأمر وأرى فيه النجاح قال وما هو قال إني نويت أن ألبس ملابس العرب وأسير عن قومي من هذه الساعة وأنت لا تخبر أحداً بي وعند الصباح لا بد من انتشاب القتال فاختلط بين العرب وأقاتل معهم وأراقب الأمير حمزة حتى أتمكن منه بضربة فأعدمه هذه الدنيا فقال له خيراً تفعل وهذا رأي لم يسبقك إليه أحد قبلك من رجال الحرب ثم أنه دفع اليه السيف فأخذه وهو فرحان به مزيد الفرح ولبس ملابس العرب وتزيا بزيهم حتى أن الذي يراه كان لا يقدر يفرق بينه وبين رجال العرب وفرسانهم .

وكان الأمير حمزة وباقي العرب قد فرحوا تلك الليلة الفرح الذي لا يوصف بما نالوه من الظفر والفوز العظيم وفي نيتهم أن في اليوم الآتي أو الذي بعده ينهون أمر الأعجام ويفرقون ما بقي من تلك الجموع وناموا على مثل هذه المسرة ولا سيما الأمير فانه كان يراقب أن يرى مهردكار ويشاهد حالها وما هي عليه بعد ذلك البعد الطويل والفراق العظيم وقد خطر له أن بعد كسرة أبيها وتفريق جيوشه يقدر بأقرب آن أن يقرب منها ويتوصل إليها إما أن أباها يعود إلى مسالمته فيزفه عليها وإما بالامتلاك على المدينة والنصر على عساكرها فيخلو له ولها الجو فيزف نفسه عليها بالرغم عن أبيها وعن كل الموانع التي تحول دونه ودونها وبعد أن غرق ببحر الكرى ونام جانباً من الليل رأى نفسه كأنه على مركب يسير في البحر والأمواج تقيمه وتقعده باضطراب وهيجان عظيم . فخاف جدا من الغرق وصار يطلب الدنو من الشاطىء فلم يقدر إلى أن تكسر المركب وقدفته الأمواج إلى البر فرأى هناك مهردكار وقد أخذته إليها وسكنت روعه وهدأت اضطرابه فأراد أن يشركها على معروفها ويدنو منها فاستيقظ وإذ ذاك وحد الله سبحانه وتعالى وارتاع من هول ذاك الحلم ولم يعد يأخذه نوم ما بقي من تلك الليلة وعند الصباح لم يكن في فكره أن يركب إلى مباشرة حرب وكفاح غير أنه لما سمع طبول الأعجام تضرب وقد نهض كل ذي سيف يطلب القتال اضطر إلى الركوب ووجد أن من الصواب قيامه في جيشه ليتقوى به ولا يختل انتظامه فركب جواده

الأصفران وتقدم من مقدمة الفرسان وهو مضطرب الفكر كما تقدم وكلما أراد أن يبعد عنه الأوهام فاجأته بأكثر من الأول ولم يكن إلا القليل حتى اختلطت تلك الأمم وامتزجت وعلا صياحها وضجيجها وارتفع صراخها وعجيجها واشتبكت الأخصام بالأخصام وحمي الوطيس وكثر الزحام وكسد الأمان والسلام . وبذل كل جهده . وأجرى ما عنده حتى اسودت الآفاق . وغابت الشمس بعد الاشراق وضاقت من الفرسان الأخلاق وظنت فرسان العرب أن ذاك اليوم هو الأخير به الظفر والانتصار ويحل بالاعجام الويل والبوار . ولذلك صرفت جهدها بالقتال وتقلبت على بسط البسالة تقلب أسود الدحال .

وكان من عادات الأمير حمزة وهو في وسط المعمعة ينتقل من مكان إلى مكان يطعن في صدور الأعداء والفرسان ويراقب حال أبطاله ورجاله ليدفع عنهم الويلات إذا كان أحدهم وقع في أمر أو شدة أو وقع في ربقة الأعداء وليس له خلاص فيفرقهم عنه وينتشله من بينهم ففي ذاك اليوم لم ير أندهوق بن سعدون ولا سمع له صوتاً فجال في كل المعسكر يخترق الصفوف حتى ضاق صدره وغاب وعيه وهو لم يقف له على خبر إلى ما بعد الظهر وإذ ذاك وقف مضطرباً وحسب للحلم الذي رآه ألف حساب وصاح بأخيه ويلك يا وجه القرد انطلق وانظر لي في أي مكان أندهوق بن سعدون فقد شغل بالي عليه ولم أر له أثراً ولا تعد إلا بالخبر اليقين وأخاف أن يكون قتل وحل به الوبال فرأى عمر اضطراب الأمير فقال له لا تبرح من هنا حتى أعود اليك بالخبر اليقين ثم أطلق ساقيه واندفع بين تلك الجموع ويمر من تحت الخيول كأنه السهم في السرعة .

وبقي الأمير حمزة واقفاً مبهوتاً مشغل البال يتأمل في حال القتال وقد رأى العرب وهم بنجاح وانتصار وفكره يضطرب عند اندهوق خائفاً من أن يكون قد أصيب بمصيبة أو لحق به سوء وفيما هو واقع على مثل ذلك ينظر إلى الرجال وهي تروح وتأتي وإذا بزوبين الغدار قد قرب منه وهو بملابس العرب لأنه كما تقدم كان وعد بقتله في ذاك النهار واختلط بين العرب كواحد منهم وقد صادف الأمير مراراً فلم يقدر أن يتمكن منه لكثرة جولانه ولانتباه عمر العيار عليه لأنه كان كالبرق يطوف من حوله لا يدع لا عجمياً ولا عربياً يقرب منه فلما غاب عمر وقف الأمير مبهوتاً اغتنم هذه الفرصة وصاح وبيده الحسام الذي أخذه من الوزير بختك وضربه ضربة الخائف قائلاً له خذها من يد زوبين الغدار وبعد أن ضرب تلك الضربة طلب الهرب والفرار فجاء السيف على جبهة الأمير وللحال شعر كأن أتون اشتعل من رأسه إلى قدمه ولم يقدر على احتمال الوجع فصاح من شدة الألم وعانق الجواد فعاد به ركضاً إلى جهة الخيام فأسرعت إليه الرجال من كل ناح وانتشر الخبر في كل المعسكر وعرف به الأمير عمر فأسرع يركض إلى صيوانه وهو متكدر من ذلك ووضع أخاه على سريره وربط له جرحه وهو على ازدياد لم يصيح وينادي موجعاً وقد اشتمل كل جسمه وأيقن أنه مائت لا

محالة ودامت العرب بقتال شديد مع الأعجام إلى الزوال وقد فعل قاهر الخيل والمعتدي حامي السواحل ما يحكى ويذكر طلباً بثأر الأمير وعند المساء عادا إلى صيوان الأمير مع بقية الفرسان فوجدوه على تلك الحال وأخذ أسطون الحكيم ملك القسطنطينية الذي جاء معهم يضع له المراهم ويسكن له الجرح والأمير يزيد ويرغي ويصيح .

وفي نفس ذاك المساء بينما كان القوم باضطراب وكدر على ما أصاب الأمير حمزة وإذا أندهوق قد أقبل وهو راكب على فيله العظيم الهيكل وقد أركب من خلفه مهردكار وأحضرها إلى ذاك المكان فشاهد تلك الحالة فلطم على وجهه وسأل عن الخبر فحكاه له عمر وشرح ما أصاب الأمير من الارتباك عند غيابه حيث غدر به زوبين وهرب فاغتاظ الغيظ العظيم ودخل على الأمير فوجده ضائعاً غائباً عن هداه لا يعي إلى أحد وهو يتوجع ويئن فجلس إلى جانبه وأجلس مهركار بالقرب منه وكان سبب مجيئها هو أنه كان تلك الليلة يفكر بأمر يرضي به الأمير ويقرب نهاية هذه الحرب فوجد أن من الصواب أن يأتي بمهردكار إلى معسكرهم فمتى كانت فيه يمكنهم أن يتركوا تلك النواحي بعد تشتيت كسرى ويرجعوا إلى مكة المطهرة وإلا ربما ذهب بها أبوها إلى بلاد أخرى وجمع الجموع فتطول الحرب ويطول عذابهم وهم يسيرون من مكان إلى مكان ولما ثبت عنده ذلك انسحب في الصباح من ساحة القتال وجاء وراء معسكر الأعجام وهم مشغلون بالحرب والصدام كما تقدم الكلام وهجم على أبواب المدينة وقتل كل من هناك وأركض فيله إلى أن أوقفه أمام قصر مهردكار وقد رآها وهي واقفة في الشباك وعيونها تضرب إلى بحر ساحة القتال . وكانت كل تلك المدة المنتشبة بها الحرب بين أبيها وحبيبها لا تنام ولا يهدأ لها قرار وهي خائفة جداً من تفريق العرب وتشتيتهم وأن لا تصل إلى حبيبها ولذلك كانت تتمنى على الدوام أن تترك ذاك المكان وتقيم عند حمزة حتى إذا رحلوا عن تلك الديار ترحل معهم وإذا كانت برفقتهم لا يعودون ثانية بل تنقضي الحرب ولما رأت اندهوق وقد أطل تحت شباكها وصـــاح أي مهردكار قد نلنا النصر والفخار فاحفظي بلاد أبيك من الخراب وانزلي إلي بين العرب لنذهب عن هذه الديار فما صدقت أن سمعت هذا الكلام حتى أسرعت إلى جواهرها فحملتها وحملت ما هو لازم لها من ثيابها ورمت بنفسها على أندهوق فأركبها خلفه وسار بها إلى معسكر العرب ولما رأت ما حل على الأمير وما هو به بكت وحزنت وخافت مزيد الخوف إلا أنه لم يضع عنها عقلها بل استعملت حكمتها وقالت لعمر لا ريب أن هذا الجرح هو من سيف مسقى بالسم وإني أعرف لا أحد يعرف دواء لهذا الجرح إلا بزرجمهر الوزير فقال لها لقد أصبت وأني سأحصل على هذا الدواء ولم يعد يصبر بل أسرع إلى جهة عساكر الأعجام بعد أن غير نفسه وتزيا بزي خدمهم .

قال وكان عند المساء رجع الأعجام عن الحرب والصدام بعد أن هلك منهم قسم كبير في ذاك النهار فأغاظ ذلك كسرى وقال لوزيره بختك قد هلك أكثر من نصف العساكر

وأخاف أن تدور علينا الدوائر ولا ننال من الأعداء الغاية فقال اصبر ففي هذه الساعة تبلغك أخبار حمزة لأنه جرح وعندي أنه لا يقيم أكثر من ساعات قليلة في هذه الدنيا وفيما هما على مثل ذلك وإذا بزوبين قد دخل على كسرى والسيف الذي أخذه من بختك مشهر بيده ينقط دما وقال له أبشر يا سيدي فقد قتلت لك الأمير حمزة حيث قد ضربته ضربة وقعت بين عينيه وركض إلى جهة الخيام ومثله تكون بقية اعدائك وحينئذ نهض بختك وقبل زوبين بين عينيه وقال له مثلك تكون الفرسان وإلا فلا فأنت وحدك الذي استحققت مهردكار ويليق أن تكون لها زوجاً لأنك نادر المثال بين الرجال . وكان بزرجمهر يسمع كل هذا الكلام وقلبه ينقطع ويتوجع على ما حل على الأمير حمزة وما وصل إليه من غدر الغادرين وما صدق أن جاء المساء حتى ذهب إلى بيته حزيناً كئيباً وبعد أن دخل واستقر به الجلوس حضر بين يديه عمر العيار وشكا إليه حال الأمير حمزة وأن الجميع باضطراب وخوف على حياته لأنه بحالة النزاع فقال إني من مثل هذا الأمر كنت أخاف عليه فقد أخبرتك أن تخبر العرب أن يبقوا في حلب إلى أن تمضي هذه الأيام لأنها أيام نحوس يلاقون بها ويلاً وعدم نجاح قال إن هذا حكيته للأمير حمزة فلم يع إليه بل حركه حب الانتقام إلى السرعة في العمل والآن وقد وقع ما وقع وما من وسيلة لإرجاع ما مضى ونريد منك دواء لجرح أخي قال سر أنت الآن إلى أول الوادي الذي هو بجانب الطريق وانتظر هناك إلى أن يوافيك خادمي ومعه قارورة الدواء فخذها منه واذهب إلى علاج الأمير لكن أريد منك أن تخبر العرب أن يرحلوا في هذه الليلة عن هذه البلاد ويقصدوا مكة المشرفة لأن الخبر يأتيهم من هناك والتوفيق ينبوعه من تلك البلاد المشرفة إلى أن يسمح الله بانقلاب النحوس وإياكم من البقاء في هذه البلاد والنواحي فتدور عليكم الدوائر فأخبره بما فعله أندهوق من الاتيان بمهردكار وقال له صار في وسعنا الآن البعد عن هذه البلاد وتركها لأن غايتنا التي نقاتل لأجلها قد حصلنا عليها وأموال كسرى كلها بيدنا فسر بزرجمهر من ذلك وأوصى عمر تكرارا أن يرحلوا في تلك الليلة إلى أرض مكة فوعده وذهب إلى أول الوادي المذكور .

وما أقام إلا القليل حتى جاءه خادم بزرجمهر بقارورةالعلاج فتناولها منه وانطلق يسعى إلى ان وقف في صيوان الامير حمزة فوجد الصياح قائماً من كل ناحية فقال لهم اسكنوا روعكم فما من خوف على أخي وقد اخبرني الوزير انه سيشفى من هذا الجرح ويكون له شأن عظيم بعد قيامه غير أنه طلب الينا بإلحاح أن نسافر في هذه الليلة ونبارح هذه البلاد حتى إذا اصبح الصباح تكون بعيدين من هنا ولابد لكسرى ان يتبعنا إلى بلادنا ليصادف شر عمله وتقدم من الأمير وسكب له على جرحه من ذاك الدواء وأخذ خرقه مبلولة ووضعها عليه ثم وضع له من القارورة في فمه واطبقه حتى استقر الدواء الى بطنه وفي الحال هدأ روح حمزة وطفأ اللهيب الذي كان يشعر به في كل جسده وقل

صراخه فوكل به مهردكار وأوصاها بالاعتناء به وأن تواصل وضع المرهم على الجرح وانسحب إلى ما بين العرب وأمرهم بالرحيل في الحال فهدوا الخيام وشدوا الأحمال وركبوا على خيولهم وساروا في الأول بكل سرعة وعاد إلى أخيه حمزة فرفعه على هودج ملقى على سريره واحكم له صنعته ليكون مرتاحاً ولا يتعب من السفر ولتبقى مهردكار عنده على الدوام تضع له المرهم وتسقيه الدواء مع اسطون الحكيم ومن بعده ركب الجميع وساروا وسار في الأخير عمر وبين يديه الأموال والأنعام وطلب من أندهوق بن سعدون والمعتدي وحامي السواحل وقاهر الخيل وبشير ومباشر ومعقل البهلوان وأصفران الدربندي والأمير عقيل ان يسيروا خلف الأموال ليكونوا في حماية الجميع .

وما أصبح صباح اليوم الثاني حتى كانوا بعدوا عن تلك الديار وغابوا عنها تماماً ولم يبق لهم قط من أثر فيها ورأت الأعجام خلو تلك الأرض منهم فدخلوا على كسرى وأخبروه بذلك وكان قد اجتمع إليه بختك وزوبين وفي نيتهم أمر الجيش بالقتال فلما عرف بذلك سر مزيد السرور وقال لبختك الوزير نعمت أيها الوزير وأحرقت النار ورح آبائك وأجدادك لأنك دبرت نعم التدبير فلو لم يكن الأمير حمزة قد قتل ومات لما رحلت العرب ولكن لابد من تأثرهم فيما بعد لنزع عنهم الأموال قال له سيكون ذلك بعد ان نفرح مهردكار على زوبين الغدار الذي خلصنا من شر هؤلاء الكفار الذين يعبدون الله ويتركون عبادة النار ذات الشرار . قال له هذا لابد منه وفيما هم على مثل ذلك وإذا بالخدمة قد دخلوا عليه يلطمون خدودهم وأخبروه أن ستهم مهردكار قد أخذت إلى العرب وأن الذي أخذها أندهوق بن سعدون وقد رمت نفسها عليه ووافقته على مبارحة القصر فأركبها وراءه ورجع بها بعد ان قتل كل من وقف في طريقه فلما سمع كسرى هذا الكلام أرغى وأزبد وقام وقعد واضطرب ووقع الغضب في وجهه واسودت الدنيا في عينيه وقال أما كفى العرب أن أخذوا الأموال وأخلفوا عليّ عمالي وضيعوا أكثر البلاد من يدي حتى حركتهم وقاحتهم اخيراً إلى أخذ بنتي مع أن أميرهم مات وعدم الحياة لكنهم قصدوا بذلك ذلي وقهري وإلقاء علي فاني سأتبعهم اين ساروا وفي أي طريق رحلوا وجرى مثل ذلك على بختك الوزير لانه يتمنى ان يقع زفاف مهردكار على زوبين الغدار في تلك الايام وينال الأمر الذي يطلبه فصادف عكس ما ظن ولقي عدم النجاح فانفطرت مرارته وكان اعظم الكل كدراً زوبين فإنه بعد أن ظن ان اللقمة وصلت الى فمه خطفت منه وترك كالكلب لا يعتنى به وقد طلبت مهردكار البعد عنه ووافقت العرب على البقاء معهم والمسير بينهم وكان مغرماً بها متعشق لجمالها على الخبر والسماع وقد علق قلبه بمحبتها تعلقاً عظيماً .

حتى صار يعد من العشاق لذلك قال لكسرى أريد منك يا سيدي أن تأمر في الحال بالمسير في أثر العربان قال هذ لا بد منه لكن بعد أن نزيد قوتنا ونعرف في أي طريق

ساروا . ثم إن كسرى بعث بالديادبة والارصاد لتسير في أثر العرب وترى أي طريق يقصدون . وأي ناحية يحلون فسارت العيون من خلفهم إلى أن أدركتهم على بعد شاسع وتأكدت أنهم يقصدون مكة ولذلك عادوا إلى كسرى وأخبروه أنهم يقصدون مكة وأن البكاء قائم من العرب على الأمير حمزة فقال حيث أن الأمر كذلك فلابد لي من المسير خلفهم واتباعهم إلى مكة وأهدم ذاك البيت وأدعه معابد للنيران وأفني قبائل العرب عن آخرهم لا سيما وقد ثبت أن حمزة قد مات وشرب كأس الآفات وبعده لا تقوم للعرب قائمة ولا تنتظم أحوالهم وأقام الأعجام في بلادهم مدة أيام وقد أخذ كسرى في ان يجمع الفرسان من كل ناحية ومكان ويهيء لهم العدد وينظم أحوال غزواته على بلاد العرب .

قال وأما ما كان من العرب فانهم مازالوا في مسيرهم مدة أيام وليال حتى وصلوا إلى مكة المطهرة وتنشقوا نسم عطر أرضها فانتعشت به أرواحهم وأرسلوا بالأخبار إلى الأمير إبراهيم أبي الأمير حمزة يعلمونه بقدومهم إلى تلك الديار . فلما وصلت إليه الأخبار كاد يطير من الفرح وخرج مع سادات مكة ولما التقوا ببعضهم البعض سأل إبراهيم عمر عن حمزة فأخبره أنه في الهودج مجروحا وأنه على أمل الانتباه فتكدر من ذلك إلا أنه شكر الله ودعاه لشفاء ولده وسلم على الفرسان والأمراء وعادوا جميعاً إلى مكة وهناك أنزلوا الأمير حمزة ومهردكار في بيت واحد وهي قائمة على علاجه تذرف الدموع الغزار على ما أصابه وما لحق به من الألم والوجع وتشكر الله الذي سهل لها ان تكون بجانبه لتحسن مداواته وتقاسمه التوجيع كل هذا وهو غائب عن الوجود وأسطون حاكم القسطنطينية يضع له المبردات ولا يفارقه ولما استقر حمزة على سريره في بلاد أبيه وارتاح من السفر جسمه شعر من ذاته براحة ففتح عينيه المرة الأولى ولفظ باسم مهردكار ثم نادى عمر وكان بالقرب منه وقال أخبرني عن أندهوق هل رأيته وهل رجع إليكم قال ها هو الآن بالقرب منك وقد أحضر لك مهردكار وهي أيضاً بجانبك فانظر إليها وإذ ذاك قالت له مهردكار لا كان يوماً رأيتك به مجروحاً أيها الأمير وإني أشكر الله الذي أنت بسلام وقد زال الخطر عنك فلما سمع الأمير صوتها وقع على قلبه أحسن مع علاج بزرجمهر ونظر إلى وجهها كئيبة عليه فقال لها لا تخافي علي فاني بخير وما من ألم أشعر به الآن فاخبرني هل أنت مسرورة بقيامك عندي . قالت هذه هي السعادة والاقبال اللذين اطلبهما ثم دنا منه اندهوق وهنأه بالسلامة وحكى له عن سبب غيابه فشكره على معروفه . وقال له هل لا تزال عساكر العجم مجتمعة قال كلا بل نحن الآن في مكة المطهرة وقد أرسل الوزير بزرجمهر يخبرنا أن نأتي بك إلى هذا المكان حيث أن العجم سيتبعوننا ويكون النصر لنا في هذا المقام وهاك أبوك وعرب مكة هنا ثم تقدم أبوه فقبله وقبل يديه .

وفي اليوم الثاني وجد نفسه براحة أكثر فأكثر فدعا بعمر وقال إني أعرف أن العجم

لابد لهم أن يسيروا في أثرنا إلى هذا المكان ولا يتركوا مهردكار والأموال في أيدينا وإن الذي يحملهم على ذلك زوبين الغدار وبختك الوزير ولا ريب أنهم يظنون أني مت قتيلاً وعليه فأريد أن تحصن المدينة وتقيم عليها الحراس وتدبر في كل ما يحفظها من الاعداء ولا تدع ما تعرضه يمضي بلا فائدة فأجاب طلبه وسار مع عياريه إلى تحصين المدينة بمعرفة اندهوق والمعتدي حامي السواحل وما مضت إلا أيام قليلة حتى صار الأمير حمزة قادراً على الجلوس ثم الوقوف ثم المشي ثم ركوب الخيل وقد عاد إلى صحته الأولى تماماً وكان اعظم سرور عنده قيام مهرذكار في يده وحصوله عليها وإن كان لم يتزوجها إذ ذاك وعاد إلى فرسان العرب فرحها ومجدها واملت بالخير والنجاح وأصبحت تنتظر قدوم الأعجام إلى تلك البلاد لتنتقم منها وتعدمها فرحها وسرورها وصار الأمير حمزة كل يوم يركب ويخرج إلى خارج المدينة ويوسع بالبراري والقفار وقد صفا له الزمان مدة أيام مع مهردكار وهو مجتمع بها يشكو إليها حاله وتشكو إليه حالها وكل منهما مسرور بما ناله من تلك السعادة المؤذنة براحة المعيشة ويتمنى قرب الزفاف وكان الأمير حمزة ويعرف من نفسه ان مهردكار لا تفاتحه بذلك حياء منه وخجلاً فأراد أن يريح لها بالها من هذا القبيل فقال لها اعلمي يا أعز الناس عندي إنك وجدك التي تسلمت نفسي وقدرت أن تجعلي أفكاري منحصرة بك مع إنك تعلمين أن الأميرة سلوى هي مثلك تنتظر الزواج بي وقد وعدتها الوعد الصادق إكراماً لأخيها لكونه من خواص رجالي وسادتهم وفرسان هذا الزمان الذين يندر وجودهم ولذلك أريد أن أعرض عليك أمراً واخبرك ان بقاءك عندي سيكون مازلت حيا غير أن زواجي بك لا يكون مالم يريح بالي من جهة أبيك ويصفو لي الزمان وإذا ساعدتني العناية وراق لي الزمان كما أريد وأشتهي جعلت يوم العرس من الأيام التي تضرب بها الأمثال في ما يأتي من ذاك الأجيال بحيث أجمع إليه كل غريب وقريب وأجعلك تفتخري على سائر نساء ملوك الزمان وساداتها والأعيان ويكفاني أن أراك في هذه الايام بالقرب مني وإلى جانبي تسمعين مني مثل هذا الكلام وتصغين إلي كحبيبة عرفت عن يقين أنها كلها لحبيبها وأنه كله لها ولذة المحادثة ولذة المشاهدة تسري في أقنية الجسم بما يجعله يشعر براحة اللذة من العافية وأطيب من التلذذ بالمنام عند اشتداد النعاس ثم أن الأمير حمزة بعد ان تأمل حالته مع خطيبته وشعر من نفسه بأنه مرتاح جداً وأن الكلام كان مما لا ينتظر وقوعه قبل ذلك الحين إلا بعد الزواج الذي دونه خرط القتاد انشدها فقال :

أرتنا الورد في حمر الخدود ... وقد حملته بانات القدود
ولا الجلنار بوجنتيها ... فبشرنا برمان النهود
أراشت حاجباً فرمت سهامها ... تشق قلوبنا قبل الجلود
يميتنا بالقوام إذا تثنى ... وبالدعج المكحلة الرقود

لئن قطع المهند دون غمد   فسيف اللحظ أقطع في الغمود
غزال نافر إن رمت أنسا   وكيف الإنس للظبي الشرود
له في لحظة آيات سحر   تريك الظبي يلعب بالأسود
رآء الغصن ثم سهى فلم لا   أتي من بعد ذلك بالسجود
ضللت بليل طرته ولكن   هديت بصبح طالعه العيد
شنيب الثغر معسول الثنايا   كحيل الطرف وردي الخدود
يدير لراح في الكاسات كيما   يريك الشمس في برج السعود
خطبنا بكرهاً في وقت أنس   فهل لك أن تكون من الشهود

وقد تقدم معنا الكلام في غير هذا المقام عما كانت عليه مهردكار من الحب الشديد والعشق الذي ما عليه من مزيد حتى كانت أشد من الأمير عشقاً وأقوى غراماً وأميل إلى الزواج واحفظ على المودة والوفاء وذلك لرقة قلبها ولطافة شعورها واحساساتها وإن كلام الأمير لها وإنشاده بجمالها كاد يلقي بها إلى الأرض ويذهب بعقلها من شدة الفرح والاندهاش وصح عندها ان تلك الساعة هي من الساعات التي يصادفها العابد المبرور في فردوس النعيم من العادة والراحة ولولا شدة الحياء لرمت بنفسها على صدره وألقت بكل ذاتها عليه إلا أنها قالت له والدمع الرقيق ينساب من جفنها فرحاً بما هي مشعرة به أي حالة أفضل لدي من أن اسمع على الدوام صوتك وأشاهد معنى حسنك وهذا الذي أطلبه وأتمناه منذ القديم إن كان بزواج أو بغير زواج وكفى المحبوب أن يتمسك بقول من قال :

سألته الوصل يوماً قال منعطعا   راجع سؤالك واحذر آفة الخطر
إن المحبة طبع الوصل يفسدها   وإنما لذة المحبوب بالنظر

ولا أريد منك ألا أن تبقيني على الدوام عندك وفي بيتك أشاهدك في الصباح والمساء وعلى الطعام وعند كل فرصة فما أراه منك من دلائل الحب وشواهد الميل وصفات الحسن البديع ولطافة الأخلاق الكريمة المطبوعة في ذاتك والتي تندر في غيرك تجعلني أحسب نفسي قد نلت فوق ما انا طالبة من السعادة والإقبال وتعلم لساني أن يردد على الدوام :

وشادن مادنا إلا وغازله   ظبي الكناس وحياه وفداه
الراح ريقته والمسك نكهته   والآس عارضه والورد خداه
والزهر مبسمه والدر منطقه   والبان عطفاه والرمان نهداه
والليل طرته والصبح طلعته   والبدر والشمس في الحالين عبداه
شهم به هام أهل الحي قاطبه   فكل ميت تراه فهو ارداه

يقول قلبي عداني سحر ناظره ياليت شعري من بالسحر أعداه
لا آخذ الله قلبي في محبته إذ حالة الحب عقباه ومبداه

وكانت تنشد بصوت متقطع وقلب خافق وماجاءت على تتمة البيت الأخير حتى انقطع صوتها وشعرت لقوة الحب واشتداد ما تحرك بها من الغرام بضعف ألقاها إلى الأرض فحن لها الأمير وتحركت كل جوارحه ودنا منها فرفعها إلى سريرها وتركها على حالها وخرج حزيناً من شدة حبها ونوى شفقة أن يتزوج بها بأقرب آن ليجعل حداً لبلواها ومصابها كيف كان الحال وتمنت نفسه في تلك الساعة أن يصل إلى أبيها وجيوشه فيبددهم وينتقم من بختك وينهي الحال بوقت قريب ومن ثم يزف نفسه عليها ويدعها براحة وطمأنينة وهكذا بقي عدة أيام إلى أن بلغه الخبر بأن عساكر كسرى قادمة إلى مكة المشرفة وهي كالجراد المنتشر وفي مقدمتها زوبين الغدار والملك كسرى ووزرائه وفي نيتهم أن يهدموا مكة ويفنوا العرب عن آخرهم فوقع هذا الخبر على قلبه مفرحاً وجمع كل الفرسان والأبطال في ديوان أبيه تحت رئاسة الملك النعمان وعرض عليهم ما بلغه من الخبر وقال لهم أريد منكم في هذه المرة أن تكون القاضية على الفرس فقالوا له أننا لمثل هذا ننتظر ونريد أن الزمان يساعدنا لنخدمك بكل ما نقدر عليه وسوف ترى منا ما يسرك لاسيما وأن في هذه المرة قتالنا عنك وفي خدمتك ودفاعاً عن بيت الله الحرام فقال عمر العيار أني أعرف النصر سيكون لنا لو كان الفرس بعدد سكان الدنيا غير أني أشرط عليكم شرطاً أن لا تباشروا حرباً ونزالاً ما لم يأمر الوزير بزرجمهر لأننا في المرة الأولى خالفنا فعاد علينا ذلك بالوبال ولو سمعنا منه وبقينا في حلب إلى أن أمرنا بالإتيان إلى المدائن لما جرح الأمير فهو محب مخلص لنا يرغب في نجاحنا ويحب العرب محبة الآباء للبنين وهو خبير عاقل عالم بأحوال الدنيا وما وقع بها ولذلك أوصاني أن لا نباشر حرباً إلا بأمره وعندي لولا قارورة الدواء التي اعطانا إياها لما شفي الأمير لأنه يعرف أن هذا الجرح كان من سيف مسقى بالسم فأعطانا دواء لا يمكن أن يعرفه غيره من حكماء الدنيا ومن كان مثله لا يخالف ولا يترك رأيه ومشورته فأجاب الجميع كلامه واستصوبه الأمير إبراهيم أبو حمزة وقال نعم إن الوزير بزرجمهر يخدم الدولة العربية على الدوام وهو الذي جاءني منذ ثلاثين سنة تقريباً وقال لي إن السعد سيخدم الغلام الذي يأتي منك ويذل دولة العجم ويثل عرش كسرى ويمهد طريق السلام في العرب فقد أعطاه الله من الحكمة مالم يعطه لغيره من حكماء هذا الزمان ومن اللازم ان لا تأتوا أمراً ولا تبدوا حركة إلا بإذنه فهو يعبد الله ويكرم جانب البيت الحرام فقال حمزة نعم هو مشيرنا ومخلص في محبتنا واني لا أخرج إلى حرب وقتال إلا باذنه وأمره وتدبيره وهكذا انصرف الديوان ان لا يباشر أحد حرباً ولا قتالاً إلا بعد مسير الأمير عمر العيار إلى الوزير بزرجمهر والاستئذان منه. قال وكان كسرى بعد ان جمع ما

جمع من العساكر وعدد ما عدد من الأحمال قال لبختك أني لا أحب أن أطيل الفرصة على العرب اكثر مما طالت وأريد ان أذهب إلى مكة واهدمها وآخذ بنتي بالرغم واستعيد الأموال التي كانت لي فاخذها من عمالي وابعدهم عن طاعتي قال افعل مابدا لك فاننا كلنا على حضر وصهرك زوبين بالإنتظار هو ورجاله وعسكره ويجب ان يكون الآن في أرض الحجاز حول المكان المقيمة به بنتك ليدك الحصون ويبدد الفرسان ويسترجعها من مغتصبيها وفي الحال ركب انوشروان على جواد من أحسن الخيول ورفعت فوق رأسه الرايات والبنود ومشت بين يديه العبيد والخصيان وحملت السلاح وضربت الموسيقات الفارسية وركب كل ذي قاووق وكان افرح الجميع زوبين الغدار لأنه أمل أنه سيوصل إلى المكان الذي به مهردكار فيأخذها غصباً عن كل من حولها وفي ظنه أن الأمير حمزة قد مات وهلك وان العرب قد تشتتوا ورجعوا مقهورين خائفين من بأسه وسطوته وهو لا يفارق بختك على الدوام وما برحوا سائرين أياماً وليالي حتى قربوا من مكة وتبينوها عن بعد وإذ ذاك طلب كسرى أنوشروان أن تطاف مكة من سائر النواحي وتحضر وتمسك عليها الطرقات وأن لا يترك رجل منها يهرب وينجو من الهلاك وبعد ان نزل واستقر به المقام قال لبختك حيث ثبت عندي مما رأيت ان العرب لا يزالون متجمعين في هذا المكان فأريد ان تكتب كتاباً إلى الملك النعمان وباقي الأمراء تأمرهم ان يأتوا إلى طاعتي ويقبلوا ركابي ويعيدوا إلي بنتي بالإكرام والشرف ويقدموا إلي الأموال التي أخذوها فأعفو عنهم واغفر لهم هذا الذنب العظيم الذي اذنبوه ضدي وإلا فاني ابيدهم عن آخرهم لا أدع واحداً منهم يخرج من هذه الأراضي سالماً فأجاب بختك طلب كسرى وكتب إلى العرب كتاباً يقول فيه .

(من الملك كسرى ملك ملوك الفرس وسلطان الأرض بالطول والعرض صاحب البند والعلم والسيف والقلم ومالك رقاب الأمم إلى الملك النعمان ملك العربان وأمرائها ومن هم في رفقته).

«بعد ذكر النار صاحبة الفعل العظيم والاقتدار التي عليها المعول في كل الأعمال وبها تروج الطعام وتصلح سائر الأحوال أقول لكم أيها القوم الذين تعدوا وجاروا وما حسبوا للدهر حساباً ولا فكروا بأن الملك كسرى الذي ملك أكبر اقسام الدنيا هو يقدر في كل آن أن يكبح قوتهم ويكسر شوكتهم اعلموا انه بعد موت أميركم حمزة ومن كان رجاءكم عليه لا تقوم لكم قائمة ولا يصلح لكم أمر ومن الحكمة والصواب ان تنظروا بأمر أنفسكم وتختاروا السلامة لها وذلك برجوعكم إلى الطاعة والذل فقد اغضبتموني وأخذتم بنتي من قصرها كسبية وهربتم بها غير حاسبين لعظمتي حساباً ولا فكرتم أن جيوشي هي كرمل البحر وأريد منكم الآن ان تعيدوها إليّ معظمة مكرمة وفي خدمتها

أكبر امرائكم مع الذي تجاسر على سبيها وأن تدفعوا إلي الأموال والأنعام التي اتيتم بها وجمعتموها من سائر البلاد ومن بعد ذلك تتفرقون وكل أمير منكم يذهب إلى بلاده وهو عالم أنه في قبضة الفرس وأنه من عمالهم وإذا اقتضت الحاجة الى خدمتهم أسرعت في الحال فإذا فعلتم ذلك عفوت عنكم وتركت ذنبكم حيث ان الذي كان قد جمعكم قد قتل ولقي شر عمله وصادف جزاء عناده وكبره وإذا امتنعتم زحفت عليكم بهذا الجيش العظيم وبددتكم كل مبدد وخربت هذا البيت الذي تكرمونه وتحجون اليه وتعظمونه ويكون قد جاء يوم العرب الأخير وحل زمن انقراضهم والسلام ».

ثم إنه دعا احد حجابه وأعطاه الكتاب وأوصاه أن يأتي بالجواب في الحال فسار حتى جاء مكة ودخل على الأمراء وهم مجتمعون عند الأمير ابراهيم أبي حمزة وفي صدر الديوان فخر الأمة العربية وسيد الكلمة البدوية ومذل أصحاب البسالة والشجاعة ورافع علم المجد على أهل البداوة والحضارة الأمير حمزة صاحب هذه القصة فلما رآه الرسول وقف مبهوتاً ينظر هل هو نفسه أو آخر يشبهه فادرك عمر العيار غايته وللحال قال له تقدم أيها العجمي وقبل يد أميرنا وسيدنا حمزة العرب كي تنال إنعامه وتحظي بالإقبال منه وإذا كنت تحمل له كتاباً أو كلاماً فابده في الحال فتقدم الرسول وسلم وخدم بين يدي حمزة ثم دفع الكتاب اليه فرآه باسم الملك النعمان فسأله أن يقرأه علنا فقرأه حرفاً بحرف فتأكد الجميع ان في ظن كسرى وقومه أن أميرهم قد قتل وهذا الذي حملهم عن المجيء في آثارهم وجعلهم يطمعون بالعرب وبقي الجميع سكوتاً ينتظرون ما يقوله الأمير حمزة إلى أن قال للرسول إن العرب قوم اعتادوا السعي خلف الفخار وشن الغارات وركوب الأخطار ولا يرضون الذل والطاعة بعد أن تسنى لهم ان يرفعوا ثقل نير الأعجاب ويحرروا أنفسهم من ظلمكم وظلم ملككم ووزيره بختك الخائن الغدار ولذلك أريد أن أفهمكم أني أنا الأمير حمزة قد عادت إلي قواي وشفي الجرح الذي غدرني به زوبين الخائن الغدار ولابد لي من الانتقام منه ومن ملككم وأصحابه قال اكتب لي الجواب يا سيدي بحسب ما أردت فاني أمرت به قال له ان لا جواب عندنا غير الحرب والطعان فبلغه ذلك شفاها ولك أنت الإكرام ثم أمر ان يدفع إلى الرسول ألف دينار .

فأخذها وعاد فرحاً مسروراً حتى وصل إلى بين يدي مولاه وقال له إن العرب يا سيدي بحالة فرح ومسرة لأن الأمير حمزة قد عادإلى حاله وهو أفاد ما هو كذا وكذا وأعاد عليه كل ما سمعه منه وما رآه . فلما سمع كسرى ذلك تكدر وشعر أن الأرض قد انطبقت على رأسه من الأربع جهات وأطرق إلى الأرض من شدة غيظه وأما بختك فإنه انفطرت مرارته ولو لم يكن مرتاباً بهذا الامر لوقع ميتاً إلى الأرض من جراء وقوع هذا الخبر بغتة عليه غير أنه لم يصدقه ولذلك أراد أن يفرج عن قلب كسرى بعض كدره فقال

لا يدخل عقل سيدي الملك صحة هذا الكلام فإن حمزة قد مات وساوى الذين هم في القبور اعوام . قال الرسول إني رأيته بعيني وشاهدته وإني اعرفه أكيد ومحقق ذلك .

فقال كسرى قد قلت إنه لا يعيش بعد جرحه أكثر من ٢٤ ساعة وها هو حي وسيلحق بنا من حربه الويل والعذاب . قال بختك ولا أزال أقول ما قلته فالأمير حمزة مات وهذا الذي رآه الرسول هو رجل أشبه به قصدت العرب ان تخيفنا به وتوهمنا أنه حي وهم قادرون على الخداع والتلاعب فيقلدون حالات الناس وصفاتهم. قال الرسول إني سمعت صوته حينما كلمني فهو صوت حمزة تماماً وقد انعم علي واعطاني الف دينار وسوف ترون صدق كلامي وما قلته الآن وكاد قلب بختك ينشق من إصرار الرسول على قوله وبقي صابراً إلى أن خرج الرسول وإذ ذاك قال لكسرى لا يهمنك أمر حمزة فإن كان حياً فسوف يموت وإذا نجا من المرة الأولى لا ينجو من الثانية والذي جرحه بالاول يقدر ان يقتله بالثاني وهو صهرك زوبين وكان زوبين حاضراً فما اسكته إلا ان يعد كسرى ويطمنه ويريح باله وهو أيضاً مرتاب بصحة بقاء حمزة واما بزرجمهر فإنه سر سروراً لا مزيد عليه بشفاء الأمير صديقه وأيقن ان النصر سيكون للعرب فيما يأتي .

وبعد ان انقضى ذاك النهار اجتمع بختك بزوبين على انفراد وقال له إن الأمر خطير وحرج فإن حمزة باق في قيد الحياة ويظهر لي أنك لم تجرحه وربما كان السيف لم يلحق بدنه أو ربما تكون موهوماو غلطانا من عنه فقتلت غيره من الفرسان قال لا بل هو نفسه والجرح مؤكد عندي لأن السيف تلوث من دمه وقد رأيته وعاينته غير أنه رمح كان لا يفعل نفس الفعل الذي قلته لي من أن حمزة إذا جرح به لا يشفي جرحه بل يموت بأقل من أربع وعشرين ساعة . قال إني متردد في بقائه حياً فإذا هو ميت وعندي أنك في الصباح تأخذ قومك ورجالك وتهجم على اسوار المدينة ونواحيها وتباشر وحدك القتال كي تظفر وتنال الظفر حيث يترجح ان موت حمزة مؤكد وإلا كانوا اخرجوا لأنه لا يصبر عن الحرب ولا يؤخره ويبان من حالة العرب انهم يريدون البقاء داخل البلد ذلك دليل على ضعفهم وعدم اقتدارهم على الهجوم .

فقال زوبين إني في الغد سأهجم برجالي الذين عددهم ثلثمائة الف فارس على المدينة فأدك اسوارها وأبدد شمل العرب ليعرف كسرى أني الفارس الاول في بلاده فلا يندم على تقدمي وعلى تزويجي ببنته وعلى مثل ذلك اتفق زوبين وبختك وقررا هذا الأمر وكان لا يزال يتخلل افكارهما ان حمزة قتل وان العرب بخوف عظيم وباتوا إلى الصباح وعند الصباح نهض زوبين الغدار من منامه وأفرغ عليه عدته ولباسه واعتلى على ظهر جواده ودعا برجاله ان يتبعوه إلى حرب العرب وسار وساروا في أثره .

انتهى المجلد الأول من قصة
حمزة العرب ويليه المجلد الثاني
وأوله : قال وكان عمر